رامون مايراتا

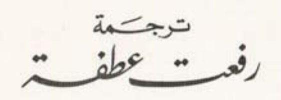
علي باي العباسي

«مسيحي في مكة»



المغامرة المنقطعة النظير للرجل الذي عاش
بتركيز المواجهة بين الشرق والغرب





ترجمة
رفعت عطفة



رامون مايراتا

علي باي العبّاسي

مسيحيّ في مكّة

المغامرة المنقطعة النظير للرجل الذي عاش
بتركيز المواجهة بين الشرق والغرب

رواية

ترجمة رفعت عطفة

• رامون مايراتا

• علي باي العبّاسي

• ترجمة رفعت عطفة

• الطبعة الأولى 1999

• الناشر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053

بالتعاون مع :
"La presente edición ha sido traducida mediante una ayuda de la dirección general del libro, archivos y bibliotecas del ministerio y cultura de España"

• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر

• الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر

• الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع

• التـــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 4490

عنوان الكتاب الأصلي:

Ali Bey el Abasi

مقدمة

علي باي العباسي أو الرحالة دومينغو باديّا (برشلونة 1767 مزيريب أو حلب، سورية 1818 أو 1822)

يُلاحَظ في الأدب الإسباني المعاصر أنّ هناك عودة إلى الموضوعات الشرقية، على وجه الخصوص إلى ما يتعلّق بالأندلس والعالم العربي، فأنطونيو غالا الذي كتب روايتين بهذا الخصوص، الأولى تاريخية:المخطوط القرمزي والثانية معاصرة: الوله التركي واللتين قدّمناهما لقارئنا العربي نظراً لأهميتهما في تقديم وجهة نظر إسبانية عن العلاقة بين الغرب والشرق: بين إسبانيا الكاثوليكية وإسبانيا الإسلامية في المخطوط القرمزي، وبين إسبانيا اليوم وشرق اليوم أيضاً في الوله التركي.

وإذا كان أنطونيو غالا أندلسياً ومشبعاً بروح قرطبة والحضور العربي الداخل في النسيج الحضري والاجتماعي الأندلسي، قد قدّم نوعاً من التوافقية العجيبة ليخلص إلى مقولة هي اليوم على غاية من الأهمية في إسبانيا، ومفادها أنّ الحرب التي دارت رحاها بين عرب إسبانيا المسلمين ولاتينييها المسيحيين إنما كانت حرباً أهلية، بمعنى أنّ التاريخ العربي الإسلامي في إسبانيا بدأ ولأوّل مرّة يُنظر إليه ـ على مستوى واسع ـ على أنّه جزء من تاريخها وجزء من ثقافتها ونسيجها الاجتماعي والفكري، لم يعد هناك، أو يُحاوَل الآن ألا يكون هناك تاريخان لإسبانيا: مسيحي لاتيني /عربي ـ بربري إسلامي، بل تاريخ واحد يضم الجميع. أقول إذا كان أنطونيو غالا قد فعل ذلك وهو

الأندلسي فإنّ رامون مايراتا، المدريدي والشاب نسبياً بالنسبة لأنطونيو غالا، فهو من مواليد 1952 ، قد تناول في روايته علي باي العباسي مرحلة متوسطة بين المرحلتين اللتين تناولهما غالا، لقد أخذ شخصية تاريخية حقيقيّة، أي من لحم ودم من نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، هذه المرحلة التي تعتبر بالنسبة لأوروبّة والعالم مرحلة مخاض وحروب ومصالح متعارضة، وجعله يكون مسيحياً ومسلماً في آنٍ معاً، يتماهى الواحد في الآخر، حتى إذا غلب أحدهما الآخر حصلت الفاجعة: الموت المقيت، الموت الناتج حكماً عن هذا الانفصال. إنّ علي باي (دومينغو باديّا)، ابن العسكري الإسباني، الذي يقدّمه لنا مايراتا بأمانة وصدقٍ، لا يستطيع أن يتحمّل تقديمه للقارئ على أنّه جاسوس أو عميل، وهي النقطة الرئيسية في العمل الروائي، إذ أنه خلال وجوده في المغرب العربي بمهمّة مُحدّدة من أمير السلام، لا يستطيع إلا أن يتفاعل مع الناس، فيشعر أنّ واجبه ليس تنفيذ المهمّة بقدر ما هو تقديم دستور يحدّد العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وهو في كثيرٍ من الأحيان ينسى مسيحيّته لصالح إسلامه الذي يعيشه في الناس ومع الناس. أعتقد أنّ علاقته مع زوجته المسلمة، التي قدّمها إليه سلطان المغرب، تعكس نبلاً، يصعب علينا أن نتصوّره في أوروبيي تلك الفترة.

يُقدّم لنا مايراتا التفاعلات التي كانت تعتمل في منطقتنا العربية، مغربها ومشرقها، وصعود التيار العربي في مواجهة التيار التركي، صعود الوهابيين في شبه الجزيرة العربية، التي صادف وجوده فيها خلال تأديته لفريضة الحجّ، حيث منعوه من زيارة قبر الرسول ومن تناول القهوة أيضاً.

من النقاط المهمّة أيضاً لقاؤه مع محمد علي باشا، الذي نعلم من خلال التاريخ أنّه أحسن استقباله، لكنه في الرواية طرده، فمحمّد علي لم يكن وهو الذي اطّلع على تاريخ علي باي في المغرب العربي، يستطيع أن يقبله في بلاطه الذي كان يعدّه للنهوض بمصر، إذ كيف يمكن لرجل طموح منهمك مثل محمّد علي بعد كلّ هذا أن يقبل إلى جانبه رجلٍ ينتمي إلى أسرة النبوة ويطمح إلى ما طمح إليه في المغرب؟ ألا يُشكّل خطراً عليه؟

أمّا في سورية فإنّ ما يلفت انتباهه هو النظافة والنهضة التجارية والصناعية التي تتعارض تماماً مع تطلّع الشاميين بحسب ما يقول وتلهّفهم لوصول الوهابيين. هذه النقطة التي تعكس مدى حالة التذمّر التي كان يعيشها الشاميون من سطوة الأتراك، واضحة تماماً في العمل من دون أن يقولها المؤلف بشكلٍ مباشر.

لقد استطاع رامون مايراتا، في هذه الرواية أن يقدّم لنا الغرب والشرق من خلال شخصية تنتمي إلى الغرب وتقرّر المغامرة العلميّة، التي تفشل في تأمين مستلزمات الرحلة حتى تقبل بمشروعٍ هو ليس مشروعها بل مشروع السلطة، أو طرفاً في السلطة: أميرِ السلام، فتنتمي إلى الشرق تكتيكاً، لكنّه يتملّكها يسرقها جزءاً من انتمائها لهذا الغرب، بحيث تأتي لحظات تنطبق فيها شخصية دومينغو باديّا على شخصية علي باي، وأخرى يتذمّر فيها أحدهما من الآخر، يرفضه.

إنّ رامون مايراتا قد يكون مرَّ بتجربة قريبة من تجربة دومينغو باديّا (علي باي)، ذلك أنّه أُرسل إلى الصحراء الغربية في مرحلة فرانكو حيث عمل هناك فترة خدمته العسكرية، بمهمّة كتابة تاريخ الصحراء. وهذا ما أكسبه معرفة الناس هناك والتفاعل ومعهم فكانت النتيجة أنّه تعاطف مع الشعب العربي الصحراوي، وكتب رواية. أعتقد أنّها من الأعمال الأولى التي تقدّم لنا المنطقة في مرحلة الانتقال من الاستعمار إلى الاستقلال: إمبراطورية الصحراء. والتي سنقدّمها إلى قارئنا العربي قريباً.

رفعت عطفة

الفصل الأوَّل

بلد المغرب الأقصى

بدأ ذلك الحلمُ في حصنٍ. أستحضرُ أياماً قصيّة عبر ذكرى والدي، الجاف والذهبيّ كالغبار، الذي تبرَّأت منه فيما بعد، متخلّصاً من كنيتيه، كما أتخلّصُ من ثوبٍ بالٍ وضيّقٍ جدّاً. كان يُدعى دونْ بِدرو باديّا وفضيلته الأساسيّة تكمن في نقيصته الأصليّة، في وفائه الراسخ، الذي راح يقضي شيئاً فشيئاً على كلّ فضيلة أخرى.

كان يشغلُ، عندما وُلِدْتُ في الأوَّل من نيسان من العام 1767 منصِبَ أمين سرِّ الإيرلندي دون بيرناردو أوكونّور فالي، صاحب أوفاليا، وحاكم قلعة برشلونة، المتحدِّر من سلالة الملوك الذين حكموا خلال قرونٍ ولايات كونّاشت الخمس، إلى أن قَصَرَ الاحتلالُ الإنكليزيُّ للجزيرة سلالتَهم على حنين للنبلاء المحليين المذعنين. التحقَ منذ نعومة أظفاره بالجيوش الإسبانيّة، مثل الكثيرين من نبلاءِ بلدِهِ، بهدفِ تأجيل غروب أسلافه.

صارَ والدي رجلَه الموثوق، رافقه كظلّه لعشرين سنة تقريباً في حكومات بامبلونا وبرشلونة وقيادة نافارا وقطلونيا والحكومات العسكريّة العامّة في قشتالة القديمة وساحلِ ومملكةِ غرناطة.

كان متوسّطَ القامةِ، صحيحَ البُنيةِ، خشنَ التقاسيم، توحي مجموعة ملامحه بطبيعةٍ قويّة، تعزِّزُها صرامةٌ دائمة، حيثُ يكتسي الحزمُ عناداً فظّاً، هو ثمرة توزيع تلك الأدوار الذي كان يجبره بدءاً من مستوى ثانٍ

خفيٍّ على تعويضِ ازدرائه لتفاصيل الأرستقراطي الإيرلندي، والذي كان يحتفظ لنفسه ببريق المناصِبِ ويحصره في حياةٍ بيروقراطيّة لا شهرة فيها ولا بهاء.

أتذكَّرُه مشغولاً دائماً، فالمعقلِ كان خاضِعاً لمراقبةٍ دقيقةٍ والثكنة من أكثر ثكناتِ شبهِ الجزيرةِ عدداً. أمّا السببُ فيجب استقصاؤه قبل خمسين عاماً، كنتيجة من نتائج حرب الخلافة، التي يدَّعيها لنفسه أرشيدوق هابسبورغ كارلوس، حيثُ اختار القطلانيّون الفريقَ الخاسِرَ. حين بقيت قطلونيا في نهايات الحرب وحيدةً ومعزولة في إصرارها حاصر الجيشُ البوربوني برشلونة بحنقٍ؛ فوجدَ سكّانُها أنفسهم، بعدَ مقاوَمةٍ قاسية، مُضطرّين لأن يفتحوا الأبوابَ أمامَ جحافل الملك فِليبٍّ، وأذعنوا رغم أنوفهم للتخلّي عن قوانينهم المحلِّيَّةِ وامتيازاتهم التي حكمتهم خلال عصر السلالة النمساويّة، واستبدلت على الفور بمرسوم جديدٍ، كان من بين تدابيره أنّه منحَ القائدَ العامَّ للجيشِ المنتصِر صلاحيّاتٍ واسعة. وصل الأمرُ ببعضِ القطلانيين حدَّ الاعتراف بأنَّ ذلك الرابع عشر من أيلول من العام 1714 تاريخٌ يشير إلى نهاية الأمّة القطلانيّة.

بعد فترةٍ قصيرة أُقيم على جانب من المدينة حصنٌ كبير على أنقاض ثمانمئة بيتٍ دُكَّت من حيِّ ريبِرا، الذي تميَّزَ بثباته خلالَ الحصار. صار معقلُ برشلونةَ يرمزُ إلى استسلامِ وهزيمة الشعبِ القطلاني. واتخذ المُهندس الفلامنكيّ جورج فيربوم، نفسه الذي أدار الحصار، على عاتقه رسم مخطّطات التحصينات الجديدة.

كانت أُمّي، كاتالينا لِبليخ، التي تتحدّرُ أسرتُها من فابريا، القريبة من بروكسل، على الرغم من أنّها استقرَّت في برشلونة منذُ القرن الماضي، تُدهَش حين تسمعُ من فم ضبّاط الحراسة البالونيّة يقولون إنَّ ملمحاً من العمارة الفلنديّة كان يبرزُ في تلك الحصون كما في أبنية الحراسة، فهي تحتفِظُ بحنينٍ مثالي لماضيها البعيد، الذي كان يطفو مثل الضباب فوق تعلُّقها العميق بالأرض التي شهدت ولادتها.

كانت قد تربّت على زهد الثقافة الذهنيّة التي تسود بين النساء الإسبانيّات. الحالة المؤسفة بالنسبة إليها أنّها كانت تعيش يُعذِّبُها الشكُّ بذكائها الطبيعيِّ ذاته، الناتج عن حساسيّة مرهفة وذكيّة. لا

يمكنني أن أنسى القلق الذي كان يثيرُه في وجهها الأثرُ الثقيل للجدران التي كانت حياتنا تجري بينها، والأحجام العالية وهندسة المباني العسكريّة المستفزّة التي تتجمّع حول ساحة السلاح، أمامَ قصرِ الحاكم.

كانت تتأمّلُ من نافذةِ مكتبِ والدي في الدورِ الرئيسي واجهةَ مستودع الأسلحة الجافّة بأروقتها الحجريّة والكفافَ الأجوف للكنيسة شبه الدائريّة التي تشقّها كوّة مراقبة. كنتُ أعرفُ أنَّها ستنتهي إلى الإمساك بيدي، كما في كلِّ مرَّةٍ تظهر تلك الرغبة المميَّزة في نظرتها وتجبرني على اللحاق بها خلفَ قبو مذبح المعبد، لنصعد درجات برج مراقبة كبير، حيثُ كانت ترفعني بين ذراعيها فوق شرفات البرج المسنَّنة وتريني من بين السطوح شرايين المدينة النابضة في جرح الساحات المفتوح. كانت برشلونة تنحدر من هضاب كُلِّثِرولا الخفيفة حتى البحر، وكنتُ أتأمَّلُ في الأيام الصافية كيف يتمرَّغُ خطُّ الأفقِ المتموّجِ في قبّة السماء المثقلة بالزرقة.

بعدَ سنواتٍ كثيرةٍ وكلّما التفتُّ بوجهي إلى ماضيٍّ كما إلى مرآة، بعد تفريغ عتاد ذاكرتي لأدركَ هذه العتبةَ الابتدائيّة التي ننفذ عبرها إلى وعي الحياة، أصطدم تأكيداً بنظرة أُمي تلك، التائهة في زرقةِ البحر، والبحر يبدو أنّه كان يعيدها من جديد إلى عينيها فيشبعهما بعمقِ زرقَتُهُ أكثر كثافة. منذ تلك اللحظة صار هذا هو المتوسّط بالنسبة إليّ: روحاً أُبْحِرُ فيها.

كانت الإيماءةُ الصريحة والمعبِّرة طريقةَ أُمّي في التعبير، لا تساعدها في ذلك الكلمات، التي ربّما كانت ستخونها. حياة البشر تنبسط مثل موجة وقدرهم ليس التفسخ مثل مياهٍ آسنة. في معسكرات المعقل كان يتكدّس خمسة آلاف وخمسمئة جنديٍّ سيّئو اللباس، فلباسٌ واحدٌ عليه أن يتحدَّى قسوة أربعين شهراً، هي مدّة الخدمة، وطعامهم أسوأ لأنَّ الثمانية أرباع اليوميّة التي تُدفع للجنديّ كان قد اتفق عليها قبل ربع قرنٍ، وأسعار الطعام لم تتوقّف عن الارتفاع منذُ ذلك الحين. يرقدون على خرقٍ من قشٍّ غير صحيّة، يدمّرهم اليرقان والاستسقاء شتاءً والحمّى المشؤومة وحرارة التعفّنات المعويّة في الصيف، والجرب في بقيّة الفصول. كثيراً ما رأيتها ترتدي دثاراً من القماش الخشن لتدير أعمال الكناسة ورصف الأرضِ وتهوية الغرف وتعريض

الفرش للهواء وحرق قمامة الوهاد الملوّثة، بينما يعزلُ حاملو النقّالات الجنودَ المرضى، بعدَ غسلهم بالماء وتدليكهم بالليمون وفركهم بالخلّ، والأطباء يؤمّنون لهم علاجاً أوّلياً من أقراصٍ مُقيِّئة، مذابة في الماء.

كانت تنتشرُ خارجَ أسوار القلعة مدينةٌ رائعة. فَعَلَ جِدُّ القطلانيين بالإجمالِ فِعلَه ضدَّ الفاجعة. راحت المصيبةُ الرهيبةُ التي أرهقت المدينةَ والأضرار التي أنهكت السكّان تتحوَّلُ إلى ذكرى بائسة. استطاعت برشلونة في طفولتي أن تصلح اقتصادها المُدمَّر، وتتذوَّق لحظةَ ازدهارٍ تغوص في ذكريات الطفل في حركة شوارع مدينةٍ قديمةٍ ضيِّقة ومتعرِّجة، يُسمَعُ فيها ضجيجُ آلات المعامل والورشات مختلطاً بأصوات المنادين الإنسانيّة.

كنتُ ألمحُ، بينما تأخذني أمِّي من يدي شاقّة طريقها بين غابة سيقان الكبار، وعبر أبواب المعامل نصف المفتوحة على مستوى كتفيَّ، اهتزازَ التروس الاسطوانيّة التي تحلجُ القطن، دورانَ الآلات الذي لا ينتهي لغزل ولفّ خيوط الصوف ودغدغات المكاوي المزخرفة لطباعة الحرير، تقدِّمُ مشهد ثوبٍ هائلٍ تنسجه المدينة بكاملها، التي يندمجُ فيها دأبُ النجّارين والصفّارين وصنّاع الأسلحة والصهّارين والمطرِّزين وصانعي مساحيق الزينة كعنصر آخر من عناصرها. لكنْ ما من شيءٍ يمكن مقارنته بمطحنة الشوكولا، حيثُ كان يستخدم رجلٌ راكعٌ ثقلَ جسده كي يزلقَ محدلةً منَ الغرانيت فوق الحبوب المكتنزة، صابغاً الهواء بغبار ناعمٍ أمغر مُعطِرٍ بأريجٍ وعدٍ حلو.

كلُّ ذلك الازدهار كان يُستهلَكُ في الميناء. الرملة، وهي الشارع الأعرض بشكلٍ أوضح من غيره، تنعطفُ في أحد طرفيها عن حصنٍ يمضي على طول أرصفة الميناء، منتصباً فوق أقواس في أعلى مخازن ودور صناعة. كنّا نتنزَّهُ عند الغروب على السور الذي كانت قارعته الداخلية المزدوجة تسمح بمرور العربات.

استعادت برشلونة ميناءها المتوسّطي المزدهر الذي كان لها في أزمنة أخرى. كانت سفنها الشراعيّة العالية تعاندُ الريح وتشقُّ الأقاصي، محمَّلةً بالأغواردييِنتِ، النبيذِ الأحمر والغارناتشو من ماتارو وبيلانوبا، والنبيذِ الأبيض من سيتْجِس وبالس، وبالجوز واللوز،

بالزبيبِ والفلّين، بالأقمشة الحريريّة والصوفيّة والشيت، وأنواع القطن المطبوع، التي كانت تعقد عليها أملَ انبعاث تجارتها وزيادة صناعتها.

كانت المشروبات الروحيّةُ والمحاصيل تذهب على الأفضلِ إلى جزيرتي غِرنيسي وألدِرنَيْ الأنكلونورمانديّتين، دائرةً حول الساحل الشرقي، متوغّلةً في الأطلسي عبر جبل طارق، بينما تبحرُ الأقمشةُ إلى جانب الورقِ والأحذية والصابون باتجاه المستعمرات الأمريكيّة، حيثُ بدأ احتكار قادش ينكسر. على الرغم من أنَّ هذه وتلك كانت تسلكُ أحياناً الطريق المحاذي لفرنسا حيثُ يهرّبها التجّار المحلّيون إلى إنكلترا.

كنتُ أشعرُ بميلٍ تجاه ذلك النشاط المحموم للميناء، الذي يخطفُ عينيَّ ولا يفلتهما حتى الأفق، مخلّفاً في مسمعي دويّ حشدٍ من أسماء مدن وبلدان جميلة الوقع ومجهولة. في واحدة من نزهات تلك الأمسيات فاجأتْ مركباً غريباً، راسياً قرب الرصيف وعلى ظهره يستلقي رجلٌ عملاقٌ محروقَ الوجهِ وقد غاص غليونٌ يصدر دخاناً في تجويف الشعر الذي يخفي شفتيه. كان مظهره مخيفاً وإحدى عينيه اختفت تحت الأهداب المتشابكة، دون أن تترك أيَّ أثرٍ غير تقعير داكن. لكنَّ دثاره كان وارفاً مثل حديقة، ويده الطليقةُ تداعبُ أسطُرلاباً زال بريقه ومنحته ضربةُ بحرٍ بعضَ قطرات ماء بدت نجوماً من فضّة.

كانت المرّة الأولى التي أسمعُ فيها اسمَ المغرب، المغرب الأقصى، بلد أقصى الغرب فَطَفَتَ مقاطعه منذ ذلك الوقت بنعومة تائهة في مياه خيالي التي كانت ما تزال ملساء وخالية من النتوءات. ذكر والدي في تلك الليلة كي يوضّحَ سببَ وجود ذلك المركب أنّ الملك كارلوس الثالث وقّع قبل سنوات، وبالتحديد في العام الذي شهد ولادتي، معاهدةً تجاريّة مع سلطان المغرب، سيدي محمّد بن عبد الله، ليضمن تزويده بقمح أقاليم ما وراء فاس الغنيّة وإبعاد الإنكليز عن تلك الأسواق الواعدة.

عادَ ذلك الإسم بعد شهورٍ ليلامس مسمعي بصوت مُقلِقٍ. قامت في بيتنا بعد العشاء المسامرة المعتادة التي يلتمُّ فيها بعضُ ضبّاط الثُكنة حول أبي. لاحظتُ حين ذهبتُ لوداعه قبل نومي أنَّ الصالة مزدحمةٌ أكثر

من أيٍّ وقتٍ مضى وتهتزُّ على جميع الشفاه شائعات حرب، منحتها حمرة النبيذ الدمويّة صبغة أكثر دُكنةً يلهبها ضوء جذوع المدخنة المضطرم.

بعدَ أيّام أعلنت نواقيس كنائس برشلونة جميعها الخبرَ، على الرغم من أنَّ ضجيج الآلات في الورش والمختبرات الطبيّة تخفي قرعها. هاجم المغاربة على حين غرّة معاقل سبتة ومليلة وجبل بلش أمام ساحل قمارة لكن لم ينجحوا. استطاعت المواقع صدَّ الهجومَ الأوّل، الذي أطاله الحصار الثلاثي الملتحم. لقد أعلن الملك الحربَ توّاً وراحت تُنظّم حملةٌ قويّة لكسر طوق الحصار.

الفصل الثاني

زحام العانسين

تسبَّبت تلك الحملة بأوجاعِ رأسٍ كثيرةٍ لوالدي، فقد اضطرَّ لأن ينشغل بتجنيد مقاتلين جددٍ في برشلونة. وكشف له فحصٌ دقيق للوضع بأنَّ الجيشَ، الذي قضى في تنظيمه أكثر فترات حياته جهداً وتركيزاً، كان غير ذي فائدة مثل يدٍ بلا أصابع؛ فقلّة القوّات مقلقة. فرقٌ كثيرة لم تستطع أن تجمع أكثر من كتيبة وبعضها لم يتمكن حتى من جمع كتيبة. فجيشه الورقيُّ هلك قبل أن يدخل النار. قدَّم ذلك الكشف له، وهو الرجل الذي لا طموح له غير القيام بعمله الإداري والبيروقراطيّ الدقيق، مرارةَ هزيمةٍ بلا مجد.

في الطريق أدركت المذكِّرة المشؤومة التي حرَّرها كونت ريكلا، وكان ما يزال قائداً عامّاً لبرشلونة وانطلقَ توّاً باتجاه البلاط ليتسلّم منصب أمانة حرب جلالته. وما إن استلم منصبه الجديد حتى تجنّبَ الحكمة المكتسبة أحياناً بهمٍّ وكدر السنوات الخمس التي أدار فيها أمورَ قطلونيا. سيِّرَ، وقد أثقلته الضرورةُ الملحّةُ لنجدةِ المواقع المُهدَّدة وأثارته السهولة التي تُفْقِدُ فيها المسافةُ مفعولَ القراراتِ والأعمالِ العاجلة، بريداً مستعجلاً يتضمّن أوامر قاطعة للسيِّد أوفاليا، الذي حل محلّه بشكلٍ مؤقّت في القيادة العامّة بمقتضى كونه حاكم القلعة. ألحَّ ريكلا على التجنيد الفوري لألفين وأربعمئة رجلٍ بقرعة الخمسة، الإجراء الذي حلَّ محلّ نظام التجنيد الطوعي أو الإجباري القديم في

بقيّة ممالك شبه الجزيرة، الذي قاوم القطلانيون إدخاله في الإمارة بعنادٍ قبل ستّ سنوات متذرّعين بأنّ طريقة الخمسة تشكّل كارثة على ازدهار البلد فهي تحرمه من أكثر الشباب قوّةً وأهليّةً للزراعة والصناعة والفنون. فالفتيان النافعون ما بين السابعة عشر والسادسة والثلاثين عليهم أن يتخلّوا عن مهنهم ليخدموا في الجيش فترةً لا تقلُّ عن خمس سنواتٍ، وتُمطُّ حتى الثمانية أعوام بالنسبة لمن هم أكثر شباباً.

وما إن انتشر خبرُ اجتماعِ مجلس المدينة بناءً على تعليمات الكونت الجديدة، لتحضير قوائم المُجنَّدين بحسب الأحياء، حتى امتلأت المدينةُ بالمناشير التي تدعو للتمرُّدِ. عيّنة من تلك الأوراق الطيّارة اجتازت جدران القلعة ووصلت إلى يد السيِّد أوفاليا.

كان الحاكمُ يستعدُّ في تلك اللحظةِ لتناول فنجانٍ من الشوكولا يتصاعد منه البخار، وبينما هو يقرأ الورقة احترقت شفتاه فبصق على السجّادة. كان قد ارتدى نصف ملابسه. أدخلَ بعنفٍ القسمَ السفليّ من الجبّة القرمزيّة في الجورب الأزرق، المشدود على جسمه. انتعل الجزمةَ بمساعدةِ خادم، وبينما كان يتبعه هذا ويلوّح له بالسترة التي نسيها كأنّها علمٌ، غادرَ غرفةَ النوم واجتاز الممرَّ بخطواتٍ واسعةٍ وانتهى إلى مكتبه حيث شدَّ حبل الجرس.

حين مثلَ والدي في حضرته كان الإيرلندي يزمجرُ بلغته الفجّة والقديمة ووجهه إلى النافذة التي تُلمَحُ منها الواجهة الحجريّة لدار الصناعة، رافعاً الورقة مثل جُذاذة مشتعلة ومُهدِّدة. كانت العلاقة بين الرجلين مثل علاقة الماء بالنار. سارعَ والدي إلى رفع الملفّات التي وضعها في ذلك الصباح ذاته على الطاولة ليضع توقيعه عليها، تماماً قبل اللحظة التي دار فيها الحاكم ليفرغ على الطاولة ضربة رهيبة من قبضته. نطّت المحابِرُ واهتزَّ مرقم في الهواء مثل سمكة وجدت نفسها فجأةً خارج الماء.

ـ ماذا تفعل بكلِّ هذه الأوراق على كاهلك، يا باديّا؟ لا تقل لي إنَّكَ تُفكِّرُ أن تعمل واحداً من مِلفّاتك التي لا نهاية لها! ـ زمجرَ بقشتاليّةٍ حادَّة وحارّة وهو يُخبر والدي المتأبّط رزمة الأوراق التي سحبها توّاً عن المكتب. كثيراً ما كان يُحبُّ أن يُظهِرَ احتقاره لطبيعة مرؤوسه

الجبانة والمتمسّك بحرفيّة القانون، الذي هو المسؤول الرئيسي عنه، فهو بهذا الشكل يُعلي من كونه رجلاً شديداً وحازماً ـ كيف تستطيع أن تفكرَ في مثل هذه اللحظات بالشكليّات والمجاملات؟ لا! ليس من الضروري حتى أن يجتمع المجلس. إذا لم يسلِّمني السكّانُ المسؤولين عن المكايدات مكبّلي الأرجل والأيدي فإنّني سأقوم بما سيكون عبرة لمن يعتبر. فمن لا يخضع لحكم القوانين سيخضع لحكم السلاح.

أرعبَ عنفُ صراخه والدتي التي هُرِعت تحملني معها. معاً توقّفنا في باب المجلس. تهديدات القائد الوحشيّة تستحضرُ إلى ذاكرتها تأوّهات الأقرباء والأصدقاء والجيران حين تذكّر العذاب الذي حلّ بالمدينة بعدَ حرب الخلافة، وتجدّد الخوف من تجدّد تلك الأحداث الرهيبة، الذي لم يتبدّد كلّياً قط. بحثت عيناها الزرقاوان الواسعتان عن عيني والدي باللهفة ذاتها التي كانت تشدُّ بها على يدي وتولّدُ على شفتيَّ أنّة ألمٍ. لكنّه تهرّب من النظر إليها وغرز نظرته فيَّ. حين شعرتُ بتعابير وجهِه الجهمة والمكفهرّة التي تتوسّلني أن أصمت كبحتُ على الفور أنيني، ربّما خجلاً من ضعفه وعجزه بالذات.

أغفل أوفاليا بازدراء المنشور على مكتبه، بعد أن ارتمى على كرسيّ ومسح العرقَ عن تقاسيمه المنقبضة بمنديلٍ قطنيٍّ أحمر. أخذه والدي بيديه المرتعشتين وقرأ بذهول، ولطختا بؤبؤيه الرماديّتان والباهتتان لا تكادان تُطلاّن من بين أهدابه التي أثلمها الارتباك والخورُ. أضاءت بعد برهةٍ ومضةُ نورٍ عمقَ محجريه المطفأين، المستغرقين فجأة بالقراءة.

ـ يا صاحب السمو ـ همس أخيراً بصوتٍ متقطّع وحزين، بينما عيناه تتشرّبان يأسَ أمّي من خلال باب المكتب المفتوح ـ تفاجئني سلامة تحرير هذا النداء.

ـ ما الذي تبغي التلميح إليه، يا باديّا؟ ـ استعجل أُوفاليا بعجرفة، فقد كان ينتظر قلقاً منذ برهة طويلة الموافقة غير المشروطة على تبجّحه. كان عسكرياً ثريّاً، يتأجّج حماسه في العمل وتكهّن في ذلك الصراع بفرصة تجديد زخم دمه، المكبوح زمناً طويلاً خلف أسوار القلعة السميكة التي تراقب مدينةً هادئةً وسعيدة.

ـ برأيي، يا صاحب السمو، أنَّ هذا المنشور من عمل ناس

متمرّسين، وليس من عمل ناسٍ أجلافٍ ومتكسّبين لا أفق لهم غير التمرّد - ردَّ والدي بصوت صار فجأة واضحاً وشديداً. وأضافَ بحذرٍ - ربّما علينا أن نطالب بإرضاء رؤساء النقابات قبل أن نتخذ إجراءات مشدَّدة أخرى.

أنا واثقٌ الآن، بعد سنواتٍ طويلة، أنه حين انطلق والدي نحو لا لونشا دِل مار، بعد أن حصل على إذن أوفاليا، لمقابلة ممثّلي النقابات، حمل معه صورةَ وجهِ أمّي، منقوشة مثل علامةِ حديدٍ حامٍ، الوجه الذي كانت تسمحُ شفافيّة الدموع برؤية ذلك الألم الأوّلي الذي تعانيه ويتمكّن أحياناً من الكائن البشري، غير القادر على فهم أسباب ودوافع الشقاء الذي يشعر به قريباً وحتمياً.

كان يوماً رصاصيّاً ورديئاً. خرجنا معاً من القلعة، على الرغم من أنّ اتجاهنا كان مختلفاً وتقاطعنا بصمتٍ في شوارع المدينة التي تفوح منها رائحة خزامى مخزّنة ومحروقة في المواقد. تابعنا أنا وأمّي طريقنا باتجاه دير الدومنيكانيين، الذي لم تنقطع عن اللجوء إليه في أحرجِ لحظات حياتها. رأينا قبل ذلك والدي يختفي بين أعمدة رواق لا لونشا الدوريّة، المشغولة حديثاً مثل ازدهار المدينة المجدَّد والملحقة بالبناء القروسطي القديم، الذي احتفظ حتى ذلك الوقت بنبضِ ازدهارها التجاري خلال سنوات التدهور.

كانت مباحثات معقّدة، حافلة بسوء الفهم، تلك التي سمعتُ والدي فيما بعد يروي تفاصيلها ألف مرّة وفي كلِّ مرّة يتعقّب أثراً من ماضيه يلوذ به هرباً من حاضره البيروقراطي، البارد والجامد مثل قبر. حضر إلى الموعد يرافقه طالب ضابط من رماة القنابل وآخر من الفرسان، اللذين يرمي إلى تقديمهما كنموذجين للتفاني الذي يجب أن يحتذى في الالتحاق الضروري بخدمة القوّات المسلحة دون أيّ تعويض آخر غير مجدِ خدمة الملك. كان يشعر بالاعتزاز بهذين الفتيين، القادمين من النبلاء القدماء، المرتبطين بأرضهم ويحلمون بشراء سراياهم الخاصّة، معرّضين للخطر الإرث الذي سيرثونه ذات يوم. كانت تلك طريقة معتادة في الجيش. كان الشباب النبلاء يخدمون تلاميذ ضبّاط ويعملون في الفرق بصفة جنود متطوّعين في مرحلة مبكِّرة من العمر ليتدرّبوا على فنّ الحرب ويعتادوا على الأعمال العسكريّة. وبعد اثني

عشر أو أربعة عشر عاماً من ممارسة حياة الجندي المحض، وإذا ما طابق سلوكهم ما ينتظَرُ من منبتهم ومتطلّبات دمهم فإنَّهم يُخَصّون بشرف رفع علم في جيوش الملك مع شعار الفرقة. وكان منصب حامل الراية يتمتّعُ باعتبارات درجة الشرف المحضة، دون أيّة صفةٍ قياديّة أو مرتّب غير شرف القيام بمثل تلك المهمّة البهيّة. ولا يطمحون إلى وظيفة ملازم ثانٍ إلا عندما يحدثُ شاغر، وهي الخطوة الأولى في سلّم الضبّاط، بالتّنافس مع جمهرة من الطامحين، المتلهّفين مثلهم للتخلّص من سترة الجنديّ المتواضعة وإشاراته السطحيّة. حتى أنّ من كانوا يملكون المالَ وقلّة الصبر يقرّرون شراء سريّة ما إن تسنح الفرصة بتلبية تطلّعاتهم. كان الشرف، المترسّب في عقولهم مثل ضباب كثيف، يسمح لهم بالإبحارِ في سفينة معنى الواجب دون أن يسألوا أبداً عن الاتجاه.

وقفَ أمامهم ممثّلو النقابات. كانوا رجالاً أشدّاء، معتادين على المباحثات الشاقّة، لكنّهم بدوا في ذلك اليوم وكأنَّهم جالسين على جمر، لا يكادون يرتفعون إلاّ على حافّة الكراسي، الملتهبة بالقطيفة الحمراء، والتي تُحيطُ بطاولة المباحثات. وحده الصائغ أغوستي بيدال الضخم ملأ راسخاً كاملَ مقعده. كانت يداه تدوخان فوق مقبض عكّازه، عكّاز المصاب بالنقرس، وعلى كرشه المفرط بالسمنة ترسم أزرار الصدّارة خطّاً ملتوياً ومضطرباً، مشدوداً ومتعرّجاً. يمكن القول إنّه كان يكبو، تتقطّع بين شفتيه، من حينٍ لآخر، تنهيدة وعيناه البقريّتان تنشطان لحظة، وتسبحان حتى سقف الغرفة العالي، بعد أن تخلّفا على وجهه أثر ابتسامة واضحة وطيّبة.

كان ممثّلو النقابات قد تآمروا على أن يكون بارتومئو أمات من يعرض مطالبهم، محتمياً بصفته أمين سرِّ المطران كلِمنْث ، رئيس الأبرشيّة. ارتجف صوته وارتفعت شفته العليا مثل كلاّب فوق الشفة السفلى وكأنّه يحاول أن يوقف كلماته الخائفة.

ـ حتى هذا اليوم، يا سيّد ـ نجح أخيراً بالقول ـ أُعفي من الخدمة المعلّمون صانعو الصوف والحرير، وإذا بدا إعفاء بقيّة العمّال والصنّاع غير مناسب فليسمح لنا كونت ريكلا، على الأقلّ الآن، أن نستبدلهم بمتطوّعين ما دام الفتيان من أبناء الإمارة أو على الأقل من أصلٍ قطلانيّ.

- ماذا يحدثُ لكم؟ هل تملّككم شيطان؟ - قاطعه والدي بغضب. دوّت كلماتهُ البليغة والساذجة والمتوعِّدة، في آنٍ معاً، في فراغ صالة تعاقدات دِ لا لونشا حيث كانت تنسجُ عادةً لغةً مختلفة تماماً عقوداً وتضبطُ أجرة باخرة وتقدّم ضمانات بحريّة - ألم يستوقفكم أنّ مكانة العمل العسكريّ عند جميع الأمم من الرفعة بحيث تتباهى به أرقى طبقات النبلاء والوجهاء والسادة ؟ هل ما يثمّنونه هم على أنّه الشرف الأعلى يجب أن يشكِّلَ حملاً لا يحتمل بالنسبة لمعلّم صانع صوفٍ أو مجرّد صانع نجّار؟ كيف تستطيعون أن تنظروا إلى أنّ التلويح بالمنشار والقدّوم أشرف من السيف؟

بلّل أماث شفتيه بسرعة ودمدم بنبرة اعتذار:

- آسف لأنّكم فهمتم من كلماتي ملمح احتقار تجاه ممارسة العمل العسكري. لم يكن هذا قصدي، لم يدفعني إلى النطقِ بها إلاّ قناعتي بأنَّ تقدّمَ الزراعة والصناعة وهدوء المنطقة السياسي ينصح بألاّ يُحتقر التجنيد الطوعي. صناعة القطن وحدها تشغّل أكثر من عشرة آلافِ عاملٍ في برشلونة وأكثر من الضِعف في كامل الإمارة.

- لا أُخفيكم بأنَّ عقليّتكم الحسابيّة تقلقني - أكّدَ والدي، رافعاً نبرة صوته ومحاصراً أماث بنظرته - وتفاجئني الطبيعيّة المدهشة التي تريدون أن تختصروا بها مسألةَ شرفٍ بقبضة من الأرقام والمصالح. هل ظهرت في قطلونيا طبقة جديدة من الرجال نسوا، مدفوعين بازدهار النشاطات التجاريّة والصناعيّة، واجباتهم تجاه المَلكيّة؟

وبحركة فظّة أخرج من سترته نسخة المنشور الموزَّع في ذلك الصباح ذاته في المدينة وفضّه كاتهام.

- قرأت مفاهيم مكتوبة في هذه الورقة شبيهةً جدّاً بهذه التي عرضتموها توّاً. هل هي مسألة مُصادفة؟ هل ترفضون الالتزام بالقوانين ومقاصِد المملكة، المتّفقة مع إرادة الله؟ قولوا لي في هذه الحالة: ما هي المبادئ الأخرى التي يمكن أن تحكمَ شرف الرجال كريمي المحتِد؟ - توقّف كي يقيس تأثير كلماته وحرَّك المنشور في الهواء - أريدُ أن أعرف من هم أصحاب هذه المطالب وأطالبكم بأن تُرافقوا النواب في مهمّة الاستنفار وفي قرعة الخمسة اللاحقة.

ظنَّ أنَّ إرادة أولئك الرجال تنوس مثل تلك القطعة المرنة من الورق التي كانت تهتزّ بين أصابعه.

ـ بماذا ستجيبونني؟ ـ أصرَّ.

لكن شيئاً لم يحسب حسابَه حدثَ. غادر الصائغ أغوستي بيدال كرسيَّه وبقي واقفاً، يحرِّكُ يديه فوق بطنه السمين دون أن يتمكَّن من الانتصاب تماماً. كان قد شاخَ وله طلعة كوميديّة تُذكِّرُ بالممثلين الذين يلعبون دور الظرفاء في الكوميديا. نظر بالتتالي إلى كلِّ واحدٍ من الحضور. ثمَّ هزَّ رأسَه وشرع يتكلَّم.

ـ لا نستطيعُ أن نرضيكم، يا سيِّد. الخدمة أطول من اللازم وساء ما نعملُ لو أغمضنا عيوننا عن الأخطار وعن السمعة السيئة للحياة العسكريّة.

أثارت بداية مداخلته ذعر رفاقه، لكنَّ نبرته جعلت تلاميذ الضباط، وكذلك والدي، يبتسمون، بل إنَّ والدي بالغ قليلاً ليخفِّفَ مما يمكن أن تنطوي عليه كلماته من مرارة.

ـ مخاطرها أكيدة جدّاً، يا سيِّد ـ تابع ـ وفيها يكمن الشعور العام الذي يخيف ويرعبُ كلَّ أبناء هذه البلاد. ليست المصالحُ هي وحدها التي تُحرِّكُ تذمُّر كل المتخوّفين، وهم على حق، الذين ينتظرون أن تصلَ الساعة التي ستجبرهم فيه قسوة الحظ على التخلِّي عن أحد أبنائهم، الذين تربوا في أحضانهم الوديعة. أليس من الخطأ الفظيع أن يرى أبناؤنا أنفسهم، بعد أن يغادروا حالة أو طريقة العيش التي خصّهم بها آباؤهم أو العناية الإلهيّة، مجبرين على سلوك طريق بعيد كلَّ هذا البعد عن فكرهم ومتناقض مع الحياة التي بدؤوا يتشكّلون في كنفها؟ هذا النوع من الفتية، أيُّها السيِّد، وإن كانوا منغمسين في الفن والعلوم التي وقفوا حياتهم لها من غير المعقول أن يستطيعوا تحمّل نير ظروف الجندي الثقيل أو المشاقّ الخطيرة التي تنتج عنها. وبالتالي فإنّهم سيهلكون مستنفدين قواهم في مشفى ما أو لن يفيدوا إلا في إعاقة الجيش. قاسٍ القانون الذي يقطع خيط حياتهم ومشاريعهم من السابعة عشرة. وحتى الخامسة والثلاثين، وينقلهم من الوضع الذي اختاروه إلى وضع الجيش الذي لم يحبّوه قط.

كان من الصعب على تلك الكلمات أن تخترق من تلقاء ذاتها قلبَ

والدي الذي أثخنه الواجب، وفوجئ، على الرغم من ذلك، في نظرة العجوز الحزينة بالقلق ذاته الذي يسيطر على عيني أمّي، وهي تتأمّلُ مغمومةً مصائب ومصير الشعب. منذ تلك اللحظة وهبت كلمات الصائغ بلاغتَها لذكرى نظرة والدتي الصامتة والغامضة، التي أعماها الألم واضطرَّ مزاجه، مزاج الموظفِ الصارم، أن يتخبَّط بين ولائين.

ـ لسنا مستعدّين لأن نصادق بحضورنا ـ خلص بيدال ـ على قانون يشكل حكماً بالموت على أولادنا ويزرع البؤسَ في بلدنا. ما هذا القانون الذي يسلبنا أكثر الأيدي والعزائم مهارة في الزراعة، الفنون والعلوم؟ ما هذا القانون الذي يُطالبنا بالتنازل عن المؤسّسات النشيطة التي نبني عليها ازدهار هذه العاصمة والمقاطعة التي لا يمكن أن يقارن دأبها بدأب الشعوب الأخرى؟ لا أظنُّكم تريدون، أيّها السيِّد، أن تهدموا بضربة واحدة ما شُيِّدَ في المخاطر بحماسة وبسالة.

انتظر جميع المجتمعين في الصمت العميق الذي تبع مداخلة بيدال ردّاً فوريّاً وحاسماً من والدي. كان ممثِّلو النقابات على وشكِ أن يرتموا عند قدميه كي يتوسَّلوه الرأفة بمدينةٍ عهدت بقدرها إلى كلمات عجوزٍ طائش، بينما تحوّل الاستهزاء الأوّلي عند الطالبين الضابطين إلى انزعاجٍ، وانتظرا إشارة من قائدهما ليشهرا سيفيهما.

ومع ذلك لزم والدي الصمت. وبعد برهةٍ كسرَ أماثُ الصمتَ بعصبيّة كبيرة كي يؤكِّد أنّه يترجم شعور الجميع حين قدَّم مبلغاً لاكتشاف مؤلّفي المناشير، لكنَّه أضاف أنّه مقتنع بالعيش في مملكة يحكمها ملك ينزع إلى الرحمة وهو ما يجعله يتجرَّأ على توسُّله، كممثّلٍ له، كيلا يُجبرهم على المشاركة في التجنيد الإجباري.

قرأ والدي بصوت مُحايدٍ مبلغَ الغرامات التي يخاطرون بدفعها في حال المُخالفة. لم يُظهر أيَّ انفعالٍ حين تلقّى الجواب الفوريّ من فم بيدال، الذي عاد وأكّدَ أنّهم يفضّلون دفعَ أيَّ مبلغٍ مهما كان كبيراً علَى أن يتحوَّلوا إلى جلاّدين لشعبهم. وعلى الرغم منْ ارتباك الطالبين الضابطين، قَبِلَ والدي المصالحة ببرودة وختم الاجتماع.

ما إن عاد إلى القلعة حتى حاولَ أن يبلغَ الحاكمَ بالحالةِ المعنويّة للمدينة التي شعر بها من خلال ممثّلي النقابات. لكنَّ سيد أُوفاليا لم يقبل الاهتمام بنتائج المباحثات.

- هل أمسكتم بالمسؤولين؟ هل هؤلاء الخونة على استعداد للتعاون مع التجنيد؟ - استقصى، قلقاً، بخيلاء وصرامةٍ مُفتَعَلة.

أذعن والدي على الفور معتذراً بإيماءة لامبالية وصوتٍ طفوليّ. لم يبغِ أوفاليا أن يسمع أكثر، على الرغم من شعوره بالعظمة، وهو المسكون بانفعال معركة باتت جليّة، وخصّه بجملة أرادها أن تكون لطيفة بتفاهتها.

- اعتدالكم ودأبكم، يا باديّا، أداة عافية وفائدة كبيرة في الأيّام العاديّة، لكن لا نفع منها في الظروف الصعبة التي وحدها القوّة والاندفاع تمسك بنبض المصير.

استدار على كعبيه مديراً ظهره لوالدي وبحث عن مستمعين مناسبين أكثر لتلهّفه للمجد. فتح باب صالة الانتظار، التي ينتظرُ فيها نوّابُ المدينة، على مصراعيه، وطلبَ منهم كأنَّ الأمر يتعلَّقُ بجيشٍ مُتعبٍ من الدخول في المعركة الخروجَ إلى الشارع دون تأخّر، يُساعدهم مخاتير الأحياء لإغلاق قوائم القرعة.

دفع حضوره على الفور الفتيان الذين في عمر التجنيد إلى مغادرة بيوتهم. اجتمعوا في صفوفٍ طويلةٍ تزدادُ دون انقطاع وتطول مثل أفاع هائجة في الشوارع الضيِّقةِ وتقودهم إلى الكاتدرائيّة. كان صخب المطارق وآلات الورشات يتوقّفُ عند مرورهم ليحل محلّه صخب الحشودِ الأجش.

دخل أكثرُهم فطنة إلى المعبد دون أن يعيروا انتباهاً لتحذيرات المجلس الكنسي، وفتحوا باب برج الساعة بالقوّة. وهناك قرعوا الناقوس قرعَ «سوماتِن» مؤسّسة البلد القديمة المعروفة، حين كانوا يدعون السكّان لحمل السلاح والدفاع عنه، ولم يُسمع لها مطلبٌ منذ أن حلّها فِليبٌ الخامس قبل خمسين سنة. في الوقت ذاته تقريباً بدأت تسقطُ أمطارٌ عنيفة ومتواصلة فوق المدينة التي أُغلقت دكاكينها بالقفل والمفتاح وسارع الرجال البالغون والعجائز للبحث عن ملاذٍ لهم ولأسرهم.

كانت أمّي تُصلّي راكعة على ركبتيها على بلاط رواق كنيسة الدومنيكانيين البارد، وأنا إلى جانبها ضائع النظرة في الظلمة التي تلفُّ الصور. في ضوء تلك الكنيسة الباهت، التي طالما رافقتُ أمّي

إليها، تعلّمتُ التعرّف على سرّ الربّ دون وجه، وهو ما سيسمح لي برفع الصلوات بصراحة مماثلة في مسجدٍ أو كنيسٍ أوٍ مصلّى كاثوليكي. ريحٌ قارسة كانت تسوطُ أيدينا المتضرّعة في كلّ مرّة يُفتح فيها بابُ الكنيسة الكبير.

امتلأ المعبدُ فوراً بالحشود التي تهربُ من البلبلة التي أخذت بخناق المدينة. وكانت تدور شائعات مفادها أنَّ الحاكمَ أمر توّاً بإغلاق الأبواب الخارجيّة لمنع الفتيان الذين سيُقْتَرَعُ عليهم من الهروب.

كانت أميّ خلال ذلك متردِّدة. لم تكن واثقة من المكان الذي يخصّنا. هل علينا أن نعودَ إلى القلعة أم نشارك الشعب مصيرَه؟ هل علينا أن نعدَّ أنفسنا بين الضحايا أم بين الجلاّدين؟

كانت تتابع، مغروسة على ركبتيها، حركاتِ راهبٍ في المذبح الأكبر بخشوع تنويميّ وترفع ذراعيها وتتضرَّع إلى السماوات. دوّى في البعيد انفجارٌ مغلق. بدا دويّه صادراً عن بوّابة نوو التي يحرسها الحرس البالوني. رفع الراهبُ مُباركته، القاطعة كسكّين، فوق صراخ الرعب للناس الذين يتدافعون إلى الكنيسة. بعد قليلٍ سُمعت بعض الطلقات المتفرّقة والمتباعدة. تنامى تدفّق اللاجئين وفتح الرهبان أبواب الرهبانيّة، بعد أن رشّوا أروقتها بالماء المُقدَّس. كانت الأبوابُ مُغطّاة بمئات الكتابات التي تنسخُ أحكام محاكم التفتيش إلى جانب صورة المُتّهمين لحظةَ التهام إبليس لأجسادهم، عند ذلك فقط بدأتُ أشعر بالخوف.

قُرِعَ ناقوسٌ في البعيد. لم يُقرع هذه المرّة قرع استنفار بل موتٍ، وفي السماء الرماديّة التي تقطعها أقواسُ حجارة الرهبانيّة تطيرُ طيورُ الخُطّاف بجنون دون أن تدري إلى أين تمضي.

- غفر اللهُ لوالدك إذا لم يعرف كيف يمنع الدمَ من الجريان! - هتفت أُمّي وشدَّتني إليها وأجبرتني على الركوعِ مرّةً أخرى أمامَ صليبِ الحجر في أقصى الرهبانيّة، حيث كان ماءُ المطر الذي لم ينقطع عن السقوط يفرقع مثل أنين.

أبقت عليَّ ملتصقاً بجسدها وكأنَّني أشكِّلُ جزءاً منه، وحين نهضنا بقيت هكذا ملتحماً تماماً بلحمها بقوّة خارقة. شققنا معاً

طريقنا عبر السور البشري، الذي جمّده الرعب وضاقت به الكنيسة. بلغنا البوّابة لكن ليس دون صعوباتٍ كبيرة، للشروع بالعودة إلى القلعة.

كنّا مع كلِّ خطوةٍ نلتقي بناس يهربون ويشيرون إلينا بقنوطٍ كي نعود. كانت بعض جماعات الفتية المسلحين بالعصي والحجارة تجري في كلِّ الاتجاهات. وحين انعطفنا في إحدى الزوايا اصطدمنا بفتى فقير وأبله انزلق وسقط على الأرض المبلّلة. لاحقتنا ضحكته الغريبة على كلِّ ما يجري مسافةً طويلة. كانت القهقهات تتوّقف أحياناً بفجاجة والأبله يُقلِّدُ صوت انفجار.

وصلنا إلى القلعة مبلَّلين حتى العظام. تفحَّصنا الحارس كما لو أنّنا عدنا توّاً من الجحيم. سألنا ما إذا تعرَّضنا لبعض الإهانات.

ـ لو حدث ذلك لدفعوا الثمن غالياً ـ عقَّبَ بعد أن سمع نفيَ أُمّي.ـ السيِّد أوفاليا مجتمع مع قادة الأسلحة المشاة والفرسان والمدفعيّة والهندسة وقيادات فرق الرمّاحين والحرس الملكي والحرس الإسباني والحرس البالوني وحرس المكافحة الملكي. أنتظر الخروج بين لحظة وأخرى إلى الشارع وسلاحي في يدي لأطلق النار على من لا ينسحب ولأجبر الناس على تنفيذ التجنيد.

كان العساكر يعتمرون عمراتهم المنزلقة مضطربين أمام قصر الحاكم، يتحدَّون المطرَ. بدا نبض الأغوارديينتِ الحميم ، الذي وزّعه قادة الإمداد والتموين بسخاء وتحوّل إلى حماس، يطفح من أصداغ وصدور وحناجر الجنود، شاقّاً طريقه مثل مهماز أو معجزة. كانت ذكرى أشهر العطالة تحرِّكُ عندهم إثارة مقطعٍ شعريّ بلا إيقاع، مكرَّر بشكل ساحق. كلّ رجلٍ كان يشعرُ بنفسه سلاحاً مُجرّداً من غمده. ما من ضابطٍ عمل على تهدئة النفوس المثارة التي تُطالب بعملٍ يكون عبرة بين صيحات اليعيش وأغاني البذاءة.

طقطقت ألسنةُ الجنود مثل نسالة مشتعلة حين احتفلوا بخبرِ أمرِ أوفاليا بتغيير أماكن بطّاريّات المدفعيّة في القلعة، بحيث تكون مسلّطة على المدينة الفارغة.جرَّتني أمّي معها إلى أعلى أحد التحصينات. مرّت مجموعة من الاحتياط وخلّفت وراءها أثر صمتٍ في أعقاب آخر الجنود. توقّف المطر. تبعثرت الغيوم، والريحُ انقطعت ولمعت شمسٌ

في غاية الهشاشة، متذبذبة فوق السطوح القرمزيّة. سمعت قرع أجراسٍ خمسة في وقتٍ واحدٍ، وساعات مختلفة ورجعها الذي انعكس دون أيّ عائقٍ آخر غير هديل الميازيب التي تنزلق مياهها من طنوف المدينة الفارغة.

كان السكان قد تواروا في الكنائس والأديرة والطقسُ بارداً والمدينةُ تبدو، عبر مسنّنات المزاغل التي عضّت عليها السبطانة القاتمة للمدفع الذي نقلوه توّاً، منوّمة مغناطيسيّاً، أغفاها الهدوء والصمتُ غير الحقيقيين. ولا يُلحظ بعض من الحركة العصبيّة، والخفيّة دون شك إلاّ في أرصفة الميناء. أشرعة من كلّ الأحجام تلحف للخروج تجذيفاً ، دون ما مساعدة من الريح. ما إن تنقضي برهة حتى تتوقّف منهكة مترقّبة على مسافة قصيرة من الشاطئ.

عندما عدنا إلى قصر الحاكم أصرّت والدتي على أن تُقدّمَ بنفسها المشروبات للضباط الذين يتباحثون. اقتحمت مكتب أوفاليا يتبعها حشد من الخادمات. حلّت قطرات العرق على جبينها محلّ الدموع في عينيها، الجافّتين والقويّتين والمفعمتين بالحزم الآن. استمعتْ بتقطيب متألّم مداخلةَ عقيدٍ يقترحُ نشرَ القوّات في الشوارع والساحات وجعل كلّ من يبدي معارضة طعمةً للسكاكين . اقتربتْ خلال ذلك شيئاً فشيئاً من والدي الذي يمور انزعاجاً في سترته وكأنَّ عشَّ دبابير يختبئ داخل قماشها السميك. وحين وصلت إلى جانبه زلقت في أذنه جملة تكادُ تكون إجهاشاً.

- أثقُ بك.

ارتعشَ والدي. ارتخى بؤبؤاه، رفع ذقنه بكبرياء وتتالت على وجهه عدّة تدرّجات من الألوان. أخيراً طلب الكلمة وقد شحبَ لونه كما لم يشحبِ قط واستطاعت أمّي أن تصغي قبل أن تُغادِرَ الغرفة البداية القويّة لمداخلته.

- إنّه، يا صاحب السعادة، زمنُ الكلام الواضح والتعرّف على ذلك الجزء من الرشد الذي يصون هذا الشعبَ ليعرض جهراً شكاواه .

انفجرت أُمي في المطبخِ بالبكاء، بينما كانت الخادمات يشطفن الكؤوس الفارغة التي انتهينَ من تقديم النبيذَ فيها ، وصبغت رواسبه ماء الجرن بالأحمر الخفيف. أمرتهنّ مجهشةً بنزح الماء على الفور.

ولكي تهدأ حاولت أن تساعِدَ في تجفيف الكؤوس، لكنَّ يديها ارتعشتا مثل يدي عجوزٍ وبحثتا عن الراحة في يديَّ. مكثنا نزداد التصاقاً ونحن ننظرُ إلى الكؤوس الفارغة التي تضعها الخادمات في الخزانة. كنّا نشعر أنَّ الزمنَ، الذي كان سيره الثقيل والخانق يُعَكِّرُ جوَّ بقيّة الغرفة يتطاير في فراغ البلور الشفّاف.

ما إن دخل والدي إلى المطبخِ حتّى توجّه دون تردّدٍ نحو أُمّي. رفع وجهها المنتفخ بالبكاء. تقاطعت نظراتهما من جديد، دون فزعٍ هذه المرّة والتحمت بمودّة رقيقةٍ لم ألحظها قط في هذين الكائنين. ارتخت اليدُ التي كانت تضغط بها أُمّي على يدي بقوّة إلى أن انفكّت عن أصابعي فرحتُ أبكي لا أدري لماذا.

تأخرتُ في معرفةِ ما حدثَ فقد بقيا متعانقين بصمتٍ برهةً طويلة.

ـ لحسن الحظِّ أنَّني عندما بدأتُ أتكلّم في الاجتماع ـ همس والدي في أذن والدتي تقريباً ـ كان الكثير من الحاضرين يشاطرونني الرأيَ ذاته سرّاً. وكان أكثرهم حدّة النائبين العموميّين للملك، القطلاني بيغناتِلّي والبلنسي سيسترِنِس. الشعب مجتمعٌ الآن في الكاتدرائيّة بانتظار الأخبار. وقد ودّع أوفاليا قاضي جلالته العام الكنسي، الذي منحه كلَّ أنواع الضمان لأن يلغي التجنيد ولا يقوم بأيِّ انتقام. الاتفاق أكيد. أخبروني أنَّ المطران كلِمنْث انتهى توّاً من إلقاء عظةٍ حياته واستطاع أن يهدِّئَ أكثر الناسِ تخوُّفاً.

نسِياني، فلحقتُ بهما وهما متعانقين بعذوبة، حتى مكتب والدي، الذي شاهدا من نافذته وصول مئاتِ الشباب يلفّون المطران كلِمنْث بصلواتهم. لقد تحوَّل إلى بطلٍ. كان يرفع بيمينه الصليبَ المقدّس ويحاول أن يتوازن باليسرى على ظهر بغلةٍ مذعورة.

تأخَّرَ الحاكم بالظهور في الشرفة، وحين فعل ذلك أخيراً بدا عبوساً وجهماً كأنَّ جبينه محاطٌ بتاجٍ من الشوك. لم يقل شيئاً. تفحَّصَ الحشودَ بعينين جاحظتين. سرعان ما تعالت الصيحاتُ ضدَّهُ. أعلن بوجهٍ مُحْتَقِنٍ وكلماتٍ مقتَضَبة أنّه أعطى أوامره لإلغاء التجنيد. لكنَّ الصياح لم يتوقّف.

ـ ماذا يمكنكم أن تطلبوا من سلطات المدينة؟ ـ صاح المطران، منتصباً بصعوبة فوق مطيَّته.

ـ مُصادقة مكتوبة ـ طالبت عدَّةُ أصواتٍ.

طلبَ المطران صمتاً، وطالب باحترام لكن بحزم ببلاغٍ موقَّعٍ يلغي قرعةَ التجنيد الخمسيّة، ويقدِّمُ ضماناتٍ تؤكّد أنّه لن يُشرعَ بالتحقيقات بعد هدوء التمرُّد.

كان البلاغُ مكتوباً؛ إذ ما إن وصل قادة الجيش إلى اتفاقٍ حتى أخذ والدي على عاتقه تحريرَه. أمسك أحدُ المساعدين المحبرة في الشرفة على مرأى من الجميع بينما كان آخر يسندُ الورقةَ على ظهره وينحني أمام الحاكم. لم يجروْ أحدٌ على رفع رأسه حين كان أوفاليا يوقّعه.

ـ أوكلوا أمركم إلى رحمةِ الله الذي بيده قلوب الجبابرة ـ حضّهم المطران ليعجِّلَ بانتهاء تلك اللحظة من التوتُّرِ غير المحتَمَل. تمتمت الحشودُ مصلّيةً.

ما إن تأكّد ممثِّلو الشعب من عبارات البلاغ حتى اختفى والديَّ كما لو بالسحر. كذلك اختفى الحشد وهو يهتف بحياة المطران. أغلقت أبواب الحصن الهائلة بتثاقلٍ خلف المتأخِّرين.

كانت حالةُ الحامية مزرية وتأثيرات الكحولِ المنَشِّطة تبخّرت، والجنود المُنْهَكين يبحثون عن الراحة في كلِّ زاوية ، يحتمون بالجدران. أجسادهم المبعثرة والمتلويّة تشكّل مشهدَ هزيمة قاسٍ بعد معركةٍ غير دامية. بينما الخادمات يحتفلن سرًّاً في المطابخ بالهدنة، ويتقاسمن العشاء الذي رفض الحاكم أن يذوقه.

لم يهتمّ بي أحدٌ. صعدتُ لأوَّلِ مرَّة وحدي إلى برج المراقبة الهائل، الذي اعتدت أن أتأمّل منه مع أمّي أفقَ البحر المضطرب. تأمّلتُ وظهري إلى المدينة التي يسودها الفرحُ، وقد دخلتُ في فراغ مزغلٍ، كيف راح يرتسم نورسٌ في الجوِّ وخلفه ينطفئُ آخرُ خيطٍ للغروب، ليعمي ذلك الأفق الذي أصرُّ على أن أتصوَّرَ خلفه المغرب الأقصى، حد الغرب الأقصى. ذلك البلد الغامِض، البعيدُ والمجهول، الذي كان أهل مدينتي على وشكِ أن يقاتلوا ويموتوا من أجله.

الفصل الثالث

كارثة الجزائر

خرجت بعد شهرٍ في أيّار عام 1775 من برشلونة حملة مظهرها مروِّع. خليطٌ من رثّي الثياب سار في عرض بلا نظام ولا توافقٍ في الرملة وانتهى إلى الميناء في طريقه إلى قرطاجنة. كانوا قد قضوا الليلة الفائتة مكدَّسين في أقبية الحصن، خاضعين لمراقبة صارمة لمنعهم من الهرب .

راحوا يسيرون بإيقاعٍ سريع وباهت، وبنادقهم دائخة على أكتافهم، مجرَّدين من المؤن. تزاحم السكّان جميعاً عند مرورهم، مُحيطين بالطريق، عازمين على منعِ أيٍّ من هؤلاء البؤساء من الفرار من حظّه المشؤوم. ومن حين إلى آخَر كان هناك من يتعرَّفُ على وجهٍ عابسٍ، فكّين منكمشين، عيون مسودّة مثل فحمٍ مُطفأ، وكانت حكاية جرائمهم تبهجُ الحشودَ بشهوانية.

يُقالُ إنَّ شقيّاً، يكادُ يكون مختفياً في التشكيل، هزيلاً ككلبٍ لا صاحب له، طعن أباهُ العجوزَ إحدى عشرةَ طعنة بين الصدر والظهر. وإنَّ ذلك الآخر، الذي كان ينظرُ قلقاً إلى الحشود، ونفخَت الثآليلُ أجفانهُ، اكتُشِفَ وهو يمارس غشيان المحارم مع ابنته، ابنة الثلاث عشرة سنة، وذاك الذي يعرجُ في الخلف، غير القادر على الحفاظ على خطوه والذي تقطع ندبةٌ مريعة وجهه سرق تحفَ سيِّدتنا من كنيسة دِ لا مرثِد المعظّمة.

ـ وذاك؟

ـ منْ؟ الأعور؟

ـ لا. بل الفتى الوسيم، الذي يفوق الجميع شبراً بطوله. له مظهر ريفيّ ويبدو سليماً مثل تفّاحةٍ ناضجة.

ـ أدانته المحكمة بسرقة الماشية.

ـ بسرقةِ ماذا؟

لم يكونوا جميعاً متّهمين معترِفين. كثيرون منهم وشي بهم الجيران أنفسهم أو راهب الأبرشيّة، وجنايتهم لا تخالفُ قانوناً آخر غير القانون الذي يصوغ السلوك والعادات العاديّة.

ـ انظر من يمضي هناك ـ كانت امرأةٌ مبتهجةٌ تصرخُ، مشيرةً إلى رجلٍ ردَّ إليها نظرةً ملاحقة وموجوعة خلال برهةٍ ـ هل عرفتموه؟ إنَّه عازبٌ وينادیه الجميع دُرَيْرَة.

كان المُشارُ إليه يُشكِّل جزءاً من آخر الفوج الأخير الذي يسوقه صفّ الضباط واختفى في نهاية الرملة ليتوغّل في الميناء.

اختتمت فرقة موسيقيّة العرضَ العسكريّ بالطبول والمزامير والنفير والأبواق الفرنسيّة. كان الموسيقيّون ، الذين ينفّذون أوامر القيادة يجهدون أنفسهم كي يضفوا على المشهد بعض الوقار.

كانت سيِّدات المجتمع الراقي، اللواتي اعتقدن أنَّ من واجبهنَّ وداع الجيوش عند حافّة أرصفة الميناء، يتردَّدن بين التلويح بمناديل التفتا الورديّة وبين استخدامها ، معطَّرةً ببعض قطرات بلسم البيرو لحماية أنفسهنَّ من نتن التعب والإنهاك الذي يصدر عنهنّ.

كان رؤساء النقابات يتظاهرون بتأمُّلِ مغادره الجنود بوقارٍ وانشغال. لكنّهم يهنّئون أنفسهم ضمناً على تخلُّصهم من زمرة من الكسالى، والجناة والناس سيِّئي العيش. وبفضل حيلة، اقترحها والدي وقبل بها أوفاليا كي يحفظ ماء وجه السلطات الملكيّة وسلطاته ذاتها شكليّاً، تظاهر بالقيام بالقرعة الخمسية البغيضة. لكنّها عيّنت في الوقت ذاته لجنةً من تسعة وعشرين وجيهاً، اختيروا بالاتفاق مع النقابات، كلِّفوا باستبدال الصناع في اللوائح بالمجرمين والأفّاقين والهاربين من العدالة. واعتقدوا أنّهم برحيل تلك القوّات الصاخبة

والفوضويّة، قد نظّفوا الإمارةَ من الناس غير المرغوب بهم.

لم يفِد الاتفاق في منع عزل أوفاليا. تلقّى الإيرلندي الخبرَ بالغضب المرّ وغير المجدي، الذي ربّما استولى على سلَفِهُ روري أوكونّور، ملك كونّاشت، حين وجدَ نفسه مجبراً على قبول سيادة هنري الثاني ملك إنكلترا، قبل سبعة قرون. سَكِرَ يومين وليلتين مع ضبّاط فرقتي أولتونيا وإيبرنيا، الإيرلنديين مثله في خدمة الأسلحة الإسبانيّة، منافسين بذلك السلوكَ المؤسفَ لملك مخلوع. غادر بعد ذلك إلى البلاط مفعماً بالحذر، فقد كان يرتاب بأنَّ كونت ريكلا قد عهد إليه بدورِ رأس التركي كي يتملّصَ من مسؤوليّاته ذاتها في التمرّد.

ترأّس نقل الجيوش في السفن القائدُ العام المتدرّب فِليب دِ كابانّس سيدّ لوتّانتج بوجه شاحبٍ محصور في عنق سترته حيث طرّزَ رتبتَه الجديدة على عجلٍ. كان رجلاً شكّاكاً إلى أقصى حدٍّ، تتوالى الشكوك في نفسه بشكلٍ مزعجٍ الواحد بعد الآخر، ويشي بالظلال الداجية لمستقبلٍ مُقلِقٍ مثل صاروخٍ ناريٍّ في الليل.

تنفّس بارتياحٍ حين انطلقت أخيراً آخرُ السفنِ المقلّةُ لأولئك الهجَرة، ناشرة أشرعتها للريح. لم تُغمَض له عين طوال الليل، خوفاً من انفجار تمرّد. لكنّ تلك الهدنة مع قلقه دامت قليلاً. فبينما هزّ سكّانُ المدينةِ أكتافهم وعادوا إلى بيوتهم وأعمالهم بعد أن تأكّدوا من اختفاء تلك السفن في البعيد خلف غطاء شمس باهر، أخذ كابانّسٍ والدي من ذراعه حين شرع بالعودة مع بقيّة الضبّاط ليجعل منه شريكاً في تخوُّفه من الوضع الذي بقيت فيه المدينة الموجودة تحت قيادته.

ـ الحملة اللعينة فرّغت مخازننا من موّن الطعام والحرب. إلى حدٍّ أنّني قمت هذا الصباح، يا باديّا، بجولة تفتيشيّة على مستودع الأسلحة وكان من الصعب أن ترى مدفعاً أو حتى مسماراً.

ـ منذ أن استُبدلَ هدف الحملة ازدادت الحاجةُ للرجال والمواد، أيّها الجنرال.

ـ بالأحرى أقول إنّهم تركونا عزّلاً ومعدمين في مواجهة أيّة حالةٍ طارئة.

ـ ستكون حرباً بعيدةً، أيّها الجنرال.

ـ بالتأكيد، يا باديّا، لكنّنا سنعاني من نتائجها عن قرب، هنا بالذات، حين يعيدُ لنا البحرُ الباقين أحياء من خطرٍ لا معنى له.

تلك الجيوش التي كانت تُغادرُ لم تبادر لنجدة الأراضي الإسبانيّة المُهدَّدة في المغرب، فمنذُ أيّام كان السلطانُ محمّد الثالث قد ضرب حصاراً شديداً على مليلة في مواجهة استحالة كسر المقاومة الراسخة للمدافعين تحت قيادة ماريشال المعسكر خوان شِرْلوكْ. حمله مستشاروه أنفسهم على التخلّي عن هجومه اليائس الأخير، الذي كان يعدُّه للاحتفالات التي يقوم بها المسلمون في عيدهم. وكان السلطان قد خطّط كي يقوم جيشه وجميع سكّان المنطقة بمن فيهم الأطفال والنساء والشيوخ بالتقدّم تحت حماية أكثر من ألفِ يهوديّ وخمسة آلاف رأس بقر بملابس ملوّنة كي يخدعوا المحاصَرين. لكنّه قرَّر قبل ليلة ترحيل المعسكر والعودة إلى مراكش يتبعه جيشه، متخفّياً في الظلام بينما يخلط المدافعون بين صخب الانسحاب وتبدّل الرياح العاصفة في أراضي المضيق تلك.

بعد النهاية غير المتوقّعة للعداوات جاءت ردّة فعل حكومة جلالته الكاثوليكيّة من الارتجال، بحيث كانت مثل ردّة فعل طفلٍ مؤتَمَنٍ على مفاتيح مستودع أسلحة. ماذا يفعلون بذلك الجيش الذي تمكّنوا من جمعه بشقّ النفس؟ انقسم مجلس الوزراء بين أنصار يريدون أن يقوم الجيشُ بتنفيذ عرضٍ للقوّة في المغرب، وبين من يفضّلون تحويل الهجوم ضدّ الجزائر، ليس لأنّ الباي ساند سلطان المغرب في حصار الحامية فقط، بل للقضاء أيضاً نهائيّاً على القرصنة البربريّة التي كانت تُهدِّد تجارةَ الشرق، التي تشكّلُ تلك المدينة البربريّة قلبها الحقيقيّ.

تمّ تصوّر العمليَّة دون أيِّ دليلٍ غير الأخبار الغائمة للراهب، معرِّف الملك، الأخ خواكين إلِتا، الذي أغلقت عليه حمّاه ضدّ الكافر الفهم. بدايةً وضع الوزير غريمالدي عينيه على دون بِدرو دِ ثِباليوس، فاتح مستعمرة ساكرَمونتِ، للقيام بالحملة، لكنَّ الجنرال المعتبر طالبَ للقيام بها بعددٍ أكبرَ من القوّات والعتاد. عندئذٍ تطوَّع أُورِيْلّي لتنفيذها بعشرين ألف رجلٍ فقط. طبعاً كانت خطّة أُورِيْلّي تعتمد على المُباغَتَة.

كلُّ هذه الاعتبارات سمعتها في المسامرة التي كانت تعقد كلَّ ليلةٍ حول أبي، وانضمّ إليها بعد قليل بعضُ وجهاء المدينة. انكسرت وحدةُ

اللون الأزرق للباس الموحّد وانتثر في القاعة الأبيضُ، والأمغرُ الفاتح والأخضر الناعم وهذا اللون القرمزي والبنيّ الجامِد كالبرونز والأسود القويّ لثياب الصنّاع والملاّكين. كانت تُطرح أحداث اليوم وتناقشُ أيضاً بحماسِ الأفكار الجديدة، المُتلقّاة بحرارة من يكتشف أراضٍ مجهولة وغير متوقّعة في تفكيره ذاته. ولم يكن تكرار المفاهيم المثيرة للموسوعة المنهجيّة، أو لأعمال فولتير وروسو للمرّة الألف في الأحاديث لينقص من قوّتها في إثارة النشوة، تنعشهم حكايات المسافرين الذين يزدادون اضطراداً، يروحون ويجيئون من فرنسا محمّلين بالجديد الوحيد: قوّة البشر العاقلة.

خفَّف ذلك الاكتشاف عن أبي ثقل واجباته التي هي في كلِّ يوم أكثر ضغطاً. كان مكلَّفاً آنذاك ببناء تحصينات جديدة مستعجلة، إلى الجنوب الشرقيّ من المدينة، تُخفي عن عيون أبناء برشلونة ضعفَ الجيش الهائل في الرجال والعتاد. كان يرى في ذلك الإصرار على خنق حيويّة مدينة بتحصينات جديدةٍ هراءً يتعارض مع قلقها وفوران العمل في شوارعها التي تُطالب بتواطؤ حجارة أسوارها غير المجدية، كي تتوسّع دون عوائق. كان يشعرُ بشيءٍ مماثِل في داخله، حيث صارت أفكاره القديمة فيه مجرَّدَ حصونٍ مهجورة.

رجل لا شكّ عمليّ، اكتشف متعة التفكير بكلّ ذلك الذي بدا حتى تلك الساعة لا يخطر بالبال، ومنح قدرته الجديدة خواصَّ النار، القادرة على صهرِ أكثر المعادن قوّةً وتسمح بإمكانيّة أن تُمنح شكلاً جديداً. تلك هي المُقارنة التي كان يدحض بها جلساءه الذين يعترضون على الاستبداد، ويخاطرون باقتراحات جريئة لتنقية الكنيسة والحكومة. على العكس كان يبدي أنّه من أنصار الخضوع للواقع الحاضر من أجل العمل على تصحيحه وإصلاحه، ولم يكن يزدري نقاشاً يتطرّق للوسائل المناسبة لتحسين آليّة عمل الملكيّة وإبعاد الحكومة السيّئة، وتشجيع الصناعة والزراعة وإعادة تنظيم التجارة بشكلٍ عقلانيٍّ، وإتمام إدارة العدالة، والتأكد من فعالية الجيش وتحسين وضع الأقل حظّاً.

من الطبيعي أنّني لم أكن أفهمُ إلاّ القليل من تلك المناقشات التي لا تنتهي عن أنين الحريّة المدنيّة المُهدَّدة، وتفاهة الكثير من الضرائب والحاجة إلى قانون زراعيٍّ، أو الشرف الذي يتنازعون عليه في

ممارسة الوظائف والصناعات اليدويّة. ونظراً لعمري فقد كنتُ أدرك تبدّل موقف أبي قبل تبدّل أفكاره. صار انفتاحه عليَّ أكثر قلبيّة وودّية. قرّر الاهتمام بتربيتي التي عهدت بها أمّي حتى ذلك التاريخ إلى عظات رهبان سانتو دومينغو، وتعلّم شيءٍ من اللاتينيّة الخياليّة، اللغة الغريبة التي لم يستطع رجلٌ قط أن يجعل أحداً يفهمها، ويدرِّسها راهبٌ سان خيليّ متقنِّعاً بزي أستاذ لاتينيّات. قرّر والدي دخولي في مدرسة الرسم التي ارتجلتها لجنة التجارة في بناء دِ لا لونشا. هناك اكتسبتُ المهارة التي ستسمح لي على امتداد أسفاري أن أمنح ثقتي للقلمِ والطباشير، وما كان من المغامرة التسليم به للذاكرة. وبذلك فإنَّ صوراً كثيرةً ممّا تأمّلته لن تختفي إلى الأبد في شبكيّة العين النسّاءة. وحين تفحَّصتُ انعكاس نظرتي الثابتة على الورق، لم أستطع فقط العودةَ إلى الأماكن التي جرت فيها الأحداث، بل إعادة إحياء تلك اللحظات الفريدة التي حدثت فيها الأشياء. حين كانت تلفّ المئة وخمسين قبّة قرميدية سوداء التي تشكّل أبراج الحمام في مدينة تزاوا، أو حين كانت أشباحُ ثلاثمئة بحّار منظومة في حبلين طويلين، تطقطق طوال الليل كي تقتلع من ظلمة بحرٍ هيكل مركبي الجانح.

في غرف المدرسة السبع الرحبة كانت كثرة حاملات اللوحات توحي إليَّ بغابةٍ تغوصُ في ظلمتها أشعّة نور المصابيح، كي تُباغِتَ ملامح النماذج البشريّة الثابتة والمكتنزة أو الشحوب الأقصى للمفرَّغِ منها في الجصّ. لم يدخل في رأس الغالبيَّةِ من رفاقي إمكانيّة أنْ يتفرَّغ المرءُ للتصوير الفني. كانوا صنّاعاً مهرة يتطلّعون إلى تقليد مظهر الأشياء الخارجي، دون أن توحي إليهم هذه بأيّة عاطفة أو سرٍّ داخليّ. سيطبِّقون مع الأيّام دقّة نظرتهم الجامدة ومهارة أصابعهم الخرساء والصامتة على مهنهم كطابعين على الحرير وكنجّارين، معماريين ومهندسين أو صانعي عربات.

كان لأستاذنا، السيِّد بِدرو بَاسكوال مولِسْ مظهر البستانيّ، يمضي من هنا إلى هناك، يُصحِّحُ لهؤلاء وأولئك وسبّابته المجهَّزة بظفرٍ طويلٍ وأشهب تُحدثُ تأثيرَ منجلٍ فوقَ رسومنا. كان قد عادَ توّاً من فرنسا حيث اشتهر كحفّارٍ، وبفضل ذلك فُضِّلَ على غيره لشغل

منصب معلِّمِه السيِّد مانوِلْ دِ تراموليـاس، الذي اضطُرَّ لأن يُغْلِق المدرسةَ التي كان يديرها في بيته أمام منافسة المعهد الجديد المجّاني.

لم يخرج مولِس منٍ مهمَّته الجديدة سليماً. أضطُرَّ لأن يهجر مِنْحَتَه، الذي كان ولا شكَّ مؤهّلاً له؛ ولم يكن يعرف كيفَ ينفض عنه السأم الذي تتسبّبه رؤيته لخربشاتنا. كان يرينا أحياناً بعضَ لوحاتِ الحفرِ التي لم ينهها والمأخوذة عن رسومات بوشير أو غريوز وكأنّه يفْتَحُ قبراً. كانت لوحةُ صيد *النعامة* غير المُنتَهية تُثيرُ عندي رعب احتضارٍ لا ينتهي، مستبعد منه الموت. جانب عنق الحيوان الرقيق ينحني عبثاً أمام الرمح الثلاثي الذي يرفعه فارس مسلم لم تصل بعدُ أسنانُه الناقصة اللحم. شيء مماثل كان يحدث لحراب بقيّة الصيّادين وأنياب الكلاب. لكنّ جناحي النعامة المقطوعين يمنعانه من الاستفادة من ذلك الفراغ الذي ما يزال أبيض، وينتظرُ قطع قلم الحفرِ كي ينهي الفنّانُ والموتُ مهمَّتَهما.

كنّا نتعثَّرُ في بعض المساءات عند الانتهاء من الدروس على درج دِ لا لونشا بعجوزٍ يطلبُ منّا بإيماءةٍ آمِرة رؤيةَ رسومنا. ويجوب محافظ الرسم بسرعةٍ وبأصابع ماهرة ومرتعشة. نادراً ما كانت الرعشة تُذعن والأصابع تتشبث برهةً طويلةً بأطراف بعض الأوراق المستطيلة الداكنة والضاربة إلى اللون الرمادي. عامّة ما كان يُعيدُ إلينا المحفظة غير مرتّبة بحركة استهتار ساخطة. كان بعضنا يحاول أن يدفع له بالعملةِ نفسها فيوجّه إليه نظرة ازدراءٍ متعجرفة. ويتظاهر آخرون بأنّهم يجهلونه، لكنّ طيف العجوز الذي يبتعدُ مغموراً بنور الغروب الشاحبِ والأزرق كان يملؤنا بالرغبة والاستغراب.

فجأةً امتلأت المدينةُ بأشباحٍ أخرى مُقلِقة بدورها. ذات فجرٍ أنزلَ عددٌ من السفن، من ذوات الساريتَين على أرصفة الميناء الفارغة حشداً من الرجال الساهين المصابين بالدوار بعيونٍ مريضةٍ، جامدة كالحجارة، ملفعين بالأسمال وقد حفرت القروح لحمهم. فشلت الحملةُ على الجزائر. لم يُهْرَعِ للقائهم غير الذبابِ وبعضُ النسوةِ، يرفعن بشكلٍ مؤثِّرٍ قطعة ورقٍ خُربِشَ عليها اسمٌ هنَّ أنفسهنّ لا يعرفن تهجيته. لا يرنُّ في آذانهنّ غير اصطدام الجثث المرميّة من متونها

وقصف المدفعيّة، تدكّ شاطئاً بعيداً، لا يكدنَ يميزنه في زوابع الغبار والرمل التي كانت ترفعها طلقاتها.

ملأ الجرحى الخطرون المشفى العام والميتمَ وبيت الإصلاح. تاه البقيّة أشهراً يتسوّلون من بابٍ إلى باب ويحكون كابوسَ الهزيمةِ لمن لم يكونوا يريدون أن يسمعوهم، بعيون خرجت من محاجرها من خوفٍ ما يزال ماثلاً أمامهم.

أنا أيضاً كنتُ أتحاشاهم إلى أن اكتشفتُ ذاتَ يومٍ العجوزَ الذي كانَ يتفحّصُ بفضولٍ رسومنا المدرسيّة، وقد جلسَ وسط مجموعة تتفلّى من القمل على المقاعد أمام كنيسة سان ميغِلْ دِلْ بورْتو في الحيّ الجديد من برشلونة. بدا ساهياً وهو يسمعهم يشتمون ألْفَ مرَّة ومرَّة الجنرال أوريلي، الذي كان قد أعطى الأمر بالنزول على الرغم من أنَّ الحملةَ لم تكن مفاجئة، والباي وزّع قوّاته على الهضاب التي تحيط بالشاطئ، حيثُ لم يُبَدِّدوا طلقة واحدة. لكنّه يحني من حين إلى آخر رأسَهُ فتخطُّ ريشته على الورق الذي يسنده إلى ركبتيه طلاقةَ وجهٍ يكادُ يكونُ مُحطّماً، لكنّه على الرغم من ذلك مفعمٌ بالحيويّة، حيثُ تبدو آثارُ الرعبِ والحزنِ والكآبةِ التي شوّهت بشكلٍ مُرعِبٍ ولأشهرٍ تقاسيمَه، نتيجةً لتطوّرٍ يكاد يكون جيولوجيّاً، كالذي يشكّلُ وجه صخرةٍ نهائيّ. يُصرُّ الجنود على وصف تحوُّل الخنادِق إلى قبور، وكيف انتبه، من استطاعوا الركوب مذعورين، إلى مناورات فرسان البربر، الذين راحوا ينقضّون على الجثثِ ويحرقون الجذوع بعد قطع الرؤوس، التي قدّم الباي مقابل كلّ واحدٍ منها دوبلون ذهب. كذلك كان العجوز يصرّ على منح الوجوه المرسومة طبيعة المعدن، التي يضفيها الألمُ دون أملٍ على البشريّة وذلك من خلال التظليل والخطوط الواثقة والمتوازية على طريقة الحفر الفني. وهنا هُرِعت فتاة لتأخذَ العجوزَ . لذلك عرفتُ أنَّ الأمر يتعلّقُ بالرسام المحتَقَر السيِّد مانْول دِ تراموليياس.

سارع والدي في تلك الليلة إلى استدعائي وطلب منّي واحدة من تلك الخرائط التي نسختها في مدرسة دِ لا لونشا. كانوا يناقشون في مسامراتهم موضوع القرصنة بحرارة وانفعال. وحين نشر الخريطة لم أستطع تفادي المماثلة بين تلك الخطوط المتعرّجة لشواطئ جنوب إسبانيا وشمال أفريقيا وبين وجوهِ الجنودِ الحجريّة، التي رأيتُه

يرسمها في ذلك المساء. سحق والدي بإصبعه بروزاً على ذلك الشاطئ، ووضّح لي أنّنا سننتقِلُ قريباً جدّاً إلى هناك. فقد تلقّى توّاً خبر تعيينه رئيساً لدائرة التعيينات والميرة في دائرة ألمريّة. اقتربت أُمّي وحين انحنت فوق الخريطة أثّرت بي عيناها الزرقاوان والقاسيتان مثل اللازورد تأثيراً رهيباً. دمعةٌ متمرِّدَةٌ اجتازت خطَّ الأهداب المشدود وسقطت مثل مثقالٍ من رصاصٍ فوق البحر الجاف والمستوي المصوَّر على الورقة. كانت تلك علامة الاحتجاج الوحيدة التي ترَكتها تفلت منها أمام مصيرٍ كان سيبعدها نهائيّاً عن مدينتها. لم ينتبه أبي إلى ذلك. كان مشغولاً، يشرح لمسامريه خصائص نظام الحماية من القرصنة.

- في بحر البوران - كان يُفصّلُ بينما سبّابتُه تُبحِرُ في الخريطة - بين رأس غاطة الإسباني ورأس الشعب الأفريقيّة الثلاثة يضيقُ البحر المتوسّطُ الذي عليه أنْ يمرَّ في باب جبل طارق الضيّق. كانت جزيرة البوران الصغيرة جدّاً مثل عمودٍ في نافذة تقطعُ المرور البحري وتترصّده. تتابع بدءاً من جبل طارق وحتى بِرا مراكزَ المراقبة المرتفعة فوق الجروف الصخريّةِ على شاطئٍ شديد الاضطراب. الشيء ذاته كانت تقومُ به على الضفّةِ الأفريقيّة معاقِلُ سبتة ومليلة ووهران وصخور بلِش والخزامى. إنّها عيوننا في القارّة الأخرى. للأسف أنّه ومنذ فشل حملةِ الجزائر صارت تتجسّسُ علينا آلافُ العيون دون أن نراها.

أيضاً لم يكن قادراً على رؤيةِ عيني أمّي، اللتين قبلتا بمصيرها، راسختين مثل سماء راسخة وهادئة.

الفصل الرابع

شاطئ القراصنة

لا يوجدُ في بِرا أيُّ حصن. بالنسبة إلينا نحن المعتادين على العيش في عالم مغلقٍ ومتكبِّر كان الاحتكاك الوثيق بالشوارع والجيران مزعجاً. حركة العمل البطيئة والرتيبة في المدينة الأندلسيّة تخترقُ محيط وجدران بيتنا. تأخَّرتُ في الاعتياد على تلك التقلّبات بين الضجيج والصمت، الحركات والروائح التي كانت تبشمُ البلدة بحذرٍ وتُؤرِّقني ليلاً إلى حدِّ التوهّم بخطواتٍ مجهولة تلج بيتنا وتقترب من باب غرفة نومي.

السببُ في عدم وجود حصنٍ يحمي ويراقب المدينة يعود إلى أنَّ المدينة القديمة دمّرها زلزالٌ قبل قرنين ونصف، وأُعيدَ بناؤها في السهل على ضفّة نهر المنصورة الذي سمّاه العرب وادي بيرة أو نهر برا، المحاطة بسور لكنّها دون قلعة على بعد مرمى بندقيّة من هضبة الروح القدس التي كانت ترتفع هناك حتى ذلك الوقت. كانت النواقيس قد قُرِعت قبل يوم في القرية القريبة من لوبرين دون أن يقرعَها أحدٌ. ترنّحت الأرضُ كمّا لو أنها سكرى وتحرَّكت الأشياء المعدنيّة المخبّأة بحذرٍ في الصناديق، وانشقّت الأرض يوم التاسع من تشرين الثاني من العام 1518 مثلَ ملحفةٍ قديمة وانهارت المدينة بكاملها. لم يبقَ من الحصن والمعابد والبيوت إلا كومة من أنقاضٍ لا شكل لها، علتها

سحابةٌ من غبار، ما إن تلاشت حتى ساد الهضبةَ مظهرُ صحراء لم تَقُم فيها مدينة قط.

كان الإحساس بالعراء يمتدُّ على مدّ البصر، والبلد سُهباً قاسياً، وضَّاءً وغريباً، يخترقه طريقٌ يقودُ إلى لوركا، يضيعُ فيه الرجال والحيوانات خلفَ أعمدةِ الغبار الضارب إلى البياض الباهر الذي يصدرُ عن أرض الطريق المغبرّة. استمرّت في حقول بِرا التي تكثر فيها الحبوبُ، منذُ أيّام بني نصر الخضراء، الأعنابُ والزيتون، البقولُ والخضار، ثمار البذور والعظم، عند حوافّ الهضاب الموحشة والمتفرقة، ذات القحل المرعب. هنا وهناك ما يزال واقفاً الجذع المحطَّم لهذه الشجرة من التوت أو تلك، الخالي من الأوراق. منذ طرد آخر الموريسكيين، قبل مئة وخمسين سنة، راحت تربية دود القزّ تمَّحق شيئاً فشيئاً، لأنَّ السكّان الذين حلّوا محلّهم لم يتمتّعوا بالمهارة الذكيّة التي تتطلَّبُها العنايةُ به وصناعته، وبخلاف الموريسكيين لم يكونوا بستانيين، بل مزارعي حبوب وبما أنّهم كانوا يحتاجون إلى مساحات فسيحة من الأرض العدي لتأمين تعاقب زراعتها راحوا يقضمون من الجبل الأرض التي تنقصهم مسلسلين أكثر السفوح سهولة. ولم تكن الأرضُ المنبسطة أكثر من شقٍّ في أرضٍ جبليّة، تتسلسل فيها جبال لوبرين حتى جبال فيلابرِس التي تنحدر بدورها عبر شعاب جبال بدر ، ألماغريرا وكابريرا الأكثر انخفاضاً وحتى شاطئ البحر المتوسّط.

كانت المدينة الجديدةُ تقبع في أحشاء ذلك الحصن الطبيعي، المحفوظ بعيداً عن الشاطئ، لكنَّ الخوفَ كان يتسرَّبُ إليها متشرَّباً في الرائحة المالحة وفي هبّات النسيم الأزرق التي تصلُ من البحر القريب. في كلِّ أنحاء حوضِ البحر المتوسط يخوض المسلمون والمسيحيّون معركة لا تنتهي. انتهى الصراع الذي كانت تصمدُ فيه الأساطيل الكبيرة بعد معركة لِبّانتو، لكنَّ الحربَ استمرَّت في ظلِّ تقليدٍ قديم. كانت القرصنةُ، منذُ القِدَم، طريقةٌ من طرق الحياةِ في البلدان الساحليّة. وتجاوز حنقها بدافع الضغينة والكراهيةِ بين الديانتين الأمواجَ والرياحَ التي تُصخبُ مياه البحر. ما عاد هناك لحظة هدوء واحدة، وتجارة البشر الكريهة والبضائع المنهوبة راحت تصل إلى هذه الضفّة

أو تلك تحت لامبالاة السماء، المسيحيّة والمسلمة التي تمخرها أسرابُ الطيور المهاجرة من قارّة إلى أخرى.

كان هذا الصراع يُعاشُ في بِرا بقلق المدن الحدوديّة، فالغارات ترتَطِمُ بشواطئها الراسخة أمام الولايات البربريّة التي تخضعُ لوصاية الإمبراطوريّة العثمانيّة على الضفّة المقابلة. والبحر مصدرُ الإحساس العميق بالخلاء الذي يغزو المنطقة؛ والخوفُ لا القحلُ هو الذي أخلى المساحات الشاسعة التي تُحاصِرُ المدينة مثل الواحة وانتهت إلى نفي إنسان الساحل غير الآمن. كان الشاطئ ينعطِفُ بدْءاً من رأس غاطة نحو الشمال الغربي، وعراً، شديد الانحدار حتى مشقّر، مقطّعاً برؤوس وخلجان حادّة تُستخدم ملاذاً لمراكب القراصنة الخفيفة وينفتح عند مصبِّ نهر المنصورة على مصراعيه ويتحطّم على الشواطئ العريضة في غارّوتشا أمام أراضي بِرا المنبسطة. ستّة مراكز استطلاع حجريّة، مصمتة مثل أبي هول تراقبُ الرملةَ التي تسوطها الريح. في كلّ واحدٍ منها حارسان أو ثلاثة وسِنون بفعل صخب الأمواج، يصيخون السمع في الوقت الذي يجوب الفرسان الشاطئ بين برجٍ وآخر.

كانوا قد كلَّفوا والدي بإعادةِ تنظيم هذا النظام من الإنذار، الذي صار أكثر ضرورة من أيِّ وقتٍ آخر بعد كارثة حملة الجزائر. وكان منصبه كرئيسٍ لدائرة التعيينات والميرة قد حوّله إلى قائدٍ عسكريٍّ إداريٍّ للمنطقةِ، برتبة تُعادل رتبة مُقدّم. على الرغم من أنَّ وظائفه كانت أساساً هي الإمداد والتدخّل، فإنَّ الحفاظ على الاستحكامات والمتاريس التي تتوالى على امتداد الشاطئ، وتموين الحرّاس ورجال الأبراج ووضعِ بقيّة جيوش مشاة وفرسان السواحل على أهبة الاستعداد كان يتعلّق كلّه بفطنته في إدارة موارد أملاك الملك.

وعلى الرغم من عمري الصغير فقد كان والدي مصرّاً على تدريبي على عمله. كنتُ أرافقه في حملاته الدوريّة على امتداد حدود البحر المشؤومة في شواطئ تشاركوس برمِخوس، ماشتِل وإلْبُولْ دِ مِلْباس ومرتفعات بيلياريكوس ومونْتْرُوْي ممتطياً كفلَ جواده ويداي ممسكتان بالهدّاب الفضّي لسترته الصفراء، دون أيّة رفقة أخرى، على امتداد فراسخ وفراسخ، غير دوي الأمواج المثير أو صمتها الحذر. من البرّ كنّا نتفحّصُ بقلقٍ كلَّ شراعٍ يخدشُ الأفق وكانت تخفقُ

في منظارنا أحياناً ثياب المسلمين بألوانها غير المتناسقة، المضطربة فوق جسر بعض المراكب البعيدة، التي كنّا نحدسُ فيها النظرة الجشعةَ والجسورة لرئيس على الطرف الآخر من منظارٍ مُماثل.

كذلك كنّا نتأكّد من الرعب الذي يمسك بتلابيب حرّاس المراصِد. فرضَ والدي على نفسه في البداية مبدأ مباغتتهم ليتحقّق من قيامهم بواجباتهم، يقترب بحذرٍ من السلّم ويرافق إقحامَ رأسه غير المتوقّع في الكّوة بيمينٍ حانق. أكثر من مرّة كانت لعناته تُدوّي في الحظار المهجور، حيث لم يجد غير بعض قناني الأغواردييِنْتِ، فالحرّاس قد غادروا مواقعهم ليناموا سرّاً في حمى المدينة، لكنّه كثيراً ما كان يقع حين يُطَلّ بوجهه من فتحة المرصد على حارسين مذعورين متكوّرين بقرب الجدار ونظرهما معلّق إلى ارتعاش نورِ شمعةٍ أو فتيل قنديل زيتٍ مرتعش.

كانت هذه الانطباعات كلّها تُفرِّغ روحي من ذكرى بحر الطفولة الساطع، الوافر الوعود ليتسلل مكانه بحرٌ جهمٌ ومتوعِّدٌ كمستنقع، لا يسمح عمقه القليل إلاّ بإبحارٍ ساحليّ. قوافل طويلة من البغال العملاقة، بعيونٍ لا مبالية، محمّلة إلى أقصى حدٍّ، تنقل القمح والشعيرَ والذرةَ والقنّبَ والكتّانَ ، التي تنتجها سهوب بِرا وكذلك فضّة ورصاص الجبال إلى الرصيف.

في مياه ذلك الميناء، التي يهزّها تنفُّس العالم الخارجيّ كانت تغرقُ أفكاريَ السوداء. جميعُ صيّادي قوارب الشبك والصنارة وكذلك بحّارة الشاطئ خدموا في البحريّة الملكيّة التي كانت تواجه القرصنة، ذلك أنَّ هذه الضريبةُ كانت شرطاً لا غنى عنه للحصول على التسجيل الذي يؤهّلهم لممارسة مهنتهم. بعضهم كانٍ قرصاناً. اكتشفتُ أنَّ هذا النشاط لم يكن يقتصر على المسلمين، فكلُّ سفينةٍ، حتى المتواضعة يمكن أن تكون مُجهّزة بمدفعيّة وينطلق قبطانها، بعدَ أن يطلب رخصة قرصنة من إدارة التموين والإمداد البحرية، إلى البحر ليحصل على منافعه الخاصّة ويمدَّ التاج بالعبيد لدور الصناعة، ومناجم ألمادِن (المعادن) أو الأشغال العامّة. بعضهم كان ضيفاً مُكرها على السجونٍ الملكيّة ويشتغل في إمدادها وتموينها. قليلون منهم من كان يتذكرُ مشاقّ الأسر في مدن الضفّة الأخرى. لقد استطاعت حكاياتُ أولئك

الرجال العزّل أن تُبعِدَ الخوف عن الطفل المذعور الذي كنته آنذاك، محوّلة الخوف إلى أملٍ.

كنتُ أصغي مذهولاً إلى قصّة مغامراتهم ومحنهم التي لا تنتهي ويتشابك فيها الحظّ السعيد مع الفجائع، مع انسيابِ الدم في العروق، وتتالى فيها السعادةُ والشقاء بالطبيعة ذاتها التي تعقبُ فيها النهاراتُ الذهبيّة الهادئة هياجَ الرياح العاصفة في البحر. وبفضول مسحور ومرتبك لطفلٍ معتادٍ منذ المهدِ على حياة مستقرّة وهيّابةٍ أيضاً، أمّنته أسرتي من أكثر أخطار القدر تطرّفاً، كان خيالي على استعدادٍ دائمٍ للانطلاق خلف كلماتهم. تَبِعَهم، مرتعشاً حتى عتبة الغروب حيث تنتظرُ زخّة من رصاص، شعرَ بطقطقة الخشب الجافة للشراع الأكبر الذي يخنقه المردي المحدّب للحديد الذي يبدأ الرسوّ، تعرّف على وجوه الغرقى والمفقودين، تتألّب عليه ذكرى قبورٍ من ماءٍ، طار في الهواء على المركب الذي تحطَّمَ فوق الجروف واختبر حزن الإنسان الذي ينام حرّاً في قارّة، ويستيقظ مكبّلاً بالقيود في مكانٍ آخر مختلف.

لكن وبفضل الخيال الكريم والمنهك لذلك الطفل، الذي كانت الحياة بالنسبة إليه أفقاً أكثر من أيّ شيءٍ آخر، حصلتُ على حصّتي من الغنيمة؛ على أثمنها؛ على الأحلام. نقل إليّ أولئك الرجال من ذوي الأصول المتواضعة دون أن يدروا تقريباً افتتانَهم بحياةٍ لم تكن حرّية الفعل وإمكانيّة الثراء فيها وهماً. كانوا يتحدّثون بإعجابٍ مماثلٍ عن القرصان الميورقي بارتِلُو، الذي رُقِّيَ توّاً إلى أمير بحرٍ للأسطول الإسباني، وعن الرؤساء الأعداء الذين لم يغفلوا قَدْرَ أصولهم. بعضهم كان يأتي من تركيّا أو المغرب، لكنَّ معظمهم وُلِدَ مثلهم في مهودٍ متواضعة ومسيحيّة. أندلسيون، كالابريّون (نسبة إلى كالابريا في إيطاليا)، سردينيون(نسبة إلى جزيرة سردينيا)، فالاكيّون (نسبة إلى فالاكيا في رومانيا) بوهيميون (نسبة إلى بوهيميا، قطلانيون، جنويّون، صقليّون، مرسيليّون، يونانيون، فلامنكيّون، كناريّون، برتغاليّون بورغونيّون (نسبة إلى بورغونيا في فرنسا)، قشتاليّون، بالثاريون وبريتونيّون ونابوليّون بل وحتى حبشيّون ومن مناطق يسيطر عليها برِستِ خوان وهنود إسبانيا الجديدة، تدبّروا ثرواتهم في مدن الجزائر وطرابلس وتونس العالميّة. كانت تلك هي المرّة الأولى

التي أسمعُ فيها كلمة مرتدّ التي سأصطدم بها مع مرور الزمن في ظروف مختلفة جدّاً وسأرمى بها مثل سهم.

ومع ذلك لم أكن مرتدّاً قطّ. على الرغم من أنَّني تعرّيت من الملابس المسيحيّة واتخذت لسنواتٍ هيئة وسلوك المسلم باسم علي باي، وقد شعرتُ دائماً تحتَ هذه الملابسِ أو تلكَ بالعريِ الشديد للجسد ذاته. ألم يتقاسم باديّا وعلي باي التنفّسَ الواحد والعضلات ذاتها والعينين الوحيدتين؟ هل كانت متع وآلام باديّا مختلفة عن متع وآلام علي باي؟ لم يستعبِد أحدهما الآخر قطّ. فباديّا وعلي باي تقاسما بالتساوي قناعاتهما وشكوكهما. لم يتقايضا إيماناً بآخر مختلف كما يُتَقايض ترس أو ريالٌ بقيمة ثمانية بعشرين ريال من خليط الفضّة والذهب. عندما كانا يتشاطران الاسم ذاته ويختلطان في الشخصيّة ذاتها للطفل الذي لم يتشكّل بعد، بدأا يفهمان في مرفأ غاروّتشا، أنَّ بحر الأسرى ذاك كان أيضاً بحر الرجال الأحرار. قليلة هي المناطق التي كانت تعيشُ رعباً وقلّة أمانٍ لهما ذلك الاستمرار، لكن ما من منطقة واحدة منها يمكن للجسارة والاندفاع والحزم أن تستمرّ فيها أمام عائق السلالة، الجنسيّة أو الدين. كانت الحرّيّةُ بالنسبة للكثيرين من أولئك الرجال شعوراً بسيطاً،وشفّافاً، يحلّ محلّ القوانين ويضع مكانها خليطاً من الحميّة من أجل الحياة وازدراء للموت. لذلك لم أكن قط مرتدّاً فأنا لم أتخلّ قط عن ذلك الإيمان الجوهري، عن تلك العاطفة الأوّليّة التي قد تشوّش القلب المشترك بين باديّا وعلي باي.

الفصل الخامس

تمثال الملك النصفي

منذُ أن وصل الملك الطيِّبُ، بأنفه الطويل الأبيض وعينيه الرخاميّتين اللطيفتين، صار هناك في بِرا قَبْلُ وبَعْدُ. على الرغم من أنَّ أكثر التبدّلات جوهريّة كانت داخليّة فإنَّ تقدير مظاهرها المرئيّة لم يكن صعباً على فتىً شديد الملاحظة. كنتُ أثناء عبورنا شوارع المدينة في الطريق إلى المدرسة أتبيَّنُ يوماً بعدَ يوم كيف كانت الزفرات والتذمّر من مصاعب الحياة وأدعية الشرّ إلى القدير العالي تصمتُ أمام الضحكات الطازجة لفتيات يمررن وفرحةِ شفاهٍ تُغنّي خلف مشربيّة شبّاك، أو صلابة خطواتٍ تبتعد خفيفةً باتجاه العمل. كان السكّانُ العبوسون والبؤساء إلى حدٍّ التشوّه حتى تلك اللحظة قد استعادوا شبابهم وأزهروا كأشجارٍ ونباتاتِ تلك المنطقة بعد شتاء طويل.

كنتُ في الثالثة عشرة من عمري ومُعفى معظمَ الوقت من ارتداء السترة بسبب الحرّ. كنتُ أرتدي سروالاً أزرقَ ضيقاً، وجبّةً بيضاء، تقطعها شريطةٌ خضراءُ تحمل وساماً فضّياً فيه قلبٌ يصدر بريقاً يُحيطُ به إكليل من الغار وكتابة تقول: «أطيرُ، أضطرمُ وأتكلَّلُ». إنّه وسام مدرسة اللاتينيات الذي فزتُ به في الامتحانات العامّة الأخيرة.

أُجانب الحقيقة لو قلتُ إنَّ الانطباعات البسيطة والعفويّة المتولِّدة من الاحتكاك بالبحّارةِ والصيّادين الأمّيّين في غارُوتشا شكّلت الأساس

الوحيد لتربيتي.لم تكن نظرتهم الصريحة وغير المواربة للحياة الممكن الوحيد على شاطئ القراصنة المنهك. كانت قد تأسَّست قبل وصولنا إلى بِرا جمعيّة أصدقاء البلد، الشبيهة بتلك التي قامت في باسكونغاداس ومدريد. كانت الطبقات المتنعِّمة ملتزمة بمشروع مثير، وسبق لمجلس قشتالة أن أرسل بعض النسخ من *خطاب تنمية الصناعة الشعبيّة*، لبدرو دِ كامبومانِسْ. كان البذرة، وما من كتاب أثار مثل ذلك الحماس قط. فقد فتنت أفكارُهُ أكثر أهل بِرا تنوُّراً. نشروها بحماس أيقظ في شهورٍ قليلة شعباً نائماً.

لم تكن الروح الحرّة الجماعيّة لتستطع التروّضَ حتى ذلك اليوم غير المنتظر إلا في أخويات الإحسان أو امتهان عملٍ في الأديرة. لكن لمرَّة واحدة توحّدت إرادة النبلاء ورجال الدين وضباط الإدارة والتجار ومعلِّمي المهن حول مسألة على علاقة بالسعادة الدنيويّة. وحده العمدةُ، الرجل الخبيث والتسلّطي بشكل أعمى، اعترضَ، وكان في كلِّ مرَّة يجدُ فيها نفسه مجبَراً على قول نعم يضطرُّ، كما يؤكّدون، للبحث عن الكلمة في قاموس يعلوه الغبار، فقد اختفت النِّعَمَ من ذاكرته بسبب عدم الاستخدام. لم يستطع عمل شيء ضدَّ تمثيل مرخَّص من المدينة ويمثل الغالبيّة غير رفضه السماح لهم باستخدام قاعات البلديّة لعقد الاجتماعات.

وكانت الجمعية آنذاك قد كلَّفت أكاديمية سان فرناندو في مدريد بتمثال نصفيٍّ للملك كارلوس الثالث. وقد استُقبِل يوم وصوله إلى بِرا بسعادةٍ طافحة. حملوه على الفور إلى كنيسة نوسترا سنيورا دِ لا إنكارناثيون (سيِّدة التجسيد)، حيث يُحتفَظ براية الملكين الكاثوليكيين. وضع هناك على يمين الإنجيل وتقدَّمته تسبيحة الشكر *والصلاة من أجل الملك* على شرفه. اجتمع الأعضاءُ بعد القدّاس الديني في الفناء ونقلوا في موكب التمثال المهيبَ إلى دار البلديّة. في الطريق انضمَّ إليهم عفويّاً بعضُ ضبّاط وجنود فرقة فرسان السواحل في موكبٍ مُرتجَل. على السور أمرَ قائد الحرس بإطلاق مدفعيّة التحيّة العسكريّة فأطلَّ العمدةُ مغتاظاً من الشرفة، مجرّدَ السيفِ، مستعداً لمواجهة التمرّد. لكنّه أنزلَ السيفَ أمامَ مشهدِ الصورة الملكيّة والحشد المتحمِّس الذي

رافقها وخرَّ على ركبتيه؛ وبقي وحيداً تماماً في مواجهة المجتمع ووجدَ نفسه مُجْبَراً أخيراً على أن يُذعِنَ مثل قطرة ماءٍ وحيدةٍ لا تستطيع أن تصرّ على البقاء عالقة إلى غمامة تتحلَّلُ مطراً. فتح لهم بابَ دار البلديّة ومنحهم موافقته على استخدام القاعات في كلِّ مرّةٍ يحتاجونها فيها.

منحَ أكثرُ الناس عَوَزاً في بِرا التمثالَ الملكيَّ القدرةَ على القيام بالمعجزات. لكنَّ المعجزةَ الحقيقيّة حدثت عندما استطاع الكرم المتأجّج والمتراخي والمتجذِّر لقرونٍ عبر الإحسان المسيحي في طبيعة الطبقات الحاكمة في البلد أن تهزَّ الإذعان، وعدم التسامح والإهمال واستدعى لأوّلِ مرّة أنوار العقل لمساعدته. لم تكن أكثر الطبقات حظوة تحافظ على تطلُّعها إلى التخفيف من بؤس السكّان وجَعْلِهِ أكثر احتمالاً عبر مؤسّسات الإحسان والمساعدة، كما بقيت تفعل حتى ذلك الوقت وحسب بل أيضاً كانت مصمِّمة على الحدِّ من أسبابه. لقد تصالحت الرحمة والعقل وتبادلا الاعتراف بضرورة كلٍّ منهما، ذلك أنّه وكما أشار رئيس الجمعيّة بملاحةٍ أندلسيّة في كلِّ مرَّة كان يبتعدُ فيها النقاش عن الأهداف المقترحة: «سموُّكم أيضاً لن يكون على حق دون قلبٍ.»

انضمَّ والدي متحمِّساً إلى جلسات عمل الجمعيّة، التي كانوا يبدؤونها بصلاة *Veni Creator Spiritus* إلى ربِّ الأنوار وينهونها عند الانصراف بـ*لك الحمد، يا أبانا* *Agimus tibi gratias*. فقد وَجَدَ في ذلك جوّاً شبيهاً بجوّ المسامرات التي كان يحييها في برشلونة، مع ميّزة أنَّ الجمعيّة المشكّلة حديثاً حدَّدت مجرى دقيقاً لحمْلِ الكثير من أفكارها إلى التطبيق وساهمت كثيراً في نزع تقطيبه. ومع الزمن أصبح أميناً للجمعيّة.

استنبط الأعضاءُ خطّة هي بالفعل طموحة، همّها تشجيع الصناعة الشعبيّة. وقد انقسموا من أجلِ ذلك لعددٍ جيّدٍ من اللجان كانت تلفت الانتباه لسعة مجال عملها وتتقن مساعدة المرضى، وتشغيل الكسالى وتنشئة وتربية الأطفال والطفلات الفقراء وتحسين الزراعة وتربية الماشية، وإحداث مزارع الأشجار، والمسامك وزيادة الطرق والتجارة

الداخليّة وتطوير الملاحة ونشر العلوم والفنون المفيدة ودراسة التاريخ الطبيعي للمنطقة.

سرعان ما استطاعت مداولاتهم أن تنتشر على امتداد شارع النزهات القشيب، الذي كان يمتدُّ بين أشجار الحور حديثة الزراعة، خارج أسوار بِرا. وكان هذا أحد إنجازاتهم الأولى، الرمزيّة فعلاً، فقد أنعموا على المدينة وسكّانها من خلال أعمالهم المتتالية بالمعاملة التي يعامل بها جنائنيٌّ مجدٌّ حديقته. وكان التمثالِ النصفي للملك كارلوس الثالث شاهداً أخرسَ وأبويّاً على عملهم المُفيد. لم يكن باستطاعة التمثال، المبجّل، المنقول على حمّالاتٍ من هنا إلى هناك، أن يُغطّي الدعواتِ لترؤّسِ إصلاح المشفى، وتدشينِ المدارس المجّانيّة لفقراء الربضِ، وبدءِ الامتحانات العامّة في مدرسة اللاتينيّات أو افتتاح مشغل الحلْفاء الذي حصل على العمل فيه خمسمئة رجلٍ وامرأة دون مهنة.

وحوّل الشعبُ هتافاته إلى صلوات للتمثال النصفي للملك.

ـ ليس قدِّيساً! ـ كان يصرخُ دون دييغو رِيْنوسو، الكاهن المُنتَفِع من أبرشيّة بِرا وأحد أنشط أعضاء الجمعيّة ـ إنّهُ الملك!

كان دون أنطونيو تشاكون، ذو النزعة الفولتيريّة يحاكي إريارتِ.

ـ قال الثعلبُ للتمثال النصفي بعد شمِّه: رأسُك جميلٌ لكن لا مخَّ فيه.

كان الرئيسُ يختتمُ النقاش ساخراً.

ـ لِنُبْقِ، أيّها السادة، على أفكارنا بحماية شَعر جلالته الملكي المستعار.

كان بعض تلك الأفكار والمبادرات بسيطاً بقدر ما هو عقلانيّ، وهذا ما سمح لهم أن يحقِّقوا نجاحاتٍ كبيرةً بإمكانيات قليلة جدّاً. كانت الحلْفاء تنمو على سفوح الجبال المحيطة بِبِرا من تلقاء ذاتها، بين نباتات أخرى بريّة، ولم يكن هناك من يعرف كيف يقوم بالأعمال الضروريّة لتحضيرها لصنع الحبال، الأمراس، العدول، والأكياس، القفف، والنعال والأخفاف ومكانس السعف. استقصت الجمعيّة عن تقنيّاتها وأشادت معملاً قدّمت فيه هذه الأعمال التي كانت تتطلّب عدداً

كبيراً من العمّال، إمكانياتٍ متواضعة للمعيشة، وثروةً كبيرة من الكرامة للابسي الأسمال، والمياومين والكثير من النساء، اللواتي وَجَدْنَ أنفسهنّ حتى ذلك الوقت مُجبَراتٍ على جور التسوُّل من بابٍ إلى باب.

منذ حلول التمثال الملكي كعناية إلهيّة بدا وكأن العالم كلّه أصبح يملك مبرِّرات للشعور بالرضا. ساهم وجوده في خلق نوع من السلوك الخيري الفطِن والسريع عند المقتدرين كان من المحال التفكير به قبل أشهرٍ قليلة من ذلك. كانوا يرون في الرضا الجامد لوجه الملك الرخاميّ انعكاسَ جلالةِ أعمالهم ذاتها. وكان الفقراء يرون من جهتهم في الصورة المباركة نوعاً من القدّيس أقل جنوناً وأكثر فهماً ومهارةً من سادة الشعب التقليديين، يوجِّهون إليه أدعيتهم وطلباتهم.

ومع ذلك كنتُ أشعر، منذُ بعض الوقتِ، بالخوف في حضوره. أحسُّ، دون معرفة السبب، بنوعٍ من التهديد في النظرة الكمداء لتمثال الملك النصفي المُكلَّلِ بالغار، إذ يتصدّر قاعة مدرسة اللاتينيات في الأيّام التي لم يكن فيها ضرورة لأن يمضي لحضور بعض الأعمال الجماهيريّة. كنتُ أقرأ مرّة وأخرى الكتابة المنقوشة على القاعدة: من *أجل الأب الحقيقيّ للوطن وخيره*. كان يرعبني تصوّرُ شفتيه الساكنتين على وشك أن تنشقّا لتطلبا منّي تضحيةً رهيبة.

كنتُ حتى ذلك الوقت تلميذاً مثاليّاً، كما تشهدُ على ذلك الميداليّة التي تدلّت على صدري معلّقة إلى شريطة خضراء. كنتُ قد حصلتُ على درجات ممتازة في قواعد اللغة الإسبانيّة واللاتينيّة والتاريخ والإملاء والديانة والسياسة والأدب، وبخاصّة في الجغرافية مادّتي المُفضّلة. لكنّ المدرسة تحوّلت بالنسبة إليَّ في الأشهر الأخيرة إلى عقوبة. فقد أعطى والدي تعليماته لأستاذي، السيد مانويل سانتشِثْ، كي يشدِّد على الدروس العمليّة. ومنذ تلك اللحظة شغلت معظم ساعاتي الدراسيّة في تحرير الخطب وصيغ الكتابة الرسميّة المخصّصة للقيام بالمخاطبة العامّة.

كنتُ مُجرّد فتى. إلى أيِّ حدٍّ يمكن للغة الإدارة أن تكون مملّةً في الثالثة عشرة من العمر؟ كلُّ رعشة، كلّ اهتزازٍ صوتيٍّ غير محسوس، كان يشدُّ حواسّيَ بعيداً عن الورقة. تعلّمت تمييزَ كلابٍ بِرا من نباحها،

وتحديد عربات الركّاب وعربات النقل من صوت محاورها وهي تصعد منحدر الشارع بجانب نوافذ المدرسة.

السيِّد مانويل عانى أيضاً. كان أستاذاً جيِّداً ذلك السيد مانويل. بدا جافّاً، طويلاً، وكأنّنا كنّا نحن التلاميذ ننزع عنه لحمه عاماً بعد عام حتى تركناه هيكلاً عظمياً. كان يعتبرني واحداً من أفضل تلامذته، وحاول أن يُلمِّح لوالدي أنّه يرتكب خطأً.

ـ لا أريد أن أكون قليل أدبٍ، يا سيِّد بدرو، لكنّ لو كنت مكانك لوصفتُ هذا بالحماقة.

ـ حماقة، يا سيِّد مانويل؟ بالضبط لأنّه ذكيٍ وشره للمعرفة تقدَّم بإتقانٍ في موادّ أخرى ـ ردّ عليه والدي ـ دائماً كان عندي مشاريع دقيقة له. وسرعة تقدّمه قلّصت المدّة.

ـ أفهم ذلك، يا سيّد بدرو ـ قَبِلَ معلّمي بحزنٍ ـ أن يكون الواحدُ ابن موظَّفٍ في هذه الممالك كارثة.

أحتفظُ من تلك الشهور المضجرة بشكل خانق بالذكرى الحيّة لقلقٍ متواصلٍ ومثيرٍ للأعصاب. ذات يوم، أيّ يوم، تجتاز قدماي فناء من القرميد الأحمر. أصلُ متأخراً إلى المدرسة. ومع ذلك أتوقّفُ بجانب بركة المركز، حيث تذوب سماءٌ كثيفة وزرقاء في صفاء الماء وتلوّن انعكاسَ وجهي الواهن ويدي التي تمسك بالكتاب والجلد الذي يمكن أن يُقرَأ عليه: *أطلس الجغرافيا*.

كان الكتابُ سببَ تأخّري. هذا الصباح تلهّيتُ بالبحث في الأطلس عن سلسلةٍ من الأماكن التي تجري فيها الحربٍ التي أعلنها توّاً الفرنسيّون والإسبان ضدّ الإنكليز. تحلُّ سبّابتي محلَّ الأساطيل التي يتمّ البحثُ عنها، تترصَّدُ أو تهربُ في روشيل وسانسيريان، ورأس سان بيثنتِ. لكنّها دائماً تُنهي جولتها في جبل طارق. لا أحد يتكلّم في الفترة الأخيرة في بِرا عن شيءٍ آخر غير جبل طارق، حيث يحاصر السيّد مارتين ألبَرِثْ دِ سوتومايور، قائد حملات إيطاليا وألمانيا والبرتغال، المنطقةَ منذ حزيران بجيشٍ من ثلاثة عشر ألف رجل، بينما يحاصر رئيسُ الأسطول، القرصان القديم السيّد أنطونيو بارثِلُو، المضيقَ بحراً بفرقة من الشبّاكات الخفيفة. في بِرا لا أحدٌ يتحدّثُ عن شيءٍ آخر،

لكنّني كثيراً ما أسمعُ في بيتي اسم الدار البيضاء يُذكر، على شواطئ الأطلس المغربيّة، حيثُ افتتح السلطان سيدي محمّد بن عبد الله ميناءً جديداً، بجانب حقول قمح الزاوية، على أنقاض أنفا الخربة. ويسمح من هناك بتجارة الحبوب مع إسبانيا من خلال الشركة التي أنشئت لهذا الغرض بأرصدة من بنك سان كارلوس. يقولُ والدي إنَّ هذا التوريد ليس حيويّاً لمواجهة المجاعات التي تسبّبت بها المواسم السيّئة في الأندلس وحسب، بل ومن أجل تأمين تموين الأسطول الذي يحاصر المضيقَ والجيش الذي يضرب طوقاً حول الجبل. يساهم والدي منذ بدأ الحصارُ في تموين هذه القوّات، عبر البحر أحياناً، وينشغل أحياناً أخرى بنقل خضار وفواكه بِرا الطازجة وعسلها وشمعها في القفف التي يصنعها معمل الحلْفاء برّاً إليها.

جالساً على حافّة بركة الفناء أُحاوِلُ أن أتبينّ إلى أيّ حدٍّ تؤثّر تلك الأحداثُ على مصيري. أتأمّلُ متوجّساً انعكاسَ طيفي الملوَّن بزرقة السماء الممدّدة في الماء. يمتصُّ انشغال والدي الجديد كاملَ وقته وكثيراً ما يتأسّفُ لعدم استطاعته الاهتمام بالمسائل العاديّة في نطاق سلطته. أحسُّ بتهديدٍ خفيٍّ في شكاواه، التهديد ذاته الذي يفاجئني حين أنتبه إلى جسدي المغطّى بالأزرق فوق مياه البركة الصافية.

حين أتابع سيري حتى باب القاعة يصحّح المعلّم إنشادَ قصيدةٍ لغارثيلاسو. ينظرُ إليَّ بحزن دون أن يقولَ شيئاً. أتلعثم بذريعة لتأخّري، وأجري إلى طاولتي وأفتحُ مثل الجميع *مختارات النثر والشعر لأشهر مؤلّفي اللغة القشتاليّة*. أبحثُ عن الصفحات المخَصَّصة لغارثيلاسو.

ـ أنت لا، يا باديّا. فأنت تعرف تعليمات والدك. حضّرتُ لكَ تمارين خاصّة. سوف تكتب مُذكّرة حول ضريبة التبن والمعدّات.

غرزت نظري بامتعاضٍ في التمثال الملكي الذي يتصدَّرُ الغرفةَ وقرأت ليوم آخر الشعار المنقوش على القاعدة ولا تفسير له: *من أجل الأبِ الحقيقيّ للوطن وخيره*.

بعد أسابيع قليلة بدّلتُ لباسي الموحّد. جرّدوني من ميداليّة مدرسة اللاتينيات وشريطتها الخضراء. سلّموني سترةً زرقاءَ من القطيفة،

مشدودة إلى الجسد وسروالاً أزرقَ أيضاً، يتجمّع في أسفل الركبة مع طماقين كتّانيين ، يغوصان بدورهما في حذائين أسودين بأبازيم مزيّنة بالصفيح المُذهّب. ويتوّج كلٍّ هذا القناع قبّعة مثلثة، واسعة أكثر من اللازم، سيئة الاستناد إلى الجبين، وخصلة قفا الرأس المزينة بالشرائط، وعند أقلّ غفلة تنزلق فوق عينيَّ حتى يصل شعارها الأحمر إلى مستوى أنفي.

أقسمتُ وأنا أرتدي هذا اللباس يمين منصبي أمامَ التمثال الملكي. كانت أوامرُ الملك كارلوس الثالث قد خفَّضت سنَّ الدخول في الجيش لأبناء الضباط إلى اثني عشر عاماً. وكنتُ قد أتممتُ توّاً الرابعة عشرة وحصل والدي من جلالته على تعييني مديراً للتعيينات في شاطئ غرناطة.

الفصل السادس

بِرّوثو

كنتُ أذهبُ إلى المكتب وظلام الليل ما يزال سائداً فألمحُ من النافذة المواربة شارعاً مقفراً، يضيئه نور باهت ما يزال بعيداً. كان عليَّ بسبب مطالب والدي أن أكونَ أوّلَ من يصل وبعد دقائق من الصمت والغموض؛ ينهضُ الفتيان اللذان ينامان في المخزن المجاور فأسمعهما ينفخان وهما يرشقان وجهيهما بماء الجفنة البارد. يُفتَحُ الباب فتسمع في الغرفة طقطقة خطوات الكاتب، الذي ينسلُّ إلى طاولته فيُدخل يديه الصفراوين في تحويم من الورق بوجه جعِّده ونفخه تركيزٌ ناعس.

كانت نواقيسُ كنيسة نْوِسْتْرا سنيورا دِ لا إنكارناثيون ونواقيس دير لوس مينيموس تُقرعُ في النور المتنامي، الذي يبدأ يُوسّع الشارع؛ تجيبها أحياناً مطرقة تهوي على سندان، مفتاحُ قاسٍ يفتحُ باب الحانة ذا الدرفتين، وعبق دكاّن البهارات المختلط بضجيج باعة القفف الذين ينادون على السمك الطازج، والفتية الذاهبين بصخب دونيَ إلى المدرسة.

كان يطلُّ أحياناً وجهٌ حذرٌ من باب المكتبِ المشقوق ويشتعل زوجٌ من العيون الماكرة بخبثٍ، بعد تفحّصي والتأكّد من أنّني مجرّد طفل.

- هل تسمح، أيّها السيّد المُدير؟

على الرغم من أنّني كنتُ أضطرُّ لأن أرتقي زوجاً من الوسائد السميكة للتمكن من الاستفادة بشكل مريح من طاولة المكتب، كان منصبي يتطلّبُ منّي أن آخذ على عاتقي مهام جمع الضرائب وإدارة الإمداد والتموين العسكريّة في آنٍ معاً. كان على القرى التي تمرُّ بها الجيوش، قبل وضع ضرائب التبن والمعدّات، أن تؤوي الجنودَ وتزوّدها بالتبن والضوء والحطب والزيت والخلّ والملح والفلفل، إضافةً إلى مبلغٍ من المال للضبّاط. ولتفادي التمادي الذي كان يحصل عند توزيع هذا العبء على الأهالي فقد استُبْدِلَ إيواء الجنود بضريبة نقومُ نحن مديرو الإمداد والتموين بتحصيلها واستخدامها في نجدة الجيوش.

كنتُ أُسجِّلُ كلَّ يوم في دفترٍ، طبعاً تحت مراقبة والدي الصارمة، الدخولات المحصّلة وأوامر الصرف لتزويد قوّات الحامية، والوحدات العسكرية العديدة التي تبيتُ في المدينة في طريقها إلى الانضمام إلى محاصرة جبل طارق.

لكنّني لم أكن لأستطيع دائماً الاحتماء بوالدي. فواجباته كانت تجبره على السفر باستمرار، فقد بدأ يهتمُّ آنذاك بتموين حاميات شمال أفريقيا؛ فأجدُ نفسي مُجبَراً على مواجهة مموِّني الجيش ومطالب الضبّاط بعيداً عن وصايته. كان عليَّ أن أواجه أناساً غلاظاً ومجتهدين، وبما أنَّ وجهي كان ما يزال أجرد فكثيراً ما كنتُ أدفعهم إلى التحايل أو التكبّر.

بهذه الطريقة القاسية ختمتُ طفولتي. عرفت أقلّ وجوه الحرب بطولةً، لكن ليس أقلّها جرأة، وجه أولئك الذين كانوا يحوِّلون العذابَ إلى تجارة أو امتياز. وتعرَّفت في وجه والدي نفسه على تناقض وعجز الناس حَسَني النيّة، الملتزمين بالإصلاح العقلاني والدقيق للإنسان والدولة. أنا نفسي، المختار الذي لم ينضج بعد لعملٍ يتطلّبُ شخصيّة متشكِّلة، كنت مثالاً لهذا التصرّف الذي يشوِّه التجديد الذي شُرِعَ به في إدارة الشؤون العامّة، والذي طالما سمعتهم يمتدحونه في اجتماعات الجمعيّة الوطنيّة في بِرا.

بعيداً عن أن أشعر بنفسي مكرَّماً بتلك الوظيفة انتابني إحساس بأنّني سجينها. كنتُ أصغر من ألا أكره ما كان عندي من قالب ينزع لقولبة طريق حياتي للأبد.

صحيح أنّني سرعان ما شعرتُ من جهةٍ أخرى بشهوانيّة التحدّي، مع أنّني كنتُ أعاني وأجد نفسي ضائعاً. كان والدي يؤنّبني عند عودته من أسفاره على صرامتي كما على ضعفي. لم تكن توجدُ قواعد، أو بالأحرى هناك دائماً استثناءات لكلّ القواعد. والوظيفة تفرض علينا ملاحظتها وأخذها بالاعتبار. الأوامر التي كانت تخنقنا بها الحكومة من مدريد تتحجّرُ تحتَ غبار رفوف المكتب، وتعاود نشاطها في التعامل اليومي على الغالب تحت حرارة هذه التوصية أو تلك الكنية.

اكتشفتُ حليفاً في الدهشة التي كانت تثيرها سنوات عمري القليلة. كان الطموح أو الشراهة تتعرّى من حذرها المعتاد. ما من راشدٍ يثبت على فكرة مهما كانت متواضعة عن نفسه يستطيع أن يتصوّر أنَّه يمكن أن يسخر منه صبيّ. انتصاراتي الصغيرة حقّقت لي الاحترام القليل الضروريّ لممارسة منصب محميّ من السلطة.

وبما أنّه لم يكن يُنْتَظَر منّي شيءٌ، فقد تضخّمت في مخيّلة أعضاء الجمعيّة الوطنيّة في بِرا علائمُ العبقريّة والتطبيق أو المنافسة التي كنتُ أظهرها. وأولئك الذين استنكروا تعييني هنّأوا أنفسهم بالعمل التربوي الذي شرعت به الجمعيّة، وكان يسمح بالحصاد المبكّر لباكورة جيلٍ جديدٍ جيّدِ التعليم والإعداد.

أفسحوا لي الطريق إلى مسامراتهم التي بدأ رأيي يُسمع فيها باستلطاف سعيد. عانى مزاجي، الهشّ وغير المشكّل بعد، من حصار المدائح المفرطة. أعترفُ، حتى اليوم، وبعد كلّ هذه السنوات، بأثر ذلك الانتصار السهل والمُبكِّر في تلك المداخل إلى الخيلاء، والتي لم أستطِع التخلّص منها كلّيّاً قط وجعلتني أعاني مجرَّدَةً ،في لحظاتٍ كثيرة، حياتي من واقعها الصحيح والشرعي. الواقع! كم تمنّيتُ دائماً الإحساسَ بحضوره الخالص وتقدير وزنه الدقيق!

لكن بإسكات الصوت الداخلي، الحقيقي، صوت الطفل الذي كنتُه، الذي يهذرُ أمام أولئك الفرسان المسحورين، كان الثرثار المغرور الذي يتأمّلُ العالم بالعيون الغريبة للضبّاط العابرين بالمدينة، ويردِّدُ أراءهم حول أكثر موضوعات الحرب وأخبار صروفها اختلافاً حيث سنحت له الفرصة لسماعها أثناء ساعات العمل في المكتب، يتقيّؤها. وإذا لم أستسلم كلّيّاً للاغترار فالفضل في ذلك يعود لصفقة باب.

كانوا يقدّمون كأساً من المرطبات في بيت السيّد مانويل كورتِس دِل أغيلا، وأنا أحاضرُ سماعاً حول بطاريّات الطافية التي اخترعها الأميرال البحري بارتِلّو لرمي المنطقة. امتدحتُ فعاليّتها وختمتُ مؤكّداً بأنّ الإنكليز سيضطرّون للاستسلام خلال بضعة أيّام، تماماً كما كان يروقُ لمستمعيَّ أن يسمعوا.

ـ لا أظنُّ ذلك ـ أكّدَ بصوتٍ حادٍّ وجهٌ قبيحٌ ومُهملٌ، شوّهه شعرٌ مستعارٌ رُتِّب بشكلٍ سيّئٍ وغزا الجبهة العريضةَ محاولاً أن يطال الحاجبين الكثّين، يبدو أنّ عنقاً قوياً كعنق الثور يمدُّه بالطاقة ـ جميعنا نعلم أنَّ الأميرال البحري رودني استطاع أن يسخر من الحصار بعد أن هزم أسطول لانغارا وزوّد الحاميةَ بالمؤن والمعدّات والقوّات. العِلمُ يهزمنا، أيُّها السادة. بماذا نستطيع أن نواجه عِلمَ الملاحة الإنكليزي؟ فقط ببعض المراكب المجهّزة بالمدفعيّة، المبنيّة بأخشاب سفن قديمة مكدّسة في شروم تروكادِرو.

عندما نهض ورحل هدّت طرقةُ بابه ثقتي الوهميّة بنفسي وأعادتني إلى ما كنته في الواقع: صبيّ حائر، طافح بالاهتمام والفضول بالحياة.

من بين كلِّ أولئك الرجال، معظمهم كان أكبر منّي، الذين شجّعوا نجاحاتي، وحده بِرّوِثو من سأعقد معه صداقة متينة. قامت بيننا واحدة من تلك العلاقات التي تقلِّص المسافة أحياناً بين الشيوخ والشباب. رأى بِرّوِثو فيَّ الشخصَ القادرَ على تحقيق كلِّ ما لم يستطِع هو تحقيقه. كان له قلبٌ نبيل وذكاء متّقد، على الرغم من تواضعه، تسيطر عليه بعضُ الأفكارُ الأوّلية القليلة، ملخّصها الإيمان الأعمى بالعلوم. فضولٌ غريبٌ كان يدفعه ويوجِّهُ انتباهَه من ذلك المكان المعزول جدّاً على شاطئ إسبانيا الجنوبي نحو مكتشفات العصر العلميّة، اكتشاف تركيب الهواء والماء، السفن الفضائيّة الأولى، تطبيقات الكهرباء والبخار المذهلة وتقدّم الطبّ.

رجلٌ بسيطٌ، يحاصره وعيُه المُعَذِّب لمحدوديته، يتأسفُ لأنّه لم يستطع أن يحصّلَ في شبابه المعارف الضروريّة التي كان من الممكن أن تسمح له بهضم بعض المكتسبات التي ما تزال بالنسبة إليه لغزاً

نظراً لجهله بالأفكار الأساسيّة للرياضيّات والفيزياء. لكنّ خيبته لم تمنعه من الإعلاء من شأن كلّ هذا الذي لم يتمكّن من فهمه.

كان بيتُهُ في بِرا مركزَ اجتماعٍ لمن يحلمون مثله بإمكانيّات العلوم غير المحدودة، تُشرحُ فيه بحماسٍ أكثر ممّا ببصيرة مع حلول المساء وعلى ضوء الشمعدانات بواكيرُ العلم التي تنشرها *لاغازيتا* دِ مدريد و*إلـ* مركوريو وما تتضمّنه من جديد المجلات الأجنبيّة، التي تأتي بها سفن الرحلات الساحلية من قادش.

كانت النقاشات تمتدُّ حتى ساعة العشاء. ما أن تُعلن الساعة العاشرةَ حتى تُطلّ ابنته من باب القاعة برأسٍ أسمر وشعرٍ أجعد. تنظرُ إلينا بعينين واسعتين وحيويّتين، تبتسم وتهمس بصوت خافتٍ جداً، لكنّه رنّان:

ـ أيُّها السادة.

فينهضُ المتسامرون كما لو بنابضٍ يودِّعُ بعضهم بعضاً إلى اليوم التالي. كان برّوِثو يوقفني.

ـ أنت لا، يا دومينغو. ابقَ معنا برهة أخرى.

ثمَّ يأخذني من ذراعي ويقودني إلى الغرفة المجاورة حيث جمع بعضَ الكتب الجيِّدة.

ـ أليس صحيحاً أنّك انتبهت إلى أننا نقول ترّهاتٍ؟ عليك أن تعذرنا. نحنُ ضحايا تربية مشوّومة. نسمح للخيال أن يحملنا كي نعوِّضَ جهلنا بعملِ الطبيعة. لا أريدُ أن يحدثَ معك الشيءُ ذاته. كلُّ هذه الأعمال تحت تصرُّفك. أعترفُ لك أنّني لا أتمكّن من الاستفادة منها. أو بالأحرى هي لا تتمكّن من الاستفادة منّي.

سمحت لي مكتبته بالاطلاع على الجبر، الهندسة، الفيزياء والكيمياء، لكنَّ بساطته كانت أكثر حسماً بالنسبة لبنيتي المعرفيّة. كان يؤثِّر بي أن يكون ذلك الرجل ذو الفضول الكونيّ قادراً على التصريح دون مواربةٍ بجهله الكونيّ. وكان يجبرني حين يُصرِّح بحزنٍ يوازي الصدقَ أنّه لا يتمكّن من تمييز المبادئ التي تحكم الكهرباء وعلم الملاحة المنطاديّة، على تفسير تلك الظواهر لنفسي. لقد قادتني صراحته إلى تبنّي المنهج العلمي.

معاً كنّا نُدْهَش، كما كانت تُدْهَشُ أوروبّة بكاملها، من خبرِ صعود أوّل منطاد. فقد استطاع الأخوان جوزيف وإيتيين مونتغولفيير باختراعهما من الصعود في الجوّ بسرعة وارتفاع كبير. من لم يعِش لحظات الملاحة المنطاديّة الأولى يصعبُ عليه أن يتصوّر التفاؤل بتحقيق ذلك الحلم القديم والتفاني بالتنافس الذي خلقه بيننا.

كنّا نقرأُ في حلقات السمر في بيت بِرّوِثو الأخبارَ اللامعة والدقيقة عن التجربة التي لا ترافقها أيّة رسوم توضيحيّة.

- يا صغيرة، ماريّا لويسا! هاتي زجاجتين من أفضل نبيذ عندنا كي نحتفل بالخبر - أمر بِرّوِثو ابنتَهُ - ما هو شكل الجهاز؟ أنا أتصوّره مثلَ غيمة.

وبما أنّني ضحكتُ نظر إليَّ مهاناً.

- اللعنة! لم أفهم كلمةً واحدةً، أليس كذلك؟ أودّ لو أنَّ الفارس الصغير باديًا يرأفُ بحالي ويشرح لي كيف يستطيع جهاز محمّل بجسمين عملاقين أن يرتفع عن الأرض بوسائله الخاصّة.

- تمعّن بالدخان الصادر عن الشموع - أجبتُ مشيراً إلى شمعدانٍ - يا للخفّة التي يرتفع بها في الهواء! إذا استطعنا أن نحصر كميّة كافية منه في مُغلّفٍ خفيف، فالمجموع يجب أن يرتفع أيضاً.

- يبدو بسيطاً - قَبِلَ بِرّوِثو مندهشاً- لكن كيف نعمل مغلّفاً بهذه الرقّة؟

- يملك الأخوان مونتغولفيير، بفضل معملِ ورقِ والديهما، الوسائلَ المناسبة لبناء منطاد من هذه المادّة. لكنّهما عند القيام بالتجارب الأولى على مناطيد مصغّرة اكتشفوا أنها تهبط بعد الارتفاع إلى الأرض حتى ولو لم ينته الدخان البارد من داخلها.

- كيف يمكن هذا؟ إنّه يناقض ما شرحته لي.

- صحيح. لذلك استنتجوا أنَّ الذي يُحدثُ الصعود ليس الدخان، بل الهواء الساخن. وعندئذٍ وضعوا فرناً صغيراً في القسم الأسفل من المنطاد، يُغذّى بالتبن الرطب والصوف المشتعل، لإطالة ديمومة النار وبالتالي الطيران.

- بربارا، ثِلارِنث، داريي وفِرّو! ما فائدة القياس المنطقي أمام

الذكاء العملي؟، إنّه أمر بسيط، يا دومينغو! اعترف بأنَّ الفكرة بسيطة جدّاً، يا دومينغيليو. خاصّة حين تُفهم. ليست مثل علم ما وراء الطبيعة، الذي كلّما توغّلت فيه أكثر أصبح أكثر غموضاً، وافتراضاً وخيالاً. ياصغيرة! يا ماريّا لويسا! هاتي هذا النبيذ بأسرع ما يمكن!وانضمّي إلينا لتشاركي الإنسانيّةَ انتصاراً عظيماً وتشاركي والدك اليوم المشهود الذي استطاع فيه أخيراً أن يفهم تفسيراً علميّاً. آهٍ، يادومينغيَ العزيز، شكراً لك على توضيحك لي بساطةَ الطبيعة.

عندما عانى الفرنسي بوش في العام التالي من حروقٍ أثناء محاولته الصعود لأوّل مرّة في إسبانيا، في حدائق أرانخوِث، مثل بِرّوِثو في مكتبي مُنهَكاً، يهزُّ بيده نسخة من لاغازيتا التي تروي الخبر.

- قلْ لي الحقيقةَ، يا دومينغو. هل أنت واثقٌ تماماً من صحّة النظريّة التي علّمتها لي؟

- تماماً.

- أنا رجل شرف. وكرّرتها مرّاتٍ كثيرةً! لا أريد أن أكون قد ساهمتُ في الظلاميّة والشعوذة بنشر سلسلةٍ من الحماقات. قل لي ما الذي يمكن أن يكون قد جرى للفرنسي. لماذا لم يصعد المنطاد؟

- بسبب حادثٍ مأساوي. ففي لحظة الإقلاع نسي العاملون أن يقطعوا أحد الحبال التي تشدّ المنطادَ من قسمه العلوي فانقلب ودار حول نفسه وانتهى إلى أن لفّته النيران.

- إذن هل أنت على استعدادٍ لأن تُقسمَ بشرفك أنَّ النظريّة صحيحة تماماً؟

أقسمتُ له أنّنا سنشيد ذات يومٍ معاً منطاداً لأبرهن له على ذلك.

لم يكن غريباً أن نُشغَف أنا وهو بعلوم الملاحة المنطاديّة التي تبعدنا عن الأرض، وتقدّم لنا منظوراً أوسع للعالم الذي نعيشُ فيه، وكأنّنا نتأمّله لأوّلِ مرَّةٍ. إنّها رؤية غريبة. كلُّ شيءٍ يجري، والعالم موجودٌ بمعزلٍ عن وعي الإنسان الذي يطيرُ فوقه مثل عصفور.

يمدّنا الزمن أحياناً بمنظورٍ مماثل. تنصهر الذكرياتُ أحياناً في صورةٍ وحيدةٍ، تلقائيّة، شاملة ينكشف فيها الماضي في لحظة. تحلّق

الذكرى الآن تحت أهدابيَ المطبقة فوق شوارع بِرا، خدر الجدران التي تسوطها شمسٌ قاسيةٌ وغبارٍ جافٌ وكسول فاجأته ريحٌ مباغتة في شقوق الأرصفة فطفا محتدماً في الهواء.

لا أحد في الشارع. لكنّني أستطيعُ التعرّفَ في الجوّ العكِر والساخِط على مرارة تلك الأزمنة الكئيبة التي عاد فيها الرجال واستكانوا، يداً فوق يدٍ وعادت النساء ليتسوّلن من بابٍ إلى باب، ملفّعات بثياب الحداد يتنهّدن في الدهاليز والأطفال، كأنّهم منوّمون مغناطيسيّاً، لا ينتبهون تقريباً إلى أنّهم فقدوا السعادةَ ويبتهجون ويلعبون ألعاباً هي في كلّ مرّةٍ أكثر قسوة. قبل أيّام منع أمرٌ ملكيّة نقل الحلْفاء أغصاناً خارج حدود الممالك إلى مناطقَ السيطرة الأجنبيّة. قضى المرسوم بضربة ريشةٍ على جهدٍ حقّقته الجمعية الوطنيّة على امتداد سبع سنوات، لأنّها لا تملك الإمكانيات لتحويل الحلْفاء إلى منتجات مصنّعة هي الوحيدة التي يمكن تصديرها.

تصادف ذلك مع نهاية الحرب. لم يُحصل على جبل طارق، وحُصِل على مينورقة، التي كانت في أيدي الإنكليز منذ حرب الخلافة. وقِّعت مُعاهدة في فرساي مرضية تماماً. حصلت المستعمرات الأمريكيّة الثلاث عشرة على استقلالها وتمسّك الإنكليز بكندا فقط؛ وإسبانيا مدّت نفوذها حتى فلوريدا، وعزّزت وجودها في أريزونا وكولورادو وكاليفورنيا، محتفظة كذلك بحقوق الإبحار في الميسيسيبّي. بدأت واحدة من فترات السلام الغريبة في تاريخنا، كانت مقلقة إلى حدٍّ كبيرٍ لأنها تبرهن للرجال أنّه من أجل العيش بهدوء وسلام لا بدَّ من القيام بعمل يكفي لاحتلال العالم.

ما عادت بِرا تنتفض فزعاً عند مرور الجيوش التي كانت تعبر المدينةَ في تلك الأيام. المكتب لا يكادُ يقدِّم لي ما أعمله؛ فأشغلِ وقتي بالتهام الكتب التي يضعها بِرّوِثو تحت تصرّفي. وشيئاً فشيئاً رحت أجمع بعض الملاحظات آملاً في سرّي أن أستطيع تنفيذ وعودي بتشييد المنطاد. نادراً ما كنتُ أرى والدي، المشغول بتعامله مع حاميات شمال أفريقيا. وعندما كان يعودُ أحياناً إلى بِرا، كنتُ أُفاجأ به خلفي يقرأ من فوق كتفي ملاحظاتي وقد تجّهمت ملامحه همّاً أو شقاءً أو احتقاراً ويوشك أن ينتزع الريشة من يدي.

- قلاعٌ في الهواء! لا تبدو ابناً لي وأنت مستسلم لهذه الأوهام.

- ابن من إذن؟

- ابن نزوةٍ سيّئة.

أخذت أفكِّر، مغتاظاً، لقد تخلّى عن كونه والدي ليصيرَ رئيسي. عوّضني بِرّوِثو عن هذه الخسارة كثيراً. قامت بيننا شراكة حميمة. كان إعجابه يلفّني مثل فراشٍ دافئ وحام حيث أحلم، يُعكّر مزاجي أحياناً وجود ابنته ماريّا لويسا الهفهاف وَغير الملموس، لكنّه طاغٍ.

- يا صغيرة! ماريّا لويسا! يا بنيّتي أخرجي الزجاجة التي تعرفينها. علينا أن نحتفل بحدثٍ جيّد. لقد رفّعوا دومينغو!

عُيِّنَ والدي في العام 1786 ضابط الصندوق الأبرشي الخيري وأُرسل إلى مدريد. كان البابا بّيو الخامس قد منح الملك كارلوس الثالث ترخيصاً بالتصرّف بثلث الإيرادات والمنافع الكنسية لاستخدامها في المساعدة العامّة. وبالنتيجة فقد أسّس جهازاً لجمع وإدارة وتوزيع هذه الخيرات، يديره الجامع العام للغنائم والشواغر في المملكة.

- هل قلت الغنائم والشواغر؟ غريب منصب والدك الجديد. لكن انظر، ربّما فجأة منحوك شاغرَةً في بِرا.

شغلتُ محلّ والدي كمحاسب حرب برتبة مندوب شرف. كان عمري تسعة عشر عاماً وبي بعض النفور من السير على خطواته.

الفصل السابع

السفينة السوداء

بعد قليلٍ من تعييني جنحت سفينةٌ سوداء على الشاطئ المجاور لغراناتيلّة. أعلن خفر الأبراج الاستنفار بالنار والدخان وهُرِعوا للجوء إلى بِرا. وما إن لامس القراصنة البرّ حتى ولجوا الجبل باتجاه الأعلى عبر الوديان التي تنحدر من جبال كابريرا إلى ضفّة البحر. ثمّ ضاعوا في واحدة من الوهاد السبعة والعشرين حيثُ تهوي جبال ألماغريرا المجاورة، وحيث تتلجلج سبلُ الرعاة بجانب الهاوية على أرضٍ من الجصّ الأسمر والضعيف، وتنقطع عند القمم الشاهقة المكوّنة من خليط الرخام الأبيض والمرمر اليشبي.

عادت القوّات التي خرجت في أثرهم بعد ثلاثة أيّام باللباس الموحّد الذي مزّقته شجيرات العوسج، وأيديهم سلختها الصخور وظهر لحمها الحي. وعندما مرّوا أمام الكنيسة ألقوا بحنقٍ رزمةً من الثياب الإسلاميّة عند قدمي متسوّلة تتسوّل في الساحة.

دسّت العجوزُ أنفها في الكومة مثل كلبٍ ورفعت طرف ثوب إلى وجهها.

ـ له رائحة بحر وعرق. لكن لا أثر للدم. ماذا حلَّ بالأجساد؟

ـ كان صيداً سيّئاً، يا أُمّاه ـ أجاب آخر جنديٍّ مرَّ ـ فقط وجدنا صيداً دون لحم.

ـ لن يغفر لي الله قبول صدقة غير مطهّرة. من الأفضل أن يحرق الراهب هذه الثياب. جرّدت هذه الأقمشةُ من أجسادها، لكنَّ نتن الروح باق. يفوح منها نتن الكافر.

تابع الطابور طريقه في الشارعِ المرصوف بالحجارة. وحين وصل إلى مستوى مكتبي رآني الضابطُ الذي يقوده واقفاً في الباب، فأعطى الأمر بالتوقّف واقترب منّي دون أن ينزل عن جواده.

ـ كيف كان الصيدُ؟ ـ سألتُ.

ـ صحيح ما قالته العجوز، أيّها المُفوّض. فنتن المرتدّ لا يزول هكذا بسهولة ـ أكّد الضابط بصوت متهدّج من التعب ـ. فالحيلة أربكت خوان فوِنْتِش، *السمكري*. اشتمّهم كما يشتمّ النسر الجيفة وتبع الأثر، لكنَّ الثياب خدعته.

امتلأ ذلك الركن من الشارع بالناس، الذين راحوا مع سماع التوضيحات واسم *السمكري* يتهامسون. كانوا يشيرون إلى ابن بلدهم الوحيد في التشكيل.

ـ الطيور لا تطير دون ريش ـ قال شخصٌ بصوتٍ خافت وهو يجلس القرفصاء في حلقة من الناس.

ـ الوليمة كبيرة والرجل واحد! ـ علّق آخر كان بجانبه.

أحاط خوان فوِنْتِشْ الحشدَ بنظرته، ابتعد عن الجنود وتقدَّم على جواده حتى لامس الصفوفَ الأولى التي اهتزّت وتراجعت خطوة إلى الخلف.

ـ هيا، يا سادة! يبدو أنَّ الناس لا تتعارك هنا إلاّ باللسان.

كانَ *السمكري* عنيداً ومتكبّراً، قاسياً مثل حجر ومحتالاً مثل ثعلب. إنّه أفضلُ صيّادٍ في المنطقة. كسب تعويضات كثيرة من مداهمات مثل تلك. الجميع كانوا معجبين به ويخافونه في آنٍ معاً. من بين الأشياء الكثيرة التي تحُكى عنه، أنّه كان ضائعاً وتائهاً ذات مرّة في الجبل فتغذّى بلحمٍ بشريّ.

ـ اللعنة! ـ صرخ بنبرة ضارية ـ لا يعجبني ما تتهامسون به. هل تريدون أن تعرفوا لماذا لم نعثر إلاّ على حفنة من الأسمال؟

كان يتكلّمُ بحنقٍ من حزنه.

ـ لقد بدّل هؤلاء المرتدّون ثيابهم كي يعودوا إلى الأماكن التي ولدوا فيها. ببساطة فهموا أنّ أيّامَ القرصنة تقترب من نهايتها لأنَّ الملكَ يتعاملُ مع التركي الكبير. عادوا ليرتدوا ثيابهم المسيحيّة وهنا السلام وبعده المجدُ.

نظروا إليه غير مصدّقين. فنتائج تلك الحرب المغرقة في القدم ولا أحد يتذكّر بدايتها قد اكتسبت طبيعةً عضويّة. والخطر والخوف سحجا المشهد كما يسحجه حتّ الريح والماء. فالكراهية عادة قديمة قِدم أقدم التقاليد ولا توضع موضع التساؤل إلاّ بافتتان أعمى مثلها.كان تصوّر نهاية تلك الحرب الطويلة بالنسبة لسكّان بِرا بصعوبة تصوّرهم جفاف البحر فجأةً.

أنا نفسي كان يصعب عليّ تصوّر تلك المسافة التي تفصل بين الضفّتين دون ذلك الجرح المفتوح، الوحيد والموجع لكلا الطرفين، مع أنّني كنتُ أعرف كعسكريّ أنّ تلك الحرب قد انتهت وتحوّلت إلى فوضى. منذ زمن وقّعت معظمُ الأمم على معاهدات سلامٍ وتجارة مع الإمبراطوريّة التركيّة. وكانت سفنها تمخر على غير هدًى مياهَ البحر المتوسّط الهادئة. طبعاً كنتُ على اطلاعٍ بأنّ الوزير فلوريدابلانكا قد أقام علاقاتٍ دبلوماسيّة مع الباب العالي العثماني، وحصل على الفرمانات لبدء العلاقات القنصليّة مع الولايات التركيّة في شمال أفريقيا. وسُجّلت المعاهدة الأولى مع باي طرابلس، الأمر الذي رفضته الجزائر فترةً من الزمن. لكنّ الرعبَ ساعد الدبلوماسيّة بفعالية، والقصف المدفعي الذي أخضع له بارثِلُو المدينةَ تمكّن من فرض المباحثات. كان الاتفاق مع تونس جليّاً. ومع ذلك فهناك شيء كان يمنعني من التصديق الكلّي بأنَّ القراصنة الأخيرين عبروا توّاً إلى جانبنا ليختفوا للأبد مثل حفنة من الأشباح.

ـ لا، أنا لم ألتهمهم. يا لها من خاطرة! ـ صرخ خوان فونْتِسْ ـ لكنّني سأقولُ لكم كي أُرضيكم ما طعم اللحم البشري. فكّروا قليلاً. ما طعمه؟

ـ ما طعمه، يا سمكري؟

بصق في وجه ذاك الذي تجرّأ وأبقى على نظره عليه، أطلقَ قهقهةً وختم:

ـ طعم الخنزير.

أغلق خوان فونتِسْ مشغل التبييض بالقصدير بعد أسابيع قليلة واختفى من بِرا. وجد صيّادٌ من غارّوتشا ثيابه المسيحيّة مرميّة على شاطئِ لاس بالومِراس وأكّدَ أنّه رأى صاريةً تبتعد بسرعة، وظهر فوق مزقة من الضباب الكثيف والمنخفض منعته من التحقّق من طبيعة المركب.

في تلك الليلة ظنَّ أحد السكارى في الحانة أنّه تعرَّف عليه في قعر كأسٍ مُبَيَّضٍ بالقصدير وفارغ، بعمامة خضراء وبرنس قرمزيّ، لون نبيذِ أندراكس، يعوي ويهزّ سيفاً أحدبَ يتقطَّرُ دماً.

ـ اضطررتُ أن أقذفَ بالكأس بعيداً وإلاّ لفجر عينيَّ ـ قال بين فواقٍ وأنين.

ناس كثيرون صاروا يرون منذ تلك اللحظة رؤىً مشابهة عند استخدامهم أدوات الصفيح التي غطّاها المرتدُّ بالقصدير. تترصّدُهم فيها عيناهُ الحامضتان والباردتان، تنفجرُ ضحكته العكرة، وتدوّي تجديفاته الخسيسة، يختفي اللحم دون أن يلمسه أحدٌ وبقيّة الطعام يفسد أو يُسمِّم من تلقاء ذاته.

كانت كلُّ تلك التهيُّؤات تخرج المتسامرين عند بِرُوِثو من عقولهم، وخاصّة الطبيب الذي وجدَ نفسه مضطرّاً لمعالجة الممسوسين.

ـ سيكلّف إنهاء هذه الحرب أكثر بكثيرٍ من بدْئها ـ أعلن بعد أن ارتمى منهكاً في الكرسيّ بعد مصارعته لأولئك الممسوسين القلقين طوال اليوم.

ـ لكنّ السلامَ راسخٌ، يا دكتور. ـ أجابه محامٍ من المجالس الملكيّة ـ فسفير تركيّا استقرّ في مدريد.

ـ الحرب تستمرُّ الآن في الخيال، يا صديقي. فالمسلم متورّط في أحلام المسيحيين الإسبان منذ أكثر من سبعة قرون. وللأحلام توزّع ثابتٌ أحياناً، مثل الأعمال المسرحيّة. المسلم هو البطل الذي لا غنى عنه لكوابيس أبناء وطننا.

ـ أعتقد أنّ العكس يحدثُ على الضفّة الأخرى ـ غامرتُ وأبديتُ رأيي.

ضفاف البحر في البوران من بلّور مُزيبق. والمياه تفصل مرآةً مضاعفة يترصّد فيها هؤلاء وأولئك صورتهم المعكوسة نفسها. مسيحيّون ومسلمون، أفريقيا وأوروبة، يتفحّصون انعكاسهم في الآخر.

بعد سنوات سيتقابلُ باديّا وعلي باي من قارّتين مختلفتين، لكنّهما ذلّلا المسافةَ التي كانت تفصلهما وكان الذي تعلّماه الواحدُ من الآخر كثيراً حين تعرّيا كلٌّ من شخصيّته ليتقمّص شخصيّةَ الآخر.

لكنّ حالة خوان فونْتِسْ، *السمكري*، كانت مختلفة تماماً. فقد عزوا إليه ولوقتٍ طويل اختفاء الأشياء المفقودة، الطيف الخفيّ الذي يهربُ من بيتِ امرأة متزوّجة، وسبب الحمّيات والأمراض العفنة. ولم يشرعوا بنسيانه حتى مات كارلوس الثالث.

أفاقت حقول بِرا في ذلك اليوم يُباركُها مطرٌ ناعمٌ وخفيفٌ. أحدٌ ما جدَل إكليلاً من الوزّال والحصالُبان والزعتر الطريّ وسوّر بها جبين تمثال الملك النصفيّ. عند إخراجه من مدرسة اللاتينيات حيث كان مودَعاً سقطت من الإكليلِ بعضُ قطرات الندى وانزلقت على خدَّيْهِ فراح الشعب يقول إنّ الملك يبكي. تبعته الحشودُ صامتةً بين صخب النواقيس حتى الكنيسة، حيثُ كان ينتظرُه أعضاء الجمعية الوطنيّة بلباسهم الاحتفالي، ناعسين من الاستيقاظ الباكر يتسلّون بالتخمين عمّن سيكون خليفته. لكنّ الموكب الجنائزيّ كان بالنسبة للشعب البسيط أمرّ موكبٍ في حياته. لم يكن باستطاعتهم أن يتصوّروا كيف يموت قدّيس.

بعد الانتهاء من صلاة الميت عادوا ليخرجوا به في موكبٍ حتى البلديّة، حيثُ سينظَّمُ حفل السهر على الميت. أُفلتت طلقةٌ من بندقيّة أحد الجنود الذين يحرسون المسيرة حين ارتطم أخمصها ببلاط الشارع بعد أن قدّم السلاحَ لعبور الملك في الوقت الذي كان يضرب فيه كعباً بكعب.

ضاعت الطلقة في فضاء بِرا الفسيح كأنّها تلاحِق تلك الروح، التي بحسب قول الناس تحوم فوق الموتى وأصابت عرضاً حمامة مطوّقة فسقطت مجروحة في جناحها وسط ذعر الحشود.

- مات الجسدُ والآن تهلكُ روحُ القدّيس. ما الذي سيصير إليه أمرنا؟ - كانوا يتأسّفون محزونين لأنَّ عبورَ ذلك المحسن الفاني بالأرض كان قصيراً وسريعاً مثل حياة أيِّ واحدٍ منهم.

هذا الحجمُ من الذعر شغل رئيسَ البلديّة ،فلوّح بالراية الملكيّة لساعاتٍ باسم صاحب الجلالة الجديد، الجبّار والكاثوليكي جدّاً كارلوس الرابع.

- وكيف هو المستجِدّ؟ - كان الناس يحاصرونه.

وعلى الفور انتبه أعضاء الجمعيّة الوطنيّة إلى أنّه كان من المحُال ضمّ أهالي بلدتهم إلى الخليفة الشرعي، دون أن يُقدِّموا لهم تمثالاً نصفيّاً فائق الأبّهة والرفعة كوالده.

تأخّر في الوصول من مدريد، حيثُ كلّفوا به كسابقه أكاديميّة سان فرناندو الملكيّة. مضت عدّة أسابيع لم يدع القلقُ أحداً يعيش إلاَ للصلاة منتحباً أمام القدّيس القديم.

- مسكينٌ. كان من الكرم بحيث لم يبغ القيام بمعجزة لنفسه ومات.

أخيراً حين وصل تمثالُ الخليفة النصفيّ كان الليلُ مطبقاً فلم تكد تُميَّز ملامحه. لكنَّ المدينة أُنيرت دون أمرٍ من أحدٍ مثل مشعلٍ، ومرَّ بين الناس ببطء، لأنّ الجميع أراد أن يتأمّله طويلاً.

لم تكن الآراء في البداية متوافقة. علّقت عجوزٌ، خفيفة النظر ومنهكة، بأنّه يُشبه أباه. لكنَّ الغالبية وجدت ابتسامته بلهاء قليلاً، على الرغم من عذوبتها. كان يبدو نائماً ورخواً بحيث أنَّ لحمه لا يتماسك في منطقة الغبب والشفة السفلى لولا صلابة المرمر المنُشّى.

- يبدو مسالماً وطيِّبَ القلب.

- هذا صحيح.

- ولطيفاً.

- أيضاً.

- نأمل أن يكون نبيهاً.

- من طلعته أستنتج أنّنا سننتظرها عبثاً.

ـ أسوأ ما في الأمر هو أنَّ الآخر كان يعرفنا جميعاً. كان يعرف من يستحقّ منّا أن يعمل له معجزة ومن لم يكن جديراً بالشفاعة. لكن بأيّة بصيرة سيقدّم لنا هذا القديس اللبّاني معجزة؟ سيكون على المسكين أن يوزِّع إحساناته اعتباطاً.

ـ أوِه، يا إلهي! ـ تباكت تقيّةٌ في غاية التوبة ـ لماذا يموت القدّيسون في هذه الأيّام؟ لم يكن يحدثُ هذا في الماضي.

الغريب هو أنَّ تغيّرات القرن بدأت تظهر منذ تلك اللحظة عزيزة جدّاً في بِرا.

الفصل الثامن

يدُ الأفندي

من العاصفة التي عصفت بفرنسا في العام التالي وصلت إلى بِرا شائعة بعيدة لتموت عند حافّة أسوارها. كان صمتُ الصحافة مطبقاً والجمارك القائمة على الفكر حرمتنا من المجلاّت الأجنبيّة.

بعد عام أو عامين جاء هندي كاريبيّ نزل في قادش برغبة أن ينضمَّ في البلد المجاور إلى ما كان يُسمّيه بالمجلس، وحدَّثنا في ساعاتٍ قليلةٍ عن تمثيل وطني، الحرّية والمساواة. كذلك تحدّث عن آلة لقطع الرؤوس سمّاها مقصلة. كما قال لنا أيضاً إنَّ الملك لويس السادس عشر نفسه تشرَّف بتجريب هذا الاختراع.

ـ كجلاّد أم كضحيّة؟

لم يملك وقتاً للإجابة، فقد كان طائشاً ويتحرّك بسرعة وضاع في طريق لوركا، التي كان يريد أن يصل عبرها إلى طريق الشرق للدخول إلى فرنسا، بعد أن يجتاز قطلونيا عبر روسِليون.

لكنَّ كلماته أرعبت أعضاء الجمعيّة الوطنيّة الذين بدؤوا يشكّون بإصلاحاتهم ذاتها، فنظّموا صلاةَ استرحام في الكنيسة آملين ألا يكون قد وقع فعلاً ما كانوا يخافون وقوعه في فرنسا ولا يعرفون مضمونه.

ـ ترتعد مفاصلي أمام ما يمكن أن يكون قد وقع ـ صرّح الخوري في عِظته ـ أعطف على ملك فرنسا الطيّب وأرقّ لذلك الشعب الأرعن

المتقلّب والمضطرب. يُؤَكِّدون أن عصر العقل قد أنار للبشر حقوقَهم، لكنَّه جرف معه السعادة العذبة التي يُقدِّمها الهدوء والثقة بالمناعة، والتمتّع بالحصانة الشخصيّة والعائليّة. إنّنا لا نرغب لبلادنا بفرط تنوير يسمحُ بعجز العمل والكلمة، والكتابة ضدَّ السلطات الشرعيّة.

كنتُ أتذكّر مضطرباً بين تلك الأخبار المختلطة كلها هدوءَ المكتب. أوشك على الإيفاء، جزئيّاً، بالوعدِ الوقور الذي قطعته على نفسي لبِرّوِثو قبل سنوات؛ أملأ وقتي بكتابة بحثٍ عن الغاز والآلات أو المناطيد الطائرة الذي أنهي صفحاته الأخيرة بوصفٍ لطريقة إشادة واحدٍ منها.

كثيراً ما كانت تدخلُ صورةُ ماريّا لويسا بِرُّوِثو المزعجة بين الورق وتفكيري. بدأتُ أركِّزُ نظري عليها منذُ وقتٍ قصيرٍ جدّاً بطريقةٍ مُختلِفة، وأجدُ صعوبة في الاقتناع بأنّها كانت الطفلة ذاتها التي كثيراً ما رأيتها تُطَرِّزُ بجانب النافذة بيدين راشحتين من ثياب بيضاء، مرنِّمةً بصوتٍ خافت بعض الكلمات الظريفة عن العشق المحال.

كانت قد أصبحت امرأةً بشعرٍ أسود مسبلٍ ويدين مصقولتين وثلجيَّتين، تلتهبان حين تصبّ النبيذَ في جلسات سمر والدها. رأيتُها تنمو قبلَ أن يأخذَ جسدها أشكاله وتبدو لي الآن عيناها السوداوان هائلتين، ونحرها بين الثديين حين تقترب وتنحني بجذعها لتملأ كأسي، يكتسب عمقاً ويتوّج بالغموض.

لم أكد أعرفُ ما إذا كان ذاك حبّاً فأبحثُ عن كلمةٍ غريبةٍ ومجهولةٍ، أكثر هروباً من أيٍّ من تلك التي كانت تُعَذّبني حين أُحاول أن أكتب بوضوحٍ رسالتي حول المناطيد.

حاولتُ ألفَ مرَّة أن أُحرِّرَ لها بطاقة، لكنَّ مشاعري لم تهتدِ إلى أيِّ اسمٍ دقيق ومُرْضٍ. بِرّوِثو هو الذي جنّبني الموقف الحرج.

ـ أنت تعجبُك ابنتي، يا دومينغو. لا تقُل لي لا.

وبما أنّني لم أجبه بشيءٍ، تابع:

ـ وأنا أريدُك صهراً لي. هيّا، لم يبقَ إلا أن نحدِّدَ موعد العرس.

ـ وماريّا لويسا؟ ما ميولها؟

ـ الصغيرة؟ ستفعلُ ما يقوله لها والدها. تعرف أنّها لك بحسب هذا القانون.

أضافَ حين أحسَّ بارتباكي:

ـ تعرف التطريز النافر، وتفريغ الزيتون من بذوره، ودقَّ اللوز والثوم للسلق بالهليون، وأن تبشر قشر الليمون لحلوى الجمعة الحزينة، وتعبر الساحة بتواضع أيّام الأحد بعد قدّاس الثانية عشرة. ماذا تريد أكثر؟

تأكّدتُ من صحّة ذلك يوم عرسنا. فقد كشفت ماريّا لويسا عن كلّ تلك الميّزات التي امتدحها والدها.

حين خرجنا من الكنيسة عبرت الساحة بوقار، كأنّها لم تنتبه حين تمزّقَ وشاح تولها، الذي التفّ حول أحد مهمازيّ، وارتفع صوتٌ عكرٌ وأجشّ في جوقة الفضوليين المتجمّعين في الفناء:

ـ سريعاً يبدأُ العريس بتمزيق زوجته.

شرحت لي أثناء الوليمة برصانةٍ، كيف أنَّ مسحوق الكمون والبندورة والثوم المقلي والفلفل الجاف يصبح ألطف وأنعم إذا ما أُضيف إليه دمعة مُباغتة من تلك التي يُثيرها البصل حين يُقَطّع، وجعلتني أجرِّبُ مرقاً من الفلفل الناعم بدمعة، وآخر دونها كي أتأكّدَ بنفسي من تباين تركيبه.

ـ المسألة أن المطبخ يتطلّب الكثير من المشاعر ـ حدَّدت.

وحين صعدنا إلى غرفتنا انسحبت إلى غرفةٍ أخرى، وعادت ملفّعة بفستان من الحرير مكتظٍّ بالأغصان الرقيقة المتوّجة بالأزهار البضّة.

ـ يجب أن تعرف، يا دومينغو، أنَّ هذا التطريز يسمّى نافراً لأنّه يجب أن يُغرز في القماش كالريش في لحم الحمام وليس مثل شقّ الأرض. وهكذا يبدو أنّه يطير.

ـ أنا أريد للثوب كلّه أن يطير ـ قاطعتها مضطرماً.

وعندئذٍ تعرَّفتُ في وجهها على نظرة الخجل والفزع نفسها التي طالما ترصَّدتها في أُمي. ومثلها يبدو أنها تسلم للحدس قسماً كبيراً

من القرارات التي تجبرها عليها الحياة. في تربيتها، الموكلة إلى عناية أمّها وعقد نقص مُعرِّفها، تغيب أكثر أفكار السلوك البشري بدائيّة.

انفجرت تلك النظرة ذعراً عندما رأتني عارياً للمرّة الأولى. اهتزّت الدالية بعذوبة في صحن الدار، تهدل بنسيم ناعم وصامت، تحرَّر توّاً من صخب الكؤوس والأغاني وتدافع آخر المدعوّين للعرس. اقتربتُ من ماريّا لويسا فاستقبلتني كما يُسْتَقبَلُ عقربٌ، مهتاجة أمام تهديدٍ بلدغة سامّةٍ وقاتلة. أبعدتُ ذراعيها فقفز ثدياها مثل سهمين، نظرتُ إليها كما لا يمكن لغير النار أن تتأمّل غابةً نابضة ومتشابكة. عانقتُها فغرزت أظافرها في ظهري. قبّلْتُ شفتين باردتين ومشدودتين. ومع ذلك ارتخت أصابعها بعد قليلٍ حتى تلاشت. وتلقّت مداعباتي مثل شجرة تتلقّى ملاحقة الريح. كان جسدها تحت جسدي مثل كثيب بلا شكل، فرور، ومستسلم بقسوة. عدتُ ونظرتُ إلى وجهها. كانت قد أغمضت عينيها. عرفتُ أنَّ تلك الظلمة التي لاذت بها ستحوّل ناري رماداً؛ فابتعدتُ.

ثم وبعد أن جبتُ غرفة النوم عشرين مرّة من الأعلى إلى الأسفل، جلستُ على حافّة السرير وعدتُ لأداعبها، لكن هذه المرّة كمن يُداعبُ طفلاً. هدأت شيئاً فشيئاً. حاولتُ أن أوضّح لها ما تتطلّبُ أكثرُ المشاعر المشتركة بدائيّة معرفته. طلبت صمتي، واضعة إصبعاً على شفتيها وهمست بصوت خافتٍ جدّاً لكنّه حازم:

- افعل ما يجب أن تفعله، يا دومينغو.

في الصباح أيقظتنا بعضُ الطرقات الملحّة على الباب. كان النهار قد طلع ملثّماً يغشاه ضوء رمادي. حشدٌ من الرجال يسألُ عنّي، وبالرغم من تهالكهم في ذرائع لأنّهم جاؤوا ليزعجوني في تاريخ شهير كهذا إلاّ أنّهم كانوا يؤكِّدون أنَّ السبب خطير. كانت قد انساقت إلى غارُوتشا سفينة خرَّبت ساريتها عاصفة في المضيق. كان ثلاثة بحّارة من روتا مُتنكّرين بزيّ مسلمين يقودون في السفينة راهباً فرانسيسكانيّاً من طنجة إلى الجزيرة، حين اقتلعتهم عاصفة من طريقهم وضاعوا فجاؤوا ليحطّوا على شاطئ بِرا عطشى ومنهكين.

وعلى الرغم من ملامحهم الإسلاميّة إلا أنَّ أحداً لم يشكّ بالرواية،

فالبحارة حين قفزوا إلى البر لم يشمئزّوا من إبريق نبيذٍ وبعض شرائح لحم الخنزير المقدّدة التي قدّموها لهم لاستبعاد أيّ شك.

لكنَّ موضوع الفرنسيسكاني كان آخر. قال البحّارة إنّه داخ قبل ثلاثة أيّامٍ وما عاد يدعو لخلاص أرواحهم، ويحيي الأسماك ويبارك الأمواج. حملوه بين أذرعهم إلى الفندق، فمكث متخشّباً وجافّاً فبدا أنّه ينكمش داخل ثوبه الصوفيّ الفضفاض الذي يلفّه حتى وضعوه على مقعد. كانت تُغطّي وجهَهُ لحيةٌ ضبابيّة بيضاء، ويسدّ عينيه نسيج أرمص، اضطروّا إلى تفكيكه بحذرٍ لأنّه كان ملتحماً جدّاً. اكتشفوا عندئذٍ أنّ أجفانه مفتوحة ونظرته بريئة كما لو أنّه لم يرتكب خطيئة قط، وهو أمرٌ مريبٌ جدّاً في رجلٍ بعمره. لكنّ أكثر ما كان مفاجئاً هو أنّ يديه كانتا مشدودتين على قطعة نسيج صوفيّة خشنة، وعلى الرغم من الجهد المضني لم يكن من السهل فكّ أصابعه لفحصها.

الذي فكَّ الصرَّة أفلت صرخةً. كانت تحتوي على يدٍ مقطوعةٍ، مغلقة بها قرحة عميقة تمتدُّ من قفاها حتى راحتها، وكأنَّ مسماراً اخترقها ذات مرَّة.

لم يعرفوا على أيِّ رأي يستقرُون. تراها أثرٌ من شهيد مصلوبٍ أم شهادة على جريمة؟ أبعدوا الكؤوسَ وتركوا اليد بقلقٍ وتوجُسٍ على الطاولة وراحوا يُنعشون الراهب. لكن الفرنسيسكاني لم يحرّك عضلةً واحدةً على الرغم من وخزهم له بشوكة طعام في أخمص قدميه.

طلبوا خائبين من عدم جدوى الجهد قنينةَ نبيذٍ جديدة، لكنّهم انتبهوا إلى أنَّ اليدَ انفتحت وبجانبها ورقة بحروفٍ عربيّة يعتزّ بأنّه كتبها بدمه ذاته، لعدم وجود دواة ولا ريشة في متناول يده.

هجّى بحّار، أسيرٌ قديم في الجزائر، يفهم لغة الكفّار الرسالة وترجمها: «هذه يد الأفندي وقد قُطعت بأمرٍ من السلطان، أمير المؤمنين، فهي يدُ خائن.»

عندئذٍ قرّروا المجيء في طلبي، مع أنّها كانت ليلة عرسي، ليستفسروا عمّا يجب أن يفعلوه باليد التي كتبت وبالفرنسيسكاني النائم. كانوا متردّدين بين أن يثقلوهما بالسلاسل ويضرموا فيهما النار، وبين أن يرسلوهما إلى مطران باثا على بغلة زرزوريّة.

أمرت بإدخال الرجال إلى القاعة، ووضعنا جسد الراهب المتخشّب عرضاً على كرسيين. بعددٍ من الصفعات ولصقة ذُرّاح حضّرتها زوجتي الحديثة العهد استطعنا أن نوقظه. قفز فجأة مثل حصانٍ يُهمز وارتطم بالأرض فارتفعت ثيابه وبانت عورته للعيان. أمعنتُ النظر في تقطيب جبين ماريّا لويسا، المستغرقة في فكرة خفيّة بعد المفاجأة الأولى.

- القديسون الذكور لهم ذيل أيضاً - دمدمت بصوت منخفض وهازٍ.

أصرَّ الراهب على مُباركتنا في هذه المعمعة، لكنّهم أجبروه على أن ينهض ويبارك نفسه أمام المرآة أوّلاً، لأنّه لم يكن واضحاً بالنسبة للناس الخشنين في غارّوتشا ما إذا كان إنساناً أم شيطاناً.

- الآن وأنا أعرف أين أنا وأنّها أرض مسيحيين عليَّ أن أعترف على الفور - قال الفرنسيسكاني - لأنّ الخطيئة الكبرى هي النسيان وأنا لا أتذكّر أيَّ شيءٍ ممّا فعلته في الأيّام الثلاثة الأخيرة.

- وماذا عمّا قبل العبور؟ - ارتفعت عدّة أصوات.

- قبلها لستُ بحاجة للذاكرة - تنهّد الراهبُ - فقد تعاملتُ دائماً مع الأشياء الصغيرة التي هي بحدٍّ ذاتها ذاكرة حيّة للعمل العظيم. كنتُ أهتمُّ كلَّ يوم، مثل أمٍّ، بشراء الحليب لأخوتي في بيت الفرنسيسكانيين في طنجة، وأُقلِّدُ صوتَ القبّرة عبوراً عند اجتيازي شوارع السوق، كي يصل صدى صوت الربّ الحقيقيّ مُوَقَّعاً إلى المسلمين.

- رهبان مسيحيون في طنجة؟ لم أسمعهم يتحدّثون عن مثل هذا قط - استغربت ماريّا لويسا - شككتُ منذ البداية بأصالة هذا الكبوشي!

- كنّا هناك بفضل إرادة السلطان السابق الطيّبة تجاه المسيحيين - رتّل سعيد الحظّ بحركة صبر- تذكّروا أنّ السلطان سيدي محمّد بن عبد الله فتح خلال حربنا مع إنكلترا الموانئ المغربية أمام الأسطول الإسباني، سامحاً له بمهاجمة السفن الإنكليزيّة التي كانت تحاول مساعدة جبل طارق داخل هذه الموانئ. كما سمح بتموين الملاحين وضَمِنَ تجارة القمح من ميناء الدار البيضاء، والأكثر أهميّة من ذلك أنّه

وافقَ على وجود فتحة يدخل منها نور الرب الحقيقيُ. استطعنا أن نفتتح بيت بعثتنا في زاوية صغيرة من طنجة.

- وكيف تفسّرون وجودَ هذه اليد المقطوعة؟ - سألتُ فجأةً.

- آه، يد الأفندي! - هتف الفرنسيسكاني وكأنّه يخرج من حلم - كنتُ قد نسيتها! الآن فهمتُ الحذر البادي على وجوهكم. لكنكم ستفهمون معي أنّه لا يمكن أن توجدَ عدالة في فم الذئب. فمنذ أن اعتلى العرش ابنه مولاي يزيد تبدّل كلُّ شيءٍ. تدبيره الأول كان قطع اليد اليمنى للأفندي وزير والده الذي وقّع المعاهدات مع إسبانيا. ثمّ أمر بتثبيتها على باب البعثة، وبعد عدّة أيّام أجبرني على الهرب في مركبٍ إسبانيّ أجبر ملاّحيه على ارتداء الملابس الإسلاميّة كي يتملّص من قرارِ منعِ الاستمرار بالتجارة، أو التعامل مع المسيحيين الذي وقّعه بنفسهِ. أنا أيضاً كنتُ استثناء لهذا القانون وقد كلّفني بحمل هذه الهديّة المشؤومة إلى ملك إسبانيا نفسه، كي يعرف ماذا سيفعل من الآن فصاعداً.

- لكنَّ اليدَ حيّةٌ! - هتف أحدُ الصيّادين.

- أحسنت، يا بُني، لا شيء يموتُ كليّاً. فأنت إذ أغمضتَ عينيك تستطيعُ أن ترى السماء أيضاً، لأنَّ الله هو ربّ الظلمة أيضاً.

- يا أبانا، اليد تكتبُ بالعربيّة! - أصرّ الصيّادُ وناوله الورقة التي تبرهن على ذلك -. وهذا يعني أنّها تفكّرُ.

- أستغرب كثيراً هذه المعجزة - ابتسم الفرنسيسكاني - العالم الذي نعيشُ فيه بحدّ ذاته معجزة دون أن يحتاج للشعشعة في الخيال. أنا خبّأتُ هذه الورقة في يد الأفندي المغلقة، ومن هنا كان لا بدّ أن تسقط عند فتح اليد من تلقاء ذاتها لسبب من الأسباب. لقد أمر السلطان بكتابتها بدم الميت وبصق عليها في البداية، ثمّ أمر بتثبيتها بمسمار على باب دارنا.

أقمتُ صداقة جيّدة مع الفرنسيسكاني، الذي نقل إليّ حلم الضفّة الأخرى الغامض، خلال الأحاديث التي تبادلناها طوال الوقت منذ أن نزل ضيفاً في بيتي وحتى غادره إلى البلاط.

ـ أريد قبل أيّ شيءٍ أن أدفن يد الأفندي البائس. ليس دفناً مسيحيّاً، فقد كان كافراً. لكن بجانب شجرة لوزٍ لأنّه تصرّف بلطف معنا ويستحقّ أن يتحوّل إلى زهرة عطرة. أما الملك فسأنقلُ إليه الأخبار بصوتي الحيّ، دون توضيحاتٍ مروّعة وغير ضرورية أبداً لتوضيح الكارثة.

بعد مرور عام على انقطاع أخباره كتب إليّ ليروي صعود أوّل منطادٍ فعليٍّ في إسبانيا، قام به الدبلوماسي النابولي فينزنثو لوناري يوم الثاني عشر من آب من عام 1792.

«أحكي لك كلَّ ذلك ـ قال في الرسالة ـ لأنّه وعلى الرغم من أنّ هذه الصعودات إلى السماء ليست من عملي، إلاَ أنّني أعرف أنّها تهمّك جدّاً».

«رأيته يرتفع في حدائق إلبونْ ريتيرو في مدريد في احتفالٍ أحيته فرق ثلاثة ألوية عزفت مقطوعةً لصموئيل وسلي، مستوحاة من هذا الطيران. عرفتُ فيما بعد أنّه عند الهبوط في داغانثو دِ أرِّيبا اعتبره أهل المنطقة تدخّلاً من العالم الآخر، عووا ذعراً وأطلق عليه ناطور أحد كروم العنب بندقيّة خردقه».

دفعني نجاح تلك المحاولة إلى إنهاء مقال *الغاز والآلات أو المناطيد الجوّية* الذي وقّعته باسم بوليندو رِميخيو المستعار.

ـ لاسمِ بوليندو وقع اسم عصفور مدجّن في قفص. قليل هو الطيران الذيّ أتوقّعه لك ـ مزحت ماريّا لويسا ـ أما بالنسبة لـ رِميخيو، حتى ولو قلت لي إنّه كان قبطان سفينة قادها إلى ميناء الجنّة، فإنّني أتصوّره مطراناً بديناً، مفرطاً في الوزن وأقرب إلى الصابورة مما لمثل هذه الآلة الأثيريّة.

كانت تلك السخريات تزعج برُّوِثو.

ـ دعينا بسلام، يا صغيرة واذهبي إلى أعمالك. ما يجبُ أن يفعله دومينغو هو أن يرسل مخطوطه، ويعهد بمشروعه إلى شخصٍ رفيعٍ وذي وزن كبير حتى ولو بدا ذلك متناقضاً، كي يمضي مرّةً واحدةً من النظريّة إلى التطبيق ويطيرَ أخيراً.

وبواسطة الفرنسيسكاني الذي استقرَّ نهائيّاً في البلاط أرسلتُ

البحثَ إلى كونت أراندا الذي حلّ توّاً محل فلوريدابلانكا في أمانة الدولة. ردَّه الراهبُ إليّ في البريد العائد مع ملاحظة مرفقة:

«نسيتُ أن أسألك، يا صديقي باديّا، كيف أزهرت شجرة لوز الأفندي هذا العام؟ ما زلتُ على رأيي بأنّ ما يجري على هذا الجانب من المضيق يؤثّر على الجانب الأخر. عرفتُ من خلال أخوتي في البعثة الفرنسيسكانيّة في طنجة بأنَّ يداً، مختلفة بالطبع عن يد الأفندي، أنهت حياة قاتله السلطان مولاي يزيد، هل كانت الأزهار بيضاء أم ضاربة إلى اللون البنفسجي؟

«يحكم الآن على الضفّة الأخرى أخوه مولاي سليمان. وعلى ضفّتنا شاب بعمر حضرتك ملك على إسبانيا. والآن حلّ غودوي بسنينه الخمس والعشرين محلَّ كونت أراندا. فيما يتعلّق بمخطوطك عليك أن تغيّر الإهداء، يا باديّا. لا تنسَ وأنت تحرِّرها أنّ غودوي يقدِّرُ، بحسب ما يقولون، المبالغات، تماماً كما يقدِّرُ السموّ والثروة والألقاب، لا تبخل بالحبر والتمجيد. يا له من عالم! حتى الفرنسيسكاني يعرف الوصفة لمحاباة الأوبئة، لكن ما من أحدٍ منّا يعرف العلاج لاقتلاعها من الجذور».

وإذا كان باديّا وعلي باي الشيء نفسه فإنّ مولاي سليمان وغودوي يجب أن يمثّلا بالنسبة لعلي باي وباديّا بوجهٍ وحيد: وجه السلطة. كلاهما حصل عليها في العام ذاته وسيلعبان في حياتي دوراً حاسماً. لا أدري ما إذا كان علينا أن نؤمن بأنّ كلّ مصادفة تخضع لسبب. لكنّني لا أستطيع إلا أن أفكِّر بأنّ العنكبوت ينسج نسيجه للإيقاع بالذباب، حتى قبل أن يعرف أنّ في العالم ذباباً.

الفصل التاسع

الرجل الذي أرادَ أن يطير

في اليوم الذي غادرنا فيه بِرا إلى الأبد حذّرتني ماريّا لويسا من الريح. مع ابتعادنا عن المدينة التي عاشت فيها منذ طفولتها، راحت تتفحّصُ الطريق التي تنفتح أمامنا إلى مالا نهاية حيث لم يكن يوجد عند نهاية سهول بِرا أفقٌ آخر غير السماء.

ـ حلمتُ ـ قالت لي وقد خثّر الدمعُ عينيها ـ أنّك تحملني إلى عالم ينهض وحده في الريح. كانت الأرضُ في حلمي سحابة من غبار، تطفو فوقها كومة من الأوراق الجافّة مشكّلة كثافة بلا جذوع ولا جذور.

عيّنوني توّاً، بفضل غيرة والدي، مديراً لمحصول التبغ الملكي في قرطبة. حلَّ خلال يومي السفر الأوّلين جوٌّ واجِمٌ، مشبع بالنور فوق غوطة غرناطة واستمرَّ دون انقطاع حتى حقول قرطبة المترامية. بدا الفضاءُ خالياً بشكلٍ غريب من الهواء والأرضُ تطلق بخاراً أصفرَ ملتهباً. ومع اقترابنا من المدينة هبطت علينا ريحٌ ضارية من أكثر القمم انحداراً في جبال سييرّا مورِنا، مندفعة من صخرة إلى صخرة، فاجتاحت السهل وهامت لمسافة طويلة بجانبنا، مشتبكة بأشجار الزيتون والبرتقال والتين في الحقول المترامية. وعبرتْ، حين وصلنا إلى النهرِ، الواديَ الكبيرَ وتقلّبت مجنونة فوق الجسر الروماني القديم الذي يفتتح المدينة.

ـ يبدو أنّها تنظر إلينا. ـ قالت ماريّا لويسا ـ لِنَنْزِلْ، فهبّة واحدة هوجاء يمكن أن تسقطني عن البغل وتُفْقِدُني الطفل.

وما إن صارت على الأرض حتى مدّت إليّ ذراعيها واستدارت بوجهها تترصّد عينيّ.

ـ سمعت من البغّالين أنّ هذه الضفّةَ من النهر تدعى حقل الحقيقة ـ كان صوتها في غاية العذوبة والوقار معاً ـ لا تغضب لما سأقوله لك، يا دومينغو. عندما سنعبر هذا الجسر سنعيش في قرطبتين مختلفتين. قرطبتك ستكون من هواء وقرطبتي من تراب. ستبقى بسبب أحلامك في العراء. عدني بأنّك ستنتبه إلى نفسك من الريح. عدني بذلك من أجلي ومن أجل ابننا.

عانقتني بقوّة فشعرتُ بنبض تلك الحياة الأخرى في أحشائها. ظاهريّاً كانت ماريّا لويسا هي التي تحتمي بين ذراعيّ، وعمليّاً كنتُ أنا من طاوع ضغط أصابعها الرقيقة جدّاً، والقويّة إلى حدٍّ أنّها آلمتني.

رحنا نسير، وفي منتصف الطريق لاحظنا أنّ قطيعاً من المهور يخرجُ من المدينة. كان ذلك ممر القطعان الوحيد إلى السهول. مرَّ جيشُ المهور الشابّة، وانزلق بجانبنا تحثّه أصوات رعاته غير المرئيين. اشتدّت الريحُ خلفهم أكثر، لكنّني شعرتُ بها مهزومة محتدمةً في آنٍ معاً أمام ذلك التحالف بين القوّة والضعف المتمثل بذلك الهيكل الخفيف لماريّا لويسا، المنتفخ بفعل بلوغ الحمل أوجه.

توغّلنا في باب المدينة، حيث حومان الدبابير يطلق شرراً في الظلّ المعتم، فتوقّفت الريح فجأة بحماية الجدران. كانت قبّة الكاتدرائية السوداء على الجانب الآخر تؤكِّدُ ذاتها فوق المسجد المحبوس بشكلٍ محكم تحت نور شمس يفور في الجدران الخارجيّة. انتظرنا وصول بِرُوِثُو ومعنا البغال والأمتعة نتأمّل تقاطعاً شفّافاً لشوارع تذوب في متاهةِ الظلال.

توغّلنا بعد ذلك بحذرٍ في متاهة الأزقّة الضيقة والمظلمة، يقودنا مجرى الجدران البيضاء، التي حلّت بنظامها الهندسيّ محلّ تدرجّات المدينة النباتيّة الحميمة، التي ترشح رقّةً في ظلمة الإيوانات الرطبة، مالئة الهواء بعبقِ الأرض الكثيف.

كان بيتنا في الجزء الأعلى من لا إسبارتِريّا، حيث ينفصل حيّ سان أندرِسْ عن حيِّ سان بِدرو. وبما أنَّ ملكيّةَ البيت تعودُ إلى إدارة محصول التبغ الملكيّة فإنّ المنطقة المخصَّصة للسكن تجاور مكتباً ومخزناً محروساً، يُخَزّنُ فيه النوع الذي يأتي من أمريكا ويصنَّع في معمل إشبيلية.

من بين جميع الإيرادات الصغيرة المُحتكرة التي تحتَفظُ الدولةُ لنفسها بامتيازها، كتصنيع وبيع ورق اللعب والرصاص والبارود والزئبقِ واللكر والزِنْجَفر والنحاس، كان التبغُ والملحُ أكثر الاحتكارات مردوداً. بعد قليلٍ من وصولي إلى قرطبة ازدادت المساهمات التي تطلَّبتها الحربُ المُعلنَةُ ضدَّ فرنسا باضطراد. كما زاد سعر أوقية التبغ ثمانية ريالات ممّا تسبّب على الفور بزيادة التهريب.

كان هذا هو الحذر الوحيد الذي يعكّرُ سير عملي بين دفاتر الحسابات، الاتفاقيّات والمقاولات، دفوعات أوامر الصرف ورواتب الموظّفين. على شاطئ المتوسط الأندلسي، الذي جرى فيه الجزء الأعظم من طفولتي، حلّ التهريب محلّ القرصنة المتلاشية فوصلت مهرَّباتُ التبغ البرازيلي، التي ترصدها دوريّات مكافحة التهريب، حتى قرطبة.

تشكّلت هذه القوّات من أناس ليسوا أقلّ اندفاعاً وعنفاً منٍ المهرّبين أنفسهم، لكنّهم في معظم الأحيان أحقر منهم. حوّلوا الشكّ والوشاية إلى نوعٍ جديد من العبوديّة بالنسبة للسكّان. كانوا يعرفون أنّهم مكروهون ومُهابون، لكنّهم أيضاً محتقرون، فالشعبُ كان يرى التهريب أرحم من القمع.

الدولة التي تسمح بالحصانة من العقوبة والتعسُّفِ، لأنّها تعرف أنّهما يسعدانها كانت لا تثقُ بمرؤوسيها أنفسهم. ففتح باب مخزن التبغ كان يحتاج لثلاثة مفاتيح مختلفة. في كلِّ يومٍ كنّا نلتقي أمام الباب أنا نفسي والمحاسب والحارس، فيبدأ النهار بدويِّ ثلاثة أقفال تُفتَح.

- كم من الحذر لحماية ما سيتحوّل سريعاً إلى دخان! - كان الحارس يُعقّبُ.

- لنبدأ بمراجعة الوزن - كان يستعجل المحاسب متلمّساً عدستين صغيرتين كبؤبؤين - فالدولة بحاجة للموارد وتُشَدِّدُ علينا.

كان الحمّالون يقضون يومهم كاملاً يزنون السترات، السعف والمسحوق ويحضّرون الأكياس لتوزيعها على مراكز البيع في المنطقة ممّا يجعل الهواء يمتلئ بالغبار الذهبيّ الواخز، الذي لا يتلاشى أبداً.

- لا أريدُ للطفل أن يستنشقَ هذا السمَّ - حذَّرتني ماريّا لويسا - سنعيشُ في بيتين مختلفين حتى ولو عشنا تحت سقفٍ واحدٍ. الأوَّل ستكون له رائحة تبغ كوبيّ والثاني رائحة أعطر ياسمين.

رفعت لنفسها، دون أن تتألّم من الحمل، سوراً من اللبلاب، المتداخل مع الورد المتسلّق والياسمين وزهرة العسل في صحن الدار، وقسماً من البيت يضمُّ القاعةَ والمطبخَ وغرفَ النوم، وابتعدت عن الباقي الذي ملأته بالقرنفل والحبق والمُضاض. هناك وُلِدت ابنتُنا، التي نصّرناها باسم ماريّا دِ لا أسنثيون كاتالينا.

كانت حين تَسْمَحُ لها رعايةُ الطفلة تنغلق على نفسها في المطبخ، وترتِّب على الرفوف قواريرَ الخوخ بالأغوارديينتِ وسلال الفاكهة المجفَّفَة والآنية الفخّاريّة المزجَّجة، الشعير بالزبدة ومقدَّدات الخنزير، تحت ضفيرة من شبك الخرشوف البرّي، والزبيب، والغادُس وأفخاذ الخنزير المُعلّقة، كما لو أنها أصص أزهار، بينما تخبط الصغيرةُ بساقيها في الهواء الذي يهزّه أزيز الدبابير في الخارج تحت العريشة.

بهذا الشكل نشأَ عالمان مختلفان في ركنٍ واحدٍ من تلك المدينة المنغلقة على ذاتها. كونان متجاوران، لكنّهما منفصلين.

كان بِرُوِثو يقضي النهارَ في الشارع. منذ أن افتتحتُ الاكتتابَ للحصول على التمويل الذي نبني به آلتنا الفضائيّة، راح يجوب المكاتب وحفلات السمر وهو يعضُّ على شفتيه. كانت قرطبة مدينة واهنةً وكسولة. لم تكد تُلامسها أنوار القرن. ولم تكن تطلّعاتنا إلى الطيران لتثير غير هزِّ الأكتاف والضحك أحياناً حين يشتدُّ القصف.

- حتى البحرات تتهامس عليَّ - كانَ يشكو بِرُوِثو معذّباً عند عودته لألم في رأسه، لأنَّ خطواته الكثيرة كانت تجبره على الاختلاط وتناول كأسٍ بعد آخر من النبيذ الأصهب قبل أن يتلقّى رفضاً قاطعاً ترافقه سخرية.

لم يكن باستطاعة الملاّكين الكبار أن يفهموا أحلامنا الجويّة. كانوا ملاّكي أراض، وفلاّحين بلا جهدٍ، وبالتالي بليدين، لكنّهم ملتصقون بالأرض التصاق الأشجار بها.

- الصعود إلى هناك، إلى الأعلى؟ لماذا؟ - كانوا يضحكون ويضيفون بوقار -: لا يمكن الفلاحة في الجوّ.

إلى مَنْ اللجوء إذن؟ فالصناعة منهارة تماماً. بعض المدابغ ماتزال تنقش القردبان على ضفّة الوادي الكبير بوسائل بدائيّة جدّاً. الأنوال المستمرَّة بالدوران، والتي تسدُّ حاجة دكاكين الأنسجة في شارع باعة الأقمشة، قليلة. وحدها الصياغة كانت تتحمّلُ بنوعٍ من الازدهار الانهيارَ العام.

كان الناس الذين ينطوون على شيءٍ من القلق، وأولئك القادرون على القيام بمبادرة ما، يجتمعون حول الجمعيّة الوطنيّة الملكيّة، المؤسّسة الأقرب إلى الإحسان منها إلى العلم. كان أعضاؤها يتردَّدون على مطبعة دون خوان رودريغِثْ دِ لا تورٌ في شارع الورّاقين، عند الزاوية المؤدّية إلى كولون، حيث تفوح من طلاحي الورق المطبوعة توّاً رائحة خبزٍ طريٍّ بسبب قربها من الفرن. كان الجوُّ هناك ملائماً نسبيّاً للتفكير الجديد.

ومع الثقة والوقار اللذين راح يكسبهما في تلك الدائرة، بدأ بِرُوثِو يتحمّس أكثر وأكثر ممتدحاً معجزة الطيران المنطادي. وسرعان ما انتبه إلى النفوذ الذي ما يزال يمارسه الدينُ على تلك العقول البسيطة. تخلّت حججه عن الحكمة العلميّة، واكتسبت نبرة المبالغة التي كثيراً ما ترضي الشعب الذي يحلّ اللاهوت عنده في معظم الأحيان محل الخيال. كثيراً ما كنت أضحكُ وأنا أسمعه يؤكّدُ بكلمات ملتهبة أنّه ربّما استطعنا أن نتأمّل العالم من هناك من الأعلى بالعيون ذاتها التي يراه بها الله، وأن نفسِّرَ غاياته بهذا الشكل وبطريقة أكثر كمالاً ودقّة. كان كلامه الفارغ يُلهب المجتمعين، الذين توجّسوا في جلسة لا تنسى من قانون الجاذبيّة لأنهم وجدوا فيه عائقاً أمام الاقتراب من الله، واتفقوا على أنّه إذا كان الأمر يتعلّقُ بتحدّي وهزيمة هرطقة الطبيعة تلك، فإنّه يستطيع أن يعتمد على رضاهم ومساعدتهم الاقتصاديّة في مهمّته.

للأسف أنّ بعض الأشعار البائسة كانت كافية للذهاب بالحماس

الذي كلّفه بعثه كثيراً. معلم لغة لاتينيّة، فظّ ومهمّش كتب مخمّساتٍ مشوّشة ذات مظهر ساخر، بحبرٍ جعل زوجته فرنثيسكا الأفعويّة تبصق فيه مسبقاً. لم يكن مورينو بِخارانو هذا يغادر البيت أبداً، لأنّه مصابٌ بمرضٍ يجعله يشعر حينٍ يسير كأنَّ سكّيناً تُقطِّعُ مجاريه البوليّة، التي تَخْرجُ من رأسها مع كلّ خطوةٍ قطرةُ دم. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يُغادره إلاّ أنَّه كان يقيم فيه مسامرات يقول فيها أشعاراً، لا تلبثُ بعد قليل أن تعرفها قرطبة كلّها عن ظهر قلب.

كان ذلك الشعبُ ما يزال يحتفظ بتلك القوّة القديمة التي تُحوِّلُ أيّة كلماتٍ مهما كانت بذيئة إلى أغنية، وهو أمر لا شكّ سيكون رائعاً لو أنَّ الظروفَ مختلفة. وكانت لهفتنا للطيران، التي تحوّلت إلى نزوات مجنونة، تنتقلُ من فمٍ إلى فم، تُفخِّمها رشقاتُ القيثارات.

وبالنتيجة فإنَّ من تجَرؤوا على تحدّي مهزلة إقرار الاكتتاب كانوا يُعدّون على الأصابع. ارتبك بِرُوِثو بعد إحصاء المتطوّعين، فطارت إيصالات الاستلام من بين يديه وانتثرت على أرضِ المطبعة.

رجع في ذلك اليوم إلى البيت، متوقّفاً عبر جميع الحانات في طريقه ليتناول كأسَ أنيسه بصمتٍ، دون أن ينقطعَ عن النظر، بين الفواصل، إلى وجه السماء الذي يُلمَحُ بين طنوف الشوارع المعوجّة وهو يزداد اكفهراراً في كلِّ مرَّةٍ أكثر.

ـ ما كانَ سيؤلمني هو نفور قبّة السماء. لكنِ هاهي هناك بائسةً، مكفهِرّة وبلا نجوم ـ قالَ ما إن وصل ـ أرى فألاً حسناً في هذه الليلةِ المُطبِقَة. فالسماوات تنتظرنا. قرَّرتُ الانتهاء من الاكتتاب مجازفاً بآخر مُرابطيّ من ثروتي.

التفتت ماريّا لويسا إليَّ تتوسَّلني بضيق أن أرفض، وحين لم تلقَ جواباً، تمتمت متذرِّعةً بالطفلة ولم تنضمِ في تلك الليلة إلى العشاء. لم تسمح في الشهور التالية لتوبيخٍ أن يُعكِّرَ بلاغة ذلك الغياب الصامت، ولم تبخل بالمساعدة في خياطة قطع أربطة الحرير الكبيرة التي يتطلّبها المنطاد، حتى حين كانت كلُّ غرزة تخترق قلبها.

حصل بِرُوِثو في أوائل كانون الثاني على ترخيص المجلس الأعلى لقشتالة لبناء وإطلاق المعجزة. بقيتُ ثلاثة أشهرٍ أعمل دون هوادة في ورشةٍ مرتجَلة. جنَّبني انعزالي سماعَ القهقهات التي كان

يُثيرها المشروع بين أهل قرطبة. كنتُ أعرف أنَّ الضحك أحياناً ردَّة فعلٍ عصبيّة للتخلّص من التفكير. لكن ما الذي يستطيع أن يقاوم السخريةَ العمياءَ غير حفنة من الأفكار المتصوَّرة في وحشة العقل ودون مواجهة مع الواقع؟

صار على تلك الأفكار المجنَّحة أن تتطابق كالعضلات مع الواقع. حين أصبح ذلك المشروع محسوساً أثناء سير العمل ارتحتُ قليلاً. انتابني إحساسٌ بأنَّ الواقع يهرع لمساعدتي، ويتصرَّف مثل مبردٍ يصقل الحصيّات القائمة في فراغ الفهم. وفي كلِّ مرَّةٍ تأخذُ فيها قطعة مكانها أشعر عند ملامستها بإحساسٍ لذيذٍ، مفاده أنَّ عقلي وجسدي متّفقان. بدا كأنَّ أصابعي تُلمَس في الوقت الذي تَلْمسُ.

لكن الحالَ لم يكن هكذا دائماً. فأيُّ خطإٍ يخرِّب الانسجامَ ويحكم عليَّ بالتيه من جديدٍ في المخّ. كنتُ في تلك الظروفِ أرفعُ عينيَّ إلى السماء فيبدو لي صفاؤها لغزاً عصيّاً.

لم يكن عندي مستمعٌ أثقُ به في لحظات الإنهاك الناتجة عن شكوكي وحيرتي. وليس بوسع برُوثو أن يفهمها إطلاقاً، فهو مُعجب بي بإفراطٍ. ولم يكن بقيّةُ المكتَتِبين ليخفضوا نظرهم ليخضعوه لمعادلة ما. فهم قد التزموا بمالهم وبشرفهم على الأخصّ، وعقولهم لا تقبلُ احتمال تعرّض هذا لخطأ بسيط. كانت زياراتهم المتواصلة تُعذّبني ونفاد صبرهم من التأخّر الحتميّ يُضايقني.

كان عندنا في البيتِ خادمةٌ عجوز تدجِّنُ العصافير وتتباهى بمعرفة لغتها. كانت عصافير الخُضيْري والحسّون تعبر نورَ سماء الشتاء البارد، تتوقّف في زاوية الفناء ثمَّ تهبط بخفَّةٍ وتحطُّ على يديها طلباً للبِّ الخبزِ. استطاعت هاتان اليدان المليئتان بالأجنحة الحيّة أن تستحوذا عليَّ. أقارنهما بيديّ الغائصتين في قماش المنطاد الجامد، أو المثقلتين ببرادة الحديد، التي أريد الحصول منها على الهيدروجين الذي سينفخه وينهض به من خوره.

دخلت العجوز ذات يوم إلى ورشتي برفقة صُفّاريّة تحومُ حولها، وراحت تعتذر وتؤكّدُ لي أنّها ما كانت لتجرؤ أبداً على إزعاجي لولا إلحاح ذلك العصفور، الذي توسَّلها أن تسألني عن السبب الذي لأجله أريدُ أن أطير.

- هذا المرادُ الغريب يُدهِشُ هذه الصفاريّة - أضافت - فهي تهبطُ كلَّ مساء إلى الفناء، وتستطيع أن تخبرك مسبقاً بكلِّ ما يحدثُ في السماواتِ دون ما أيّة نفقةٍ أخرى غير بعض حبّات الدُخن.

فأجبتها بسخريةٍ أنَّني أريدُ أن أطيرَ على متن تمٍّ من حرير لألتقط الثلج من قمم الجبال، وأسفكه في أيامِ الصيف القائظة فوق شوارع قرطبة.

نادت العجوزُ الصفّاريّة فحطَّت على أصابع يدها المفتوحة. قرَّبتها من شفتيها وهمهمت ببعض الكلمات الغريبةِ؛ فطار العصفور وغادر الورشة. كانت تلك ساعة المساء الثقيلة والفاترة التي تحتشدُ فيها مئات العصافير على شجرات الفناء.

- هل تسمعها؟ - تقصّت العجوز - فقد نقلت الصفّارةُ للعصافير الأخرى حديثنا على الفور.

- وماذا تقول؟- سألتُ مرحاً.

- تقول إنَّ الإنسان مثل البئر، يتغذّى من الصدقات التي تصله من السماء. لذلك فالأكثر فائدة له هو أن يحاولَ الصلاة لا أن يطير دون مبرّرٍ في الفضاء اللانهائي.

انتهيت من عملي في الورشة في نهاية أيّار. كنتُ قبل ذلك قد جهّزت بناء منصّةٍ في حقل دِ لا مِرثِدس، وضعتُ عليها المنطادَ المفرّغ من الهواء.

أقبلت قرطبة قاطبةً لحضور الصعود. لم أسمع، بعكسِ ما توقَّعتُ، ضحكةً واحدة. كانت الحشود الخائفةُ تتأمّلُ التحضيرات بصمتٍ مُطبق.

ركَّبْنا الدقل وبدأ الغازُ ينفخُ أحشاء القماش الذي سرعان ماكتسب أبعاداً هائلة. أخرج الناسُ مناديلهم وراحوا يُلوِّحون بها مذهولين. وانفجرت صرخة ابتهاج في جميع الحناجر.

بكيتُ ابتهاجاً وعانقتُ بِرُوِثو.

هبَّت في تلك اللحظة ريحٌ هوجاء تفوح منها رائحة البطم. قاوم الجهازُ الهبّات الأولى بقوّة. بقي هادئاً وسطَ الإعصار، شلّه جمودٌ موتّر ومؤلم. فجأةً وإذا بأحد الدقول ينفصلُ ويتشظّى والمنطادُ يتلوّى وسط اختلاجاتٍ رهيبة إلى أن تمزّق متحوّلاً إلى خرقة لا شكل لها.

استغرق إصلاحُ الأعطال بعضَ الوقتِ، لكنّنا أعدنا المحاولة بعد أيّام قليلة في سماء وديعةٍ ظاهريّاً. كان الجوُّ شبيهاً بجوِّ بيتِ مُحْتَضَر. بدأتُ بتسخين برادة الحديد ودفقتُ فوقها كميّة من زيت الزاج. بدأ المنطادُ يمتلئ بالهيدروجين بصعوبة. دامت العمليّة أكثر من الأولى. كان تنفّسُ الحشود المتقطِّع بصوته المتواصل يخنقُ أيّ ضجيجٍ آخر.

لم نسمع الريح تصل. وكفت هبّة ريحٍ واحدة، حارّة ودبقة، مثل إبريقٍ، قادمة من الجبال، لإشعال النار في حبال حلقة الفوّهة فكادت تحوِّلُ بقيّة الجهاز إلى رماد.

كثيرة الأصوات التي ارتفعت للكفّ عن العمليّة. علاها صمتُ ماريّا لويسا المختلج بفصاحةٍ أكبر. في اليوم الذي كنّا سنقوم بالمحاولة الثالثة كنتُ أوّل من وصل إلى حقل دِ لا مِرْثِدِس. يا للخفّة التي عبر بها سربٌ من السمّان، عائدٌ من أفريقيا، سماء الصباح الصافية! شعرتُ برصاصٍ في قدميَّ وأنا أصعدُ درجات المنصّة، التي يجثو عليها المنطادُ الفارغ من الهواء. طقطق الخشبُ، استيقظ الحارس، وتمضمضَ مِلء فمه بالأنيسادو قبل أن يقول لي صباح الخير.

- حلمتُ بأنّه يطير - أضاف - فوق ريحٍ لها رائحة فرس.

كنتُ أتأمّلُ شكلَ المنطاد الجامد، الذي سينفذُ إليه الغازُ بعدَ ساعاتٍ قليلةٍ مثل نفحة الحياة. داعبتُ الحريرَ المُبرنش، الذي رطّبه الندى، وتصوَّرتُ الوجوه البرونزيّة للحشود المستعدّة للاحتفال بفشلٍ جدٍ.

- أعدْ ثانيّة - أمرته - فلهذا وقع الفأل الحسن.

- ستكون الآلةُ كلّها ردفاً في الهواء. أقول لكم ذلك أنا الذي عملتُ قاطع طريقٍ في شبابي.

في تلك اللحظة وصل بِرُوثو.

- أخافُ أباكَ أكثر ممّا أخافُ الريحَ، يا دومينغو.

ناولني ورقةً كانت ترتعش بين يديه، انتبهت إلى أنّني لم أرَ في عينيه تلك النظرة الموحشة قط، التي تكاد تغور في البؤبؤين المظلمين. كانت عيناه مثل جلجلين مسحوقين.

لم أكن بحاجة لقراءة الورقة كي أفهم. فقد تمكَّن والدي من جعل المجلس الأعلى لقشتالة يلغي الترخيص بطيران المنطاد. منذ سنوات كانت قد قامت بيننا معركة حامية. كان يباعِد بيننا شعوران متعارضان وعصيّان أيضاً : الرغبة والخوف. خطئي في ازدراء قوّة الطبيعة التي يمكن أن تسبب الخوف. لم أتخذ أيّ حذر في مواجهة صبره المرضي. كثيراً ما يجعلُ الخوفُ لا الشجاعةُ الرجالَ أكثر فطنة، وبالطبع يجعلهم أقلّ تشكيكاً بالوسائل التي يستخدمونها وبنتائج أعمالهم. والدي المذعور من فشل المحاولتين السابقتين كان قد استفاد من كلِّ نفوذه في مدريد لمنع استمراري في مُغامرتي، دون أن يأخذ بالحسبان أنّه بذلك يحكم عليَّ وعلى أسرتي بالعار والإفلاس.

الفصل العاشر

بحثاً عن غودوْيْ

كنتُ قد اعتدتُ على تأمّلِ سماء قرطبة الساطعة التي تمخرها رغباتي. والآن صارت نظرتي تتوه في تلك التخوم الموحشة دون أن تدري أين تمضي. لا توجدُ في السماء دروبٌ أخرى غير تلك التي تخطّها رغبات البشر. كان فراغها يُذكّرني باستمرارٍ بمصائبي. لكن ما إن أُغمض عينيَّ، مثل نابض، حتى يظهر المنطادُ متخلّصاً من حبال الواقع، خفيفاً كالحرّيّةِ والأمل، ممكناً دائماً.

انتبهتُ إلى أنَّ جزءاً كبيراً من حياتي مضى في هذا البلد الذي ما إن أفتح عينيَّ حتى يتلاشى، وتسكنه كائناتٌ لطيفةٌ ومرعبة، أشباح تعرف كيف تختفي وتختبئ في أوج النور. كنتُ في الثامنة والعشرين من عمري، وكرَّستُ أكثر جهودي حرارة لتلك المعجزة التي حكم عليها والدي بتدخّله بالتيه أبد الآبدين في عالم دماغي الداخلي، مثل سحابة تدفعها ريح الخيال القلقة.

وقع خطواتٍ مزّقَ الصمتَ العميقَ الذي سيطر على البيت أبعدني عن أحلامي. دخلت ماريّا لويسا إلى الغرفة المضاءة خفيفاً بآخر أشعة شمس المساء. تأمّلت كيف تبدّي جسدها الصغير والهشّ راسخاً وحازماً على خلفيّة النور. ظاهريّاً لم تؤثّر فيها الأحداثُ الأخيرةُ. فهي تعتني من الصباح وحتى الليل بالبيت والطفلين بالطريقة ذاتها، ذلك أنَّ ابننا بِدرو كان قد وُلِدَ قبل وقتٍ قصير. لم تسمح في لحظةٍ من اللحظات

لرغباتها أو ضيقها أن تُعكِّرَ انتباهها المنصبّ على أعمالها التي تُنفّذها بدقّة وتركيز مهنيّ. هناك شيء ما لا يتبدَّلُ في داخل تلك المرأةِ الصغيرة التي تقبض على يدي، وتقودني كأعمى إلى الغرفة التي يرقدُ فيها والدها، منذ أيّام، وقد أضنته المرارة.

ـ كيف يمكن أن أنفضَ عن الروح هذا الشكُّ، يا دومينغو ـ كان يئنُّ بِرُّوِثو، مختفياً في ظلمة غرفة النوم. صار للعالم ثقلُ سجنٍ بالنسبة إلى رجلٍ اعتاد على بهاء الخيال ـ لو أستطيع فقط أن أتأكّد من أنّنا لم نخدع أحداً! لو تستطيع فقط أن تقسم لي بأنَّ المنطاد قد طار!

لم أدرِ بماذا أُجيبُ، فقد آلمني عذاب ذلك الرجل البسيط والنزيه، الذي جلبتُ إليه دون إرادة منّي العارَ والإفلاس.

ـ أبتِ، ما فائدة القسمِ؟ فأمر المجلس قاسٍ، فهو يشكّكُ، دون أيّة حجّة أخرى غير رأي حميٍّ، بقدرةِ دومينغو على المضيّ بالمشروع إلى الأمام، ويحرمه في الوقت ذاته من الوسائل للبرهان عمليّاً أنّه على خطأ ـ التي ردّت عليه بصوت صارم وحزينٍ وبارد هي ماريّا لويسا، لكنّني لاحظتُ في كلماتها الأخيرةً رعشةَ التأثّر ـ أنا واثقة من أنَّ دومينغو المسكين كان يُفضّل ألفَ مرّة أن يجرَّ أذيال الفشلَ قبل أن يتحمّل للأبد هذه الريبة الممزِّقة.

في تلك اللحظات الثقيلة التي كان يخيّمُ فيها علينا الشقاء، تأكّدتُ أنَّ ماريّا لويسا تملك القدرة على فهم تلك الأشياء التي لا تُشارِكُ فيها، فهي لم تنبس بكلمة تأنيبٍ واحدة على الرغم من أنّها وقفت دائماً بثبات في معارضة مغامرة المنطاد. واستطاعت بطبيعيّة وبساطة أن تُواجه التجاربَ القاسية التي كانت تنتظرنا. تحمّلت، دون أن تخلط بين القلق والقنوط أو الحيرة، الفشلَ والفاقة أو الألم بجرعته الدقيقة، دون أن تسمح للأحداثِ بأن تكتسي بثياب مشوّشة تخفيها الفاجعةُ وراءها.

لذتُ لزمنٍ في أمل أن يلغي المجلسُ الأعلى لقشتالة منعاً لا يقوم إلا على مخاوف والدي الغامضة. هكذا أفهمتُ المكتتبين على المنطاد من خلال بيان وزّعته عليهم، وكانوا يُطالبون بإعادة المبالغ المستثمرة، وبدؤوا يتصرّفون بغطرسةٍ وتعالي مجموعة دائنين.

كتبتُ عدّةَ مذكّرات أطالبُ فيها بالعدالة. كنتُ في تلك المرحلة

قادراً على العمل بفطنة، لكن ليس بحذر. كان باستطاعتي أن أفهم من عيني ماريّا لويسا المذعورتين أنّ تلك الميِّزتين تلقيان صعوبة في العيش منفصلتين الواحدة عن الأخرى. وازدريتُ مرّة أخرى العناد الذي يدافع به رجلٌ عاميّ عن هدوئه. ظننتُ أنَّني أعرفه بعمقٍ، لكنّه كان قد مضى علينا سنواتٌ لم نلتقِ فيها تحوّل خلالها إلى عجوزٍ محزِن، متمترسٍ خلفَ مكتبٍ ويكره المخاطر لمجرّد الكراهية.

قدمتُ البراهين، احتججتُ، توسَّلتُ دون جدوى. كان من السهل على والدي إقناع أعضاء المجلس بأنَّ الحرارة التي أعبِّرُ بها عما في نفسي لم تكن أكثر من عتوٍّ. وهكذا عرف كيف يوحي، حيث كان ينقصه المنطق، بمبرّرات قويّة غير عقلانية تقلِّل من قيمةِ مطالبي: الكبرياء.

كتَبت إليّ والدتي عاذرةً إيّاه. إنَّ مسارّات تلك المرأة الطيِّبة بقدر ما هي مستسلمة قد آذتني إيذاءً حقيقيّاً. منها عرفتُ أنَّ والدي لم يفعل شيئاً آخر غير أنَّه عاملني معاملة الطفل الذي تُصادر منه دمية خطرة. يُسكِت ضميره بيقين أنَّه يعمل لصالحي، لكنّني لم أكن طفلاً تتعلّقُ سعادته أو شقاؤه بعنايته وحمايتِهِ. كان زمامي في يديَّ منذُ زمنٍ بعيد، وتدخُّله قد قطعه من أصله في أوج السباق.

كانت نتائج مكائدهِ رهيبة. ليس بسبب الإفلاس وضياع السمعة اللذين استنفدا ثروة بِرُوِثو وشهرتي، بل لأنّ طبيعتي تتحمّل العوائقَ أسوأ ممّا تتحمَّلُ المشقّات. دائماً كنتُ أكثر سعادةً في الشدائدِ التي سعيتُ إليها بمشاريعي ممّا في تَحَمُّلِ مستحقّات قدرٍ غير مرغوب. كنتُ أُفضِّلُ، تماماً كما وضّحت ماريّا لويسا لوالدها، أنْ أواجه أكثر حالات الفشل إيلاماً قبل أن أشعر بأنّني أسيرُ أوامر اعتباطيّة تمنعني عن العمل.

كان بودّي أن أُوفِّرَ على نفسي ذكرى تلك الأيّام الكئيبة. لم أكن لأغامر تقريباً بالخروج إلى الشارع. فأهلُ قرطبة لم يبخلوا عليَّ بالازدراء ولا بالسخرية. وانتهى العاطلون بإغراق كلّ ما كان موجوداً في وحلِ أدمغتهم الراكد. كما أنَّ قولَ هؤلاء وقيلَ أولئك وشكاوى واحتجاجات الدائنين وصلت إلى مدريد، حيثُ الأسماع أكثر حساسيّة تجاه الفشل منها تجاه النجاحات.

مركزي في إدارة التبغ أصبح مقلقلاً. فرجل مثقل بالديون تمرُّ

بين يديه يوميّاً مبالغ كبيرة، من الصعب جدّاً ألاّ يثير الريبة. تدخَّلَ والدي من جديد واستطاع نقلي إلى موقعٍ مماثلٍ في بورْتو رئال. لكنَّ سمعتي لاحقتني حتى تلك النقطة من خليجِ قادِش.

كان نظام العمل الداخلي الذي تُطبّقه إدارة محاصيل التبغ على موظّفيها صارماً جدّاً. شدَّدوا عليَّ بالأخصّ كثيراً. قرَّرتُ ذات يوم جميلٍ من أيّام الصيف أن أتخلّى عن ذلك القدر الذي لم أكن أحظى فيهِ على ثقة مسؤوليَّ، وينتابني إحساس بأنَّني سأبقى دائماً تحت المراقبة.

بالتأكيد كنت أكره نقلاً هو من جديد نتيجة نفوذ والدي. كانت تُداعبني فكرة التمرُّد على تأثيره للأبد. لكنّني ساعة اتخاذ القرار تركتُ نفسي أنقادُ بما قدَّرتُ أنّه أكثر ملاءمة لحلّ وضع أسرتي الحرج. كنتُ مقتنعاً بأنّ مشروعاً استثنائيّاً وحده يستطيع أن يُرمِّم سمعتي ويُعوِّض على بِرُوِثو خسائرَه.

على الرغم من أنّني لم أشعر بمسؤوليّتي عن فشلِ المنطاد، إلاَّ إنَّني لم أكن على استعدادٍ لخداعِ نفسي في موضوع النقص في أهليّتي. قرَّرتُ أن أخصِّصَ كلَّ يوم عدداً من الساعات للدراسة. جدَّدتُ هوايتي للفيزياء والرياضيّات وعلم النبات والجغرافيا والفلك والظواهر الجوّيَة، وجميع تلك العلوم التي سمحت لي فيما بعد بتوسيع مداركي وتوجيه خيالي على امتداد أسفاري.

كان أحدُ ثمار تلك السنوات ترجمة *رسالة عن قياس الرطوبة الجوّيَة* للعالم الطبيعي والفيزيائي السويسري هوراس بِنِديكت دُ سوسِر. كانت تلك المهمّة عزاءً لي. فسوسِر بعد أن قاس رطوبة الهواء وتكاثف الماء، تشكُّل الأمطار وتتالي طبقات الجو، لم يلجأ إلى مساعدة المنطاد الجوّي بل تسلّق حتى وصل أعلى قمّة في جبال الألب: مونت بلانك. وهكذا رصد راسخَ القدمين في الأرض أسرارَ السماء. لا شيء غريب أو بعيد حين يدخلُ إلى عقولنا. لقد أمتعتني بشكلٍ خاصٍّ دراسته للعلاقة بين لونِ السماء وشفافية الارتفاعات المختلفة، التي اخترع لتقديرها جهازاً أسماه مقياس الشفافية.

كان وضعُ أسرتي كما قلتُ حرجاً، وكنت على ثقة من أنّ مشروعاً كبيراً وحده يستطيع أن ينقذنا. لكن ما هو؟ حرَّرتُ في الوقت الذي كنتُ أكمل معلوماتي العلميّة عدداً من المشاريع حول قضايا قدَّرتُ أن

توضيحها ضروريّ ومفيدٌ للمملكة. أعترف أنَّ الفرصة كانت تأخذ يدي قبل الميول أو المقدرة.

لا أخجل من ذلك. كنتُ أعمل كي أُرمِّمَ سعادةَ الأشخاص الذين أُحبُّهم. ومع ذلك كنتُ أُخطئُ. فالانتهازيّة في معظم المناسبات تعمينا مثلَ صلاء وتحكمُ علينا بالدهمائيّة.

لقد ألهمني عرس أميرنا خوان والأميرة كارلوتا، ابنة ملوكنا، خطّة لحملة البرتغال، التي أفضلُ ما يمكن أن يُقال عنها حين غزا غودوي البلدَ الجار فعلاً بعد سنتين دون أن يلقى أيَّةَ مقاومة أنَّها لو طُبِّقتْ لكانت غير ضروريّة بل ومضرّة.

تصوَّرت مشروعاً آخر من مشاريعي حين أُعلنت السندات الملكيّة قسريّةً، ممّا تسبَّب بانخفاضِ قيمتها واحتكار الأهالي للنقود المعدنيّة، معرِّضةً بنك سان كارلوس للتصفية. خطَّطتُ للخروج من الوضع الصعب لتأسيس مؤسّسة مصرفية جديدة كانت ستدعى لا رئال بييداد دِ ماريّا لويسا، فلم تلقَ بدورها أيَّ اهتمام من السلطات العامّة.

فهمتُ أنَّني إذا أردتُ لأحد أهدافي أن يزدهر عليَّ أن أستقرَّ في مدريد. ما زلتُ أذكر يومَ وصولنا. الجيادُ تهزُّ أذيالها منهكةً وسط أحد الشوارع العريضة والصاخبة. كنّا خائفين. نحبسُ أنفاسنا وكأنّنا نريد أن نجرِّب بجرعاتٍ صغيرةٍ تلك المدينة المضطربة والرقشاء، بجهدها السطحي الذي يبدو محكوماً بالتبخّر في الهواء النقيّ جدّاً، والخالص الذي لا لون له وهو يهبط من جبال وادي الرامة البعيدة. كان هواء مدريد ريفيّاً ينظّفه ذلك الجوّ غير القابل للفساد.

فجأة توقّف كلّ نشاط. سُمِعَ نفير حارس سويسري وعبرت عربة الشارع. لزم المارّة الهدوء وهم يتمتمون، فتحت السيِّدات طُرَحهنَّ وأوقف السائقون عرباتهم.

ولأوّل مرّة تأمّلت عيني غودوي المتأجِّجتين، اللتين تضطرمان في وجهه المنتفخ. كانت تشدّ على كتفيه العريضين بدلة عسكريّة بهيّة ويد غليظة ووردية تداعب سعيدةً طوق تواسون دِ أورو مترنحاً فوق الصدر.

ضاعت العربةُ باتجاه القصر الجديد فدلّني أثرها على طريقٍ. كان هدفي الدنوَّ من ذلك الرجل في البلاط. لكنّ عليَّ قبل ذلك أن أحلَّ بعض

المسائل. بعد أيّام قليلة من وصولي إلى مدريد مثلتُ في مكتب مدير إدارة التبغ. كان رَجلاً عنيداً ومتجهماً، معقوف الأنف، شديد شحوب البشرة. تأخر في رفع نظره عن بعض الأوراق التي كان يتفحَّصها بتركيزٍ شديد. وعندما وجّه إليَّ الكلمة فعل ذلك من أجل أن يلفت انتباهي بنبرة منخفضة جدّاً ونادمة، إلى أنَّ منصبي في إدارة محاصيل التبغ الملكيّة سيبقى شاغراً ما دمتُ مصرّاً على الاستقرار في العاصمة. تلميح غير مناسب إلى رأي والدي، الذي كان بالطبع وراء ذلك الإنذار، أقنعني بأنَّ لحظةَ نفضِ نير وصايته عنّي قد حانت. تنازلت عن وظيفتي مقابل حرِّيتي بالإقامة في مدريد وتفرّغي لمشاريعي.

كانت النتيجة الفوريّة لذلك القرار صدمة مجهولة ومريرة: الفقر. وشيئاً فشيئاً راحت تبهت ألوان الذكريات السعيدة، المغسولة في سطوع بِرا النمير والكريم وفي نور قرطبة الحميم والجلي، وراحت تسودُ في تلك الغرفة البائسة والحقيرة الخالية من التهوية في شارع بْوِبْلا 33 التي نزلنا فيها. على مقربة كبيرة كانت كنيسة سان أنطونيو دِ لوس ألِمانِسْ، المزيَّنة بثماني سجّادات بمشاهد عن حياة سان أنطونيو دِ بادوا، العائدة لفراشي كارِّينيو، وريتشي ولوكاس جوردان، والتي كانت نواقيسها تخترق جدرانَ البيت الواهنة عدَّة مراتٍ في اليوم، مخلِّفةً صدى رعب وخوف.

كنتُ أقضي حياتي مشغولاً بالزيارات، ومساعي تأمين أعمالي المستقبلية وتعويض إفلاس بِرُوِثو. لم أكن أعرف في الحقيقةِ من أين أحصل على النقود لطعام يومنا التالي، أو لدفع أجرة البيت المُضحكة.

كنتُ أشارك في تصميمي محامين يتطلّعون إلى أن يُصبحوا قضاةً، محامين مبتدئين يحاولون العمل في بعض المحاكم التي لايحصى عددها، عسكريين غير راضين عن وظيفتهم، بعض الرهبان القانونيين الذين يتلهّفون من أجل منصب جزيل الراتب، جشعين يطمعون بجمع الضرائب. كنّا نلتقي، مزوَّدين جيِّداً برسائل، كلَّ يومٍ في قاعة الانتظار عند غودوي أو بعض الوزراء، رافعين مذكّراتٍ مسهبة وعرضاً مفصَّلاً لمزايانا.

كانت مدريد تزدحم بالناس المتلهّفين للحصول على منصب رسميٍّ أو منحة؛ والأسر الميسورةُ ترسلُ أبناءها إلى البلاط للحصولِ

على وظيفة في الإدارة التي تعيلهم بقيَّةَ حياتهم. لم تكن معظم المناصب، الكنسي منها والمدني، تتطلّب أهليّةً أخرى غير التوصية الجيِّدة.

حالتي كانت غريبة. فقد شغلت منصباً عامّاً منذ الرابعة عشرة من عمري. وتحوَّلتُ الآن وأنا في الثلاثين من عمري إلى طامح. كنتُ أعتبرُ نفسي بسذاجة متفوّقاً عليهم جميعاً، فقد تنازلت عن الوظيفة الثابتة التي يرغبون بها. كنتُ أكرِّرُ على نفسي أنَّ تطلّعاتي أكثر طموحاً وأرغب بالاعتقاد بأنّها أنبل.

اضطررتُ لأن أقبلَ منصباً في مكتبة السيِّد بابلو سانغرو إي دِ مِرودِ، أمير كاستِلْفرانكو، العسكري النابولي الذي دخل في خدمة إسبانيا في زمن كارلوس الثالث، وعيِّن مجدَّداً نائباً للملك في نافارّا. كان عملاً سيِّئ الراتب، لكنّه يسمح لي بمتابعة تحصيلي العلمي. كنتُ أقضي معظمَ وقتي في ترجمة جديدة، مقتاتاً بوجبات صغيرة جدّاً، وأتوقّفُ من حين لآخر لأضبط نفقاتي بحسب راتبي البائس.

شكّلت تلك الترجمة نجاحي الأوّل. فقد كان الأمر يتعلّقُ *بقاموس عجائب الطبيعة ويتضمَّن تحقيقات عميقة حول أضرار الطبيعة، الأصداء، الإجلاء، الخصوبة، الأمراض، الإنسان البحري، المطاعم، الغطّاسين، الخيال، الغريزة، النفور، الجثث، الضوء، البحر، الأجواء الخانقة، التحجّر، الصم، الأقزام، الأمطار، المغناطيس، الزلازل، الكهوف، الحرائق، الرعب، الموت الظاهري، الصواعق، الثلوج، الأعاصير، الأحلام، البراكين، الشيخوخة، الخ*. الذي كتبه جوزيف أيغنان سغود دِلا فوند. وقد أثار الكتابُ اهتمام وزير الدولة، السيِّد ماريانو لويس دِ أوركيخو، الذي أمر بطباعته في المطبعة الملكيّة. لكنَّ عزلَ شفيعي بعدها بقليل، بعد معاداة غودوي له وأسره في معقل بامبلونا، تسبَّب بعزلتي في مكتبة كاستِلْفرانكو.

عدتُ لألقى نفسي معزولاً تماماً. إذا كانت الفاقة تولِّدُ إحساساً بالتمزُّق والألم في الجسم فإنَّ العزلةَ تحدِثُ إحساساً باللاواقعيّة، بكونِ المرء لا أحد. كان الاستمرار يوميّاً بدراساتٍ تخلو من هدفٍ محدَّدٍ، ودون أن أسمح لأعصابي بالتمكن منّي يكلِّفني جهداً كبيراً. وكلمّا باغتني حلول المساء منهكاً فوق كتب المكتبة سيطر عليَّ الحزن أكثر.

أشعر بأنَّني على وشك الفشل مرَّةً أخرى، ليس بسبب المصاعب الاقتصاديّة، بل لانعدام الخيال والهدف الدقيق، السببين الحقيقيين اللذين يحكمان علينا بالفشل.

بدأت أتعلم من خلال تلك التجارب درساً صارماً. كان عليَّ أن أتجرَّدَ من كلِّ شيء، أتعلَّم ألاّ أكون أحداً كي أكتشف قريحتي الحقيقيَّة. وشيئاً فشيئاً بدأ يدخل شخصٌ لغزيّ لم يكن له اسمٌ بعد في التجويف الذي راح يخلِّفه فارغاً باديًا شبحيٌّ.

توجَّه فضولي ببطءٍ وبشكلٍ غير محسوسٍ نحو الاكتشافات الجغرافيّة. في تلك المكتبة التي صارت كريهةً بالنسبة إليَّ وأحبُّها في آن معاً، وقعت بين يديَّ نسخة من كتابٍ نشره قبل عامٍ المُستَكشِف مونغ بارك.

وتوغَّلت مثل مُسَرْنم في الكتاب الذي كتبه شابٌّ متواضع النسب، ابن أحد الريفيين في إقليم بوردِرز الاسكتلنديّ، أراضي الهضاب القريبة من إنكلترا. عاش بارك بعد أن تخرَّج طبيباً من إديمبورغ فترة من الزمن في سومطرة، حيث عمل جرَّاحاً. أسردُ هذه التفاصيل لأنَّني أحببتُ في ذلك الوقت أن أتخيَّلَ كيف كان ذلك الشاب الذي نزل في غامبيا في الرابعة والعشرين من عمره، على نفقة جمعيّة أفريقيا في لندن، ووصل إلى نهر النيجر وتابع طريقه متغلغلاً في أعماق قارّة مجهولة. كان يحاول أن يجد قلب تلك القارّة: مدينة تُمبكتو، بلد الهاوسيين ومنابع النيل، أكرم الأنهار الذي ينبعُ بحسب الأساطير من جبال القمر. لم يتمكّن من ذلك فتبنَّيتُ تلك الأحلام في الليلة المرصَّعة بالنجوم التي أنهيتُ فيها قراءة الكتاب.

الفصل الحادي عشر

الخطّة العلميّة

قدّم لي فشلُ مونغ بارك الرائع طريقاً أسلكها ومسعى أيضاً. عدتُ لأشعر بإرادتي مثل عضلة وبخيالي يستعيد خفَّته. همتُ في خريفِ وصيفِ 1801 تائهاً في درب من الورق مستغلِقٍ. التهمتُ كلَّ كتب الرحلات التي كانت تقدِّمُ لي معلومة عن داخلِ أفريقيا. مارمول كارباخال، ابن بطوطة، براون وبروث. كنتُ واعياً أنَّني أسلمتُ نفسي للكلمات تحملني دون أيّة رفقةٍ أخرى.

كان يكفيني أن أفتح كتاباً على صفحة ما حتى أُدركَ أن جزءاً كبيراً من قوّة الإيحاء فيها يكمن في ما لم تكن قادرة على وصفه، في المجهول. كان الليلُ المدلهمّ لقارَّةٍ خفيّة منذ ملايين السنين ما يزال مستمرًّا على بياض الورق. يترصَّدُ في صحاريها المقفرة وغاباتها العذراء والمنيعة زئيرُ الضواري المرعب، أو الصمت الحذر الذي نتوقّعه في حركة جسم خفيَّة، أو نتوجس منه في عينين خفيَّتين تترصداننا.

خطَّتي بالسفر إلى داخل أفريقيا وضَعْتُها بعيداً عن تلك القارّة في حرم مكتبة كاستِلفرانكو، دون أيّة تجربة أخرى غير الصور الباقية في الذاكرة منذ أيّام بِرا، والحكايات التي أسكرت خيالي منذُ ذلك الوقت وللأبد.

قرَّرتُ أن أستمرَّ خلف نظرة طفولتي. على خلاف مونغ بارك، لم

أستطع أن أُفكِّر بالنزول على الشاطئ الغربي لأفريقيا، حيث يحافظ الإنكليز على محطّاتٍ مخصَّصةٍ لتجارةِ العبيد. سأنفذ إلى أفريقيا عبر الشمال، متمسِّكاً بتلك النظرة كما يتمسّك فارس أعمى بمطيَّته. كان هدفي الالتحاق بإحدى القوافل التي تقطع الصحراء وتتاجر مع أفريقيا السوداء. سأهبط الطريق التي يربطُ فيها العاجُ والذهبُ والعبيد بين نصفي أفريقيا اللذين تفصل بينهما الصحراء. سأعبر نهر الدراع، كما أعبر عتبة، لأتوغَّلَ في الصحراء، متلمِّساً الطريق التي خطَّها محمَّد موسى عبد الله على طبيعة لا تكفّ عن التبدّلِ، ترسمها وتمحوها الريح باستمرار. وإذا لم تغشّ آثارُ الرمال المخرّبة خطواتي توقّفتُ في بنو بعد شهرين، وسأتابع من هناك إلى تُمبكتو وبلد الهاوسيين لأصل إلى مناجمِ سان جورج في شاطئ الذهب.

لن أنهي رحلتي هناك. سأدور من هناك، حيث هجر البرتغاليون، مثل نسور بلا لحم، حصناً شيِّدَ منذ عدَّة قرونٍ، باتجاه الشرق كي أجوب خصر أفريقيا الاستوائيّة حتى زنجبار من الغرب إلى الشرق، على شاطئ بحرٍ آخر: بحر الهند. في مينائها، الذي تزوره الزوارق العربيّة باستمرار، وجد فاسكو دي غاما بحّاراً من غجرات، اسمه أحمد بن ماجد، قاده حتى كالكوتا، أحد الموانئ النادرة على شواطئ مالابار الرمليّة المنخفضة في القارّة الهنديّة.

لكنَّني سأركب نحو الشمال، أبحثُ من جديد عن نظرة الطفل القديمة، المليئة بالتساؤلات. ومن دارفور، كُردُفان، كانمِ، والجنة على تخومِ الصحراء سأعود إلى طرابلس، ومن هناك سألمحُ بحرَ طفولتي، أخيراً ربّما، نظيفاً من الأحلام ومفعماً بالواقع.

آلافُ العيون على طريق ذلك الورق المسكون بالأسماء الرنّانة والمناظر المثيرة تتجسّس على خطواتي، دون أن أستطيع رؤيتها ومعرفة مقاصدها. لم أكن أواجه النظرات البسيطة والعفويّة التي تتولّد عند الإنسان من الاحتكاك بالطبيعة دون أيّ دليل غير الانطباعات الأولى. يقودُ قناعاتِ وسلوكَ البشر في تلك البلاد إلهُ الإسلامِ القدير. كيف أمنع انتعاش الغيظ في صدر المؤمنين به من الحضورِ الوقح لمسيحي؟ خلف حجاب التعصّب الديني يختفي حكمٌ غير قابلٍ للطعن.

شدائد مونغ بارك ملأتني قلقاً. بالقرب من بنو وقع في أيدي قبيلة من البدو أجبروه على أن يصيح لا إلهَ إلاّ الله محمّد رسول الله. أدهشهم على الأخص اللباس، السروال المحكم، الذي اعتبروه غير محتشم، الأزرار التي كانوا يجهلون وظيفتها. عرّوه كي يتأكّدوا من بياض بشرته وليطمئنّوا إلى أنّه كائن بشري مثلهم. بعد جدالاتٍ طويلة قدّموا له طبقاً من لحم الخنزير. وبعد قليل حضر جيشٌ من النساء مثارات جدّاً ليتأمّلن قلفته غير المختونة. وعندما تعبوا منه أسلموه لمزاج الأطفال، الذين راحوا يتسلّون به ويلعبون كما مع حيوان غريب. استمرّ ذلك العذاب زمناً طويلاً. عاش بين أولئك الناس دون أيّة حماية، وصار مجرّد عبدٍ، وحدها فِطنته سمحت له بالخلاص بمعجزة من الموت.

كان الليلُ يباغتني أحياناً في مكتبة كاستِلفرانكو وأنا أتفكَّرُ بهذه المسألة، متجاهلاً الكتب والأوراق. كيف أعبر متاهةَ الشعوب، الحضارات، الثقافات والديانات المختلفة التي تفصل بين البشر، وتجعلها تتصارع دون أن يشي مظهري، عاداتي أو معتقداتي بأنّني عدوّ وتحكم عليَّ بالتحوّل إلى ضحيّة.

كنتُ أنسى، وقد عكَّرُ ذلك المأزقُ مزاجي، إشعالَ الضوء. فأتمكّنُ من الرؤيةِ من خلال باب المكتبة دون أن أُرى، وتتبدّى على الطرف الآخر من الباب الحياةُ العاديّة للقصر دون قناع. وتصلني رائحةُ العشاء المختلطة بشكل مريع بالتنفس وتعليقاتُ الخدم اللاذعة، وألعابُ الأطفال السرّيّة وتنهّدات أميرة كاستِلفرانكو.

بالنسبةِ إليهم لم أكن موجوداً. كيف أستطيعُ أيضاً أن أتلاشى تحت ضوء النهار وأعبرَ قارَّةً دون لحم ولا عظمٍ، مثل شبح؟ كنتُ أعرف أن عليَّ أن أتحرَّر من ذاتي. لكن كيف؟

تلقيتُ في الأوّل من نيسان، يوم عيد ميلادي، هديّة غير متوقّعة. اعتدتُ أن أتردّدَ على شارع البرادو العريض ساعةَ يظهر المُفضَّلُ على الشعب. كنتُ منذ فترة أترصّد غودوي. وكنتُ أفاجئ عنده أحياناً إيماءة، لمصاً أو نظرةً، قدّرتُ أن دراستها ضروريّة لليوم الذي سيكون عليَّ أن ألتقيه وجهاً لوجه. لكن كان عليَّ في معظم الأحيان الاكتفاء بلمح عربته الثقيلةَ وهي على وشك أن تذوب في ضوء النهار المدريدي الباهر، مخلِّفة أثراً مغبرّاً في عينيَّ المبهورتين.

في ذلك اليوم التقيت بالسيِّد فِرناندو كاماتشو، الطبيب الذي احتككتُ به على أثر نشري لقاموس عجائب الطبيعة. كان كاماتشو يقدِّر أنَّ عملي ينطوي على كنزٍ من المستجدّات المفيدة والنافعة لمهنته. لكنّ الذي عزَّزَ صداقتنا هو أنّه زار قبلَ فترةٍ قصيرة معاقلَ شمال أفريقيا لمحاصرة الوباء الذي أُعلِنَ عنه في تلك المنطقة، وقد أوشك على إنهاء *محاضرة طبيّة عن العدوى في المغرب*. كان واحداً من الأشخاص القليلين الذين كشفت لهم عن مشروعي.

- كلّما فكّرتُ أكثر بمشاريعك كلّما بدت لي إمكانيّةُ تحقيقها أقلّ، يا باديّا. - قال لي هازاً رأسه بالنفي، دون أن يتوقّف عن النظر إلى داخل العربات التي كانت تتجاوزنا ببطءٍ ونحن نمشي - صحيح أنَّ صديقي خوسِهْ أنطونيو كول قُبل في بلاط السلطان مولاي سليمان لوقاية الملك وأسرته من الوباء، لكن أنت لا تستطيع دون مهمّة مماثلة أن تخطو خطوة واحدة في تلك المملكة. مظهرك تماماً مثل هؤلاء الفتية بيننا لن يلفت انتباه أحد.

أراني عدّة هيئاتٍ مغطّاةٍ بعباءات واسعة سوداء ومعمّمة بعمامات مذهّبة، تنحني أمام باب مفتوح لعربة متوقّفة. نزل منها السيد الكبير أحمد يوسف أفندي، سفير تركيّا، ملفوفاً بدولمان قرمزيّ. تدافعت الحشود لتراه عن قرب. ما من عربة من مئات العربات التي كانت تجري في الشارع أثارت مثل ذلك الفضول.

كان السفيرُ يبتسم. نزل من العربة ليدخّن سيجارة وينفث من حين لآخر ملء فمه دخاناً في وجوه العبيد القاسية، الذين أحاطوا به متيبِّسين لا يرفّ لهم جفن، مصطفّين في صفين.

- ماذا سيحدثُ لو أنّ سعادته لبس مثلك أو مثلي؟ - سألتُ كاماتشو وقد برقت عيناي من التأثر.

- لا شكَّ أنّه لن يلفت انتباه أحد - تأخَّر الطبيبُ برهة في الإجابة وأضاف على الفور -: هل تمعّنت، يا باديّا، أنّكما تتزيّنان بشاربين مماثلين؟ إذا ما لبستما الثياب نفسها لن يستطيع أحدٌ أن يميِّزَ بينكما.

- اعذرني، يا كاماتشو. عليَّ أن أنسحب - قاطعته متأثِراً جدّاً - أنا واثق من أنَّني سأنهي اليوم خطَّة سفري إلى أعماق أفريقيا.

وهكذا كان. بعد ساعات وبين ظلال المساء الحذرة والمجسّدة،

أنهيتُ تحرير الصفحات الأخيرة من مشروعي، أشرت فيها تحت عنوان *منهج الرحلة* إلى أنَّني على استعدادٍ لإخفاء شخصيّتي، ديني ووطني، كي أقدِّمَ نفسي في أفريقيا، متبنيّاً مظهر وعادات المسلمين، بطريقة لاتستطيع فيها الريبة ولا الفضول ولا التعصّب أن تمنعني من التجوال بحريّة في كلٍّ مناطقها.

تأخَّرتُ في بصم توقيعي في نهاية الوثيقة، إذ لم يعد باديّا هو الذي يشرع بالرحلة. كان عليَّ أن أتّخذ اسماً إسلامياً. في نهاية الصفحة وفي الفراغ الأبيض المخصَّص لوضع توقيعي عرفت ارتباك الرجلين اللذين كانا ينتظران أن يلتقيا منذ زمن طويل، قادمين من عالمين يتأمّلُ كلٌّ منهما الآخر إلى ما لانهاية دون أن يعرف البداية من النهاية. باديّا أم علي باي؟ أيهما؟ اخترت أن أخربش تذييلاً غامضاً.

أظنُّ أنَّ أميرَ كاستِلفرانكو هو من تمكّن من حمل غودوي على استقبالي بعد أسبوع. كانت أشهر إعداد مشروعي الحماسية تلك أقسى أشهر قضيتها منذ استقرارنا في مدريد. فقد أجبرنا أمرٌ قضائيٌّ على تبديل البيت لعدم استطاعتنا دفع الإيجار. على الرغم من أنّ بيتنا في شارع بوبلا، كان مظلماً وكئيباً، إلاّ إنّنا لم نتركه قبل أن نعاني شعوراً مرّاً بالخسارة. في البيت الجديد، في لِغانيتوس رقم 2 ، كنّا نشعر بالأرض هشّةً تحت أقدامنا. كم من الوقت سيتأخرون بطردنا من هناك؟

أصل اسم الشارع كلمة عربيّة هي الجنة ومعناها البستان، وهو قائم في مسيلٍ على سفحٍ فوق هاوية، يعلوها جسر ضعيف. عندما تمطر يتحوّلُ الشارع إلى مَوْحِلة.

اختفت الشمسُ فجأةً يومَ استقبلني غودوي، وسقطت فوق مدريد عاصفةٌ ربيعيّةٌ دامت وقتاً قصيراً، كانت كافية كي يفيض المسيل. عانيتُ كثيراً للوصول إلى القصر، الذي تقوم فيه أمانةُ الدولة. سرتُ على رؤوس أصابعي وتحاشيتُ الأغمار كيلا ألطِّخ حذاءيّ وجوربيّ الحريريّين. كنتُ أرتدي بدلة تشريفاتٍ حائلةَ اللون. وقد بذلت ماريّا لويسا جهوداً حقيقيّة كي تُخفي تآكل نهاية الكمّين، وسيل الخيوط المنسلّة، وإخفاء قميص الجوخ الخشن والتالف تحت الصدارة.

كانت المرّة الأولى التي توغّلتُ فيها داخل القصر الجديد. تأكَّد البوّاب من اسمي في لائحة بدت لي طويلة بما يكفي. شعرتُ بساقيَّ

توهنان وأنا أصعدُ الدرج الفخم المزيّن بأعمدة كورنثيّة. عبرتُ غرفاً فسيحة، متتالية وكثيرة، جيِّدة الإضاءة تشغلها أمانة الدولة. لم يكن هناك موظّف وراء مكتبه تقريباً. كانت الحادية عشرة صباحاً وهي الساعة التي يقدّمون فيها مرطِّبات. كانوا يتقاسمون نبيذ شِرِش وقطع بسكويت ويناقشون أخبار اليوم، أو يحتشدون حول أحد الخبراء باللغات يترجم بصوتٍ عالٍ الصحف الفرنسية والإنكليزيّة.

توقّفتُ بناءً على إشارة الحاجب الذي رافقني في نهاية قاعة مغطّاة بالساتان الهندي. كانت الزوايا تحتوي على أرائك منخفضة شبه دائريّة. على مناضد الزوايا مزهريات فخارية جميلة تطفح بالخزامى وأغصان الورد المزهرة من إلبِوِنْ ريتيرو.

لفتَ انتباهي وجودُ ثلاثين أو أربعين امرأةً من كل الطبقات والظروف. بعضهنّ كنّ برفقة أزواجهنَّ أو آبائهنّ وبعضهنَّ الآخر جئن وحيداتٍ تماماً. هناك كانوا يتكلّمون بشكلٍ مفتوح ودون مواربة عن المعروف الذي يريدون طلبه لإيفاء ديونهم، عن الوظيفة التي يطمحون إليها، عن الأسباب الخاصّة التي يحاولون بها تأجيل دعوى أو الاعتذار عن إهمال.

خلال الساعتين التي انتظرتُ فيهما مذعناً في قاعة أمير السلام، توصَّلتُ إلى نتيجة مفادها أنَّ إمكانات الحصول على فضله هي أكبر بشكلٍ معتبر إذا ما عرضت الطلبات مشفوعة من زوجةٍ لطيفة أو ابنة جذّابة. فمع مثل هؤلاء المحامين لا تُخسر القضايا أبداً. كثيرٌ من النسوة جئن من المحافظات ليجربن حظّهن مع المدلَّل، الذي عاد توّاً من ممارسة تمارينه اليوميّة في ميدان الخيول في البيت الريفي.

عَبَرَ القاعةَ مبتسماً. ساد الهرجُ بين الفاتنات، الطامحات لتقبيل يده. ما عاد كما كان ذلك الحارس الخاص الرشيق والرقيق، بخصره النحيل وبشرته الناعمة، وجماله الأنثوي قليلاً الذي كثيراً ما أكسبه الحظَّ السعيد، لكنّه ما يزال يحتفظ بعينين سوداوين ونافذتين وحركاتٍ ساحرة وحارّة في المعاملة. كانت سمات الفاتن باقيةً على جسده القوي المثقل والممل.

أغلق المكتبَ على نفسه. لم يستخدم أكثر من خمس دقائق في حلٍّ

كلِّ قضيّة. كانت الوجوه الباسمة لمن أنهوا مقابلاتهم تدلُّ على أنَّه احتفظ لكلٍّ واحدٍ منهم بجوابٍ وديّ.

استقبلني في الساعة الأخيرة. قال لي كارّاسكو، أحد ضباط الأمانة، الذين كنتُ أعرفهم، بأنَّ الأمير مستعجل للذهاب إلى الممشط، وهو ما يقوم به يوميّاً بحضور حفنة مختارةٍ من السيّدات اللواتي هذّبهنّ النظام.

ومع ذلك لم يُبدِ أيَّ استعجالٍ، بل خفّة. ما إن اجتزت البابَ حتى تفحّصني بتأنٍّ. انتبهت في تلك اللحظة أنّه كان يتساءل إلى أيِّ حدٍّ يمكن أن أكون مفيداً له في أغراضه. الاستنتاج الذي لم يتأخّر في الوصول إليه. أحسستُ بذلك في الاهتمام الذي تابع به توضيحاتي. الناس المعتادون على السلطة يعرفون كيف يقرؤون في الوجوه، نبرة الصوت، الحركات، ما إذا كان هذا الذي يمثل أمامهم يمكن أن يتحوّل إلى أداةٍ مناسبة لوصولهم إلى مكاسبهم.

عرضتُ عليه الخطوط الأساسيّة لخطّة رحلتي إلى أفريقيا وأهدافها العلميّة. نشرتُ على مكتبه الخريطة الجغرافية التي تُحدِّدُ الخطّ الذي سأسلكه. بمجرد ذكري لاسم علي باي، أفلتت منه علامة استغراب. أمر حين الانتهاء دون مواربة:

ـ اترك لي طلبكَ في غرفتي.

هكذا فعلتُ برفقة كارّاسكو، الذي هزّ كتفيه حين ودّعته.

ـ لا أدري ما أقوله لك، يا عزيزي باديّا ـ علّقَ في الوقت الذي شدَّ فيه على يدي ـ الآن دورُ الانتظار. لا أستطيع أن أفيدك كثيراً فغداً بالذات ينطلق الأمير إلى أرانخوِث بينما أنا باقٍ في مدريد.

لكنّني اعتبرت نفسي إنسانا سعيداً، فقد تكرَّم سموّه باستلام أوراقي.

لم يتأخّر الجواب. بعد ثلاثة أيّام فقط تلقيت رسالةَ غودوي، مؤرّخةً في أرانخوِث. فهمتُ منها أنّه بالإضافة إلى اهتمامه بالموضوع يترك لي باب الأمل مفتوحاً. قال لي فيها إنّه بعد قراءة الخطّة اقتنع تماماً بفائدتها، كما بالصعوبات التي ينطوي عليها تحقيقها والمخاطر التي أعرِّضُ نفسي إليها. كما طلب بياناً بالنفقات

ليضمّه إلى المشروع الذي يريد أن يعرضه فوراً على جلالته. لفت انتباهي إلى أنّه لن يوفّر جهداً لقبول طلبي.

يرشَحُ الأمل مثل قطرةٍ ماء بين حذر من يُخضع ثروته لرفق الأقوياء. ومع الزمن تعلّمتُ الاعتراف بأنّنا نسمّي أحياناً أملاً ما يجبُ تسميته طموحاً. وإذا كنتُ قرأت رسالةَ غودوي ألفَ مرّةٍ متأكّداً من كلّ كلمة، فألف مرّة أيضاً أذابَ طموحي كلَّ لمحة شكٍّ أو عدم ثقة عندي. لقد استخدم غودوي الكلمات التي كنتُ أرغبُ تماماً بسماعها.

لذلك بدأت أتساءلُ في الأسابيع اللاحقة، التي لم أتلق فيها أيّ خبرٍ، عمّا إذا كان المدلّلُ يجيبُ بأفضلِ الكلمات على كلِّ الذين يطلبون معروفه. تراه يفعل هذا مع كلِّ الناس؟ ألن يكون هذا مستغرباً في رجلٍ كان يتطلّع إلى أن يكون مهاباً ومحبوباً في آنٍ معاً؟

قرّرتُ أن أكتبَ إلى لورِنْثو أمابيلي، أمين المكتبة في قصر أرانخوِثْ، الذي حافظت على تعاملٍ ودّيٍّ معه وإن كان من بعيد. *تكلّم بطلاقة، تكلّم بسرعة*. لا بدَّ أنّ لهفتي حرّكت مشاعره. ردّ عليّ مع عودة البريد بأنَّ أمير السلام طلب من رجلٍ ثقةٍ عنده رأيه بالخطّة. ارتحتُ حين عرفت أنّ الأمر يتعلّق بالكولونيل فرانثيسكو أموروس، الذي دعاني في أكثر من مناسبة إلى المسامرات التي كان يقيمها في بيته. وكانت زوجته اللطيفة جدّاً والحاضرة النكتة التي تعاطفتُ على الفور معها، قد كرّرت عليَّ:

ـ ارجع، يا باديّا، ففراسكيتو عنده نقطة ضعف مع رجال العلوم. يعرف كيف يعامل العالِمَ بالتقدير الذي يستحقّه.

وبالفعل كان أموروس يملك مكتبة معتبرة تماماً، وشيئاً غير معهود: غرفة للفيزياء وأخرى للعلوم الطبيعيّة. كان يدير معهدَ تعليمٍ مهمّاً ، معهد بِستالوتزيانو الذي تُطبَّقُ فيه المناهج التربويّة التي وضعها جوهان هينريخ بِستالوتزي، المرتكزة على التطور التدريجي لقدرات الفهم عند الإنسان.

لكنّني أدركتُ الطبيعة الحاسمة والقويّة في شخصيّة أموروس أكثر من أيّة ميزة أخرى. اطمأننتُ لمعرفة أنّ قرار خطّتي بين يدي رجلٍ فعلٍ. لم أتصوّره مذعوراً أمام المخاطر التي تطرحها المغامرة. ولا مزدرياً للمزايا التي ينطوي عليها تحقيقها.

قرَّرتُ أن أذهب إلى أرانخوثِ. رأيتُ نفسي في النزل الذي نزلتُ فيه تائهاً من جديد في الخليط غير الحقيقي للرغبات والأوهام الإنسانيّة. تمعَّنتُ في يديَّ بخاصّة. كانتا تعبِّران عن اللهفة التي تعذّبنا جميعاً أكثر بكثيرٍ من الوجه. اليدان، مشغولتان طوال اليوم، تلمِّعان أحذيةً، ترفآن ثياباً داخلية، تفكّان وتلفّان بلا كللٍ حلقات الشعر المستعار بينما صاحبهما ينتظر يوماً بعد آخر لقاءَ المُدلَّل. اليدان خلال النهار وصرير الأسرَّة المضعضعة المتواتر التي نتحرَّك فيها بعصبيّة خلال الليل.

واعدني أمابيلي في زاوية من جزيرة الحديقة التي لا يتردَّدُ عليها غير الأيائل، وسمح لي أن أقرأ بكثيرٍ من الحذر والخوف تقرير أموروس السرّي. *انظر، يا صديقي*. كان الكولونيل يعترف بأنّ معرفته وعلمه لم يكونا أهلين للحكم على مضمون الخطّة ووسائل تحقيقها، لكنّه يعبِّرُ عن رغبته الحارّة بتنفيذ المشروع ذات يومٍ، فهو يقدِّرُ عالياً فائدته لصالح المملكة.

ـ ليس أكثر من بقعة حبر. ـ سخرتُ مُحبطاًـ فالكولونيل غسل يديه ثمّ نشّفهما بالورق.

ترك أمابيلي نظره يسرح في مجرى تاجة، الذي كان ينساب لدناً، منقذاً عناد جذوع الحور والأسل، الحراج المتشابكة والصخور التي تتصارع مع الماء.

ـ صحيح، صحيح، *اهدأ، يا أخي*! رأيه ليس غير مناسب، لكنّه غير كافٍ كي يتخذ سمّوه، أميرُ السلامِ قراراً نهائيّاً ـ أكّدَ ـ ما من علاج ضروريّ لك غير الصبر. *كن مطمئنّاً*، يا باديّا.

استقبلني غودوي، بعد أن جبتُ بحذائي المتآكل أروقةَ القصر ساعاتٍ وساعات في أيّام لا تنتهي، ذات صباحٍ كان فيه أكثر انشغالاً من مشاكل الدولة بالحركات العصبيّة التي يقوم بها رسّام يرتقي سقالةً، ويضع اللمسات الأخيرة لزخرفة سقف غرفته. هذه المرّة ذكّرتني عيناه، اللتان كانتا تقفزان بشكلٍ غريبٍ من وجهي إلى السقف، بعيني سنجاب. استجاب ببرودة. كان ساهياً. لم يسمح لي بالكلام تقريباً. قاطعني بحزمٍ وقال لي إنّ موضوعي يتابع طريقه العادي.

ـ في أمانة الدولة سيسهلون لك النتيجة ـ ختمَ، واضعاً نهايةً للمقابلة.

كان أمابيلي ينتظرني في قاعة الانتظار محاطاً بحشدٍ من النساء الجميلات. سمح لنفسه بمزحة أخيرةٍ قبل أن يضغط على ذراعي ويجبرني على الجري سريعاً إلى الخارج. *أسرع، يا أخي، أسرع!* ابتعدنا بضع مئاتٍ من الأمتار عن القصر ودخلنا بين أشجار الحور، المقفرة في مثل تلك الساعة. *تعال، تعال.* قطيع من النعام هرب حيويّاً أمامنا. توقّف أمابيلي جافّاً، وانتظر ابتعاد النعامات. وحين قدّر أنّها أصبحت على مسافة كافية، وضع فمه على أذني بالحذر والعصبيّة نفسهما اللتين كانتا له يوم كشف لي عن نتيجة تقرير الكولونيل أموروس.

ـ اسمعني، يا باديّا ـ همس ـ سمعت بخبر يمكن أن يواسيك. مشروعك أُخضع لرأي أكاديميّة التاريخ الملكيّة. كان هذا متوقّعاً بعد عرض أموروس. *انتظر قليلاً، لا يهمّ.*

الفصل الثاني عشر

الخطّة السياسيّة

وسط متاهة الأبراج والقباب وأبراجِ النواقيس التي تتسلّق بفضولٍ زرقةَ سماء مدريد المحالة، توجد فسحةٌ تنبسط على نفسها يبدو أنّها لا تهتمّ إلاّ بأمر الأرض. فقبل عشر سنوات أحالَ حريقٌ جزءاً كبيراً من ساحة بلاثا مايور إلى رمادٍ، بدءاً من بوّابة بانيس وحتى باب وادي الحجارة. لكن الواجهات الكبيرة المرسومة التي تُغطّي فجوات الأبنية المدمّرة لم تكن تتناقض مع ذلك المشهد الذي يشعرُ كلٌّ من يدخله بأنّه ممثلُ في مهزلة مسرح العالم الأبديّة.

كانت ملاحِقُ الأكاديميّة قائمة في مناطق ضمن الطابق الرئيسي، ممّا يُسمّى لاكاسا دِلا باناديريّا (بيت الخبز) احترمتها النيرانُ. هناك وضعت مكتبتَها الغنيّة، أرشيفَها القيّم، غرفةَ أثرياتٍ مهمّة مزوّدة بمجموعة من العملات الوفيرة.

توجّهت إلى هناك ذات صباح حرارته غير طبيعية بعد أن تربّصت لأسابيع في شارع المدينة، مثل ثياب وضعت لتجفّفَ أو حمتُ فيها مثل ورقة في الريح، محاولاً التظاهرَ بالتصادف مع أحد الأكاديميين الثلاثة الذين عُيّنوا في لجنة الإطلاع على موضوعي. ما من مسامرة لم أحضرها ولا مقهى لم أقع عليه أو مكان مطروقٍ لم أجبه، ولا بوّابة لم أراقبها ليلاً ونهاراً. قمتُ بهذه الاستقصاءات الخاصّة بجاسوس،

خائفاً أن أرى نفسي مجبراً على رهن المجوهرات القليلة التي بقيت لماريّا لويسا، فحالتنا تفاقمت أكثر.

كان مارتين فِرنانديث دِناباريّتِ رجلاً متحمّساً للتقدّم، وصديقاً ودوداً لجمعيّة أصدقاء البلد المدريديّة. كنتُ مقتنعاً بأنّه يتعاطف مع مشروعي. كانت طبيعته كبحّار يعتبرُ المخاطرةَ عملاً رتيباً، يخفِّف من الحكمة والريبة اللتين تنتهيان بالتغلّب على المؤرِّخ. لكنه كان نظراً لمزاجه المتواضع والخجول يتجنّبني ويتجنّب أن يعرِّضَ نفسه جهراً لالتزامٍ ما.

لم أتمكّن قط من الوقوع على غيبارا. كان يتحاشى اللائذين غير المناسبين في مقرّ عمله في مجلس جلالته. قضيتُ ساعاتٍ كثيرةً في قاعة انتظاره دون جدوى، أتأمّلُ عبر إحدى النوافذ كيف كانت تذبل شجرة وردٍ، ريثما يعلن لي أمين سرّه خبراً سلبيّاً.

منحني كورنيدِ، سيِّد ماديث، وسا، وأموويْرو وثيبرِيْرو غصباً عنه مقابلة في الأكاديميّة. كان قد عاد توّاً من البرتغال، حيث يُقال إنّه اشتغل عميلاً لغودوي على أعتاب حرب البرتقال. وعلى الرغم من أنّهم ألصقوا به مكائد سياسيّة إلاّ إنّ شغفه الحقيقي هو الجغرافيا ودراسة العلوم الطبيعيّة. كان قد كتب *تاريخ الأسماك*، الذي يتباهى فيه بصبر الصيّاد ساعة استخلاص أخبار أكيدة عن بنية وعادات الأسماك والبحريات من مياه بحار جليقية الصاخبة.

كان كورنيدِ يعيشُ آنذاك في الأكاديميّة. هناك استقبلني دون رغبة كما أشرتُ. عرفتُ فيه منذ اللحظة الأولى عدوّاً. أصغى إليَّ دون مبالاة، لكنّ نظرته كانت تطوف مثل مجسٍّ، مستعدَّة للتجمّد ما إن يتجاوز أحدُ آرائي الحدودَ التي كان يعتبرها مناسبة.

- هذه ليست أكاديميّة علوم - نبّهني - بل أكاديميّة تاريخ. المسألة التي تطرحها علينا جديدة عليها تماماً.

- هكذا أراها - أجبتُ - لهذا السبب أطلب أن يُسمح لي بالدفاع عن حججي أمام كامل الهيئة.

- ولا بشكلٍ من الأشكال! لا يمكن أن يتدخل في جلسات الأكاديمية غير أعضائها.

شعرتُ في نبرة صوته المتعجرفة بقلّة كرم الأنفس الشكّاكة وعديمة الثقة.

- وبالتالي - أضاف ناهضاً من وراء المكتب متوجِّهاً نحو الباب - عليك أن تنتظر باحترام حتى نستجمع الأعمال التي تستشهد بها، نتفحصها ونقارنها بمشروعك، كي نستطيع أن نكوِّن فكرة نهائيّةً عنه.

كنتُ قد رحتُ منذ بعض الوقت أحضرُ بعضَ دروسِ العربيّة في الدراسات الملكيّة لسان إيسيدرو. كان المعلِّمُ شابّاً نحيلاً وقلقاً، يحل محلّ أستاذ الكرسي الأكاديمي، السيد ميغِلْ غارثيّا أسِنْسيو المريض. كان الشاب يوازي بين تعليمه للغة الشرقيّة وتكريسه نفسه لعلم النباتات. أحياناً كنّا نضطرُّ، نحن طلأبه حين تحين ساعة الدرس للذهاب بحثاً عنه في أروقة حديقة النباتات الملكيّة، حيث نراه مستغرقاً في فحص السراخس والأشنيّات، التي يجمعها بنفسه من ضواحي مدريد ومن جبال وادي الرامة. مرَّاتٍ كثرةً كنا شهوداً على بشرته التي أحرقتها الشمسُ أو ثيابه التي مزَّقتها المناطق الوعرة التي باغته الليل فيها. كان على وشك الانتهاء من دراسة حول النباتات مستورة الزهر، وكنّا نحن الذين عرفناه جميعاً نضعه في قائمة العلماء، على الرغم من أنّه لم يكن له من العمر إلا ثلاثاً وعشرين سنة.

كان اسمه سيمون دِ روخاس تيمُناً بالراهب التثليثي الذي كان البابا قد طوّبَ ذكرَه قبل سنواتٍ قليلةٍ وكنيته كلِمِنتِ. اهتمَّ بكلِّ طاقته بسيرِ مشروعي ولا يمرُّ يومٌ لا يسألني، بصوتٍ مرتعشٍ من التأثّر، عمّا إذا استجدَّ شيءٌ.

كان لقلقه تأثير الخنجر عليَّ. فالوقت يمضي شديدَ البطءِ بالنسبة لرجل تخنقه الديون وأوهنته فاقة عائلته. كانت حالتي شبيهة بحالة من يترنَّحُ بين حدود الحلم واليقظة، متعلِّقاً بنوام سعيد، دون أن يستطيع تفادي الفزع من استيقاظٍ مستمر، والكآبة التي تغزو الفجوة التي يُخلِّفُها الحلم فارغة حين يتلاشى في العينين المفتوحتين.

كنتُ أذهب يوميّاً إلى أمانة الدولة. انتهى الأمر بـكارّاسكو إلى أن تعبَ من إصراري، وأكّد لي بعد أن خبّأَ تثاؤباً وقحاً أنّه لا يستطيعُ عملَ شيء. فالبلاط انتقلَ توّاً إلى بطليوس، حيثُ أعدّ الملكان احتفالاً فاخراً بانتصار غودوي المحبوب في الحرب مع البرتغال.

أصررتُ عند عودته أمامَ أمينِ سرِّ الدولةِ الأوّل، دون بِدرو دِ ثِباليوس، الذي اقتصر على الطلب منّي بأن أعرَض مرادي كتابيّاً، كما لو أنّني لم أفعل ذلك باستفاضة.

في اللحظة التي بدأتُ أفكّر فيها بأن جَلَدي ومثابرتي غير مجديين فاجأتني الحياة بلعبة بليارد من ألعابها، غير المعهودة ولا المنتظرة والتي تذهلنا بها أحياناً. درست الأكاديميّة في جلسة مصغّرة النتائج التي توصّلت إليها اللجنة المشكّلة لفهم خطّتي وأصدرت قرارها بعد أسبوع.

أربع مسائل أساسيّة حاول الأكاديميون الإجابة عليها: هل بالإمكان القيام بالرحلة؟ هل من منفعة يعود بها المشروع على إسبانيا؟ هل باديّا هو الشخص المناسب للقيام به؟ وهل ستكون المعلومات التي سيجمعها، بعد الانتهاء منه بمفرده ودون شهود، جديرة بالثقة؟

طبعاً كانت ممكنة! اضطرّوا للاعتراف بأنّني لم أقترح أوهاماً. فهناك عددٌ كبير من الناس قام بمثل هذه المعجزة. هم أنفسهم استشهدوا باليسوعيين الذين غادروا فتياناً لزيارة مسيحيي الحبشة، وعادوا شيوخاً يصلّون بلغةٍ غريبة ولإلهٍ مجهول. برهن جوب لودولفو الذي استخرج صلوات اليسوعيين الغامضة بواسطة قاموس وقواعد على أنّهم يصلّون بلغة الرهبان الحبشيين، وتخلّوا عن اللاتينية لأنّها لغة دمويّة.

وفي زمن أقرب إلينا وصل السويدي تومْبِرْغ منطلقاً من رأس بْونا إسْبِرانثا، إلى البلاد التي يسكنها الهوتِنيّون والكفّار الذين شبّه تعدّد الزوجات عندهم بطيران العصافير الحر. وليفايلان عاد من أفريقيا الجنوبيّة يرافقه حيوانٌ يُسمّونه زرافة ويفوق طول عنقه طولَ جسده، ويتخطّى ارتفاع رؤوس الأشجار في حديقة باريس النباتيّة الملكيّة، التي وضعوها فيها. وبراون وجد نهرَ نيلٍ أبيضَ الماء، وبروث وجد آخر أزرقه. بينما لمح مونغ بارك في البعيد تُمبكتو كوعدٍ محال البلوغ.

لكن وعلى الرغم من أنّ الرحلة بدت لهم متيسّرةً، إلاّ أنّ الجديد الذي يمكن تحصيله منها والمقدّر في وحدة مستفيضة ودون شهود

لايستحق أي ترخيص. كانوا يرون فيَّ ماركو بولو، بنجامين دِ تودِلا أو مندفيلّ جديداً. أناسٌ برأيهم أنهم سافروا دون أن يتخلّصوا من تبعات خيالهم، ويلاحظون أنَّ الحقيقة في انطباعات رحلاتهم ليست إلاّ صدقة يمنحها الواقعُ أحياناً للخيال.

بخضوعٍ متخوِّف وضعيفٍ كانوا يدعمون أنَّه إذا كانت هناك أممٌ مثل فرنسا وإنكلترا أكثر تقدّماً في العلوم من الأمّة الإسبانيّة، ولم تكمل بحوثها عن القارّة الأفريقيّة، فمن غير المحتمل أنْ يستطيعَ هاوٍ متواضع مثلي، غير مجهّزٍ بالوسائل والاستعدادات المناسبة، تخطّي عوائق المغامرة الكبيرة.

كان موضوعُ المنطاد البائس ما يزال يضغط على سمعتي مثل لوحٍ حجريّ. فآلتي الطائرة لم ترتفع قط ولن يعرف أحدٌ أبداً، بعد تدخّل مجلس قشتالة، أنّني صنعتها، لكنّ الشكّ استمرّ حول ما إذا كان سببُ الفشل نقصاً في عمق وسِعة معارفي.

كانوا يقولون إنَّ كلَّ ما كنتُ أبرهن عنه في أفريقيا يمكن تتبّعه في الكتب، مخلصين بذلك لعادة صنف الدارسين الذين لا يتمتّعون بالخيال، وتتحوّلُ سعة المعرفة عندهم إلى كابحٍ وليس إلى زمام للمعارف الجديدة. كما لو أنَّ من الممكن فعل ذلك بطريقةٍ أخرى! كما لوَ أنّ الغاية من رحلتي ليس الغوص في المناطق التي تجهلها كلّ تلك الكتب وكتابة الفصول التي لم تُكتب قط!

كانت خطّتي تشقُّ باب المجهول. كما لو أنّ رحّالة جابَ جميع تلك الكتب وكلَّ كتاب على انفراد. ومن أقصى صفحاتها درستُ بإمعانٍ قارّة دون مساعدةٍ من التجربةِ أو الحواسّ. قارّة بلا ملمس ولا رائحة ولا حرارة. الغذاء فيها ما يزال بلا طعم والسكان بلا وجوه. كان عليّ أن أهتدي بالخيال. ذلك هو النورُ الذي كنتُ أتطلّع إلى الغوص به في غياهب أفريقيا. كان التخيّل هو الإمكانيّة الوحيدة للوصول أبعدَ ممّا وصل إليه الرحّالةُ الآخرون. لكنَّ الخيال لم يكن أعمى. فما نتخيّله دائماً ينتظرنا في الواقع. ربّما كان متغيّراً ومختلفاً اختلاف بذرة الثمرة التي ينتج عنها. لكنَّ التجربة دون خيال لا تستطيع أن تحصل من الواقع إلا على من بدهيّات عقيمة.

لم يكن عند أعضاء اللجنة جرأة؛ ويُبدون البؤس ذاته الذي كان سيبديه أبي أمام المخاطر التي كنتُ أعتزم مواجهتها. كان وصفهم للأمراض والعداء بين المجموعات السكانيّة التي سأعرّضُ إليها نفسي دون ما مساعدةٍ من أحد غامضاً، ويؤكّدون أن الأدوات العلميّة التي سأصطحبها معي وستساعدني حتماً في مهمّتي، ستكشف عن طبيعتي الأوروبيّة وستبطل مفعولَ ملابسي الشرقيّة. فلماذا الاستمرار؟

لم يتجرّؤوا على نقضي بالكلّيّة. وكختام اعترفوا بأنَّ اندفاعي وحماسي أدهشاهم. واعتبروا أنَّ تلك الجسارةَ يمكن أن تستخدمَ جيّداً في مهمّات أخرى ، تنطوي بدورها على المخاطرة، لكنّها أقربُ إلى بلدنا، كما هو الحال بالنسبة لسبر داخل أمريكا الشماليّة، على تخوم أملاكِ جلالته.

أُقِرَّ التقريرُ السلبيُّ من كامل أعضاء الأكاديميّة في اليوم العاشر، وفي اليوم التالي أحاطني كارّاسكو بالنتائج.

ـ بما أنّك الآن مغتاظٌ، اذهب ـ طلبَ منّي ـ فالقرار لم يعرف به أميرُ السلام بعد وليس من المناسب أن يجدكَ تتشمّمُ الأخبارَ في الأمانة.

شعورٌ باليأسِ استحوذَ عليّ بالكامل. أحسستُ بساقيَّ مربوطتين، وبألمٍ مباغتٍ في الرأس قضى على كلِّ تفكيرٍ عندي. لم أدر كيف وجّهتُ خطواتي باتجاه المخرج. كنتُ أرى نفسي طوال الطريق من بعيدٍ أتجرجرُ مثل دودةٍ في غرف القصر الهائلة، حيثُ تدوّي خطواتُ الموظّفين مُهدِّدة على الأرض المرمريّة.

توقّفتُ لا أعرفُ ماذا أفعل في فناء المدخل الفسيح إلى أن أمرني البوّاب المسنّ بالابتعاد. كان الجوُّ مشحوناً وبعض الغيوم المكفهرّة تكسو بثقلها صباحاً حارّاً وخانقاً.

تابعتُ سيري دون أن أدري أنّني أسير. على العكس انتابني إحساسٌ بأنَّ المدينة هي التي تتحرّكُ وأنا ثابتٌ في المكان ذاته. لم يكن هناك ما يستحوذ على انتباهي الذي سحقته المرارةُ. كنت أنظر ولا أرى وقد أضعتُ الإحساس بالزمن.

لكنَّ أحداً كان يلحقُ بي. لمسَ كتفي. التفتُّ كمن يستيقظُ من حلم. كانت قد أظلمت. ومع ذلك عرفت سياجَ حديقة النباتات المعشّق فيّ الأعمدة المربّعة المتوّجة بالجرار الرشيقة المملوءة بإبرة آدم والصبّار. كم مضى عليَّ وأنا أتجوّلُ دون أن أدري؟

- كم الساعة؟

- العاشرة ليلاً - أجابني صوتٌ في غاية العذوبة.

- كلِمِنْتِ! - هتفتُ.

فاجأته السعادة الطافحة التي لفظتُ بها كنيته.

- هل بِكَ شيءٌ، يا باديًا؟ فأنت شديد الشحوب.

فجأةً غمر السطوعُ عقلي. سطوعٌ صافٍ وشفّاف، داخليّ، منفصل عن ظلال الليل التي كانت في كلّ مرّةٍ أكثر ضغطاً. لماذا سرتُ آليّاً حتى هناك، دون وعي لما أفعلُ، بعد أن تهتُ ساعاتٍ وساعاتٍ دون وجهةٍ في المدينة؟

- طوال اليوم وأنا أبحثُ عنك، يا كْلِمِنْتِ.

- عنّي؟ لماذا؟

بالفعلِ كنتُ أبحثُ عنه، مع أنّني وددتُ في قرارة نفسي حتى تلك اللحظة عدم الاعترافَ بذلك. كان الأكاديميون يشكّون بكفاءاتي العلميّة وأنا أريدُ القيامَ بهذه الرحلة مهما كلّف الأمرُ. قالوا بأنَّ بحوثي الفرديّةَ ما كانت لتؤخذ بمحمل الجدِّ دون مساندةٍ من شهودٍ آخرين. لكن إذا ما رافقني سيمون دِ روخاس كْلِمِنْتِ لن يكون لاعتراضاتهم أيّة قيمة. فهم لن يجرؤوا على التشكيك بقدراته ومعارفه وستنعم حملتنا بالحظوة والثقة اللتين ينكرونها عليَّ.

- يا كلِمِنْتِ، هل تريدُ أن تشاطرني مجدَ الاكتشافات التي تنتظرنا في أعماق أفريقيا؟

- دون شكٍّ، يا باديّا - أجابَ دونَ تردُّد.

- فكِّر بالأمرِ جيِّداً. فالرحلةُ خطيرة.

- منذُ أن سمعتُ بمشروعك وأنا لا أفكِّرُ بشيءٍ آخر.

- سيكون عليكَ أن تتخلّى عن أعمالك الحاليّة ومسارك الواعد.

ـ يا صديقي العزيز أنتَ تُقدِّمُ لي قارّة لم تُسبِر. فما الذي يستطيعُ أن يرغب به رجل العلم؟ أنا مستعدٌ للتنازل عن كلِّ شيءٍ للحصول على هذا الخير الذي أعتبره أسمى.

ـ عن كلِّ شيء؟

ـ أجل، يا باديّا. بل إنّني مستعدٌ للتنازل عن نفسي. أنت لا تكلّمُ سيمون دِ روخاس كْلِمِنْتِ بل من سيدعى من الآن فصاعداً مُحمَّد بن علي.

ـ إليّا قدّام ، علي باي!

عند عودتي في تلك الليلة كان كارّاسكو بانتظاري، يكبو على كرسيّ، متدثِّراً ببدلة الأمانة الرسميّة الزرقاء. وما إنْ سمع صوت الباب حتى استيقظَ وانتصب شعرُه القاتم والأشعث، مشكِّلاً سلسلةً فوق جبينه العريض.

ـ أين حشرتَ نفسك؟ فقد جبت مدريد كلّها بحثاً عنك.

هززتُ كتفيَّ. فأنا نفسي لا أعرفُ أين كنتُ. غادرَ كارّاسكو الكرسيّ وقام بحركة من يعانقني.

ـ أفرج عن هذا الوجه، يا رجل! ـ هتفَ مبتسماً.

ـ هل من خبرٍ طيِّب؟ ـ سألتُ دون قناعة.

ـ وهل تبدو الأخبارُ التي زففتها إليك هذا الصباح تافهة؟

نظرتُ إليه بقسوة. كانت عيناهُ الكبيرتان تبرقان، جاحظتين تحت الحاجبين الكثّين غير المرتّبين.

ـ قرار الأكاديميّة لا يمكن أن يكون أكثر ملاءمة ـ أكَّدَ وقد عاد ليجلس على الكرسيّ، ويشير إليّ بكرسيٍّ أمامه ـ برأيي إنَّ مسألتك تمضي في طريق جيّد.

ـ كيف! ـ صرختُ ـ كلمة أخرى وسأطردك رفساً بقدمي.

ـ أظنُّك، يا باديّا، فقدتَ صوابكَ.

ـ أنا؟

ـ أتفهّم أنّك مثار، يا صديقي. ـ وترك يده تسقط على ذراع الكرسيّ مخفياً الأخرى في فتحة الصدرية ـ لكن فكِّر ببرودة فيما

أرادت الأكاديميّةُ قولَهُ. إذا فعلت ذلك ستعترف بأنّها ستضمن مصالحك جيداً.

ـ اصغِ إليه، يا دومينغو ـ رجتني ماريّا لويسا.

انعطفتُ بنظري نحوها، مخبولاً. كنتُ مرتبكاً.

ـ باختصارٍ شديد، يا دومينغو ـ تابع كارّاسكو، مسرعاً ـ يرتكز التقرير على ثلاثة قرارات. أوّلاً أنّ الرحلةَ ممكنة، يا باديّا. ثانياً أنّها غير ذات فائدة لإسبانيا. هذه النتيجة ليست لصالحك دون شكّ، لكنّها مناقضة لمقاصد غودوي، ويمكن أن تُسبِّب له الإزعاج. فأميرُ السلام يعطي التوسعَ الإسبانيّ في القارّة الأفريقية أهمّيّةً معتبرة، إلى حدٍّ أنَّه مستعدٌّ لأن يحوِّلَ هذا الهدفَ إلى واحدٍ من محاور سياسته الخارجيّة. ومن الصعب أن يقبل بأن يُناقضوه.

ـ وهل هذا صحيح؟

ـ تماماً، يا باديّا. يفاجئني أنّك لم تتوقّف عنده.

ـ إذا كان كذلك فالأمور ستتبدّل كثيراً.

التقت عينا ماريّا لويسا بعينيَّ من جديد.

ـ طبعاً ـ وافق كارّاسكو سريعاً ـ لأنّ القرار الثالث للأكاديميّة هو أكثرها جميعاً ملاءمةً. ألا يعترفُ الأكاديميون بأنّه يفيضُ عنك الذكاء للقيام بأيّة مغامرةٍ خطيرة؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي انتظرَ أميرُ السلامِ سماعه كي يقرِّر رعايةَ مغامرةٍ بهذه الجسارة. هذا الحدّ من القرارِ أكّدَ له القناعة بأنّك الرجل الملائم للسير قدماً بخططه.

ـ خططه؟

ـ بلى، يا باديّا. لقد وضع الأميرُ خطّطَهُ الخاصّة به لتوجيه العمل في أفريقيا. من جديد يُدهشني أنّك لم تتوقّف عنده، على الرغم من أنّني أتبجّحُ بأنَّ تجربةَ موظّفٍ مثلي تمنحه فطنةً في الأمور ذات الطبيعة العمليّة، منكَرة على عالمٍ مثلك.

غادرت ماريّا لويسا في هذه الأثناء الغرفةَ. وبعد قليلٍ أُشْعِلَ ضوءُ غرفة النوم.

ـ ما هذه الخطط؟ ـ سألت بعد وقفة قصيرة.

- أنا نفسي لا أعرفها - اعترف كارّاسكو واكتسبَ صوته نبرةً معدنيّةً، محايدة -. فالأميرُ يقود المسألة بحذرٍ غير معهودٍ. ربّما كانت على علاقة بحاجتنا إلى التموين بالقمح. لتعلَم أنَّ السلطان قد أوقفَ استيرادنا من الحبوب مجدّداً. أو ربّما على علاقة بأمنِ المعاقل الإسبانيّة في شواطئ تلك المملكة، فبعض المعلومات السريّة تؤكّدُ أنّه يستعدُّ لحصار موقع مليلة . وربّما لا يتطلّع غودوي إلاّ إلى توسيع تجارتنا مع موانئ الشرق، بدءاً من المغرب وحتى مصر. من يدري؟ لا يُستبعدُ أن يكونَ مشروعه أكثر طموحاً. فأثناء حربنا مع إنكلترا قطع طرق التجارة مع مستعمراتنا في أمريكا. سمعته يطري على ميّزات امتلاك مستعمراتٍ افتراضيّة في أفريقيا، يضعها قربها بمنأى عن أيّ حصارٍ بحريّ.

- يا صديقيَ العزيز - احتججتُ - ما علاقةُ السياسة برحلتي؟ أنا وضعتُ تصوّراً لحملة علميّة. أقبل أنَّ معرفة تلك القارّة يمكن أن تُعطي نتائج تجاريّة لا يمكن نكرانها، لكن...

- وحدها الدوافع السياسيّة - قاطعني كارّاسكو - تستطيع جعل غودوي يقبل باقتراحك.

- هل هو من أرسلك؟ - استفهمتُ.

- لنقل أنّه يتركُ أحياناً بعض الأفكار تخرجُ بصوتٍ عالٍ بهدف أن تنتشر حتى تصل إلى سمع المخاطَب المناسب. - قامَ بوقفةٍ ثمَّ تابع - سأكشف لك أنّها لن تكون المرّة الأولى التي يستفيدُ فيها الأميرُ من مهمّةٍ علميّةٍ لتغطية أهدافه السياسيّة. فكورنيدِ في البرتغال لم يولِ اهتمامه للثروة السمكيّة فقط. وإيثكييردو، عالم الطبيعة، بالنتيجة أفاد كعميل ومُخْبِرٍ كثيراً بينما كان يوسّع معلوماته العشبيّة في فرنسا المديرين، المضطربة. والطبيب كولْ عمل في الدخول على مراسلات مجلس الوزراء العثماني التي تحثُّ سلطانَ المغرب على مساندة الإنكليز، وهو يعدُّ العلاج لوقاية السلطان وأسرته من خطر الوباء.

- أرغبُ بالحفاظِ على رحلتي بعيداً عن أيِّ مطلبٍ من هذا النوع.

- غير ممكن.

- أيّ اهتمامٍ قليلٌ بالنسبة للأعمال العلميّة التي أقترح المباشرة بها. - ألححت.

بقي كارّاسكو صامتاً.

- هل في حال عدمِ قبولي لشروط الأمير لن تنفّذ الرحلةُ أبداً؟ - سألتُ بعد أن فكّرتُ مليّاً.

- هو كذلك. - أكّدَ كارّاسكو دون مواربة.

- فهمتُ - قبلتُ وأنا أشعر بوخزة ألم تمزّقُ صدري - تستطيع أن تقول لأمير السلام إنّ دومينغو باديّا مستعدٌّ لكلِّ شيء.

أعطى ذلك القرارُ مفعوله على الفور. بعدَ يومين فقط استقبلني دون بِدرو دِ ثِباليوس، أمين سرّ الدولة الأوّل. اختار ساعة مبكّرة جدّاً. كانت الأمانة مقفرةً تماماً وكلماته تتصارعُ مع صوت بوقِ النفير في ساحة سلاح القصر. رفعَ صوتَهُ.

- قُبِلَ مشروعُكَ، يا باديّا. - نظرَ إليّ بعينين لا يُعرف كنههما وشدّد -: قُبِلَ على الرغم من اعتراض الأكاديميّة.

- هذا ما فهمته - أجبتُ بهدوء.

- على الرغم من اعتراضات الأكاديميّة و...

بلعَ ريقه وابتسمِ دون قناعةٍ من فوق الطاولة. انتظرتُ صامتاً أن ينهي جملتَهُ، لكنّه بدّلَ الحديث.

- كيف تجرَّأت على القول في الأكاديميّة بأنّهم لا يفهمون في الجغرافيا؟ يالتهوّر! - تقطّبَ وجهه، الذي كان يطفو فوقه الشعر المستعارُ الحريريّ الأبيضُ غير المناسب بشكلٍ مباغتٍ، واكتسب تعبيراً سنّوريّاً.

- ما الذي كان سيقوله لي سعادتكم منذ لحظة؟ - غامرتُ بالسؤال.

- لا تسأل ثانيةً عمّا أردتُ أن أقول - طلب بشكل قاطع.

- حسنٌ - تظاهرتُ بالإذعان - فيما يتعلّق بالأكاديميّة أؤكّد لسموّكم بأنّني فقط لفتُّ الانتباه إلى أنّهم ليسوا مطلعين على آخر المكتشفات الجغرافيّة التي قام بها الإنكليزُ والفرنسيون في أفريقيا. أكّدَ لي كورنيدِ واعداً بأنّ اللجنة ستقرأُ الكتب التي يعتمدها مشروعي، لكنّه لم يفِ بوعده.

- الأكاديميّة تعرف كلَّ ما يجبُ أن تعرفه. لا تصرّ على تشويه سمعة الهيئة. أنتَ عنيدٌ، يا باديّا.

ـ ما الذي لم تجرؤ على قوله لي منذ لحظة؟ ـ ألححتُ.

ـ عنيدٌ ومتهوّر. هل تريد أن تعرفه فعلاً؟

ـ بالطبع.

ـ أُقرَّت خطّتُك على الرغم من معارضة الجميع ـ اعترفَ أخيراً ـ الجميع باستثناء شخصٍ واحدٍ: أمير السلام. لكنه، كما هو واضح، تبنٍّ أكثر من كافٍ.

ـ سينتهي البقيّة ـ اقترحتُ ـ إلى تغيير رأيهم حين يدركوا الفوائد العلميّة والسياسيّة التي تنطوي عليها الرحلة.

رسمت يده قوساً واسعاً، وإيماءة غير محدّدة توقّفت بقسوةٍ لتشير بالسبّابة إلى الطاولة.

ـ عد إلى هنا ـ ختم متجهّماً طارقاً المنضدةَ بأنملة إصبعه ـ وستُسلّم قرار اللجنة الملكيّ.

هذا ما فعلته. استلمتُ في العشرين من آب نفقات الرحلة. ثلاثة آلاف ريال. عاملوني كأنّني صبيٌّ سيشرعُ برحلةٍ دراسيةٍ بسيطةٍ. كنتُ قد قدّمت موازنة مختلفة تماماً.

مئتا دوبلون لتجهيز نفسي	12000 ريال
شراء المعدّات	40000 ريال
رواتب أربع سنوات سأتلقاها في المغرب، خليج غينيا وزنجبار وبحر الهند	144000ريال
راتب عنصر متعلّم مثل سيمون دِ روخاس كلِمِنْتِ، الذي سيساعدني ويتعاون معي في المشروع	72000 ريال
المجموع	268000 ريال

إذا كانت مخصّصاتي مثيرةً للسخرية، فإنّ ما شغلني أكثر هو أنّه لم يُقل شيءٌ عن تأمين المعدّات العلميّة، ولا عن مساعدة كلِمِنْتِ.

احتججتُ بعنفٍ دون أن أحصل على شيءٍ غير وعدٍ بأن يُدرسَ مشروعيَ بتأنٍّ أكبر. لكنّني لم أعلم في الأشهر اللاحقة بشيءٍ آخر غير

أنَّ ثِباليوس اتخذ قرار طلب معلوماتٍ عن سيمون دِ روخاس كلمنتِ من معلّمه في اللغات الشرقيّة السيّد ميغِلْ غارثيّا أسِنْسيو.

برهنت الأكاديميّة عن فعاليّة أكبر. فكورنيدِ لم يكن ليقبل إقرار مشروع هي تعارضه. أنعش جمرات الندم. تبعه بعضُ أعضائها وانتشروا في الصالونات والمسامرات ساخرين من تطلّعاتي. صمتت الحجج وأُفسِح المجال للدسائس. يدٌ مجهولةٌ نشرت في صحيفة *لاغازيتا دِ مدريد* خبراً تؤكّدُ فيه أنَّ خطّتي لم تكن غير انتحالٍ لـ *وصف أفريقيا العام، حروبها وصروفها منذ تأسيس المحمّديّة وحتى العام 1571*، للسيّد لويس دِ مارمول كارباخال، الذي جاب تلك البلاد بوصفه عسكريّاً وأسيراً لسنوات طويلة قبل قرنين. انتهت العريضة الهجائيّة ناصحة بألاّ يولى أيّ اهتمامٍ لما يسمّيه بترهات دون بيجوتِ، المختون.

هل كان باستطاعتي أن أثق بحماية غودوي لوقف تلك الهجمات؟ سلبيّته كانت تُكذّبُ ذلك. ماذا كان ينتظرُ أميرُ السلام لإجبارِ ثِباليوس على تنفيذ أوامره بسرعة؟ كان الدائنون يلاحقونني مثل كلابٍ ضارية. كتبتُ إليه رسالةً يائسة فلم يجبني.

أوشكتُ أن أتخلّى عن أحلامي في تلك الأشهر الرهيبة. وضعتُ تصوّراً لمشروعٍ جديدٍ مختلفٍ تماماً عن سابقه، أدرأ به فشلاً اعتبرته حتميّاً. خطر لي أن أقترح إنشاء يوميّة المسارح *دياريو دِ لوس تئاتروس*، التي ستكون الأولى في بلدنا مخصّصة لفن تاليّا. بل وجرّبتُ حظّي ككاتب مسرحيّ. تأمّلتُ ذات ليلةٍ وأنا في السرير شخصيّة غامضة تنظرُ إليَّ في ظلمةِ الغرفة. كانت مقنّعة لكنّها نزعت القناع عنها. كفتني نظرةٌ بسيطةٌ لمعرفتها. خفق قلبي. علي باي! كنتُ أشعرُ باحترامٍ عميقٍ تجاه هذا الرجل الذي جعلته عباءته الواسعة يبدو أضخم منّي. بشرته المحمّصة ميّزته عنّي أيضاً. وعلى الأخصّ نظرته الملتصقة بكلِّ شيءٍ والمنفصلة عن كلِّ شيءٍ، التي كانت تخترق ظلمة الغرفة ببريق وقوّة وحرّيّة ثمرة على غصن شجرة تصبغ بلونها الهواء.

أردتُ التخلّي عن أحلامي، لكنَّ الأحلامَ لم تتخلَّ عنّي. أردتُ أن أصبح ذلك الرجل. كتبتُ حياته في خمسة فصولٍ وعنونتُ الناتج بـ *علي باي في المغرب*. ربّما كانت قيمته المسرحيّة تافهة، لكنّها أفادتني

لتهيئة الملامح المميّزة، والطلعة والشخصيّة التي أردتُ أن أصير إليها.

حضر كارّاسكو إلي بيتي قلقاً جدّاً.

- منذُ أشهرٍ - اعترف لي - وأنا أراجع مكتب الأمير. هناك كانت بياناتُك ومذكّراتك لم تُمسّ، يا باديّا. لم يعد لقراءتها. لكنّه اهتاج غضباً حين علم اليوم بأنّك ستتفرّغ للمسرح، وصرخ مثل ممسوسٍ: باديّا مجنون وسيصيبني بعدوى جنونه أيضاً!

- ماذا يمكن لغودوي أن يبغي منّي أكثر؟ - سألتُ بمرارة.

- لا تعرفه! طبعاً! كيف ستعرفه! أنت لا تنتبه إلى شيء! - دمدم كارّاسكو - يريدُ الأميرُ أن تقترح عليه إمبراطوريّةً: إمبراطوريّة المغرب! لا أكثر من ذلك. وإذا لم تتعهّد بتنفيذ ذلك، لن تخرجَ أبداً من هذا البلد.

الفصل الثالث عشر

المؤامرة

هل أخدم تلك الفكرة الخرقاء؟ وهل من طريقٍ آخر أمامي؟ لكن هناك انتقام رجل الخيال الذي لا يتعارض مع الخضوع الظاهري والطاعة. ستكون طموحات غودوي بالنسبةِ إليّ وسيلةً وليست غايةً ولا مقصداً أبداً. شيءٌ واحدٌ كنتُ واثقاً منه: يجب ألاّ أضحّي أبداً باستقلالي الروحي، إرادتي وأهدافي الخاصّة بي لصالح قضيّة غريبة.

احتلال المغرب! كنتُ أطمح لاحتلال المغرب وأفريقيا لكن للعلوم والمعرفة! يوم كشف لي كارّاسكو عن مقاصد غودويٍ الحقيقيّة أخفيتُ، كمن يحمي كنزاً في مكانٍ ما خفيٍّ منّي بمنأى عن كلّ فرضٍ وعبوديّة، قراري الذي لا رجعة عنه بأن أقدّم للعالم أشملَ نظرةٍ ممكنة عن القارّةِ الأفريقيّة. سأحتفظ بأفضلِ الطاقات لتحقيق غاياتي الحقيقيّة: تحديد درجة عرض مرور الشمس والنجوم فوق دائرة خطّ الطول جمع مجموعة واسعة من الأصناف النباتيّة والمعدنيّة لأكتبَ من خلالها تاريخ المنطقة الطبيعي، رسم مخطّطاتٍ دقيقة للمناطق المجهولة، وصف طرق حياة الشعوب التي تقطنها وعاداتها ومعتقداتها.

تذكَّر ذلك دائماً، قلتُ لنفسي، في الوقت ذاته الذي كنتُ أعترف فيه بأنّ التنوّع ضروريّ مثل الذهب الذي كان غودوي على استعدادٍ لمنحه لي لتغطية نفقات الحملة كان هناك ريبة تقضّ مضجعي. هل من الممكن النفاق ساعة يُطالبوننا بالنتائج الدقيقة جدّاً؟ احتلال إمبراطوريّة؟ مهمّة

شاقّة بالنسبة لرجلٍ واحد وهي أكثر مشقّة حين تدفعه إرادته نحو أهدافٍ أخرى! هل يكفي اللجوءُ إلى خصائص الممثّل للقيام بالدور الثلاثي الذي حدّده لي غودوي بطريقةٍ مقنعة؟ كيف يمكن المصالحة بين نزاهة العلميّ وانتهازيّة السياسيّ، جرأة الاستراتيجي ودهاء الجاسوس؟ وحدهما الحكمة والفطنة كانتا ممنوعتين، فعليَّ احتلالُ تلك الإمبراطوريّة فعلاً دون التنازل عن الشيء الوحيد الذي يجعلُ الإنسانَ حرّاً، وبالتالي يمكن أن يحوّله إلى عبدٍ: أحلامه ذاتها. كانت الحملة تتجاوز قدرةَ شخصٍ واحدٍ. حدستُ بشكل غامضٍ بأنَّه ما من أحدٍ غير علي باي يستطيعُ إنقاذي.

لم أقل شيئاً لسيمون دِ روخاس عن نوايا غودوي الحقيقيّة حين ذلّلت جميع الصعوبات كما لو بالسحر. كان المدلَّلُ يريدُ الحفاظ على المظهر العلمي للرحلة كي يُبْعِدَ أيَّ شكٍّ وللتغطية في حال الفشلِ. لكنَّ المجنَّ انقلب أثناء استقبال الملك كارلوس الخامس قبل أيّامٍ من انطلاقنا، حين مدح سيمون دِ روخاس بحماسٍ صادقٍ فوائد رحلتنا العلميّة التي يُحاول تحقيقها. فقد أصرّ الشاب المتحمّسُ على أن يصف لجلالته واحدة بواحدة ميّزات جميع النباتات اللازهريّة التي جمعها من جبال وادي الرامة، ليُعبّر عن قناعته بأنّ فحص القارّة الأفريقيّة سيضاعف بالآلاف الأنواع المعروفة.

ـ يعني أنّكما ستذهبانِ كلّ هذه المسافة للبحث عن طحالب وبهق حجر؟ ـ سألَ الملكُ متعجّباً ـ ياللغرابة، يا مانويل!

ـ طحالب وبهق حجر وأشياء أخرى كثيرة، يا صاحب الجلالة ـ ثلّثَ غودوي دون أن يخفي حنقه.

ـ هاهَهْ، صحيح؟ ـ سُعِدَ الملكُ، الذي بدا أنَّ الحوار يسلّيه إلى حدٍّ كبيرـ احكِ، احكِ يا كْلِمِنْتِ! ما النزوات الأخرى التي ستبحثون عنها هناك؟ هل ستجمعون شعرَ لحى أو حجارة نهر؟

قطعَت الملكةُ الحديث بعنفٍ.

ـ متى سيرحل هذان السيّدان، يا مانويل؟

ـ خلال وقت قصير جدّاً، يا صاحبة الجلالة.

ـ يفضّلُ أن يرحلا بأسرع ما يمكن ـ ختمت الملكةُ مشدّدةً على كلماتها الأخيرة.

خرجنا من مدريد يومَ الثاني عشر من أيّار العامَ 1802. كانت رسائل التوصية تشغل الجزءَ الأكبر من حقائبِ سفرنا الصغيرة. لم نحمل معنا ملابس تقريباً. لماذا؟ لأنّنا كنّا سنضطرُ للتخلّصِ منها. خطّطنا للحصول على الملابس الشرقيّة، التي ستجعلُ منّا محمّد بن علي وعلي باي بن عثمان، أمير العبّاسين.

قطعنا الفراسخَ الأولى صامتين. كثير هو ما كان علينا أن نقوله، لكنّني لم أستطعِ أن أُبعد تفكيريَ عن ماريّا لويسا والطفلين. عاهدتُ نفسي بوقارٍ ألاّ أكتبَ إليهم ما استمرّت المهمّة السرّيّةُ، وحين علمت ماريّا لويسا بذلك أُفلتت منها أنّةٌ.

ـ الحرّيّة بأيِّ ثمن؟ أليس صحيحاً ـ أجهشتْ، مجفّفة دمعةً منفردة.

كانت المرّة الأولى والأخيرة التي سمعتها تتأسّفُ.

ـ في أيّةِ حالةٍ سنبقى أنا والطفلين؟ ـ سألتْ بصوتٍ كامل وجفاف.

ـ أثناء غيابي ستهتمّ الحكومة بكم ـ أجبتُ ـ أمير السلام منحكم راتباً من اثني عشر ألف ريال. أما بالنسبة لأسنثيون فسيمنحونها مقعداً في مدرسة مونتِرّيْ الملكيّة.

ـ كيف يُحَبُّ من لن يكون له وجود، يا دومينغو؟

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ تُغِلُ حياتي إلى شبح، هل تظنّ أنه يمكن الاختفاء، اتخاذُ اسم آخرَ، شخصيّةٌ أخرى، عاداتٍ أخرى والاحتفاظ بالحبّ على حاله حتىً دون وجهٍ ضروريٍّ يمكن استحضاره؟

ـ سرعان ما سأعودُ ـ تمتمتُ دون قناعة.

ـ ومن ستكونُ عند عودتك؟ دون شكّ رجلاً مختلفاً. كيف أستطيعُ أن أُحبَّ رجلاً مجهولاً؟

رحتُ وأنا أجتازُ سهوبَ قشتالةَ، بعد هجري لأسرتي واقتراب مغادرتي الوطن، أُصغي بصمتٍ إلى تبريرات روحي، في وحدة شخصيّة

جديدة لم تتبدَّ بعدُ. وإذا ما تركتُ خلفي مشاعرَ وواجباتٍ فما ذلك إلا استجابةً لنداء جبّارٍ أسمعُ صوته حميماً منذُ طفولتي.

ما كنتُ سأعمله هو ما رغبتُ دائماً بعمله. ولو أنّني سلكتُ كما يعتبر أنّ على الزوج الصالح والأبِ الصالح أن يسلكَ لضاعت حياتي كلّها في مكتبٍ، واختنقتُ بين جدرانه الأربعة. بتخلّيّ عن هذا كنتُ سأسلِّمُ أسرتي جثّةً. لم أختر تلك الحياة التي كنتُ على وشك الشروع بها، بل هي اختارتني، كما يختار حادث أو مجزرة ضحاياهُما. أجبرتني على أن أكسر بقسوةٍ أواصرَ العلاقة مع أسرتي وواجباتي تجاه وطني وديني. لكنّني بغرقي في أعماق صمتِ حقول قشتالةَ، التي لم يكن يُعكرها غير وقع حوافر مطيّاتنا، بدت لي تلك الدوافع بلهاء كلها. لم أشعرُ إلاّ بفراقي المريع عن أحبّتي، الذين لم تفصلني عنهم المسافة وحدها بل دخيل بدأ يهيمن عليَّ: علي باي.

باريسُ، المدينةُ التي تعيشُ غارقةً في سراب السلام منذ أقلِّ من شهرٍ، بدَّدت همومي. فقد برهن الجنرال بونابرت على أنَّه لا يعرف فقط كيف يكسبُ المعارك. فما إن استولى على السلطة حتى استغلَّ الوضعَ الدوليّ المناسب لوقف الحرب مع انكلترا التي دامت قرابة العقد؛ ووقّع اتفاقاً مع روما التي كانت تستعيد الديانة الكاثوليكيّة التي لم تستطع الثورةُ استئصالها من قلوب الغالبيّة العظمى. بسلامٍ مع الله والناس كان الجنودُ الفرنسيّون يتنزّهون تائهين في حدائقِ تيڤولي، إيداليا، أو رانيلاغ، يُداعبونَ سيوفهم بحركة ازدراءٍ وتراخٍ.

كذلك كان ذلك الرجلُ قد عزمَ على احتلال إمبراطوريّة، الأمر الذي كنتُ أجهله آنذاك ونسيت تقريباً وصيّةَ غودوي. كنّا نقضي أنا وسيمون دِ روخاس كامل النهار في المعهد. لم نستنشق قط هواء مواتياً للدراسة والعلوم كما في ذلك الوقت. فالصعوبات التي تواجه ممارسة الفكرِ في بلدنا كثيرة. وحده الحبُّ الخالصُ للمعرفة، والمثابرة الجبّارة تمنع من الفسادِ بعضَ العبقريات الاستثنائيّة، والمعزولة حتى الحزن في جوٍّ مشحونٍ بالأحكام المسبقة ضدّ العقل، وبالنفور من دراسة الطبيعة.

حكى لنا شارل فرانسوا بيتامب ـ بوبريه مغامرته مع الأميرال انتركاستو، حين اكتشف، بينما كانا يضعان مخطّطات مناطقَ وبحارٍ

مجهولة، أنّه يعملُ لصالح الإنكليز واضطرّ لأن يخربش سرّاً نسخاً من كلِّ شيءٍ ليعملَ على إيصالها إلى وطنه.

وصفَ لنا الفلكيُّ بيير فرانسوا ميشام بتأثرٍ كيف اكتشف أحد عشر شهاباً من مركز مراقبة باريس.

لكن من بين كلٍّ من تعاملنا معهم من العلماء كان جان بابتيست دُلامبر من أثّر فينا أكبر الأثر. ذلك الرجلُ البسيط والنشيطُ كان فلكيَّ زماننا الأول. ومع ذلك فعيناه ومنذُ طفولته لم تكن تستطيع تحمّل نور الشمس. استعدَّ دلامبر، المقتنع بأنّه سينتهي إلى العمى، لتحدّي الظلمات. كان يقرأ منذ الصباح وحتى الليل ويحاول أن يتذكَّر المعارف التي ستكون قريباً جدّاً محالة عليه. وبما أنّ أسرته لم تكن تستطيع أن تُغطّي نفقات دراسته في باريس فقد تغذّى على الخبز والماء طوال تلك السنوات. سمع ذات يوم لابلاس يشرح نظريّته عن الاختلافات الكبيرة بين زُحَل والمشتري، فقرَّر أن يراجع جميعَ الملاحظات المحقّقة عن هذين الكوكبين. وبلغت *ألواح زحل والمشتري* عنده دقّةً لم تبلغها قط المراقبات الفلكيّة، على الرغم من أنَّ مرض عينيه كثيراً ما كان يمنعه من قراءةِ ما كان يكتبه.

قدّمنا أنفسنا لـ دلامبر للمساهمة في بحوثه، جامعين على امتداد رحلتنا، كل المعلومات التي يمكن أن يراها ضروريّة. قال لنا إنّ ما يهمّه شخصيّاً إنّما هي الأرصاد التبادليّة للاختلافات القياسيّة للمسافات القمريّة عن القمر والنجومِ واحتجابات توابع المشتري. وأمدّنا بالأدوات التي نحتاجها. وعملاً بنصيحته حصلنا على مقياس ريمور، مقياس ضغط جوّي ومقياس سوسِر للرطوبة. ونصحنا بالحصول على باقي الأدوات من إنكلترا.

كما عرّفنا على مكتب القياس الذي كان يقوم في ذلك الوقت بحساب خطّ الزوال كي يدلّنا على أولويّاته. اتفقنا على أن نمدّهم بالبعد الزاوي لمرور الشمس وبعض النجوم الواقعة حول القطب فوق خط الزوال على امتداد خطّ رحلتنا.

أكسبنا استعدادُنا للتعاون مع المؤسّسات العلميّة في فرنسا مساعدةَ حكومتها. استمع تاليران إلينا باهتمام ووعدنا بكتابة رسالةٍ إلى جيليه، الذي كان يُمثّلُ مصالحَ فرنسا في المغرب.

ـ فجأة وإذا بالعالم كلّه يضطرم بالمبادرات ـ علّق فرحاً ـ لقد آمنتُ دائماً، أيّها السيدان، أنّ السلام مجهِدٌ أكثر من الحرب.

سمح لنا ذلك السلام، المطبوع بطابع معاهدة آميينس، بالانتقال إلى إنكلترا، دون صعوبات. فقد سبق وقلتُ بأنّنا لم نكد نحمل معنا أمتعة، فقد صمّمنا على الحصول على ملابس عربيّة في تلك البلاد. لم نحسب حساب قسوة الطقس الإنكليزي. برد قارس جدّاً، لم نخبر مثله من قبل، اخترق أجسادنا مثل شفرةِ سكّين باردة. الضباب الذي كان يحيط بنا يجعلنا نشعر بأنفسنا في عالمٍ ماضٍ. ظننا أنّنا نميّزُ في سواد الأبنية الملطّخة بالسخام آثار مدينة صارت رماداً.

وبفضل البحّار والفلكي الإشبيليّ خوسِه مِنْدوثا، المقيم في لندن منذ زمن طويل، عرفنا أنّنا لم نتوغّل بعد في قبرنا. وكان مِندوثا بعد اختراعه لبعض الدوائر الفلكيّة الخارقة والضروريّة، يشعر بالانزعاج من نقص دعم الحكومة الإسبانيّة لبحوثه ويرفض العودة من إنكلترا. وعلى الرغم من انزعاجه من حكومة بلدنا إلاّ أنّه تبرّع بتسهيل احتكاكنا بأبرز علماء الجزيرة.

استمعنا إلى نصائح السير جوزيف بانكس، الحذرة قليلاً، الذي ترأس الجمعيّة الملكيّة بعد أن رافق كوكز في رحلاته. أطلعنا شارون تورنر على بعض فقرات *تاريخ الأنكلوساكسونيين* الضخم، الذي كان يكتبه. وسمح لنا جاكوب رينّيل بتفحّص خريطتيه الرائعتين لأفريقيا وإن لم تكونا مكتملتين بعد. لكنّ نيفيل ماسكلاين هو الذي منحنا المساعدة الحاسمة.

كان ماسكلاين بعد رصده مرور الزهرة بالشمس في سانتا إيلينا، قد برهن على عدم دقّة الكثير من الأجهزة التي يستخدمها. كشف عن مهارة استثنائيّة وعبقريّة فذّة في إكمالها. حصلنا بفضل اقتراحاته على دائرة عاكسة بقطر عشر بوصات، ركّبها ترغتون ومنظارٍ لا لوني بطول قدمين ونصف ركّبه دولّونس، وميقات ركّبه بوكزبانكس وآخر ركّبه بنينغتون، جميعها رائعة ومضمونة تماماً.

كان سيمون دِ روخاس راضياً بشكل استثنائيّ، فلندن تقدّم له ألفَ إمكانيّة ليتثقّف. كان يقضي ساعاتٍ طويلة في مرصد غرينتش، في غرف ومكتبة المتحف البريطاني. يحضر جميع الدروس العامّة.

يتحادثَ حول أكثر المسائل تعقيداً مع كلّ من يعبر في طريقه، ويبقى عنده وقتٌ لتشمّم الأخبار في المدينة. لم يستغرب شيئاً. لاص في احتفالات المعابد والكنائس والكُنس، وحضر العروض المسرحيّة والحفلات الموسيقيّة بالاهتمام ذاته الذي كان يتفحّص به رفوف مكتبات المدينة. اعترف لي بسذاجة سنيه الأربع والعشرين بأنَّ هدفه أن يلمَّ بكل ما يعرفه الرجال حين يبلغون الثمانين من عمرهِم، فقد قرأ في كتاب لألفونسو مادريغال المعروف بـ *التوستادو* (المحمّص) أنّ تلك الغايةَ ممكنة.

كان يستخدم نهايات الأسابيع في جمع الأعشاب من الحقول القريبة. وما إن غاب في إحدى تلك المناسبات بهدف تحرِّي غابة سبرينغ حتى دوّت طرقتان جافّتان على باب البيت. ففي اليوم السابق مررت بحذر على عيادة طبيبٍ قدّم لي بلطفٍ، من خلال مِندوثا، خدماته في مسألةٍ حسّاسة. فتحتُ البابَ فأشار خادم إلى السير ويليامز بليزارد، الذي كان ينتظر تماماً كما كنّا قد اتفقنا داخل عربة فاخرة.

كان السير ويليامز أستاذ التشريح والجراحة ورئيس جمعيّة الجرّاحين الملكيّة ويجمع قطع تشريح.

- وخاصّة العظام - نبّهني - لا أملكُ في مجموعتي أيّ عضوٍ مثل العضو الذي تريد أن تتخلّص منه.

نزل من العربة ودخل إلى البيت.

- هل من جديد، يا باديّا؟ تبدو مريضاً فعلاً - علّق بقصديّة.

- فقط متوتّر قليلاً - أجبتُ.

- وهل قرّرت؟

- تماماً، يا حكيم. - أكّدتُ.

كنتُ خائفاً من الألم ومذعوراً من إمكانيّة الخطأ في العمليّة. أمّا بالنسبة للنتائج الأخرى فقد تأمّلت فيها طويلاً. كنتُ أعرف أنّ الختان سيفرض عليّ شهرة المسلم نهائيّاً.

- تصرّف - رجوته بعد أن نزعتُ عنّي ثيابي.

- تنفّسْ - أمرَ بليزارد - تنفّس عميقاً.

كنتُ أرتعش مثل حيوانٍ مذعور. لاحظتُ أنَّ الطبيبَ يشدّ جلدَ

القلقة، وألم حادّ يشقّ طريقه عبر السطح المشدود. ومع تراخي الجلد تركّز الألم في شفة الجرح الوحيدة. فانتفش مثل عضّة وانغرز في عضوي، لينفجر فيما بعد وينتشر بالعشرات في كلّ جسمي. أفلت منّي عواء مرعب. انفجر الألم مثل موجة ليرتطم بجدران الجلد الأشعر ووصل إلى رؤوس أصابع يديّ وقدميّ. عندئذٍ فقدتُ وعيي.

عندما عاد سيمون دِ روخاس وجدني منهكاً في السرير، وسطَ غمرٍ من الدم.

ـ لا تحاول ذلك أبداً، يا كْلِمِنْتِ ـ تمتمتُ، مستجمعاً قوايَ النادرة ـ إنّه فائق القسوة.

تأخّرت في النوم تلك الليلة. منعني الألمُ من إغماض عينيَّ. بحثتُ عن الأفيونِ باللمس في ظلمة الغرفة. ربّما تناولتُ أكثر من جرعة. لاأدري. عذّبتني الكوابيسُ حتى وقتٍ متقدّم من الصباح، لكنّني لا أتذكّرُ شيئاً منها.

دامت النقاهةُ طويلاً. لم يندملِ الجرح وكان يشغلُ بليزارد خطرُ الغنغرينا. كنتُ أشعر بنفسي رخواً، ومهجوراً في داخلي.

فَعَلَ اقترابُ موعد الرحلة مفعوله أفضل من الدواء. لم أكن أرغب بإضاعة مزيدٍ من الوقت. رجوتُ سيمون دِ روخاس أن يعثر لي بين تجّار الأقمشة الشرقيّة عمّن يستطيع أن يلبسني بروعة مناسبة تليق بأميرٍ عبّاسيّ. اقترب من السرير.

ـ بأمير عباسي ورفيقه الشريف محمّد بن علي ـ ذكّرني مبتسماً.

وما إن استطعتُ النهوض على قدميَّ حتى رافقني إلى دكّانٍ سوريٍّ، استلم توّاً من دمشق ثياب أفندي فاخرة. كان يوماً مُنْهِكاً ومبهجاً. والسيّد حُسينْ هو مموّن سفير الباب العالي لدى البلاط الإنكليزي. شرحنا له أنّنا ننوي حضورَ حفلة تنكّرٍ ناعمة.

أجلسنا على ديوانٍ، ومن بين يديه المضاءتين بقنديلين من النحاس كبيرين بدأت تتسرّبُ أقمشة رقيقة رائعة الألوان. كانت تفوح منه رائحة مرّ قويّة، وحسين يحرّكُ أصابعه تحت الأقمشة بحيويّةِ جناحي عصفور.

اخترتُ عباءةً من الساتان الأرجواني وأخرى من الدمقس الذهبيّ،

المطرّزة بالذهب والفضّة. كانتا مؤلّفتين من قطعتين مخاطتين على مستوى الكتفين، وتُرتدى بإدخال الرأس من فتحة في موضع العنق. وحجزتُ أيضاً عدداً من قمصان القطيفة القصيرة ، زيِّنت أزرارها بحبّة لؤلؤ، وأخرى من الصوف وعدداً من السراويل الموصلية الخفيفة جداً.

فضَّلَ سيمون دِ روخاس جبّة سوداء وقفطاناً أخضر.

ـ وداعاً، يا كلِمِنْتيَّ العزيز! ـ صحتُ ـ. أحيّيك، يا محمّد بن علي!

كان السوريُّ يضحكُ وهو يخفي وجهه بمنديلٍ نيليٍّ كبيرٍ. فتاةٌ شقراء الشعر قدّمت القهوةَ جالسةً القرفصاء. لامس طرفُ عباءتها قدميَ الحافيتين فقدّرتُ عينيها فاتحتي اللون، المثارتين خجلاً. كم من مثل هاتين العينين عليّ أن أواجه وأقنِعَ؟ لكنّني استعدتُ يقيني حين تأمّلتُ نفسي في المرآة التي كانت تهيمن على الغرفة. كان سيمونِ دِ روخاس يُقارِنُ نفسه بإبراهيم، بلباسه الأكثر تواضعاً منه. علّمه السوريُّ كيف يسوِّي عمامته حول رأسه مع قطعةٍ طويلةٍ من الحرير، يكملها بمنديل مثلّث بإهمالٍ ، تحت الذقنِ وحتى الصدر. قلّدته. حيّيتُ في داخلي ظهور علي باي، المزوّد أخيراً بجسدٍ ووجه.

ـ سنعودُ إلى بيتنا هكذا كي نعتادَ على لباسنا الجديد ـ قلتُ.

ـ هل تفكّران أن تحضرا الحفلة حافيين؟ ـ مزح ابراهيم.

اختار سيمون دِ روخاس خفّين أبيضين. بينما وقع اختياري على اثنين أصفرين. كان عليّ أن أتنازعهما مع قطٍّ وجدهما جذّابين للعب بهما.

حاولنا أن نتخلّص خلال سبعة أيام وستّ ليالٍ من الإحساسِ بأنّ تلك الملابس تحوّلنا إلى لغزٍ أمام أنفسنا بالذات. لكن وعلى الرغم من أنّنا كنّا نبحث بإصرارٍ عن الطبيعيّة في حركاتنا، فقد عانينا في وحشة نزلنا امتحانَ العيون الغريبة الكبير.

ركبنا *الجورج* ونحن نرتعد باتجاه قادش. كان يُسافر على متن السفينة الشراعية ذات الساريتين بعضُ المغاربة. كان لقاؤنا الأوّلُ مخيّباً للآمال. فقد ظنّونا تاجرين يهوديّين. أغلقنا على أنفسنا القمرة الصغيرةَ وتدرّبنا إلى ما لا نهاية على حركات وإيماءاتٍ ، نكاد نختنق من نقص الهواء. لم نجرؤ على الخروج في محطّة فالموث. لكنّنا بعد

عدّة أيّامٍ وأمام رأس فينيسترٍ تشجّعنا على القيام بمحاولة جديدة.

كنّا على بعد مئتي ذراعٍ تقريباً من الشاطئ. غادرنا القمرة ساعةَ الصلاةِ تماماً. فنزلنا أنا وسيمون دِ روخاس على ركبنا وصلّينا بورع مفرط. كانت المرّة الأولى التي نفعل فيها هذا، وفي أعماقنا سعدنا ونحن نحيي بطريقة في غاية الفضول المنحدرات الشديدة التي تحيط بحدود إسبانيا الغربيّة. لكنّ ورعنا الظاهري عمل المعجزات. فقد أحاطَ بنا المغاربة وطلبوا منّي أن أؤمّ الصلاة كلّ يوم، ولم يبتعدوا عنّا حتى وصلنا إلى وجهتنا.

كانت قادش المتأمّلة من البحر ذات جمالٍ استثنائيّ. الرصيف مليء بالناس. ما إن عبرنا الجماركَ حتى انكبّ عددٌ من الجليقيين على الأمتعة. خفتُ على المعدّات الحسّاسة فيها، فقد دخل الجليقيون في نقاش حادٍّ حول الأحقيّة بحمل الأمتعة. أعادت بعض البنسات الهدوء وسمحت لي باختيار أقواهم. توغّلنا في بوّابة البحر وتوجّهنا إلى النزل المحتشم الذي اتفقنا عليه مسبقاً في إنكلترا بواسطة تاجرٍ قادشيٍّ. وعند دير سان خوان دِ ديوس رسم راهبُ إشارة الصليب عند مرورنا. لم نلحظ في عيون الناس الذين كنّا نمرُّ بهم أيّ أثر للشكّ، لكنّ رجلاً قويّاً وأسمر كان يلاحقنا منذ اللحظة التي نزلنا فيها.

لاحظتُ أنّ ذلك الرجل يتخفّى عن سيمون دِ روخاس وليس عنّي. بل على العكس كان يُحاول أن يلفتَ انتباهي. تخلّفتُ عدّةَ خطواتٍ فدفع بورقةٍ بين أصابعي. كان الأمرُ يتعلّقُ بموعد؛ والرسالةُ تُلزمني اللقاء بشخصٍ موثوقٍ تماماً من أمير السلامِ بعد يومين في الجزيرة الخضراء. كان يصرّ على أن أذهب وحيداً تماماً وألا أبوح بالمقابلة لأحد، ولا حتى لـ كلمِنْتِ.

انطلقتُ باتجاه الجزيرة الخضراء وسطَ حرٍّ خانق. تبيّنتُ أنّ ملابسي الجديدة تخفّفُ عنّي قليلاً من شدّته. في اليوم الأول وصلتُ إلى التلّ الذي يرتفع فوقه فيخر. فاجأني أنّ النساء يرتدين الزيّ العربيّ مثلي، وعند اقترابنا منهنّ يخفين وجوههنّ خلف الحجاب تاركات عيناً واحدة مكشوفة.

ـ يسمونهّن الخبيئات ـ وضّح لي صاحب النزل، ذو الأصل الجبليّ ـ جميع النساء يمضين على هذا الشكل هنا، وهو ما يجب أن يبدو

لحضرتك طبيعيّاً، لكنّني ألفت انتباهكم إلى أنّ هذا اللباس قشتاليٌّ، ياسيدي.

عبرت العربة على متن زورق نهرَ برباط وتابعت طريقها حتى نزلِ أُوخِن. بعد أن اجتزنا ممرّ تروتشا لمحتُ خليجَ الجزيرة الخضراء التي يُغلق طرفها الشرقيُّ جبلَ طارق.

كان الكولونيل أموروس بانتظاري في مكتب حاكم منطقة جبل طارق. لن أنسى لقاءه أبداً. وما إن فتح الخادم البابَ وأعلن عن وصولي حتى نظر إليّ بارتياب. فرددت إليه نظرةً محمّلة باللهفة والشكّ.

قمت بحركة من ينزع عنه العمامةَ لكنّه منعني بإيماءة منه.

- يجبُ ألاّ يعرف أحدٌ أنّه قناع - أكّدَ - ولا حتى الحاكم العسكري نفسه.

- لم أتوقّع أن ألتقي بك، يا سيّد أموروس - قاطعته - خيّبني تقريركَ.

- لم أرفض مشروعكَ - اعتذر.

- ولم تدعمه أيضاً. - أصررت.

- انسَ ذلك، يا باديّا. شيء مضى. سنجدُ أنفسنا في الأشهر القادمة مجبرين على التعاون بودّ. هل تدري أنّ هذا اللباس يناسبك؟

- أتصوّر أنّك لم تستدعني كي تُجاملني. اعلمْ أنّني متلهّف لمعرفة تعليمات أمير السلام.

- هذا أفضل - وافق الكولونيل - لنمض إلى الموضوع مباشرة. سأوضّح لك الحالة بكلمتين. لتعلم أنّ السلطان سُليمان ما يزال يطالب بالجزية تحت التهديد بمنع تجارة الحبوب. عمليّاً أوقف الإرساليات التي اتفقنا عليها في معاهدة التسعة والتسعين. ولم يكتفِ بهذا فراح يهين ويذلّ تجّارنا ولا يتوقّف عن التعبير بأقذع التهديدات ضدّ مواقعنا على الشاطئ الأفريقي.

- كنتُ قد فهمتُ أنّه أمير معتدل - أكّدتُ - فقد وقف مع مصالح أمّتنا أثناء الحرب مع الإنكليز.

- اضطررنا أن ندفع خيرة جبايتنا هدايا له كي نضمن حياده - اعترفَ مرفقاً كلماته بإيماءة غاضبة.

أحدٌ طرق على الباب في تلك اللحظة. رفضه الكولونيل طارداً.

- إنّ أيّ معلومة تستطيع تقديمها لي - قلتُ مُحاوِلاً أن أُلطّفَ الحديث - ستكون مفيدةً للرحلة.

- أنت من يجبُ أن يكونَ مفيداً لنا، يا باديّا - أجاب حاسماً -. كثيرة وجليّة احتمالات أن تُعلنَ حربٌ جديدة مع إنكلترا.

- لم ألحظ ذلك في لندن.

- تحرّكتَ في دوائرَ غريبة جدّاً عن هذه الهموم. فقد لعبتَ دورك العلمي على أكمل وجه.

- ألستُ كذلك؟

- أنت مِقدامٌ، يا باديّا. مقدام خالص وصرف.

سادَ صمتٌ. قاس الواحدُ منّا الآخر بالنظر.

- إذا ما انفجرت الحرب فإنّه سيُقضى على التجارة مع أمريكا من جديد - تابع ببرود - أميرُ السلام يريدُ أن يُعوِّضَ هذه الخسارة بكسب المغرب.

- الهدفُ واضح، لكنّ صعوبات المهمّة تبدو مستعصية. ما الذي يستطيع أن يعمله رجلٌ وحيد؟

- يكسب ثقة السلطان مولاي سليمان بسرعة. جيشُه، بحسب معلوماتنا، ضعيف وكثيرون من سيكونون مستعدين لمزاحمته على العرش. مهمّتُك هي إثارة تمرّد، يا باديّا تستطيع أن تعتمد في ذلك على ابنه أحمد. فطبيعته حربيّة، مع أنّه صبيانيّ أيضاً. ربّما من المناسب أكثر أن تساندَ ابنه هشام.

- وفي حال أنّني تمكّنت من إثارة التمرّد، فكيف سأسوق نتائجه لصالحنا؟ - اعترضتُ - لن يكون سهلاً، يا كولونيل. لا أحد يتمرّد لصالح أمّةٍ غريبة.

- دون شكّ. لكنّ جيشنا سيكون مستعدّاً لعبور المضيق خلال

ساعتين والنزول في معاقلنا. سندعم التمرّد مقابل الحصول على مقاطعة فاس،الأهراء الحقيقي، ومدن طنجة وتطوان والعريش هي التي ستضمن لنا مفاتيح المتوسّط.

- فهمت. هذه شروط عليَّ أن أبحثها مع المتمرِّدين.

- هو كذلك. تعليمات الأمير في غاية الوضوح: عليك أن تفعل كلَّ ما في وسعك لإثارة حالة من الفوضى تُبرِّرُ تدخّلنا.

أظنّ أنّني رسمتُ ابتسامةً بلهاء. كلُّ شيءٍ كان مُقرّراً. راجع الكولونيل ملاحظاته.

- لندرس المسائل العمليّة - اقترح - في المرحلة الأولى سأكون أنا من سيتصل بك. سأسافر إلى طنجة بحجّة التفاوض على شراء القمح في الوقت الذي ستسافرُ فيه أنت إليها.

وربّتُ فمي. فقربُه منّي يمكن أن يعرقل مشاريعي الحقيقيّة.

- بعد طنجة - أضاف - سيزوِّدُك في الصويرة نائبُ قنصلنا بالمال وسيضمن بريدك السرّي.

- نحتاج إلى تحديد كلمة سرّ - نبّهتُ.

- هذه واحدة من غايات هذا الاجتماع.

- وما هي الأخرى؟ - استقصيتُ.

- أن أُقنعك بأن تُغادر وحدك. كْلِمِنْتِ شاب كفءٌ جدّاً، لكنّه ليس عنصراً مناسباً لمساعدتك في تحرّكاتك.

- هذا قرارٌ اتخذته من تلقاء نفسي، يا كولونيل - قبلتُ - لهذا السبب عرقلتُ تحركاته في لندن. الآن عليّ أن أبحثَ عن ذريعة كي أمنع صعوده إلى السفينة.

ابتسامة رقيقة دلّتني على أنّه اعتبر المسألة منتهية.

- لنضع كلمة السرّ المرمّزة، يا باديّا.

- لنثق بروح الدعابة - اقترحتُ.

- ليست فكرة سيِّئة - اعترف - هل نبدأ؟

- عندما تشاء.

- بارود؟

ـ فلفل أسود ـ رددتُ.

ـ مدافع؟

ـ ريش.

ـ جنود؟

ـ رهبان.

ـ رحّالة؟

ـ شيطان ـ أكّدتُ دون تردُّد.

رفع نظره عن الورقة، مفاجَأ. لكنّه قرّر أن يسجِّل الكلمةَ كما فعل بسابقاتها.

ـ والآن انتبه إلى ما تقول ـ نبّهني ـ أموروس؟

ـ ببساطة نقلبها: سوروما.

ـ آمل ألاّ تحاول أن تفعل بي ما خطر لك أن تفعله باسمي.

الفصل الرابع عشر

الدخول في الحلم

كانت الريحُ ستتبدّل، هبّات الهواء الغربي توقّفت، سكنت بشكل غريب، فوق أعراف الأمواج. كانت الساعة السادسة من صباح التاسع والعشرين من حزيران من العام 1803 ، التاسع من ربيع الأوّل من العام 1218 للهجرة. كانت الريح الغربيّة تسير وخطواتها الفرورة تشكّلُ شريطاً مذهَّباً، مُفلتاً ومرتعشاً فوق الشروق متشابكاً بين ريش فراخ النوارس التي ما تزال داكنة اللون، تجرّب محاولات طيرانها الأوّل، المتعثّر والخائف، على شاطئ طريف.

وما كادت تمضي لحظة على توقّف لهاث الريح الهشّ حتى بدا كأنّ الجوَّ قد أُفرغ من الهواء. خمّن القبطان بنظرته في الجوّ الخادع، المُفعم بالنور، وصولَ الريح الشرقيّة.

عبرت هبّاتها الأولى الخفيفة المدينة الغافيةَ، طارقة ببراجمها درفات وخشب النوافذ المغلقة، ودخلت مثل الأشباح في حميميّة البيوت حتى اختلطت بالتنفس.

- هي ذي أجنحتنا - أكّد القبطان - ستكون ريحاً مواتية.

لكنّ دفقات الريح كانت تختطف كلماته، واضطُرّ البحارةُ إلى التكهّن بأوامره من خلال بعض الأصوات غير المفهومة. عندما أوشكنا على الإقلاع مدّدوني على السطح. كشفتُ عن ضمادات ساقي وفحصتُ

جرحي. لعقتْ الشمسُ شفتيه الداكنتين، اللتين حنّطهما الدمُ الجافّ. قبل ذلك بيومين فقط، انقلبت بي العربةُ التي كانت تقلّني إلى طريف في الأغمار الرمليّة، بعد أن أقنعتُ سيمون دِ روخاس بأن ينتظر تعليماتي في سان لوكار، فأصبت بجرحٍ بليغٍ بجانب جدول مياهٍ آسنة. كان السائق قد أسرف بشرب نبيذ بخَارِتِ.

ما أن التففنا حول رأس طريف الذي يحمي الميناء حتى لمحنا طيفَ طنجة الأبيض، بعيداً وساكناً على الضفَّةِ الأخرى. أفزعت خلفنا نواقيسُ كنيسة سانتا ماريّا سرباً من القطرس حلّق فوقنا ورافقنا على امتداد المعبر. كانت بي حرارة وأشعر بالوهن، لكنّني لا أرى الجرح. تملّكت جسدي حالة عاطفيّة قويّة حيّدت الألم. الانطباعُ الأوّل الذي يتذوّقه الإنسانُ الذي يجوب لأوّل مرّة هذا الخطّ لا يمكن أن يُقارَنَ إلاّ بأثر الحلم. في أقلّ من أربع ساعات تقريباً يعبر من عالم إلى آخر، كما لو أنّه ينتقل إلى كوكبٍ آخر مختلف.

في جميع أمم الأرض يتمازجُ ويتخالطُ سكّانُ البلدان الحدوديّة، الذين تربط بينهم إلى هذا الحدّ أو ذاك علاقات متبادلة، بلغاتهم وأعرافهم وعاداتهم، بحيثُ يتمّ الانتقال من واحدة إلى أخرى بمتوالية لا تكاد تُحَسُّ. لكنَّ قانون الطبيعة الثابت هذا غير قائم بالنسبة لسكّان ضفّتي المضيق. في أقاليمنا الشرقيّة، إذا ما راقبنا بشكل متتالٍ سكّان جزيرة العرب، سورية، تركيّا، فالاكيا، ألمانيا، لوجدنا سلسلةً طويلة من التدرجات تساير ببطءٍ التحوّل من مشهدٍ إلى مشهد، من ثقافة إلى أخرى، من إيمانٍ إلى آخر. لكنَّ المسافر هنا يستطيع أن يلمس في صباحٍ واحدٍ وعلى مسافة أقل من ثلاثة فراسخ، طرفي حضارتين مختلفتين تتقاسمان هذه الضفّة وتلك، دون أي عبور آخر غير البحر.

بعد أن أخذت الريح الشرقيّة بأيدينا، خلال أربع ساعات دامتها رحلة السفينة، هجرتنا فجأةً، وتركتنا على مقربة من البر. ظننتني أحلم وأنا أتأمّلُ طنجةَ وخفتُ أن يتلاشى منظر المدينة. كنّا في فترة من الزمن الفرور، حيث تنفصل مختلف عناصر المشهد، المجرَّدة من الريح، وتختبر تماسكها في عالم مبهم ومسلوبٍ من هذا الذي يشكّلُ إلى جانب النور، أوثقَ روابطها: الريح. هذه القوّةُ العريقةُ التي تعقد وتفك وحدة لغز الطبيعة في المضيق.

خرجت بعضُ المراكب للقائنا. كانت الريح الغربيّة قد عادت وهي التي راحت تهزُّ برنس مرشِدِ السفن في الميناء وتمنح كلماتِه وقعَ طبل.

- من أين أنتم قادمون؟

- من لندن عن طريق قادش - أجبتُ.

- من أين أنتم؟

كان علي باي هو من يجبُ أن يتكلّم عبر شفتيّ، وأيّ شيءٍ يقوله سيقرِّرُ مصيره. كان لهذه الفكرة تأثير مقلق فيَّ. فعلي باي لم يكن قد وُجِدَ بعد. لم يكن شيئاً، أو أحداً. شعرتُ بنفسي مثل دميةٍ بلا شخصيّة، كبيرة وثقيلة، ناهضة بشقّ النفس على حافّة المركب وفي آنٍ معاً مثل محرّك الدمى الذي يصرُّ على منحها الحياة.

- من حلب - أجبتُ أخيراً.

- وأين يقع هذا المكان؟

- في سوريّة، قرب تركيّا.

- هل يعني هذا أنّك تركي؟

- لا، لكنَّ بلدي تحت حكم السيّد الأعظم.

لم يسأل عن اسمي. أخذ جوازات السفر وشهادتي الصحّيّة وعاد إلى البر. راح أحدُ البحّارة يهرس بندورة وخياراً وثوماً في قصعة، أضاف إليها بعض حساء الخبز والزيت. تهيّأنا لتناول الطعام حين اصطدم زورق بجانب مركبنا. تركيّ كان يلوّح بالفرمان مع إذن بالنزول إلى البر. سارع الرجالُ لمساعدتي في النزول، لكنّ التركيَّ تدخّلَ، أمسكني بين ذراعيه المفتولين وهمس في أذني أنّ اسمه سيدي محمّد وأنّه سيكون منذ تلك اللحظة خادمي.

غزت الريحُ عنيدةً الميناءَ، حيث كان بانتظاري القائد عبد الرحمن معفّري، المحاط بالجنود. خفتُ للحظةٍ أن تقتلع الريحُ تلك الملابس، التي تشكّلُ بعد أن تجرّدتُ من شخصيّتي، هويّتي الوحيدة. مستنداً إلى التركي سمعتُ منه كلمات الترحيب دون أن أفهمها. أشارَ إلى خفَّيَّ الصفراوين فتفحّص جميع الجنود دوريّاً قدميَّ. حاولتُ أن أفكّ ذلك اللغز، لكنّهم فصلوني عن القائد وحملوني في الهواء إلى مكانٍ آخر.

وبينما كنّا نجوب الفرضة انتبهتُ إلى أنّ مركبي راح يبتعد عائداً إلى إسبانيا. تابعتُ بنظري السارية وقد أوشكت على الغوص في خطّ الأفق. لكنّنا غادرنا الميناء فتاهت عيناي في متاهة من الأزقّة البيضاء.

توقّفنا في حانوت حلاقة. كنتُ مذعوراً لأنّني لم أستطع الانتباه إلى ما كان يجري. كانت معرفتي باللغة العربية غير كافية لعزل الكلمات في ذلك اللغط من الأصوات التي تشتدُّ من حولي. ركع التركيّ بجانبي، وبعد جهدٍ جهيد استطاع أن يُفهمني أنّ القائد أعدّ لي منزلاً، لكنّ المفاتيح ضاعت من البيت. نهض وأشار عليّ بالانتظار. عاد بعد برهة ومعه سمكة ليمون هائلة. كنتُ جائعاً جدّاً، وأشكّ بقدرتي على الانتظار حتى يشووها. كان نور الظهيرة في الخارج يفور على الجدران البيضاء بفتنة اللهب. سقطتُ على نضيدةٍ منهاراً من التعب. اقتحم عددٌ من الجنود الزنوج من حرس القائد المكان في اللحظة التي أُغمضت فيها جفوني وحملوني إلى الشارع من جديد.

كان عبد الرحمن معفّري ينتظرني على باب بيته. أنعشني قليلاً فنجانٌ من القهوة المرّة الكثيفة، دون سكّر، بما يكفي كي أكتشفَ أنّني أشعر برعبٍ مريع. أجبتُ بإسهابٍ على أسئلته. أمدّتني جرأةُ علي باي بحزم النار، لكنّها ضنّت علي بحكمةِ الماء التي تريح، وأمان الأرض الذي يسندُ خطوات الهواء وطلاقته ويمنح الرشاقة والطبيعيّة لحركاته. باسم الله الرحمن الرحيم قدّمتُ نفسي أميراً للعبّاسيين، رجلاً ورعاً، علاّمةً، وحاجّاً. رويتُ قصّة طويلةً ومثيرة. مدحتُ شجرة العائلة التي ترجع إلى فاطمة، لؤلؤة النبي. استحضرتُ طفولتي العذبة في حلب. شبابي الدراسي في القسطنطينية وثروة أبي، التي أثارت الحسد وسبّبت له الملاحقة. اضطرّ أن يلجأ إلى إيطاليا وحملني معه. أراد أن يُسافر إلى فرنسا وإنكلترا ليتأهّل بالعلوم. اضطرّتني وفاته الذهاب إلى قرطبة لأواري جثمانه التراب، بحسب تقاليد ديننا. هناكَ كوّنت فكرة الحجّ إلى مكّة. اضطررتُ قبل ذلك أن أعودَ إلى لندن. حيث أودع والدي كلّ ممتلكاته. من تلك المدينة ركبتُ السفينة إلى قادش وفي طنجة تبدأ رحلتي.

وحين انتهيتُ طالباً الحمد لله والسلام على مضيفي، نهض القائد

بسرعة واتجه إلى أقصى الغرفة، مُديراً ظهره إليّ. سمعت بقلقٍ تنفّسه المضطرب في صمت الغرفة.

- علي باي ! - هتف.

وحين حاذيتهُ أراح يده في يدي ودعاني إلى حمد الله معاً لأنّه أعادني إلى أرض المؤمنين الحقيقيين. انحنى جسدانا بإيقاع واحد. شعرتُ بأنَّ اسم علي باي يحميني كالطلسم. التفت القائد، ذبَّ بعض الذباب الذي كان يحوم فوق المائدة المنخفضة التي تتصدّر الغرفة، وقدّم لي فطائر بلحم الحمام المتبّل بالسكر والقرفة. ابتسم وهو يراني آكلُ وغطّ في نوم عميق. استرحتُ بجانبه على السجّادة، فوضع خادمي التركي وسادة تحت رأسي.

حين استيقظتُ كان الليلُ قد حلَّ. سمعتُ دويّ الريح، مشتبكاً في الأزقّة القريبة. كان القائد عبد الرحمن يشخر والخادمُ التركيُّ يحملق بي.

ذكرياتي عن تلك الأيام الأولى في طنجة جميعها مصبوغة بالخوف وعدم الثقة. كان باديًا قد بدّلَ ثيابه، لكنّه لم يبدِّل جلده وعلي باي قليل خبرةٍ كطفل. يمرحُ بين ثيابي الفضفاضة والمتماوجة دون أن ينتبه إلى الخطر الكبير الذي يحيق بنا.

التركيُّ، الخادم الذي لم أختره، شكّل تهديداً بالنسبة إليّ. كنتُ في وضعي مثل جريحٍ بحاجةٍ إليه كي أتحرّك؛ يرافقني إلى كلِّ مكان وكان شاهداً على كلِّ أشيائي الحميمة. ولكي أكسب الهدوء والثقة احتجتُ إلى بعض لحظات الوحدة والانفراد. أردتُ أن أتخلّص منه ولم أدرِ كيف أفعل هذا دون إثارة حفيظة سيّدي عبد الرحمن معفّري. كنتُ واثقاً بأنّ القائد وضعه بجانبي كي يراقبني.

لم يكن الوحيد الذي يقوم بذلك. اكتشفتُ، قبل أن يجفّ الكلسُ الذي بيّضوا به أرضَ وجدران البيت الذي خصّني به القائد، آثارَ قدمين حافيتين بجانب أمتعتي المنكوشة. تأكّدتُ أنّها ليست لقدمي التركي.

أحدٌ ما يتجسَّسُ عليَّ. كنتُ واثقاً من ذلك. لكن كيف سأميِّزُ بريقَ عيني الجاسوس النهم بين آلاف العيون التي تراقبني ما إن أخرج إلى الشارع؟ يشغلُ التأملُ قسماً كبيراً من حياة الناس على هذا الطرف من المضيق. كثيراً ما تفاجئكَ في أهلِ طنجة نظرةٌ بلا زمن، عالقة في

الهواء، ساهيةً ومستسلمة في آنٍ معاً. لم تكن نظرةً متحرّيةً، على الرغم من ثباتها، بل نظرة تذعن أمام الشيء الذي تتأمّله، تسمح بأن تُغزى، مثل حاسّة الشمّ التي تتلقّى الروائح مختلطة، ساعة الاستنشاق بشكل مريع، دون أن تتدخّل الإرادةُ.

تأخّرتُ كثيراً حتى تعرّفتُ بين تلك النظرات على نظرة الرجل الذي كان يترصّدني. اكتشفته، لأنّه كيهوديٍّ كان خاضعاً لأكثر الاستعدادات قسوةً، فعليه حين يلتقي بمسلم ذي مكانة أن يتوقَّفَ، يتنحّى ويتخذ وضعيّة وضيعة، ينحني جسده تماماً إلى الأمام. في كلّ المرّات التي عبرتُ به أحسستُ بأنه يرتعدُ، وارتعاده يشتدُّ حين يكون عليه أن يبقى دون حراك في تلك الوضعيّة المهينة.

قرّرتُ محاصرته، فعرضتُ عليه الدخولَ في خدمتي. أجابني مرتبكاً جدّاً، بأنّ له سيِّد. لكن بقليل من النقود أفلتَ لسانه. عرفتُ أنّ القنصلَ الإنكليزيّ، السير جيمس ماتّا أوصاه بألاّ يبتعد عنّي.

عدتُ والتقيتُ به يوم الجمعة والمؤذّن ينادي للصلاة. لم يُحاول هذه المرّة أن يتخفّى. أحاط بي عند الخروج من الحمّام العام وسلّمني سلّةً صغيرة فيها تين وبرتقال من تطوان.

- انقل للسير جيمس ماتّا امتناني - قلت مندهشاً.

- ليست من السير جيمس، بل من قنصل إسبانيا - حدّد قبل أن يختفي بين الحشد، الذي تدفعه ريح هوجاء غزت الشوارع الرئيسيّة المؤدّية إلى المسجد.

لم أستطع خلال الصلاة التوقّف عن التفكير بكلماته. كنتُ أعرف أنّ قنصلَ إسبانيا، أنطونيو رودريغث سالمون ليس على درايةٍ برحلتي، لأنّ غودوي لم يكن يثقُ به. وكان سالمون، بحسب ما قاله لي أموروس، يعيشُ محاطاً ببلاطٍ من النساء، يعيلهنّ بشكلٍ رائع بفضل التجارة الجيّدة التي يقوم بها مع التجّار المغربيين واليهود. وكان أميرُ السلام يخاف إذا ما علم أن يُحاول حمايةَ رأسماله فيضعه في مأمنٍ، الأمر الذي سيثير ذعر السلطات الإسلاميّة وشركائه اليهود.

اكتشفت عند العودة إلى البيت رزمة من الرسائل في أسفل السلّة، تُخفيها الفاكهة. موجّهة جميعها من أصدقائي الإنكليز إلى قنصل بلدهم، يطلبون فيها منه مساعدتي وتسهيل إقامتي في المغرب. وجدتُ

بجانبها ملاحظة من سالمون، مكتوبة بطريقة في غاية القوّة بحيث أن الخطّ يظهر حالة الاضطراب لأنّه لم يُعلم بوصولي. *لقد أثارت* - قال - *الرسائل حذرَ السير جيمس. دونَ جدلٍ هي وثائق مورِّطة. لحسن الحظ أنني استطعتُ إنقاذها، مستعيناً بالصداقة والرفاقيّة التي تربطني بالقنصل الإنكليزي. كلّي ثقة بأنّك لم تترك خلفك ذيلاً لم تربطه، أثراً من ماضيك يمكن أن يُفيد في كشف القناع عنك، لكي تستطيع أن تتفرّغ دون مخاوف لمهمّاتك العلميّة.*

أراحتني هذه التلميحة الأخيرة، فقد استخلصت أنّه يجهلُ الخلفيّات السياسيّة لرحلتي. استذكرتُ أشهري الأخيرةَ في أوروبّة، مستبعداً أيَّ عمل طائش قد يورِّطني. بالفعل لم أُبح لأحدٍ بطبيعة رحلتي السياسيّة، لكنّني شاطرتُ أهدافي العلميّة حفنةً من العلماء البارزين. ومع ذلك فالتهديد الأسرع كان قريباً جدّاً منّي، على بعد فراسخ قليلة، على الضفّة الأخرى من المضيق. في تلك الليلة ذاتها كتبتُ رسالةً إلى سيمون دِ روخاس، متصوِّراً خيبته، طالباً منه أن يكون حذراً. *أخيراً* - قلتُ له - *في كلِّ يومٍ أجد مجيئك إلى هنا أكثر صعوبة. تؤلمني روحي، لكنّني لا أظنّ ذلك ممكناً. أنا لا أستطيع التوقّف. وداعاً، يا عزيزي كْلِمِنْتِ. اكتم السرّ ولكي تبدِّل ملابسك اخرج من قادش. كلّي ثقة بك دائماً، علي باي العبّاسي.*

بعد سنواتٍ أعلمني سيمون دِ روخاس نفسه بجوابه الممزِّق للقلب، ولم يصلني في ذلك الوقت، لأنّ سالمون قطع عليه الطريقَ بحكمة. *هل من المعقول* - كتب الشاب سيئُ الحظ - *أنني لا أستطيع ولا حتى كعبدٍ أن أنضمّ إلى مهمّة أفريقيا دون تعريض حياتنا ونجاح المهمّة ذاتها للخطر؟ هل سأجدُ ملاذاً في الفلسفة كي أريح نفسي إذا كنتُ منبوذاً منها قبل أن أبدأها؟ أيّ رضا سأمنحه لمن كان في أوروبّة شاهداً على الحماس الذي تهيّأت به للقيام بها؟*

كما اعترف لي بأنّه ظنَّ نفسه قد جُنّ، فهو في حالات يأسه راح يجوب شواطئ كونيل باللباس العربي، بحثاً عن المريجيّات والأصداف والفوقس يلاحقه سكّان المنطقة - وكان يناديهم ذكوراً رسوليين - مصرّين على تعميده. وصل خبرُ خبله إلى غودوي. فأوفدَ رئيس إدارة مقاطعة قادش دون مانويل دِ تيران كي يقنعه بأن يخلع تلك الثياب التي

تورّطنا كثيراً، ويستعيدَ اسمه ويقبل بتكليفه بكتابة تاريخ مملكة غرناطة الطبيعي. هذا التفويض أفاد بإبعاده عن شواطئ أفريقيا المجاورة، وأجبره على البقاء في تخوم جبال نيفادا في الأشهر التالية.

كلُّ هذه البلايا الخاصّة بجاسوس أو عميل أجنبيٍّ، كانت تبعدني عن رغبتي بالامتزاج بأبناءِ البلد الأصليين، فأختبر عاداتهم وأدخل في تفكيرهم ومعتقداتهم، لم أُصادق غير فتى صغير كان يعيشُ في بيتٍ ملاصق لبيتي، ذا طبيعة عطوف وظريفة. أسرته التي سعدتِ لإيثاري دعتني إلى عيد المولد، الذي خُتِنَ فيه الطفلُ. انطلقنا صباحاً وابتعدنا عن طنجة قرابة أربعمئة ذراع إلى ضريح سيِّدي محمّد الساجي، سيّد المدينة. كان حامِد يرتعد تحت طبقاتٍ من القماش الأبيض ويشدّ على صدغيه شريطاً حريريّاً ويخبُّ إلى جانبه والده وأمامه النساء متدثّرات تماماً بالحائك، تفلتُ منهنّ صرخاتٌ حادّة كالسهام.

ولج الطفل في المكان المُقدّس فثبّته ذراعان قويّان. رفعوا أطراف عباءته وارتفعت الموسيقى صاخبة وانفجر الحشدُ صائحاً بينما أصابعهم تشير إلى سقف المصلّى كالهوّة. ما إن رفع حامد رأسه حتى أمسك الحلاّقُ بجلدة قلفته وقطعها بضربة مقصٍّ واحدة. تأملتُ بعينيّ المُغمَضتين دفق دمي القرمزي ذاته وذكرى ألم عارٍ وجافّ مزّق من جديدٍ أحشائي. لكنّني شعرت بنفسي لأوّلِ مرّة واحداً من الحشد الصاخبِ، يخنقُ صراخ الضحيّة. أنا أيضاً صرختُ وكانت تلك الصرخة الوحشيّةُ أوّل تعبيرٍ حقيقيٍّ لي يخرج من شفتي علي باي.

غزت الريحُ الشرقيّة المكان بعنادٍ. عدنا قبل أن تصلَ المدينةَ. مسرحُ طنجة الأبيض كان على حاله لم يتبدّل، لكنَّ شيئاً في داخلي تبدّلَ، وراح يعدِّلُ في حركاتي ويملأ عقلي بأفكار مجهولةٍ لا عهد لي بها. أحرزتُ طلاقةً جديدة عليَّ سمحت لي بتهيئة شخصيتي الجديدة بلمسات ريشة تبدو ظاهريّاً متباعدة ومهملة يسميها الإيطاليون sprezzatura، وكان وحي المولد بالنسبة إليّ كما الماء للسمك والسماء للطير.

شاركتُ أعيانَ المدينة عريَ الأجسادِ في الحمامّات الباهظة. استقبلوني في بيوتهم وتعلّمت أطراف أناملي مع كلّ لقمة كسكس ملمسَ

حسن الضيافة. فهمتُ ما كانوا يفهمون أنّه معرفة بالحديث مع العلماء في فناء المسجد وعيني على القرآنِ دائماً. اكتشفتُ أيضاً ما يعتبرونه قداسة ولا يمكن أن يُفصل أحياناً عن الجنون، وقدّرت بدقّة فكرة القاضي عن العدالة. لم تكن تختلف في شيءٍ عن الغضب.

وسرعان ما منحتني معدّاتي العلميّة وألفتي مع العلوم الغربيّة سمعةَ العالم في بلدٍ يجهل المطبعة، وينغلق أفقه الفكري بين دفّتي كتاب وحيدٍ غاية في الجمال، يحفظه الجميعُ عن ظهر قلب. منحتني معرفتي بعلم الفلك، الذي كان الكثيرون يخلطون بينه وبين التنجيم، شهرةَ المنجّم، ومنحني حلمي نبوئيّة وشعبيّة الرجل الورع. اكتسبت الأمان والثقة الكافيين لاتخاذ القرار بالشروع ببحوثي. لكن سرعان ما اكتشفتُ الصعوبات الهائلة التي تعترض جمْعَ مجموعات الحشرات، بسبب التعاليمِ التي تمنعُ لمسَ الحيوانات التافهة وحرقَ الحيوانات الحيّة. على كلِّ الأحوال بدا للفلاحين شيئاً غريباً جدّاً أن يروا شريفاً طويلَ اللحية، يجري خلف فراشات مزوّداً بمخروط من الشاش يتدلّى من عصى.

ولم يكن تحقيق الأرصاد الفلكيّة من أماكن مناسبة أقلّ صعوبة ، ذلك أن أسطحة البيوت هي مملكة النساء، ومن المستنكر أن يترصّد رجل ويحشر نفسه في هذا العالم الكتيم والمختوم.

ومع ذلك فقد تغلّبتُ على الكثير من التعقيدات عبر آلاف الحيل. استطعتُ أن أكنزَ تشكيلة كبيرةً من المعادن والمستحاثّات والنباتات، وأجمع بصبرٍ معلوماتٍ كافيةً تسمح للسيد لالاند أن يحسب طول طنجة في مخبره في باريس.

كنتُ في السوق برفقة الحاكم السابق للمدينة، السيّد أمكسّت، فلفتَ انتباهي وفرة العاج والأبنوس اللذين تعرضهما المحلاّت.

ـ باستطاعة أيٍّ كان أن يلاحظ أن قافلةً تُمبكتو قد وصلت توّاً ـ أكّدَ دون أن يولي ذلك أهمّية.

ـ كيف؟ هل هي الآن في طنجة؟

ـ طبعاً، حتى الآن لم تشرع بالعودة.

رافقني خارج الأسوار، إلى الغرب من المدينة، حيثُ يوجد بضع

عشر جملاً نائخاً ، تمطّ أعناقها فوق أكوام العلف. قدّم لنا رجلٌ يتزاحمُ الذباب على عينه الفارغة، ويرتدي من وسطه وإلى الأسفل سروالا أخضرَ هائلاً، خلاخلَ فضّيّة وبعض أطواق العنبر. لم أناقش السعر، كما هي العادة، لكنّني حصّلتُ الفارق بالاستماع إلى معلوماته الرائعة. وضّح لي، بصوتٍ قديم وبعيدٍ أنّ القوافل تعبر الصحراء عدّة مراتٍ في العام إلى تُمبكتو. وأضافَ أن نهرين كبيرين يتقاسمان اسم النيل، ويخترقان تلك المناطق من أفريقيا حتى يختفي البرّ في بحرٍ داخليٍّ هائل.

تظاهرتُ بعدم الاهتمام الكبير بكلماته، لكنّني حفظتها في قلبي. حيثُ يحفظ الإنسانُ دائماً اسم المكان الذي يقصده مثل تعويذة. كنتُ في كلِّ مرّة أكثر عزماً على عدم الإذعان لأوامر غودوي ومتابعة الطريق الذي خططته بنفسي. لم يكن من الصعب عليّ أن أجد المبرّر. أستطيع أن أقدِّم تلك الرحلة على أنّها هروب لا بدّ منه بعد اكتشاف أمري.

عدّة طلقات مدفعيّة أيقظتني من حلمي. كان السلطان مولاي سليمان في طريقه إلى المدينة. طلائع حرسه أخلوا بعنفٍ الفسحةَ التي كان يفكّر أن يعسكر فيها. علمتُ من أمكسّت أنّ السلطان انتقل إلى طنجة ليناقش موضوع تحرير القرصان المغربي لوباريس ورجاله الذين وقعوا في قبضة سفينة أمريكيّة شماليّة، راسية وسط الخليج بوقاحة تمنحها لها مدافعها الأربعون الضارية.

في البيت كان رسول القائد بانتظاري ليعلمني أنّ السلطان يرغب برؤيتي في اليوم التالي. كانت سمعتي كرجل متمرّس في العلوم الصعبة قد وصلت إلى سمعه أو ربّما وصفَ له القائدُ، الذي خرج لاستقباله مسافة عدّة فراسخ خارج المدينة، ببلاغةٍ كافية حجمَ وعددَ الطرود التي تشكّل هديّتي.

حضر صباحاً الصلاةَ في المسجد الكبير يحيط به أكثر من ألفي رجل. صرخ أحدُ فقهائه مطالباً بوقف التجارة مع النصارى بالحدّة ذاتها التي يلعن فيها راعٍ بلاهةَ إطعام الذئاب التي تأكلُ قطعانه.

اقتحمت في الثالثة مساءً ريحٌ عاصفة بيتي، ومعها حشدٌ من الخدم جاؤوا ليأخذوا الهدايا. حمّلوا الصناديق التي تحتوي على عشرين بندقيّة إنكليزيّة، وجفتين، خمسة عشر مسدّساً، وعدّة صيّاد،

شمسيّة، وكذلك المجوهرات والفواكه المسكّرة والعطور الملفوفة بالقماش الدمشقي القرمزيّ المكفكفِ بالفضّة.

كان مولاي سليمان بانتظاري في القصبة التي تتوّجُ المدينة، على ظهر بغلة. تفحَّص الهدايا من فوق مطيّته بفرح لكن دون جشع.

- قولوا له أهلاً به - طلب بصوت ثابت.

- أهلاً بك، يا سيّدي - ردَّد الجنودُ والخدمُ.

همز المطيّة وأشار إليّ باتباعه. درنا حول مركزٍ للمدفعيّة أحصيتُ فيه تسع قطع مدفعيّة في حالات متباينة. نزل عن مطيّته في طرف الحصن ودخل كوخاً من الخشب أمام البحر. أشار إليّ القائد بإيماءة حيويّة أن ألحق به. لم أنس خلع نعليَّ. استقبلني السلطان مضطجعاً فوق حصير بين الوسائد.

- إذن تشعرُ أيّها المسافر أنّك وُلِدْتَ كي تجوب دروب الأرض؟ قلْ لي ما البلاد التي تعرفها وما اللغات التي تتكلّمها؟

كنتُ أكثر ثرثرة من أيّ وقت مضى، لكنّني لاحظتُ شيئاً من القلق عند محاوري.

- أريدُكَ أن تكلّمني عن دروب السماء، يا علي باي - قال لي، دون أن يتركني أنهي كلامي - أكّدوا لي أنّك عارف جيّدٌ بها. هل عندك أدوات لتأمّلها؟

أجبته إنّها تحت تصرُّفه.

- إذن أحضرها غداً.

عند الخِروج من القصبة ذكّرني شبحٌ فرورٌ بأنّني بعتُ روحي للشيطان. كانَ قد مضى يومان أو ثلاثة على نزول أموروس في طنجة بحجّة التفاوض على القمح. وتواعد معي من خلال اليهودي، الذي كان يستخدمه سالمون للاتصال بي، تلكَ الليلةَ ذاتها في بيت أحد أثرياء التجار اليهود.

- عرفتُ أنّك لم تُضِع الوقت، أيّها الشيطان - هتف ما إن رآني. كان جذلاً - حتى أنّك استطعت أن تدخل إلى البلاط. أعترف أنّني لا أسمع منذ وصلت إلا الإطراء على العالِم والحكيم، الشريف علي باي. صيتُك

مذهل. أظنّ أن لحظة إتمام مخطّطنا قد حانت. أمير السلام متلهّف لمعرفة الخطوات التالية.

سبق وقلت إنّ رجل الخيال ينتقمُ من كلّ ما يُفرضُ عليه بقسوة. قدّمت له بعض التفاصيل عن حالة تحصينات المدينة وميّزات الأسطول والجيش، كما يُقدّمُ عظم لكلبٍ جائع. تحدّثتُ عن موقفِ العلماء من التجارة الخارجيّة، وردّدتُ كلّ الشكاوى التي سمعتُها عرضاً، وكانت تقدّم معاً حالة من الرأي الثوري والمذعور.

طلب ورقة للكتابة وسجّل ملاحظاته عن كلٍّ ذلك. كان من حينٍ لآخر يرفع نظره عن الورقة ويهزّ رأسه بالرضا.

كنتُ حذراً جدّاً من إعلامه بأنّني سأكمل تقريري خلال رحلة الكشف التي أنوي القيام بها إلى مدن المملكة الرئيسيّة. لكنّني تركت قصّة مقابلتي المذهلة للسلطان إلى النهاية.

ـ أظنّ أنّه سيكون خلال وقتٍ قصيرٍ تحت رحمتي ـ أكّدتُ بوقاحة.

رماني أموروس بنظرة بارقة.

عدتُ في اليوم التالي إلى القصبة ومعي مُعدّاتي. قدّم لي السلطانُ الشايَ بنفسه عربوناً لحسن الضيافة. أريته آلةً كهربائيّة وكاميرا سوداء. لكن ما أذهله أكثر من أيّ شيءٍ آخر كان المنظار بعيد المدى. أجبرني على المكوث بجانبه حتى ظهرت النجومُ الأولى وحملني على ذكر أسمائها.

بعدها أمر بإحضار مِقصٍّ وقصّ شاربي على قدّ شاربه.

ـ أعرف أنّهم يبقون عليها كاملةً في الشرق ـ دقّقَ ـ لكنّ العادة عندنا نحن المغاربة مختلفة.

ابتسم وهو يتأملُ عمله.

ـ هل تدري أنّنا شبيهان؟ ـ لاحظ بفرح ـ أنا سلطان البشر وأنت سلطان النجوم.

لاحظتُ في عينيه تحت سحابةٍ من الطيبة طاقةً عظيمة. لم يكن يشبه في شيءٍ الاستبدادي التافه والخمول الذي رسمه لي غودوي وأموروس. كان يرتدي ملابس متواضعة وتربيته، على الرغم من أنّها لا تتجاوز حدود السنّة الإسلاميّة، كاملة تماماً بالنسبة إلى الحقوق

والتاريخ والشعر، ولم يكن يُخفي حماسه لتوسيعها بمعارف جديدة.

ذلك هو السبب الذي جعله يعبّر عن رغبته بعدم الابتعاد عني، لأنَّ عليه أن يُغادر إلى مكناس.

طلبتُ منه منحي بعض الوقت لأرتِّب سفري.

ـ كم تحتاج؟

ـ عشرة أيّام.

ـ سأنتظرك في مكناس ـ أكّدَ وقدّم لي خبزاً أسمر الوجه شديد بياض الداخل، ختم به ترحابَه بمجيئي إلى مملكته، ودعا الله من أجل مستقبل صداقتنا ـ يسعدني أنّك فضّلتَ المغرب على الجزائر، أو تونس أو طرابلس، ساعةَ عودتكَ إلى المؤمنين الحقيقيّين.

في الخامس والعشرين من تشرين الأوّل تأمّلتُ لآخر مرّة أطيافَ جروف إسبانيا على الجانب الآخر من المضيق، وتبعتُ خطى السلطان الذي غادر طنجة قبل عدّة أيّام. خرج القائد والفقهاء لوداعي حتى باب المدينة، يتبعهم حشدٌ محزون من الناس. رأيتُ أموروس الذي تظاهر أنّه يتنزّه هناك دون اهتمام يتأمّل برضا كيف راح بعضُ من وصلتهم بمعروفي يركعون عند قدميّ.

ـ من هذا العربيّ؟ ـ سمعته يسألُ بصوتٍ عالٍ كي يسمعه الجميع. وحين سمع الجوابَ هزَّ كتفيه وغيّر الحديث كي يظهر لا مبالاته. لكنّني لمحتُ في عينيه أنّه لا يشكُّ بأنّه يتأمّلُ رجلاً ينطلق ليحتلّ إمبراطوريّة. لم يُخفَ عليَّ أنَّ عيني أموروس هما عينا غودوي في بلد المغرب الأقصى.

الفصل الخامس عشر

سلطان النجوم

كنّا كلّما ابتعدنا أكثرَ عن طنجة كلّما صارت أفكاري أكثر قتامةً. اجتاحني حزنٌ عميق. انتبهتُ إلى أنّني وحيدٌ تماماً في مقدّمة قافلة من ناس غرباء، محشورٌ في بلدٍ مجهولٍ، دون إيّة إمكانات أثق بها غير قوايَ الشخصيّة. ما الاختبارات التي سأخضع لها؟ ما الحالات غير المتوقّعة التي تترصّدني مثل حيوان ضارٍ ومتوحّش؟ هل سأستطيع التملص من لامعقوليّة الطغاة الدامية وعدم تسامح الناس البسيطين سريعي التصديق؟ ماذا سيحلّ بمشاريعي؟ هل سأحتلّ إمبراطوريّةً من أجل طاغية أم أنّني سأحرِّر قارّة من أجل العلم؟

كنّا نخبّ ببطءٍ إذ أتوقّفُ كثيراً لآخذَ عيّناتٍ من الغرانيت بلون اللحم. رافق نظري أسطولاً من أربعين سفينة انتهت توّاً من الانعطاف في رأس اسبارتل، وراح يتوغّل مثل أفعى عملاقة في المضيق.

وشيئاً فشيئاً راحت متعة السفر تهيمن عليّ. حين لا يوقفنا شيءٌ ، يهاجمنا حشدٌ من الأحاسيس تتطلّب منّا تركيزاً عميقاً لتمييز الجوهري من العرضيّ. لا شيء يشبه ما تصوّرته في الأشهر السابقة. فحضور الواقع يبعد الخيال كما لو كان شبحاً. كانت الأعشاب الطويلة والجافّة تتهشّم تحت أقدامنا محدثة صوتاً شبيها بخزق الحرير.

كانت قافلتي تتألّفُ من سبعة عشر رجلاً، وثلاثين حيواناً وموكب حراسة من أربعة جنود. بدت السهول المترامية المحاذية لجبال تطوان

تتوالى إلى ما لا نهاية، فالخريف قد أطفأ نار الصيف الذي لا لهب له؛ والريح تهبّ وتحرّك الرماد الذي صار إليه الغطاء النباتي. بياض متجانس وشاحب مسح لونَ أشجار الزيتون البرّي والخرّوب والمصطكّى والتوت البرّي شبه الجافّة. ولم تعد الألوان الخضراء والورديّة والبنفسجيّةُ والترابيّة للظهور، كالحمّى، إلا مع هبوط المساء، لكنّها انكمشت في يوم السفر الثاني في الأسقف القرمزيّة لمدينة القصر الكبير الوحيدة في المغرب التي تعتمر القرميد.

خيَّمنا قريباً منها، وحاصرت عاصفةٌ قويّةٌ خيامنا طوال الليل. عصرنا في اليوم التالي، وأعضاؤنا ترتعد، الأقمشةَ المبلّلة، وانطلقنا بخطى متردِّدة عبر درب من الصلصال الرطب، راحت تتزحلق فوقه بغالنا. وما إن اجتزنا نهر لوكوس حتى صار بلد جبالا جبليّاً. سرب من طيور أبي ملعقة غطّى السماء وتسرَّب من بين أجنحتها مطرٌ رذاذ. عبرنا عدداً من مضارب البدو بخيامهم المصنوعة من وبر الجمال، والمفتوحة على مصاريعها، كمسارّة تسمحُ بمراقبة بساطة الحياة والعادات، قام في واحدٍ منها عرسٌ. استقبلتنا النسوة بصياحهنّ الحادّ. قرّرنا أن نمضي الليلة غير بعيد عن هذا المكان. بعثَ لنا شيخُ المضرب خروفاً كاملاً، محشوّاً بالزبيب واللوز مشويّاً في مِشعَر.

تأخّرنا يومين في عبور أرضٍ ذات أصل بركانيّ للوصول إلى مكناس. مبعوث من السلطان كان ينتظرنا على بعد فرسخ من أسوارها الترابيّة المحاطة بالحدائق والبساتين. في داخلها المعزول عن القصبة المزدحمة بالسكان أشار إلى قصرٍ محكم الإغلاق.

ـ خلفَ هذه الأسوار العالية يُحفظ كنزُ السلطان ـ أكّد مُوقِفاً حصانه.

لاحظتُ حوله عدداً من التحصينات التي تؤوي بحسب ما قاله لي ألفي جندي زنجي لحراسته.

نزلنا وقادني إلى بيتٍ مجاورٍ، استقبلني فيه مسؤول الكنز. دار الحديثُ أثناء العشاء حول النظامِ الضريبي الخاص. استنتجتُ من كلامه بأنَّ الدخول الماليّة في معظمها من الضرائب المطبَّقة على التجارة الخارجيّة، وبالتالي فقد توصّلتُ، على الرغم من مقاومة الفقهاء وقسماً من السكّان، إلى نتيجة مفادها أنَّ المغرب هي في كلّ

مرّة أكثر تبعيّة للحركة التجاريّة مع الأمم الأخرى، وإلغاؤها سيحمل في داخله انهيار الدولة.

لم يستقبلني السلطان إلاّ في اليوم التالي.

- يعجبُك بلدي أم أنك لا توجّه عينيك إلاّ إلى النجوم؟

أجبرني على إخراج المنظار بعيد المدى من غمده وتأمّل السماء. ثمّ وجّهه إلى جدران قصر الكنزِ التي لا نوافذ فيها ودعاني للنظر.

- من يستطيع أن يخترق هذه الحجارة؟ - علّقَ - يحتاج إلى خمسة مفاتيح لخمسة أبواب من البرونز تحمي الكنز.

أخرجَ المفاتيح من بين طيّات الحائك وهزّها بجانب المنظار.

- أنت تملكُ يا علي باي مفاتيح السماء - أضاف وهو يقهقه - لكنّني أملك مفاتيحَ ما يحرِّكُ الأرضَ.

وبما أنّه أعطاني موعداً في فاس رفعنا الخيام في اليوم الرابع. في منتصف الطريق، سبقنا جنديّان من الحرس كيلا يغلقوا أبوابَ المدينةِ قبل وصولي.

حين وصلنا كان الليل قد خيّمَ. توغّلنا في الشوارع الضيّقة جدّاً، المحفّرة والمظلمة تماماً، لكنّني ميّزت بيت حمّاماتٍ مفتوحاً. لم أكن أزدري غبار الطريق الذي يميّزُ المُسافِرَ، لكنّني أرغب أن أمثلَ بمظهرٍ لائقٍ أمام مولاي إدريسٍ، الذي سأنزل في بيته. في كلٍّ واحدةٍ من القاعات المقبّبة التي تُشكّلُ الحمّام قدّرتُ بعض قِرب الماءِ الساخن، المصفوفة بعناية في الزوايا، حيث لا أحد يستخدمها.

- أسرع، يا سيدي - نصحني مستخدَم - فخلال وقتٍ قصير ستأتي الجنّيات لتستحمّ في أجرانه كما تفعل في كلّ ليلة.

لم أتقاسم أنا وعلي باي مشاقّ السفر وحسب، فقد بدأتُ منذ بعض الوقت ألاحظُ في علي باي ردود فعلٍ تنطبقُ إلى حدٍّ كبير على مزاجي، وتسمح لي بأن أشعر بنفسي في داخله بالخفّة والراحة كما تحت الملابس الإسلاميّة الفضفاضة. يوماً بعد يوم كان يكسب الجرأة وأفكاره تتواصل كأفكاري مع أنوار القرن. كلانا كانت تزعجه الجنّيات وممثّلوها على الأرض، وقرّرنا أن نتركها دون استحمام باستخدام كامل ماء الخزّانات لصالح الجسد المنهك الذي نتقاسمه.

سبقني خبر الواقعة إلى بيت مولاي إدريس، الذي على الرغم من أنّه طاعن في السنّ ولا يكاد يستطيع الحركة، كان يتمتّع بمزاجٍ رائق تماماً.

ـ ما كنتُ أريدُ أن أموت ـ قال لي بصوتٍ لطيف ـ قبل أن أتأمّل على الأقل مرّة واحدةً في حياتي صورة شيطانٍ حقيقيّ. لا يختلف كثيراً عن الإنسان العادي. على كلّ الأحوال أهلاً بك في بيتي، آمل أن تتصرّف فيه كمسلمٍ صالح.

رافقني ابنه الحاج إدريس الرامي إلى حجراتي، المفروشة كبقيّة القصر، بأبّهة غير معهودة. كان الأدارسة أسرةً من أقوى وأنبل أسر فاس. يتحدّرون من مولاي إدريس، مؤسّس المدينة. وقد خُصَّ بأكثر مساجدها تقديراً من السكان. على الرغم من أنّ سلالته قد فقدت الرفعة لصالح سلالات أخرى منذ قرون، إلا أنّها حافظت على تأثيرها الديني وأهليّة إدارة صدقات الضريح الكبيرة، المخزّنة في صناديق إلى جانب قبر المؤسّس المقدّس. كانت مكانتهم تسمح لهم بالعيش بكرامة وأبّهة. وهذه ليست قاعدة في بلدٍ يُجبر فيه الاستبدادُ وانعدام الأمن السكّانَ على إخفاء أموالهم، والتنازل عن مظاهر الغنى للتغطية على ثرواتهم.

قدّرتُ عند الحاج إدريسِ الرامي الابنِ صفات السخرية ذاتها التي عند الأب الشيخ وحزناً عميقاً.

ـ نحن الأدارسة نكسب كلّ شيء ونخسر كلّ شيء ـ اعترف لي ذات يوم.

وبالفعل كان يسمح لنفسه بأن يُقاد بنفور غريب يمنحه استقلاليّة روحيّة نادرة. وبفضله استطعت أن أنتبه إلى أنّ الرأي العام في جميع البلدان ينقسم إلى ثلاثة أقسام. الأوّل هو رأي الضعفاء والطموحين الذين تستخدمهم السلطة للوصولِ إلى غاياتها. الثاني هو رأي المستائين الذين يجدون في العجز تبريراً لنكدهم. وكلا الصنفين من أنصار العيش تحت وطأة الطغيان. مجموعة صغيرةٌ فقط تفهم أنّ المجتمع تحرّكه مصالح متناقضة يجب أن يؤلّف بينها، وأن السلطة تتغذّى على ضعفنا وفرقتنا. إلى هذه المجموعة الثالثة التي لها أفكارها الخاصّة كان ينتمي مولاي إدريس الرامي، الذي يخفي خلف صفته القدسيّة فيلسوفاً حقيقيّاً.

أصبح محدّثي الثمين ومع الزمن صار أفضل صديق. بمساعدته بدأتُ أفهمُ شيئاً عن ذلك البلد المتناقض وصعب الفهم، تضغط فيه التعاليم الدينيّة على حياة البشر مثل رُتيلاء، لكن الحياة تستمرّ تعارك بين أرجلها باضطرام وكثافة البركان المضغوط بالحجارة. جبتُ إلى جانبه المدينة المزدحمة، التي بدا لي أنّه لا يوجدُ فيها متّسع إلا لحياة مجهولة وجماعيّة، ومع ذلك فأكثر شوارعها لا يسمح بمرور أكثر من شخص واحد وحيدٍ ومنكمش. ضحكنا معاً حين سمعنا أنّ اللقالق هي بشر جزرٍ بعيدةٍ تعود في كلِّ عام لتتخذ الشكل الإنساني، بل تأثّرنا أكثر حين علمنا أن ورعين عظماء لأ يفوتهم تخصيص هبة للعنايةٍ باللقالق المريضة في المشافي وموار اتها التراب حين تموت. كنّا نملُّ نقاشات العلماء اللامنتهية والذين يخلطون بين الحكمة وسعة المعرفة، لكنّنا فهمنا مع الناس العاديين أن جميع الأشياء ليست قابلة للتفسير، وأنَّ الاستيقاظ في كلّ صباح دخول في حلم جديد.

رتّب لي والده محترفاً في غرفة واسعة من مسجد مولاي إدريس، كي أستطيع القراءة والكتابة براحة واستقبال الفقهاء. كان يحتفظ فيها بمجموعة رائعة من الساعات. بعد أيامٍ قليلة تلقينا خبر وصول السلطان الأكيد، مرفقاً بفرمان ينصحنيٍ فيه بالعناية بتلك الآلات. احتججتُ بغضبٍ على هذا الطلب الذي يحاول فيه فرض فروض على رجلٍ حرّ . استقبلني مولاي أبو سليم، أخو السلطان الأعمى، الذي كان يشعر نحوي بتقدير كبير، في قصره وقدّم لي كلّ أنواع الاعتذار. وعبّر ثلاثَ مرّات علناً عن انزعاجه وقناعته بأنّ ذلك الأمر لم يصدر عن السلطان، بل عن بعض الأعيان الذين يحيطون به بهدف إذلالي وتحجيم ثقتي أمام الملك.

حين عبر مولاي سليمان أسوار فاس يتقدّمه عشرون فارساً وتتبعه حامية من ألف جنديّ، كنتُ أنتظر لقائي به بلهفة. لكنّني في كلٍّ مرّة ذهبت فيها إلى القصر أو إلى الجامع كان مُنجّمه، وهو عنصر مُمل يُدعى جنان، لا ينفصلُ عنّي ويشغلني بأحاديث طويلة، مبقياً عليَّ بعيداً عن السلطان. كان يسألني بوقاحةٍ عن ماضيَّ ويجبرني أن أكرّرَ مرّةً وأخرى الأجوبةَ. كما كان يُخضعني لمسائل فلكيّة معقّدة؛ وطلب منّي بعد أن سمعني أتحدّثُ عن كسوفين وشيكين أن أحدّد له التاريخ.

في اليوم التالي تلقّيت رسالة من مولاي أبو سليم يعطيني فيها موعداً في بستان راحته.

- عماي لم يمنعني من رؤية أنك ارتكبتَ خطأً فادحاً - قال لي.

- ما هو؟ - سألتُ، مفعماً بالقلق.

- لماذا كشفت عن تاريخ الكسوفين لرجلٍ متآمرٍ مثل جنان؟ لم يكد يسمعه منك حتى أبلغه للسلطان، بعد حذف أنّك أنت من قام بالحسابات.

- شيطان مسكين - ابتسمتُ - يحزنني ليس أكثر.

- لا تكن بهذه الرحمة مع رجل طموح - نصحني - يمكن أن يُكلِّفك غالياً جدّاً.

- لا هو ولا أحد غيره يعرف التاريخ الدقيق الذي سيحدثُ فيه الكسوفان، فالتنبؤات التي أعيطتُها له زائفة.

لم يكشف مولاي أبو سليم عن حديثنا للسلطان، لكنّه نصحه باستدعائي وسؤالي عن التاريخ الذي سيحدث فيه الكسوفان. سلّمته بحضور المنجِّم تقويماً كاملاً تماماً عن تكهّناتي.

- يا علي باي، تكهّنك لا يتوافق مع تكهّن سيدي جنان، لا في اليوم، ولا في النتائج فمنجّمي يؤكّدُ أنّه سترافقهما مصائب عظيمة.

- الزمن هو من سيعطي الحقّ لهذا أو ذاك - أجبتُ منهك الملامح.

حين جاء اليوم الذي حدَّده سيدي جنان حدّق أعيان البلاط جميعهم في السماء.

- ما من لحظة مرّت لم تحرق فيها الشمسُ أجفاني - ختم السلطان في نهاية المساء -. أمّا فيما يتعلّق بالمصائب التي تكهّن بها سيدي جنان فربّما لم يكن خاطئاً جدّاً، لكن إذا أصاب علي باي جرّدت جناناً من منصبه كمنجِّم.

بعد أسبوع أخفت الغيوم خسوفَ القمر الذي تنبّأتُ به. كان ليلاً متوتِّراً. لم يستطع سيدي جنان أن يخفي فرحه. لكن في الساعة الثانية عشرة صباحاً انقشعت الغيوم وعتمت الشمس كلّياً. تسبّبت الظاهرةُ بتفريغ شحنة كهربائيّة فوق المدينة. كان الناس يجرون مخبولين في الشوارع، يصعدون إلى الأسطحة ويهبطون منها، يقفزون من بيتٍ إلى آخر.

ـ هنِّئوا سلطان النجوم ـ صرخَ مولاي سليمان والتفت نحوي مُعانِقاً ـ ماذا أستطيع أن أقدِّمَ لك كي نُخلِّدَ هذا اليوم؟ ـ فكَّر بصوتٍ عالٍ.

فجأة اشتعلت جمرةٌ في عينيه.

ـ هاه، عرفتُ. شيءٌ يذكِّرك كيف انصهر نور الشمس مع نور القمر في ظلمة شفّافة.

تلقّيتُ في تلك الليلة في بيت مولاي إدريس، حيث أنزل، جاريةً زنجية. غسَلتها نساء الحاج، طهّرنها وعطّرنها لأيّام عدّة دون أن يسمحن لي بالعودة لرؤيتها.

لم أكن أستطيع التركيز في عملي. لا أكتب تقريباً ورفقة الآخرين تبدو لي غير محتملة. كنتُ أُضيِّعُ الساعاتِ، تائهاً في سوق الحرير، ألمح النساء شزراً ، ملفوفات بحوائكهنّ الداكنة، التي يعرفن مع ذلك كيف يفتحنها من حينٍ لآخر بلطف.

قضيتُ الخريف والشتاء في فاس. كان الطقس لطيفاً والربيع بدأ تباشيره بشكلٍ خفيف. كنتُ قد بدأتُ أحبُّ ذلك البلد وأشعر بعاطفتي تتلهّف للتلاشي في حميميّة الجسد.

لكنّ مشاغل أخرى انهالت فوق تلك الأحلام العذبة مثل كلابٍ مسعورة. كان أموروس يعدُّ لعودته إلى إسبانيا بعد أن فشل في مسألةِ القمح.

ـ لن أعود خالي الوفاض ـ أعلن لي ما إن جلستُ القرفصاء بجانبه على الحصير ـ لقد حوّلك موضوع الكسوف يا باديّا إلى الرجل الأقوى والأكثر تأثيراً في المغرب كلّه بعد السلطان. الناس يؤمنون بقدرتك على التنبؤ بالمستقبل. رأيتهم يقتربون منك كي تخبرهم بسعدهم.

وبما أنّني لم أقل شيئاً نهض مغتاظاً.

ـ حانت الساعة كي تهتمَّ بأشياء تفيد الناس أكثر من مسائل النجوم، الحيوانات والنباتات ـ طالبَني.

ـ ماذا أستطيع أن أفعل أكثر، أيّها الكولونيل؟ ـ احتججتُ.

ـ أريدُ تاريخاً محدَّداً لبدء التمرّد، تاريخاً دقيقاً كتاريخ الكسوف.

- ما زال الوقت مبكراً - ألححتُ - برأيي أنَّ مولاي سليمان قد عزّز سلطة حكومته في كلٍّ البلد. لا توجد إغراءات مهمّة. حتى أنّه استعاد وجدة مجدَّداً مستغلاً ضعف الأتراك في وهران.

- كل ذلك تستطيع أن تُخرِّبه في ستة أشهر - قاطعني بحزم.

- ستّة أشهر لاحتلال إمبراطوريّة؟

نفى برأسه.

- ستّة أشهر لإنضاج التمرُّد، يا باديّا. ستتبعك القبائل الأكثر استقلالاً ومحاربة.

- لقد وحّد السلطانُ البلدَ وله أنصار كثيرون - أجبتُ - لا أشكُّ بوجود بعض حالات الاستياء الملموحة، لكنّ هذا سيثير حرباً أهليّة غير أكيدة النتائج.

- في هذه اللحظة سيتدخّل جيشنا. ألا تفهم؟ المسألة هي في إمالة كفّة الميزان إلى هذا الجانب أو ذاك، مقابل احتلال ولايات الشمال.

كان قد توقَّف وسط الغرفة وعيناه تبحثان بلهفةٍ عن شيء لاتجدانه.

- اللعنة على بلد لا يمكن للمرء أن يجد فيه كرسيّاً - ترك نفسه يسقط بجانبي وتابع - سنرسل إليك رماة مدفعيّة، وبثّاثي ألغام ومهندسين ، بعض الجرّاحين وإمداداً من المدفعيّة والبنادق والطبنجات كي تُسلّح أنصارك. وفي الوقت ذاته سيجمع ماركيز دِ لا سولانا في سبتة من تسعة إلى عشرة آلاف رجل مستعديّن للتوغّل في الأراضي المغربيّة. أسطول وجيش بقيادة كاستانيوس، سيكونان على أهبة الاستعداد على الجانب الآخر من المضيق كي يقفزوا حين تأمر بذلك. هل أنت موافق، يا باديّا؟ هل تسمعني؟

- بالطبع، يا كولونيل - قلتُ، دون أن أدري على أيٍّ من السؤالين أجيبُ. كانت أصابع الفجر المُذهَّبة تلامس النافذةَ وأنا أزداد تعباً وانزعاجاً في وضعي كمتآمر.

الفصل السادس عشر

الكاميرا المظلمة

انتبهتُ في اليوم الذي غادرتُ فيه فاس أنّني لا أعمل بالطاعة بل بالإذعان. كما لو أنّ الشعور بالقدريّة التي تستحوذُ على ذلك البلد استحوذت على معنويّاتي أيضاً. كنتُ أشعر بأنّني مُقيّدٌ إلى طموحٍ ليس طموحي. فالحيرةُ والاضطراب شوّشتا تفكيري حين امتطيتُ صهوة الجواد أمام مسجد مولاي إدريس، وعبرتُ يتبعني خدمي وحرّاسي ببطء الحشد الذي كان يهتفُ لي.

رافقني الحاج إدريس الرامي على رأس مجموعة من الوجهاء فرسخاً خارج أسوار المدينة. وفي الوقت الذي عانقني فيه لآخر مرّة همس في أذني:

- تذهبُ، يا علي باي، بعد أن سلّمتنا كنزاً نفيساً. لقد برهنت لنا أنّ المغرب يستطيع أن يخلع عنه جلاّبية العبوديّة البائسة، التي حكم عليه بها الاستبدادُ منذُ القدم، كي يرتدي عباءةَ الحريّة الجميلة.

انفصلتُ عنه والدمع في عينيَّ. فعلاً كنتُ أبكي لانفصالي عن أفضل صديق، لكنّني بكيتُ أيضاً ربّما دون عزاء لأنّني كنتُ أعرف أنّني لا أستطيعُ أن أساعدَ على إنبات تلك البذرة المزروعة في أحاديث ليلية لا متناهية، يُحمّيها تناوباً السخط من وضع البلد، والحماس للكثير ممّا يمكن عمله للخروج منه. وما من مرّة فكّرتُ فيها بتلك المؤامرة التي

كان عليّ أن أرتكبها إلا وشعرتُ بنفسي كمن يداوي جرحاً وفجأة يأخذ سكيناً ليعمّقه أكثر.

رافقتني نظرةُ صديقي المستسلمة مسافةً جيّدة. تضاءل حجمُ صورته المكروبة تدريجيّاً إلى أن تلاشت. درنا حول بعض البحيرات المالحة، التي أقلع وحلّق فوقها سربٌ رهيبٌ من البطّ، فزع من حضورنا. كانت الحيوانات تبتعدُ والبشر يختبئون أمام خطونا. كنّا نشعر بهم فرورين، خفيّين في تلك المنطقة الموحشة مثل كوكبٍ مهجور، يحكمُ حضورهم غير الملموس على المسافر بوحشةٍ أعمق. لكن عند الظهيرة راح سكّانُ أحد المضارب يهبطون من أحد التلال. جثوا وسط الطريق وتوسّلوني الدعاء. قدّمته إليهم، مستبدلاً الحماسة بالرقّة الهائلة.

خلال اليومين الأوّلين سرنا على دروبٍ ممحوّة في أرضٍ جافّةٍ وصلصاليّة. لم يكن الفصلُ قد تقدّم ولا تُلمَح أيّةُ زهرة. لكنّنا توغّلنا في اليوم الثالث في فجٍّ ضيقٍ انفتح علينا في نهايته سهلٌ فسيحٌ لامسته عصا الربيع السحريّة. كانت ألوان الربيع تتفجّرُ متجاوزة ارتفاعَ أعشاب المروج، تثير فيها نسمةٌ ناعمةٌ تنبّهاً سعيداً مشحوناً بالحياة. كان مشهدُ تلك الجنّة الطبيعيّة بغناها وجمالها يضاهي أبهى حدائق أوروبّة. ومع ذلك لم يمنع السخاء الذي تقدّمه الطبيعة عفويّاً السكانَ القليلين الذين عبرنا بهم من أن يلبسوا الأسمال، فقد ساءت تغذيتهم، وهم ينامون على الأرض العارية مجرّدين من أيّة ثقافة حول الزراعة، تربية الحيوان أو التجارة. تذكّرتُ كلمات الحاج إدريس الرامي.

- رعب وخوف من الحكومة الاستبداديّة التي تسمحُ أن يكون رعاياها بمثل هذا البؤس بينما الأرض تغمرهم بعطاياها.

جمعتُ بعضِ العنبيّات والثمار المجهولة منشغلاً بذلك عن انتباه ناسي، ومتظاهراً دائماً باللامبالاة، كي لا أصيبهم بالذعر. كان يكفي أن أقدِّر طعمها كي أنتبه كم كانت حلوة ولذيذة بعض الكائنات التي لاتتغاضى عن الاستفادة من الموارد التي تفيضُ وفرة في متناول أيديها.

لكنّ الطقس تبدّل وصار غير محتملٍ، كما لو أنّ الطبيعةَ أرادت أن تُجبرني على التفكير بعمقٍ أكبر. لم تتوقّف لحظةً واحدةً عن المطر

خلال الأيّام الأربعة التي تبقّت لنا للوصول إلى الرباط. منعتني ضراوة الطقس من الاستفادة من البوصلة، والسماءُ التي غزتها غيوم سوداء وكثيفة لم يكن باستطاعتها أن تُقدِّمَ إليَّ أيّة علامة تضمن لنا خطواتنا. عبرنا أراضي زمّور الخصيبةَ غير المُستغلَّةِ، وغابات مأمورة غير المسكونة، حيث الكائن الوحيدُ الحي الذي عبرنا به فراشة مرجانيّة، رقيقة كورقة زعفران، سمحت لي بركونها إلى غصن بطم بالتقاطها بوداعة.

لحسن الحظِّ أنّنا لم نضل الطريق. توقّفنا بجانب نهر بورقراق الذي طفح بفعل الأمطار التي لم تنقطع عن الهطول في الأيام الأخيرة، وذلك بعد أن خلّفنا وراءنا مدينة سلا، التي انهارت مع انهيار القرصنة التي ولّدت ازدهارها. كان النور ضئيلاً. تأخرنا أكثر من ساعة ونصف في التحايل على مياهٍ عنيفة بلون التراب بواسطة زورقين بمجدافين تزاحمنا فيهما رجالاً وبهائم وأمتعة مثل غابة رطبة.

قرَّرتُ أن نبقى خمسة أيّام على الأقل في الرباط، كي نتعافى من الضرر الذي ألحقته بنا العواصف والطرق شديدة السوء. التعبُ أحياناً سهمٌ يتأخّر في الانفصال عن اللحم. شعرتُ بالفضول لأنَّ قسماً كبيراً من السكّان يتحدّرُ من المسلمين الأندلسيين، ويحتفظون في ذاكرتهم بالهول الذي تحوّلت فيه أرضهم القديمةُ في ساعات قليلةٍ من جنّةٍ إلى جحيم.

لكن ليس كلُّ شيءٍ حنيناً، بين أولئك الناس. تردَّدت على مجموعة من الرجال المتنوِّرين المصريّين على منع غروب علوم تلك المملكة النهائي.

كان أبرزهم أيضاً أكثرهم تأثيراً. سيدي معطي مورينو الطيّب، الذي جمع ثروة جيّدة من خلالِ التجارة. سمحت له هوايته وذكاؤه الطبيعيّ بأن يكون منجِّماً بارزاً، كما هو تاجر بارز على الرغم من محدوديّة أدواته ومعارفه. ساعدت ميولنا المشتركة لدراسة السموات على قيام صداقة فوريّة بيننا. لكن سرعان ما انحدرت نظرته إلى وجه الأرض.

كثيراً ما كنّا نتنزّه إلى الشرق من المدينة بين آثار سلا، مدينة سيّلا الرومانيّة القديمة التي تحوّلت إلى مقبرة، تضمّ قبور المحترم أبي

يوسف يعقوب وشيوخٍ آخرين أقلّ شهرة. بين قبورهم المتهدّمة تجري خيوط من ماءٍ نقيّ، وتتأجّج أنى اتجهت شجيرات وردٍ برّي مندفعة إلى جانب شجرات برتقالٍ ملتهبة وليمونٍ في جوٍّ مفعمٍ بنباتات عطريّةٍ أخرى، تحوِّلُ عمليّةَ التنفس إلى احتفالٍ. انتبهتُ إلى أنّ الزوّار الوحيدين للمكان نساء.

- يلتمسْن شفاعة أرواح الموتى لتخفّف من بلايا حياتهن. إنّه الألم، يا صديقي، يستولي على الروح، يجرِّدُها من كلِّ بصيرة ويجعلها نهب أوهام الخرافة العقيمة - علّق سيدي معطي مورينو، خلال كلِّ تلك المشاوير- لكن لا بدّ أنّك لاحظت، يا علي باي، أنّ النباتات توشكُ أن تقبر المقبرة. هذا هو المصير الذي أريده لأمّتي. أن ترتفع الحياةُ فوق الخرائب والموت.

باغتني حين أعلن أنّه مقتنع بضرورة إصلاح مؤسّسات البلد. من شفتي سيدي معطي مورينو، وفي جوّ الرباط المحنّط والحيوي في آنٍ معاً، شعرتُ من جديدٍ بهبّةِ الكلمات التي سمعتها من الحاج إدريس الرامي في فاس.

لاحقتني رغبة الاثنين كالحريق خلال أيّام رحلتي الاثني عشر إلى مراكش، وأحرقتني من داخلي. كنتُ قد أرسلتُ إلى ذلك البلد كعميلٍ أجنبي، غريب عن مشاكله وعاجز عن المشاركة في تطلّعاته. ومع ذلك اكتشفتُ، وسط تناقضاته العنيفة في ذلك الركن من الأرض البعيدة كأفق لا متناهٍ ومبهر، واقعاً جوهريّاً، مشتركاً بين كل البشر دون تمييزٍ بالعرق أو الدين. ربّما كان طعم الشقاء أو غليان الحياة الموجود دائماً على بعد خطوةٍ من الموت.

لكنّ طموحَ غودوي وأموروس فتح لي باباً علي أن أذعن لاجتيازه بقسوة. إن الثورات التي غيّرت تاريخ بلدٍ إنّما هي نتاج الإرادة الاستثنائيّة للرجل الذي ترأسها، وتمكّن من جمع الظروف المناسبة لروح العصر. لم أكن أفتقر إلى الشجاعة، لكنّني افتقرتُ فعلاً إلى القناعة. كان خليط المصادفة والعناد هو الملاط الذي يبقي على تلك المؤامرة. كنتُ أحسُّ بشكوكيَ حيّة مثل الحنّاء التي رأيتها تنمو في الطريقِ إلى مراكش، على ضفاف أمّ الربيع، ولا تلبث بعد أن تنضجَ وتجفَّ أن تصبغ شعر وأجفانَ وأيدي النساء المغربيّات.

تسلّقت إلى أن وصلت رابيةً. من قمّتها لمحتُ سلسلة جبال الأطلس لأوّلِ مرّةٍ. كان أمامي يومان للوصول إلى المدينة الإمبراطورية. فكّرتُ في أنّ القدر الذي فرضه عليّ غودوي ينتصبُ في طريقي بقوّة تلك الجبال. ربّما انطلقت ترتيباته نحو الأندلس. وربّما بدأ ماركيز دِ لا سولانا استعداداته للغزو، وراح كاستانيوس في جزيرة ليون يجمع القوات والعتادَ كالماشية، التي ستتسرّبُ بحذرٍ، قطرةً فقطرة خلف أسوار سبتة. في ستة أشهر فقط آلاف الرجال، الجاهلين لمصيرهم سينتظرون منّي إشارة الانطلاق وأنا لا أستطيع أن أرفض ذلك الأمر، فعائلتي رهينة في يدي غودوي، ويكفي كلمة واحدة منه ليكشف عني القناع كمحتال.

لم أبغ الاستمرار دقيقة واحدة أكثر في ذلك المكان. نزلت من تلك القمّة وقفزتُ فوق ظهر جوادي. هربتُ من نفسي. بعض النساك خرجوا من كهوفهم وتمنّوا لي حظّاً سعيداً. كانت الجبال التي أريد الوصول إليها أبعدَ ممّا تبدو. إنّها مفاتيح القارّة المجهولة التي كنت أود الضياع فيها. خبّ رجالي خلفي وتمكّنوا من إيقافي. أذعنتُ لتوسّلاتهم وعدتُ القهقرى وشرعت في طريق العودة إلى مراكش.

لمحتُ في المساء سهلاً متكلّساً بدا مغطّى بالثلج. لكن ما إن اقتربتُ حتى اكتشفت أنّ الأمر يتعلّق بقطعٍ من اليشب الأبيض. ومع ذلك بقي ذلك السراب مطبوعاً في ذاكرتي وهوستُ به. أقمت المخيّم هناك بالذات. كم أبدو غريباً في بلدٍ، لم أتمنَّ له غير الحريّة وأوشكُ أن أغرقه في الشقاء. كنتُ غريباً غرابة ندف الثلج على رمال الصحراء الملتهبة.

في صباح اليوم التالي لمحتُ أسوار مراكش الحمراء العالية، المتهدّمة حول المدينة الشبحيّة. في أزمنة أخرى كانت عاصمة المملكة يتزاحم داخلَ أسوارها أكثر من سبعمئة ألف نسمة، لكنّها لا تكادُ تتجاوز الثلاثين ألفاً بعد أن أنهكتها الحرب والطاعون. وحدها الأسوار تقاوم وتشهدُ على ماضٍ عريق، تسوّر محيطاً من ثلاثة فراسخ، تتوالى في داخله الخرائب، والخلاءات التي انتهت إلى الاستسلام لنزوة النباتات البرّيّة.

كان السور مثل خاتم رجل حول إصبع طفل. عندما عبرتها

انتبهت إلى أنّه لا يوجد فيها حتى شوارع، فالشوارع التي تتجمّع حولها البيوت تنكسر مع كلّ خطوةٍ بتجويفاتٍ أو مساحات فارغة، ولا تسمح أحياناً حتى بعبور واحدٍ منّا على جواده، بينما تعرضُ أحياناً لتتسع لموكبي كلّه في صفٍّ واحد. فما لم يعد موجوداً، ما اختفى كان حاضراً في المدينة مثله مثل الموجود فيها. رحتُ مع توغّلي في هيكل تلك المدينة، في جثّتها المثلومة التي يلعقها دفق من نور، أتعرّف أكثر على نتائج أعمالي المستقبليّة.

ما إن وصلتُ حتى عرفتُ أنّ السلطان ينتظرني بقلق. لم يكد يمنحني الوقت لأرتاح. طلبني إلى قصره. عبرتُ فناءات فسيحة وغرفة مخصّصة للحراسة، ثمّ فسحة خامسة فيها محرس خشبيّ يضمّ الضبّاط والأعيان، الذين ينتظرون أوامره بتراخٍ. اضطررتُ أيضاً لعبور دهليز آخر يختلطُ فيه الوصفاءُ والحرّاس الجُدد، للوصول إلى الحديقة التي يستقبل فيها العاهل زوّاره.

ابتهج لرؤيتي، أخذني من يدي وقادني بنفسه إلى داخل القصر. كان القصرُ يشكّلُ مدينةً أخرى مزدهرة داخل مدينة أخرى شبحيّة، ويضمُّ حدائق وبساتين ومنازل البلاط والخدم الفسيحة. ثكنات الحرّاس الزنوج الرحبة. مسجدين وعدداً لا يحصى من الأفنية والساحات وبهاء الغروب الذهبي المحبوس مثل عصفورٍ في متاهة من الأسوار.

صعدنا عبر درجٍ ضيقٍ ومظلم إلى حصون القلعة، التي يُسيطَرُ منها على مراكش. من هناك أظهر ازدراءه للمدينة وأشار إلى مكان مسوَّرٍ خارج الأسوار، تُحيطُ به أشجار النخيل والسرو، تطعن داخله سواقي الماء التي تطفح بلمعان مياه الأطلس اللجينيّة. كانوا قد انتهوا من حصاد الشعير، ومع الاقتراب من حزيران بدأت بواكير التين، القرع والفلفل الأخضر والبندورة.

- هذه المزرعة التي تراها تسمّى سميلاليا - قال السلطان - إنّها لك. فقد ملّكتك البيت والأرضَ وجميع النباتات والحيوانات التي تضمّها.

وسلّمني سنداً يثبتُ ذلك، وأضاف أنّه يبغي من هذه الهديّة أن أستقرَّ في مملكته كيلا أنفصل عنه أبداً.

- أنت ستكون دليلي، يا علي باي، حين أُقرِّر، بعد أن أتعب من

دروب الأرض، أن أجوب دروب السماء. أنت ستهديني بين النجوم وستحميني من ظلمات الكسوفات والخسوفات.

انغلقتُ على نفسي في سميلاليا، وقد تملّكني الحزن. لم أكن أريدُ رؤيةَ أحدٍ. كان الحزن يسمِّمني ومع ذلك كانت تلك أياماً مثمرة. أتممت أرصادي الفلكيّةَ تماماً كما أمرني السلطان. وضعتُ ألواحاً دقيقة جدّاً تأخذ بالحسبان وضع وحركة بعض الكواكب التي تبدو كأنّها تراقب عملي بعيونٍ بلوريّةٍ غير مبالية. لكنّ مولاي سليمان كان يلاحظ حزني المرير حين كنّا نلتقي أنا وهو على انفرادٍ في القصر.

جاء يوماً لزيارتي دون إعلام مسبقٍ ووجدني منكمشاً، أتأمّلُ إزهار النخيل والدرّاق والزيتون ونضوج العنب البطيء والقمح الذهبّي.

ـ ماذا أستطيع أن أفعل أكثر كي أتمكن من انتزاع بسمة سعادة من شفتيك؟ ـ بقي للحظاتٍ صامتاً، غارقاً في تفكيره ثمّ تابع ـ: الوحدةُ قبر للإنسان. غداً سأرسلُ إليك امرأةً.

هكذا وصلت مُهنّا إلى تلك الجنّة. أبعدتُ عنّي العبدةَ الزنجيّة التي شعرت بأنّني أويت إلى جسدها كما لو إلى أرضٍ غريبة. شكرتها لأنّها شكّلت ملاذاً ليَّ. انفصلتُ عنها مثل المسافر الذي يتابع طريقه ووجدتُ مع مهنّا نفسي في العراء من جديد.

منذُ ضممتُها لأوّل مرّة بين ذراعيَّ شعرتُ بأنّني أضمّ من خلالها العالم كلّه، في الوقت ذاته الذي تحاولُ فيه ذراعاي الإمساك بذلك الجوهر الحميم الذي ينتمي إلى كلّ واحدٍ منّا على حدة. كانت مُداعباتها الوحشيّة والمتمرِّسة تكتشفني من داخلي. انتبهت إلى أنّها تعرفُ من خلال الطعم والرائحة كلَّ شيءٍ عنّي. كلَّ شيء. لكنّني لم أكن أخشى شيئاً، فحرارةُ جسدها، ارتعاشُ شفتيها، حركة الهجر وكذلك التردّد والاندفاع غير المتوقّع ، هذه الحركات التي يتكلّم من خلالها الجسدُ ولا يخدعُ أبداً برهنت لي على أنَّ سرّي مصون تماماً.

كم تمنّيتُ لو يشاركني أحدٌ أرقي. ودون كلماتٍ تقريباً تحوّلت مهنّا إلى ذلك المحاوِر الرائع الذي لا يصغي بإذنيه وحسب بل يتكهّنُ بقلبه أيضاً. في نور سميلاليا الشفّاف كانت الرغبة تتناثر لهاثاً وحياء وحرارة وتوتّراً ، تنفصلُ عن الجسدِ وتبحث تائهة وخفيّةً عن الآخر في غرف البيت وحدائقه.

كالنار، كانت مهنّا شكلاً ملتهباً، وضّاءً خالصاً يدرك كمال البدر في كتفيها ووركيها. كان باستطاعتي أن أكشف أمامها عن نفسي تماماً كما أنا، لأنّ النور يعرف كيفَ يخفي الأسرار بحذرٍ ، وفي ثنايا أريبتيها الخفيّة، يحمي سرُّ الحبِّ الأكثر عمقاً وغموضاً أصلي تحت أحراج جبل ڤينوسها.

نسيتُ كلّ شيءٍ، نسيتُ الجميع. مرّ الزمن كما يمرّ مجهول. غادرت طيور اللقلق إلى السودان، رافقنا ثلاثة منها مقصوصة الأجنحة، بجانب عريشةٍ اعتدنا أن نقضي فيها ساعاتٍ طويلةً. الغزلان أيضاً سلّت وحشتنا بقفزها وحركاتها البهلوانيّة. كان عندنا أربعة منها نرى في عيونها اللوزيّة الصراحة والوفاء. منعتُ قتل الطيور التي انتهت إلى العبث في كامل البيت والاستراحة على ظلّة سريرنا.

جذبت شهرة حصانة مسكني البهائم والبشر إليه. مئات الغزلان والحيوانات البرّيّةِ راحت تأتي لتلعب عند حافّة جدران سميلاليا. استنفر الحاج إدريس الرامي وسيدي معطي مورينو، من أفكاري، بعض وجهاء مراكش، وهم ناس قلقون وفي آنٍ معاً خامدون، بحثوا فيّ عن عزاء لتلك المدينة الخاضعة للشقاء.

العاطفة التي أسرتني جعلتني أتخلّى عن كثيرٍ من الحذر والاحتراس، الذي قاد سلوكي حتى ذلك الوقت. عندما تتحرَّرُ الرغبةُ فإنّها لا تسمح بالتقييدات. كنتُ أتكلّم عن السياسة بحماسة العاشق، الذي ينسى نفسه وحدودَه، وأفكرُ بأنّ طبيعةَ المغربي هي نتاج حسنِ الضيافة والاستقلال البربري، وفضائل المساواة والتضامن والتسامح الإسلاميّة. رأيتُ في النبي محمّد عالماً مصلحاً للديانات الذرائعيّة القديمة، منحها بنية أكثر سهولة وعقلانيّة. من الناحية السياسيّة لم يضع القرآن قواعد دقيقة، لكنّه يفتحُ البابَ على نضج تنظيم اجتماعيٍّ مستلهَم من مبادئ المساواة، والتضامن والتسامح المذكورة. تحتَ ارتعاشات ظلال النخيل في سميلاليا أكّدتُ أنَّ ديننا يؤكّدُ أنّنا جميعاً متساوون أمام الخالق. فلماذا لا نكون كذلك أمام القوانين التي يضعها الإنسان؟ برهنتُ لأولئك الناس الطيّبين أنَّ مبدأ الزكاة الرحيم لا يستبعد إدارتها السليمة على شكل عدالة. وأضفتُ أنّ مجموعِ المواطنين في فرنسا أقرّوا قانوناً رفيعاً منذ سنواتٍ قليلة، حلّ محلّ

الإرادة الاعتباطية للرجل الواحد. ذلك القانون الذي بضمانه لحقوق الجميع وواجباتهم، يبرهن على أنّ الاستبدادَ يشكّل الطريقة التي تبقي الشعوبَ في مرحلة الطفولة، وتحرمها من نضجها ومبادرتها حاكمة عليها بالبؤس والقمع.

سألوني ما اسم ذلك القانون وما مضمونه. فشرحته لهم، ومنذ ذلك الوقت أحرزتْ الحاجةُ إلى تعميم ذلك الدستور في عقولهم قوّةَ الطلسم.

في طيش العاطفة لم أزن كلماتي فانتقل توتّرها إلى المدينة بكاملها. صارت بالنسبة لبعضهم أحلاماً سعيدة ولآخرين كوابيس رهيبة، وبالنسبة إلى الجميع سوطاً يسوطُ أجسادهم ليلاً ويجبرهم نهاراً على أنٍ يتبنّوا هذا الموقف أو ذاك. وقد أثار هذا جدالاً كبيراً في البلاط وتشكّل على الفور حزبان. بعضهم يطالب بإخضاع سلطة السلطان المطلقة إلى قانون أعلى، وآخرون يخافون نهايةَ امتيازاتهم، أو ببساطة يراقبون بانزعاجٍ تبدّل العادات.

انتفض طلاّب مدرسةِ ابن يوسف والمجموعة التي تحيطُ بمولاي أبو سليم، وغالبيّة تجّار سوق الحرير والمثقّفون الذين تعلّموا ألاّ يثقوا بمعرفة مفصولة عن التفكير، بعض موظّفي المخزن الذين يعرفون التوازن المقلقل الذي يرتكز عليه استقرارُ المملكة الداخليّ وحالتها الخارجيّة الدقيقة، وعلماء فاس الذين أعلنوا أنّ السلطانَ سيرتكبُ إثماً إذا ما رفضَ إقرار قانونٍ له مثل تلك الفائدة، جميعهم انتفضوا لصالح الدستور.

كانت الدهشةُ أوّلاً ثم الخوف هما الذريعتان الوحيدتان اللتان أبداهما فريقَ المُشنّعين، الذي كان يجمعُ المخلصين للشيخ سيدي علي بن حميد، وكثيرين من علماء مساجد الكتبيّة، المؤذّن وبن يوس ومديرة الحريم الملكي الفاعلة، ورؤساء الحرس الزنجي وقائد جيشه مولاي عبد الملك، وحاكم مراكش سيدي عمر بوستّة والوزير سعلاوي، الذي كان يقوم بأعمال كبير الوزراء.

المفاجئُ هو أنّني بقيتُ بعيداً عن الخصومات التي زرعتها بنفسي. كان يكفيني أن أحسّ بنبض دم مُهنّا تحت جلدها أو تحليق عينيها لأبعدَ انتباهي عن تلك المحاذير.

سرعان ما نضج السفرجلُ وانتفخ الرمان. كنتُ أشغلُ الوقتَ بجمع

وتصنيف مجموعةٍ غنيّة من النباتات، المستحاثّات والحشرات ودراسة عادات الحيوانات، التي حوّلت حدائقي إلى حديقة حيوان. ومع ذلك لم أستطع أن أدجِّن ثعلباً أسره رجالي وهو يجوب زرائب الدجاج في غينيا. كان يجلب بعوائه ضواري المنطقة، التي يوقظنا صخبُها في كل ساعة من ساعات الليل.

فقط حين لم أستطع أن أصالح النوم، وكانت خيوط النور الأولى تضفي على جلدِ مهنّا تدرّجات متبدّلة في اللون، وتفور انعكاساته في شعرها المتشابك، تذكّرتُ أنَّ الموعد الذي وضعه لي أموروس على وشك أن ينتهي.

لدماغ الإنسان خصائص الغرفة المظلمة، فانوس سحريّ حقيقي، كلُّ ما فيه يمكن أن يمثّلَ وكذلك ما يمكن أن يتصوّره في تفكيره. بداخله تكتسب الخيالات حياةً وتحرّكُ مُشاهد هو فيها ممثّلٌ ومُشاهدٌ في آنٍ معاً. هذه القدرة على الانشطار سمحت لي مراتٍ كثيرةً أن أتدرّب على دور علي باي. لكنّني ومثل أيّ ممثلٍ عظيم راح علي باي يكسب استقلاليّته. كثيراً ما كان يقفز إلى ألواحِ دماغي دون أن أستدعيه، وبالطبع دون أن أكون قد اخترتُ حواراً له.

- يفاجئني أن أسمع من شفتيك أنّ هذا البلد مقموع - قاطعني - في الوقت الذي توشك يدك ذاتها على القيام بقمع أكبر.

فعلاً من غير المحتمل أن يكتشف الإنسان عمقَ نفسه، حتى ولو كان أمام أكثر أصدقائه ودّاً.

- اسكت، اسكت - طلبتُ منه - هناك أيّام لا أستطيع أن أثق فيها بك.

- اسمع، يا صديقي. على العكس، أنت وحدك من يستطيع أن يحرّرَ هذا البلد.

- الخيلاء تلهمك وتجعلك تهذي.

- ألا ترى بكم من الانتباه يصغون إليك؟

- لن أخدعهم باسم حرّيّةٍ لن أستطيع منحها لهم.

- كثيرون ينتظرون كلمةً منك كي يثوروا.

- اسكت! لا تذكر هذا، أرجوك.

ـ إلى متى تستطيع أن تستمرّ في البطالة الحاليّة؟ هذان الذراعان اللتان توقفانك...

ـ اترك مهنّا بسلام! ـ قاطعته بحزم.

ـ تحوّلتَ إلى جبان.

ـ تسمّيني الآن جباناً، وستسميني أحمق حين أعمل.

ـ تستطيع أن تأخذ السلاح من غودوي. لكن ما الذي يجبرك على الخضوع لأوامره؟ فبالأسلحة التي أرسلها إليك تستطيع أن تشكّل جيشك الخاص بك.

ـ هل تظنّني مجنوناً أم أبله؟

ـ الرجل الحرّ لا يخضع إلا للظروف والحاجة.

ـ ولا كلمة أخرى، يا علي باي!

ـ أنتَ أيضاً يا صديقي علي باي ـ احتجّ غاضباً، بعدها حلّى وجهه وابتسم ـ معك حقّ. ليس الزمن زمن كلمات بل زمن العمل باتساق. ابدأ، يا رفيق!

في تلك الليلة حفر الثعلبُ نفقاً وهرب من قفصه. وما عادت تُسمع صيحات الضواري حول سميلاليا، وساد صمت ثقيل مثل سنام جمل جعل الساعات تمرُّ بخبب واهنٍ ومنهك.

الفصل السابع عشر

متآمر سميلاليا

اختفت الشمسُ قبل الوصول إلى خطِّ الأفق، المحتجب خلف شريطٍ من الضباب الأرجواني. كان مولاي سليمان يحضر المناقشات التي تهزّ البلاط مثل صنمٍ جامدٍ ومبتسم. يبدو أنَّ تلك النزاعات التي يعرف أنّني المسؤول الأوّلَ عنها كانت تُسلّيه. عندما بقينا وحيدين، قرَّر أن يمتحنني، كما يفعل عادةً مع فقهائه، خالطاً جرعةَ مكرِه بمعلوماته اللاهوتيّة المعتبرة.

- يبدو لي وصفك للجنّة لطيفاً، يا علي باي - سخر بعد أن أصغى باهتمامٍ إلى أجوبتي التي رسمتُ بها صورةً رعويّة لمجتمعٍ حرٍّ، متساوٍ وأخوي - لا شكَّ أنّها ثمرة رصد متأنٍّ للسماوات، لأنّك لَن تجدَ أبداً مكاناً مماثلاً على الأرض.

- إذا كان الله قد أقامَ جنّة فيما وراء الطبيعة - رددتُ - فلماذا لا يقلّدُ السلطان صنعه في هذا العالم؟

- أنت تنسى، يا علي باي، أنَّ ما يُزرَعُ في هذه الحياة لا ينضجُ ولا يؤتي ثمره إلاّ في الأخرى. الأرضُ لا تنجبُ إلا للموت، فلا تطالبْها بأكثر. - أبعد سبحتَهُ، داعب وجهي بعذوبة بيده وتابع - تعلّمتُ أن أقرأ بقلبك، أعرف أنّه نبيل، يتوق للحقيقة وأنَّ شغفه هو البحث عنها، لكن احترس من أن تكشف حجابها بسرعة أكبر ممّا يجب.

خلال ذلك أوشكت المُهلة التي حدَّدها أموروس على الانتهاء. قرّرتُ أن أطلب أذناً من مولاي سليمان للسفر إلى الصويرة. تذرَّعتُ بزيارة المدينة التي بناها أبوه سيدي مُحمّد بن عبد الله، وأضفتُ الغاية الورعة ألا وهي الصلاة بجانب ضريحه.

ـ أودُّ أن أشكرك على عطاياك ساجداً أمام ضريحه ـ أضفتُ.

لم ألحظ عنده حذراً أو عدم ثقة. على العكس أبدى تأثّراً من لفتة الامتنان تلك. منحني رضاهُ وأعطى أوامرهُ لعمّال المقاطعات الثلاث المتاخمة للسوس، سيادما وهاها بالتوجّه إلى الصويرة، ربّما لمراقبتي وربّما لحمايتي والاحتفاء بي بقواتهم.

كان الهدف الحقيقي من زيارتي إلى الصويرة مختلفاً تماماً. والرجل الذي يخفي سرّاً ينتابه دائماً إحساسٌ بأنّ جيوبه مليئة بالفحم المشتعل. كان يقيمُ في تلك المدينة نوّاب قناصلةِ جميع الأمم الأوروبيّة، بينهم الإسباني أنطونيو رودريغث سانتشْ الذي تحوّل إلى حلقة وصل بيني وبين غودوي منذ أن غادر أموروس المغرب. في الأسابيع الأخيرة أرسل إليّ عدداً من الرسائل لمقابلته بالسرعة القصوى.

كان اضطرابي خلال الأيّام الخمسة التي قضيتها في الطريق يتناقض مع جمود البلد الذي أعبره، هذا الجمود المُضمّن في أعماق سكّانه، ويتمكّن دون شكّ من نفس أيِّ مسافر آخر أقل ضيقاً.

كنتُ على وشك ارتكاب أفظع خيانة. أُحاول أن أتخلَّصَ من النظرات المستسلمة لكلِّ الذين وثقوا بي، وكان يرعبني سماع دويِّ أحلامهم وهي تنهارُ في أعمق أعماق نفسي، مثل حجر يغوص في مياه بئر.

بعد مسيرة ثلاثة أيّام لمحتُ جبالاً جميلةً في منطقة سيادما، التي أضفت عليها نباتات بلونِ النعناع وبيوت متناثرة مثل سكَّر سحرَ جبال سويسرا. توقَّفت للراحة تحت التفاف غصون شجرة رائعة نَمتْ دون حاجة لأيّة عناية. تُدعى أرقان ويشبه ثمرها الزيتون، لكنّه ألذّ. تساءلت ما إذا كان من الممكن أقلمة ذلك الشجر في بلاد جنوب أوروبّة. لم يخالجني شكّ بذلك فقادتني قناعتي إلى صياغة سؤال آخر: لماذا كان غودوي وجميعُ حكّام أوروبة يرهنون ازدهار بلادهم بالتوسّع الاستعماري؟ لماذا يتطلّعون إلى الاستيلاء بقوّة السلاح على ما يكفي

قليلٌ من العلوم للحصول عليه سلمياً؟ ألا يُشكِّلُ تبنّي تلك الشجرة مكسباً لمقاطعة عليهم أن يُحافظوا عليها بالجيوش المحتلّة باهظة التكاليف؟

كانت تلك التأمّلات تقنعني بالحاجة إلى إعاقة مقاصد غودوي. وشيئاً فشيئاً راح يختمر في ذهني تغيير لمخطّطاتي. ربّما كان هذا أعظم مشروع انبثق في رأسي، لكنّني لم أجروْ حتى على صياغته في سرّي الحميم، حيثُ لم يخفِ علي باي ابتهاجه ودوّت قهقهاته الجهورة. ولولا أنّني كنتُ واثقاً من أن ذلك العلي باي القابع في داخلي كان مسلماً صالحاً، لفكّرتُ بأنّني سكران.

لم يكن يفصلني يومَ الثلاثين من نيسان عن الصويرة إلا سهلٌ رمليٌ تدرك فيه الريحُ سرعة مذهلة. كان الرمل يتلجلج محدثاً حفيفاً يشبه حفيف الأوراق الجافّة. تعرّفتُ في أفق الصحراء الذي لا أساس له، ويصير فيه الكثيبُ في كلِّ لحظة أخر والمشهدُ أيضاً، على حالتي النفسيّة، حيث يتلو الشكَ شكٌّ آخر وما من فكرة تدرك شكلها النهائيّ.

سمعتُ دويّ طبولٍ مصمّاً. كان الصدى يضيعُ هائلاً في الفضاء الفارغ الذي تهتز فيه الأرض مثل بساطٍ في الريح. ارتفع خلف دوي الطبول صخبُ أصوات، تشبه العواء. كان الصوت يخبُّ مثل فارسٍ خفيٍّ فوق ريحٍ هي في آنٍ معاً مطيّةٌ، مهماز ولجام يقود اهتزازاته دون عضلات. فجأة وإذا بلطخة متعدِّدة الألوان تنتشر مثل فورانٍ فوق الرمل. لقد جاء عمّال مقاطعات هاها وسيادما والسوس الثلاثة على رأس ألف فارس لاستقبالي. نفخ بشير الملك في صدفة. انتثرت البقعة في كلّ الاتجاهات.

كان المُحاربون يلاحق بعضهم بعضاً وهم يتنافسون في سباقات مجنونة. تنعطفُ أطيافهم في حركات غير معقولة فوق ظهور الحيوانات المضطربة. فجأة وإذا بهم جباه أو قفا، خصور، حوافر، ذيل، وأثر حركة لا تنقطع ما لبثت أن لفّتني مع موكبي.

توغّلتُ على رأس ذلك الجيش المضطرب في الصويرة. كان المشاةُ يحمون الشوارع والسكّان متكوّمين خلف الجنود، يصرخون: بارك الله بمولانا.

اكتشفت في إحدى الشرفات أنطونيو رودريغث سانتشث، وإلى جانبه زملاؤه في هيئة القنصليّة، يراقبُ المشهدَ ذاهلاً. عرفتُ أن

ذهوله سيداعب مسمع غودوي وأنَّ شيئاً لن يُرفض لي.

ذهبتُ لمقابلته في تلك الليلة ذاتها، متموّهاً بثياب متسوِّلٍ. كان حامي الدم وحسّاساً. تلوي الحواسّ عنده العقلَ بالسهولة ذاتها التي تطوِّع فيها الريحُ مشهد الرمل الطيّار حول الصويرة. ربّما كانت عواطفه سريعة التبخّر، ولحظات ضعفه من الكثرة والحدّة كلحظات التأثّر، لكنّه كان في تلك اللحظة ممسوكاً بحماسٍ ملتهب. أمر بإحضار زجاجة شرشٍ بسريّة وكثيرٍ من الحركات البهلوانيّة، واقترح عليّ أن نشرب نخباً.

- كما استطعت أن تتبينَّ - قلتُ له رافضاً المشروبَ - العمّال إلى جانبي. هم الذين سيقدّمون إليَّ قوّات الصدام للتمرّد.

- أعترف لك أنّ شعبيّتَكَ أذهلتني، يا باديّا - اعترف آتياً على كأسي أيضاً - لم أتوقّعها.

- تستطيع أن تقول إنّني صاحب هذه الإمبراطورية - أكّدتُ، مذهولاً من رباطة جأشي - فبقيّة المدن والمناطق ستسلّمني الصولجان بمجرّد حضوري على رأس هؤلاء الرجال الألفين، المسلّحين بالشكل المناسب. لا أرى حتى ضرورة لمساعدة طابور سبتة. يكفي أن تتكفّل بإدخال الأسلحة التي طلبتها إلى المغرب سرّاً.

- وقّعتُ على معاهدة مع آل غداليا، بعض أثرياء التجار اليهود. هم سيتكفّلون بتمويه الأسلحة تحت بعض البضائع البريئة وإنزالها في مكانٍ مُتّفقٍ عليه على الشاطئ.

- إذا كان الأمر كذلك فلن يتجرّأ أحدٌ على المقاومة حبّاً، خوفاً أو احتراماً. الجميع سينضمّون إليَّ وقريباً سيكون عندي جيشٌ من عشرة آلاف نصير.

ابتسمتُ من ثرثرتي ذاتها. لكن بعد ذلك بساعات وفي وحشة الصحراء الذهبيّة، بلا ضفاف ولا شهود، أعلن عاملان من العمّال الثلاثة أنّهم على استعدادٍ لأن يفرضا بمساعدة جيشيهما ذلك القانون العظيم النافع، الذي سمعوا رجالاً بارزين يتحدّثون عنه واسمه المقدّس كان الدستور. أنا نفسي فوجئتُ وبدأتُ أومن أنّ الأحلام تتحقّقُ دائماً حين يمسِك أحدٌ دفّتها بثبات.

استخدمتُ زمن وجودي في الصويرة بتحويل مناوشات وغارات ذلك الجيش إلى مناورات عسكريّةٍ منظّمة. كان نهجُ مقاتليهم لا يتبدّل. يتقدّمون من العدوّ خمسمئة خطوة ثمّ ينتشرون بسرعة، مشكّلين أعرض جبهةٍ ممكنة، حتى يصلوا إلى نصف مسافة الرمي بالبندقيّة، يُطلقون النار، يتشبّثون باللجام، يدورون نصف دورة ويشرعون بالانسحاب برشاقة عجيبة. هكذا مرّة وأخرى إلى أن يتمكّنوا من كسر خطوط العدو.

على الرغم من أنّني لم أتطلّع إلى فرض نظام فنون الحرب الأوروبيّة، وضعتُ قواعد مرؤوسيّةٍ بعضهم لبعض، وصمّمتُ نظامَ إشاراتٍ لنقل الأوامر. كلّفني الوصول إلى تنفيذِ العمليّات بصمتٍ والامتناع عن إطلاق النار قبل تلقّي الأوامر جهداً كبيراً. أكّدتُ مرّةً وأخرى على ضرورة العمل بحذر، وتوقّعِ حركات العدوّ وإخفاءِ النوايا الخاصّة.

ولكي أزيد من حماسهم جعلتهم يرون أنّ تسليحنا سيكون أقوى بكثير. قمتُ ببرهان على دقّة وسهولة استخدام بندقيّةٍ، مماثلة لتلك التي ستصل في الأيام القادمة، وأعددتُ عيداناً مسنونة لبنادقهم كي أريهم فائدة الحربة في الالتحام جسداً بجسد. أخيراً بينتُ لهم كي أثيرَ غيرتهم أنّ هناك جوائز وترفيعاتٍ وامتيازات ووعدتهم، بعد دراسة مسائل التموين مع العمّال، أنّنا سنوفّر لهم الطعام والعتاد الكافيين في كلٍّ لحظة.

عندما غادرتُ الصويرة ودّعتني القوّات في صفوفٍ نظاميّة، كابحين جمهوراً من السكان أثارني حماسه. شيوخٌ ورجال، فتيان وصبية خرجوا إلى الشوارع ومن وراء المشربيّات كانت تدوّي صيحات النساء الصارّة.

مشاهد مماثلة تتابعت على امتداد الطريق إلى مراكش، حيث لم يخيّم حتى أيّام قليلة مضت غير الصمت. شعرتُ بنفسي بشير حرّية، وأنا أخبّ في ذلك البلد الذي كان يحتاجها حاجته للمطر.

كانت أوراق الأشجار قد بدأت تتساقط في سميلاليا، مع أنّ الخريف ينفد ببطء شديدٍ. لاحظتُ تحت حاجبي مهنّا نظرةً جمّدها القلق. ابتسمت حين رأتني لكن بألم، وتردّدت شفتاها الورديّتان

والمكتنزتان وأوشكتا تستبدلان البسمة بصرخة. كان جسدها الجسورُ والمتكوّرُ قد اعتادَ على الحركة بصمت شبحٍ مشوّه. صوتُها أيضا نحل حتى تحوّل إلى همس.

أحسّت بحزني من التغييرات التي لاحظتها فيها، دفعتني إلى غرفتنا. تعرّت من حائكها فكاد جسدها الأسمرُ المشتعلِ مثل الجمر يحرق عينيَّ. أخذتُها بين ذراعيَّ فذابت بينهما. في كلِّ لحظة كنتُ ألمسُ أشكالاً مختلفةً، متقلّبةً وخفيّة. كانت شفتاها تلامسانني مثل رأس منديل من حرير وهي كأنّها ترقص في داخلي، ولا يوجد فضاء حولها. جسدها ينصهر في جسدي ولا غير سوط اللذة يفصلنا، مثل شحنة كهربائيّةٍ بين الحين والآخر، معجونين مثل جوهرين خاضعين لذاتِ النار.

فجأةً أُفلِتَتْ منها صرخة مرعبة، فقد اكتشفت عدداً من العقارب تحت الوسادة.

ـ لقد استوليت على محبّة جميع الناس البسطاء وإرادة الكثيرين من أفاضلهم، دون أن تُطلق طلقةً واحدة ـ نبّهتني ـ ومع ذلك فقد خسرتَ أقوى حصونك: قلبَ السلطان. استغلّ الذين يكرهون أفكارك غيابك وحشوا مسمعه بالكلمات المفعمة بالصفراء. وهم يشعرون الآن أنّهم قادرون على استبدالِ سمّ الكلمات بسمٍّ آخر أكثر قدرة على الفتك. لسنا في أمانٍ، يا علي باي ولا حتّى في سميلاليا.

ـ قريباً جدّاً ستصل الأسلحةُ وسيكون كلُّ شيءٍ قد انتهى ـ حاولتُ أن أُهدّئها.

نظرت إليَّ بعينين مصعوقتين، كأنّهما ليسا لها.

ـ حبّذا لو يكون كذلك ـ همست، خافيةً بريق الخوف تحت الأهداب الحمراء، المصبوغة بالحنّاء.

كانت تعيش في غابة نخيل سميلاليا عدّة مستعمرات من العصافير، تطيرُ كلَّ صباحٍ بحثاً عن غذائها. كذلك كان يغادر رجالي ومعهم أوامر التأكيد على التمرّد. في المساء وحين تعود العصافير بالآلاف لتبيت في غابة النخيل محدثة جلبة رهيبة يعودُ معها رجالي، وتحتدمُ الكلمات في أفواههم لإعلامي عن مسيرة مخطّطاتنا.

كانت شهور كثيرة الاضطراب. وقعتُ في المرض ثلاث مرّاتٍ بسبب التوتّر العصبيّ، حيث كان يتملّكني وهنٌ كبير، ويصفرّ جلدي، ويجفّ مثلَ سطح قناع، حتى ساقاي لم يكن باستطاعتهما حملي. وكان عجزي مقلقاً أكثر لكثرة ما أخبرني جواسيسي أنّ السلطان يحشد في مراكش سرّاً جميع جنود حراسته الزنوج المبعثرين في الولايات، وكذلك بعض وحدات عديّة وشيراغا ومكناس وأخلف الوفيّة له. بالمقابل ظهر تبدّل موقفه منّي بشكل حذر. من الحلول الأخرى اعتماده على القائد بوستّة ليمنعني من توزيع الصدقة علناً، بذريعة أن كرمي لا يجوز أن يتجاوز كرم جلالة الإمبراطور، راغباً أن يُقلِّصَ شعبيّتي بين شعبه. لم أُمنع من شيء، لكنَّ مرسوم القائد يحذّر أنّ كل من يقبل نقودي سيُساط بقسوة.

تعافيتُ من انتكاستي الأخيرة على الفور يومَ أعلمني نائب القنصل أنطونيو رودريغث سانتشث بأنّ الأسلحة على وشك أن تُحمّل في ميناء قادش. قستُ الوقتَ الذي تحتاجه للوصول إلى النقطة التي اختارها آل غداليا على شاطئ الصويرة للقيام بتسليم السلاح للناس. حدَّدتُ تاريخ بدء الثورة يوم 15 كانون الثاني 1805.

قبل ذلك بأيّام قليلة سيكون السلاحُ قد وزِّعَ على العاملين الصديقين، وسيحتشدُ جيش التحرير أمام أسوار مراكش مساء اليوم المحدَّد. كنتُ قد تنبّأت لذلك اليوم بخسوف القمر. سأكون إذن برفقة السلطان نرصدُ الظاهرة. وعندئذ سأوجّه المنظار بعيد المدى خارج أسوار المدينة، وسأجعله يتأكّد من أعلى القصبة من قوّة جيوشنا. في تلك اللحظة الحاسمة سأشرح له أنّني لم أكن أنوي إسقاطه بل تقديم فرصة الحرّية للشعب. وهذا ما يتطلّب استدعاء جميع أعيان المملكة وممثّلي الشعب لصياغة دستورٍ يحوِّلُ رعاياه إلى مواطنين.

إذا قَبِلَ اقتراحي، سننزل معاً إلى أسفل أسوار مراكش وسندخل المدينة على رأس الجيش المحرِّر. أمّا إذا ما حدث العكس فمن سيضمن أنّني لن أحتلّ العرش أنا نفسي وأضمن من هناك الطريق إلى الحرّية؟

كلُّ شيءٍ كان جاهزاً. فرجالي انتشروا على شاطئ الصويرة، والطريق الذي يربط هذه المدينة بمراكش مثل عشّ دبابير. عددٌ من الرقباء يتفحصون البحر بانتظار تلقّي إشارة ما من المركب الذي يأتي

بالأسلحة الموعودة. قدّمتُ مبلغاً مرتفعاً جائزةً لأوّل من يلمحه. سلسلة من الرجال المجهّزين بأفضل الخيول كانت تضمن وصول الخبر إليّ بلمح البرق.

بدأت الأمطارُ في سميلاليا يوم الرابع من كانون الثاني وتساقطت الأوراق بكثرة، وفي السادس منه تعرّت تماماً؛ لترتسم أطيافها العارية على سماء زرقاء عجيبة، انتفخت بألوان قوس قزح.

كنتُ أنتظر وصول الخبر الطيّب متظاهراً باللامبالاة، ومحاطاً بسبعين متآمراً ينظّفون بنادقهم بعناية مرّة وأخرى والجيادُ تصهلُ قلقةً في باب البيت، وكلّ ساعتين يعبر جدران سميلاليا مبعوث ليكرّر أنه ما من جديد. ريحٌ جلمدٌ نفذت إلى الغرفة واخترقت جلابياتنا، المكبّلة بالخرطوش المليء بالبارود. كنّا نشرب القهوة باستمرار، وعيوننا عالقة في سوادها العكر الذي يتصاعدُ منه البخار. رحنا نتهاوى بعد الغسق على السجّاد الواحد تلو الآخر، دون أن ننفصل عن بنادقنا. نستيقظ كلّ ساعتين على نباح الكلاب، ونسمع ترنيمتها الرتيبة خالية من نبرة الرسل. كان انعكاسُ لهب المجمرة يرتدُّ على الوجوه المنهكة، التي فقدت رونقها.

استمرَّ ذلك الانتظار الطويل ستةَ أيّام، دخل في نهايتها يهوديٌّ مرعوبٌ إلى الغرفة وسلّمني رسالةً من رودريغث سانتشِثْ. تأخّرتُ في فكّ رمز المفتاح. كان يلفتُ انتباهي إلى أنّ جلالة الملك كارلوس الرابع رفضَ رفضاً قاطعا دعم العمليّة حين أعلمه بها غودوي: «لا، لن يحدث مثل هذا في أيّامي - أكّد بقوّة غريبة فيه، باغتت الأثيرَ. كانت المرّة الأولى التي يرفضُ له شيئاً- وافقتُ أن يذهب مستكشف إلى تلك المملكة لا مُغامر. كسب ثقةَ الملك الذي يريدُ الآن أن يخونه، لا، يا مانويل، لن أقبل أبداً أن يصير حسنُ الضيافة أذىً على من يمنحه بنيّةٍ سليمة. سأكون مسؤولاً عن هذا العمل الشرير أمامَ الله والعالم، لأنّ عميلاً لي هو الذي تصرّف بهذه الطريقة المهينة. الخطأ خطأُ باديا، الذي كان عليه ألاّ يقبل معروفه، كي يبقي بهذه الطريقة على حرّيّته في العمل. قلْ لباديّا أن يُغادِرَ المغرب بأسرع ما يمكن ويتابع أسفاره.»

بالتالي أوقف شحن العتاد وبقيّة العمليات. كنتُ أشعرُ بمئةِ عينٍ مغروزة فيَّ. كيف سأشرح لرجالي بأنّ الأسلحة التي ينتظرونها لن تصل أبداً؟

الفصل الثامن عشر

متّحدون في ظلٍّ واحد

حسنُ الحظِّ أو البليّةُ التي تنتج عن أعمالنا تحوِّلُ الحياةَ إلى تمثيل، يصبح أشدُّ الناس عزيمةً في نهايته مهرِّجاً متواضعاً مرتهناً بنتيجة الفصل الأخير. مهما كان الدور الذي لعبه، ومهما كانت عظمته، وحجم المعاناة التي عاناها، والمخاطر التي كان عليه أن يواجهها، والعوائق التي تخطّاها والصعوبات التي ذلّلها فما يهم في النهاية هو الصفير أو التصفيق. الحدُّ الذي يفصل بين المحتال والمنتصر متحرّك ومتقلِّب مثل ردّات فعل الجمهور في المسرح.

قرّرتُ الإبقاء على خططي. لم يكن باستطاعتي الكشف لأنصاري عن أنَّ ندمَ ملكٍ نصرانيٍّ سّبب عدم وصول الأسلحة الموعودة. وحدي كنتُ أعرف بوجودِ مؤامرة مزدوجة، خيوطها المختلطة لا تُحلُّ إلاّ بين أصابعي. تذرَّعت بأنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بحادثٍ أليم. أظنُّ أنّني ذكرتُ حادث غرق. لكنّني أضفتُ أنّ الأخطر هو تأجيل عمَلنا، في الوقت الذي علم أعداؤنا به واستعدّوا للردّ عليه.

في الأيام الثلاثة التي تبقّت للتاريخ المحدَّد للتمرُّد أصدرتُ أوامرَ لإعادةِ تجميع الجيش، ووضعتُ تصوّراً لبعض الإجراءات البسيطة لتحسين تسليحنا. أمرتُ بأن تُقصَّ البنادق ويُعمل من كلِّ سيف حربتان تُثبّت إلى فوّهة النار بمقبضٍ خشبيٍّ وكلاّب.

استدعاني يوم الخامس عشر من كانون الثاني سلطانٌ رابط الجأش، مدهشة برودة دمه لنتأمّل معاً خسوف القمر الذي تنبّأتُ به. صبَّ الشاي بنفسه مبتسماً على الرغم من حزنه. وبهدوء أخرج المنظار بعيدَ المدى من غمده وكأنّه يلعب وسلّمه لي.

ـ نتسلّى بتأمّلِ الحقول المحيطة بمراكش ريثما تحدثُ الظواهر التي أعلنت عنها ـ اقترح وهو يترصَّدني بعينيه الفطنتين ـ فموسم الزراعة ينتهي. ونقص الماء أخّر هذا العامِ سقوط الأوراق والأعمالِ الزراعيّة. المغرب كلّها عاشت لحظة شكٍّ وحذر. والسلطانُ أيضاً، ياعلي باي.

لم أكن أسمعه تقريباً. وجّهتُ المنظارَ إلى الأفق، من حيث كنت أنتظر أن يصل جيشي. سحابة من الغبار كانت ترتفع في البعيد وتُخفي الطريق. أغمضتُ عينيَّ. كان عنقي يؤلمني بشكلٍ رهيب وأشعرُ بفقراتي توشك أن تتهشّم مثل أجفانٍ جافّة. فتحتُ عينيَّ من جديد، بجهدٍ فظيع. ثلاثة فرسان طلعوا من سحابة الغبار.

بعد برهةٍ عرفتُ فيهم عاملي ولايتي السوس وسيادما يرافقهما قائد الصويرة. استغربتُ حضورَهُ لأنّه كان يعتبر مولاي عبد الملك عدوّاً له. إذا كان قد انضمّ إلينا فهذا يعني أنّ التمرُّدَ قد انتصر. التفتُّ إلى السلطان، عازماً فرضَ شروطي عليه، لكنّه أشارَ إلي أن أنظر من جديد إلى الأفق بحركة عنيفة.

مزّقت الريحُ الغربيّة غمامةَ الغبار مثل حجاب. ظهرَ خلفَ فرسانِ المقدّمة الثلاثة قطيع هائل من الخراف قُسِّم إلى مجموعاتٍ، كلّ واحدة من مئة رأس يقودها أربعةُ أو خمسة فتيانٍ يحاولون أن يحافظوا على المسافة بين مجموعة وأخرى.

ـ كما كنتُ أقولُ لك، يا علي باي ـ علّق مولاي سُليمان ـ عاشت المغرب والسلطان أيضاً لحظات تردّدٍ. لكنّ الزمن قشع كلّ الشكوك. ألا ترى ذلك؟

في ثانية واحدة تخلّيتُ عن الصراع من أجل السلطة لصالح الصراع من أجل الحياة. صمتٌ ثقيل هيمن على القاعة، حيث راح يتصارع نورُ القمر وأشباحُ الليل، تكهّنتُ بوجود رجالٍ مسلّحين متخفين بينها.

فجأةً وقع الخسوف وصار الظلامُ تامّاً. ارتفع فوقه صوت السلطان الخفيّ.

- أنت وضّحت لي بأن القمرَ يحتاجُ إلى نور الشمس، فهو انعكاسه، لذلك حين تدخل الأرضُ بينهما يصيرُ القمرُ ظلمةً. أليس كذلك؟ وأنتَ، يا علي باي كنت بحاجةٍ إلى نور السلطان كي تلمع بهيّاً. لكنك وضعتَ بيننا أشياء الأرض. والآن لم يعد هناك إلا ظلمة. أنا نفسي لا أستطيعُ رؤيتك. اذهب! اختفِ كشبحٍ طفيف قبل أن أندم.

حين غادرتُ القصر كانت أبواب المدينة مغلقةً. لذتُ بضريح شيخ المدينة أبي العباس السبطي. كان المشهدُ الذي ظهر أمام عينيّ مرعباً. في الفناءات العديدة التي تحيط بالمسجد مئات الأجساد ملتوية مثل لحم محروق، تتزاحم فوق التبن الحارّ والنتن تحت الأقواس التي سوّدَها دخان صلاءات النار.

جراحٌ وندوبٌ، جدعٌ، عظامٌ خرجت من مفاصلها، كلّ الأشكال اللامعقولة التي يتّخذها الألم الإنسانيّ انتصبت ما إن اكتشفت وجودي. دُوار رعب جليّ وهائل انهال فوقي وغمرني بصخبه، أنينه، دموعه وطلباته. أفرغتُ كيسي وبحثتُ لي عن مكانٍ في تلك الأرض من اللحم المنتفخ، التي تئزُّ فوقها الحشراتُ وأحياناً يلمع خيط نحيلٌ من دمٍ حارٌ كأنّه جوهرة غامضة.

فقط في أماكن مثل ذلك المكان كان باستطاعتي أن أجدَ ملاذاً، بجانب المرضى، المعوقين، الفقراء وأيضاً المُلاحَقين. حتى السلطان ما كان يستطيع أن يخترق حقّ اللجوء إلى ذلك المكان المقدّس.

انتظرت فتح أبواب المدينة لأرسل إلى مهنّا مفاتيح ممتلكاتي كلّها. زارني مولاي أبو سليم في ساعات الصباح الأولى، وجاءني معه بمؤن كثيرة لم أستطع حتى تذوّقها، فوزّعتها بين أولئك البؤساء مثيراً معركة ضارية.

كانت الدموع تضفي على عينيه المغمضتين على النور بريقاً غريباً. أخذَ يدي، وضعها على مستوى قلبه وقال لي بصوت متأثّر:

- لقد هجروك، يا علي باي. وشعر الذين كانوا مستعدّين لاتباع لوائك بأنّهم خُدعوا حين علموا أنّ الأسلحة غير موجودة. تظاهروا بإطاعة أوامرك، لكنّهم انتقلوا إلى العدوّ. استسلم عاملا السوس

وسيادما لقائد الصويرة. أربعمئةٍ من أتباعك الذين ثبتوا ذبحوا بالسكين في تلك المدينة. يبدو أن عدداً مماثلاً استطاع الهرب.

- إذن، ألم يضع كلُّ شيء؟ أين هم؟ كيف أستطيعُ الاجتماع بهم؟

- ماذا جرى للقطيع حين هاجمته الضواري؟ لا شكَّ أنّه تفرّق وبحث كلُّ واحد منها عن خلاصه الخاص.

- ما الذي أستطيع فعله؟

- لا شيء. جيشك الحقيقيُّ لم يكن يشكّله الرجال، بل حفنة من الأفكار. صارت الآن باروداً مبلّلاً فمعظم الناس لم يكونوا يؤمنون بما كنتَ تبشّر به، بل بك.

- وأنت أيضاً، يا أبا سليم؟

- العمى طريقة من طرق الرؤية. تمضي السنون، تتالى الأحداث، يتمرَّدُ الرجالُ أو يُبدَّلون، لكنَّ الظلمةَ تبقى ذاتها. والحياة الخالية من جلد الخيال السطحي عنيدةٌ كالخلود.

- أشكرك لأنّ قلبك لم يتبدّل، لقد برهنت لي دائماً أنّ باستطاعتي الثقَة بك. دلّني على الطريق الذي علي أن أسير عليه.

- أحسُّ بالريح، لكنّني لم أتأمل كيف تنتقل الغيوم أمامها قط.

- أنت ترى في الظلمة، يا مولاي أبا سليم. في هذه اللحظات أنا أكثر عمى ألفَ مرَّةٍ منك. اهدني في الظلمات.

- لقد تبدّلت الريحُ، يا علي باي. فاهرب، اهرب بأسرع ما تستطيع. هذه هي نصيحتي. تستطيع أن تُعلن أنّك قرَّرت متابعة طريقك للحجّ إلى مكّة. فهذا الحلُّ سيهدّئُ أخي. لكنّني أنصحك بالتوجّه إلى فاس. هناك يستطيع الأدارسة، الذين يُجلّونك كثيراً، مساعدتك على مغادرة البلد.

حماني أبو سليم بنفسه حتى سميلاليا. كانت مُهنّا تنتظرني سفوراً في الباب. وما إن رأتني حتى ارتمت بين ذراعيَّ، ناسية جميع الأعراف.

- أنا على وشك الانطلاق نحو الشرق - تمتمت أمام مولاي أبي سليم والخدم - لن أهجركِ إذا أردت أن تتبعيني. لكن إذا رغبتِ بالبقاء، فأنت حرّة في ذلك. كلُّ ما أملكه في مراكش لك.

نظرت إليّ جاحظةَ العينين. قست شفتاها الطريّتان.

- سأتبعك إلى أيّ مكان في العالم حتى موتي.

اعترفت لي في تلك الليلة أنّها حامل. أمرتُ بصنع سرير نقّال لها.

لاحظتُ أنّها شاردة الذهن.

- فيمَ تُفكِّرين؟ - سألتُها.

- ليس لأفكاري أيّ شكلٍ آخر غير الذي يمنحه لها الحبُّ. سأذهبُ معك ولا يهمّ إلى أين. سأكون الأرضَ التي تطؤها، الهواء الذي تستنشقه، الماء الذي تشرب والنار التي تدفّئك.

لم يعرف أحدٌ النومَ في سميلاليا. انطلقنا فجراً بعد أن جمعنا أكثر الأشياء قيمة وأسهلها نقلاً إضافة إلى الأوراق، الأجهزة، والمجموعات العلميّة، نحو فاس على الطريق ذاتها التي جاءت بنا من تلك المدينة في ظروفٍ مختلفة تماماً.

ما إن وصلتُ حتى شعرتُ بمعارضة السكّان، الذين كان يحرِّضهم القائد بقيل. امتلأت الشوارعُ المحيطة ببيت العجوز الحاج إدريس، الذي نزلتُ فيه، بحشود تناديني خائن وتُطالبُ برأسي. وزّع الحاج إدريس الرامي أسلحة على أهله لحمايتي. أشعلوا صلاءات على السطوح، ولم يستطع سطوع لهبها ذاته أن يضفي حيويّة على وجوههم الجامدة.

- لا أستطيعُ لومهم، يا علي باي. جميعنا شعرنا بأنّه سُخِرَ مِنّا. كما لو أنّنا متنا - أنّبني الحاج إدريس الرامي. وعلى الرغم من قسوة كلماته إلاّ أنّني أحسستُ فيها بعنف الجهد كيلا يجرحني بقسوة أكبر.

- من يستطيع أن يتهمني بالخائن؟ - رددتُ - حادثٌ مشؤوم حرمنا من الأسلحة التي ضمنتها لكم فعلاً. لكنّني لم أحرمكم من حماسي وعزمي قط. وحدي بقيتُ في موقعي في اليوم المحدّد للتمرّد. كيف تستطيع أن تطلب من رجلٍ واحدٍ أن يحتلّ بلداً على رأس قطيع من الخراف؟

غرق الحاج إدريس الرامي في صمتٍ مطبق. بعد برهةٍ قاطعني بصوتٍ جهم ومعدني.

- سوف تُغادر بأسرع ما يمكن إلى الجزائر. إنّه أكثر الطرق

أماناً، بالضبط لأنّه أكثرها اضطراباً. فقوّات مازن لا تكاد تكون لها سيطرة شرعية على تلك المناطق.

ـ لماذا تُساعدني ـ سألتُ ـ ما دمت لم تعد تثق بي؟

ـ لا وجود للزمن. نعملُ أحياناً لصالح الذكرى. أنا أعمل بذاكرة متمسّكة بزمن الصداقة. في اليوم الذي أستطيع حفظ حياتك فيه، يا علي باي، ستتحوّل بالنسبة إليَّ إلى جثّة.

لم يوجِّه إلي طوال الشهور التي قضيتُها في فاس تحت حمايته كلمة واحدة. وحين قرَّر أنَّ اللحظة المناسبة حانت لمغادرتي إلى الجزائر، أرسل إليّ بخادم بيّن لي باقتضاب أنّه استطاع اختراق تشديد القائد على المدينة، وأنّ كُلّ شيءٍ جاهزٌ لرحيلي.

عبرنا مدينة فاس في العاشرة إلاّ الربع من صباح اليوم الثلاثين من أيّار من العام 1805 وسط صمتٍ رهيب. جميعُ الأبواب والنوافذ كانت مغلقةً، والجنودُ الذين وزّعهم القائدُ في النقاط الأساسيّة من خطٍّ مروري، تظاهروا بالنظر إلى جهةٍ أخرى عند مرورنا. لكن حين وصلتُ إلى ضفّة نهر سيبو عند الظهيرة أخرجت طفلة متسوّلةٌ دخلت في الماء حتى خصرها سمكةً فضّيّة وسلّمتها لي.

ـ هذا كلّ ما أملك، يا سيدي ـ أنّت الطفلةُ ـ وأعرف أنّ كثيرين كانوا سيفعلون الشيءَ ذاته لو تركوهم.

استخدمنا أربعة مراحل للوصول إلى تازة، التي قادنا إليها ممرٌّ يخترق جبال الأطلس والريف مثل خنجر. الصخرة المخرشة التي قامت عليها عاصمة الموحّدين كانت مغطّاة بالبساتين الخصيبة، وفي الوديان تتمايل الغلال البضّةُ، لكن ما إن غادرنا تلك الجنّةَ وخضنا نهر وادي الملوية حتى وقعنا في منطقةٍ كانت الحربُ فيها الحالة الطبيعيّة لسكانها.

كانت قصبتا مرادا وتوريرت الخربتين تراقبان عبثاً سهوب جفيرة المقفرة. لو كان لها مدافعون لأجبرتهم الحواجز المهدّمة على اعتلاء المزاغل كمن يعتلي شجرة. فحاميتها الوحيدة كانت الضبان والعناكب والمحار النائم.

حين وصلنا إلى العيون، وجدنا حشداً من النساء يغرزن

أظافرهنّ في وجوههنّ وينتفن شعرهنّ. كان الدم يبلّل ثيابهنّ ويطرش الخيش الذي يُغطّي جثّة واحد منهم. كان الرجال على خيولهم يتأملون جامدين في البعيد أرضَ قبيلة عدوّة.

تابعنا باتجاه نظراتهم وتوغّلنا في مناطق أعدائهم. كان المهائيون يحصدون القمح وسلاحهم وخيولهم في متناول أيديهم.

كنّا قد توغّلنا في سهول أنغاد، وفيها مررنا بعددٍ من القوافل المؤلّفة من عائلاتٍ بكاملها تحمل معها كلّ ما تملك. كانت الجمال المحمّلة بالأثاث تبرز فوق القطعان المختلطة من الماعز والثيران والأبقار. أردنا أن نعرف سبب تلك الهجرة، لكن أحداً لم يبغِ التوقّفَ وحين اقتربنا كثيراً اجتمع الرجالُ وطلبوا منا متابعة طريقنا.

وبفضل عبدٍ أمسكنا به، وهو يتزوّدُ بالماء من جدول بورديم، عرفنا أن الأعضاء الذين يشكّلون أخوّة درقاوة قد ثاروا على باي وهران. حكى لنا ذلك الرجلُ المذعورُ والدمُ الطريّ ما يزال يلمع في عينه الفارغة، أن الشيخ الدرقاوي ابن شريف استولى مع مريديه على تلمسان، المكان الذي كنّا في الطريق إليه.

يبدو أنَّ كلّ عمالة وجدة، التي تضمُّ المناطق الشرقيّة من المغرب وتتاخم منطقة وهران التركيّة، كانت في أيدي تلك الطائفة من النسّاك الذين يتيهون، يلبسون بشكلٍ بائس ولا يستخدمون بعامّة من سلاحٍ سوى العصيّ. كنتُ أعلم أنَّ مذهبهم مُتشدِّدٌ ويقوم على تأمّل الألوهةِ والاتحاد الصوفي بالله. حضرتُ بعضَ صلواتهم اللامتناهية التي تنقلهم إلى الغيبوبة بواسطة التكرار الملحِف لصيغ الورع. ومع ذلك فهمتُ أنّهم يمتنعون عن المشاركة في الحياة العامّة، وأنّ تلك الاستعدادات الحربيّة كانت بالنسبة إليّ شيئاً جديداً. لكنّ العبدَ الأعور أصرَّ على أنّه سمع من أسياده أن القسم الأعظم من منطقة وهران وقف إلى جانب المتمرِّدين، وأنّ وضع الباي التركي في وهران الذي يأخذون عليه تراخيه الديني، كان حرجاً جدًّاً. عند العصر لمحنا مدينة وجدة الحدوديّة، القابعة في واحةٍ وسط الصحراء وينمو حولها الزيتونُ والتينُ والكرمةُ، وفي البساتين ينضج البطيخُ اللذيذُ يحميه من الريح سياجٌ ثلاثيٌّ من النخيل والنباتات المتوسّطة ثم المنخفضة الحجم.

ومع ذلك كانت الرائحة النتنة الصادرة عن المدينة حين دخلناها قد نفّرت حتى جمالنا الجرباء، فالشوارع اختفت تحت وابل النفايات التي تهدِّدُ بطمر البيوت ذات الطبقة الواحدة. شققنا طريقنا بين سحابة من الحشرات، على أرضٍ موبوءة بالجرذان.

خرج قائد ووجهاء البلدة لاستقبالنا، وأكّدوا لنا بأنّ الدم لم ينقطع بعدُ عن الجريان في كامل مملكة الجزائر. وأكّد القائد، بينما كان يرجرج كرشه وينشِّف عليها يديه المشبعتين بالعرق، أنّ من المحال علينا متابعة رحلتنا.

قرَّرتُ أن نُخيِّمَ بين أسيجة القصبة التي تفصلنا عن البلدة وتحمينا صحّياً من جوّها الموبوء. تركنا القائدُ نفعل ذلك. أمرتُ بتنظيف حديقة صغيرة ملتصقة بالجدران الجنوبيّة لمهنّا، وأرسلت رجلين من رجالي لسبر المنطقة للحصول على معلوماتٍ موثوقة عن حالة المنطقة. عندئذ مَثَل القائد فجأةً في خيمتي وطالبني بأن أخبره بأيّة حركة يقوم بها ناسي لأنّنا في منطقة حرب.

تأخّر مبعوثاي عدّة أيّام بالعودة بأخبارٍ أقلّ تشوّشاً لكنّها مقلقة أيضاً. كانت الغارات الكبيرة في المدن الرئيسيّة قد هدأت، لكنّ العصابات التي لا تخضع لسيطرة تجوبُ الطرق ناهبةً وقاتلة.

تقاسمنا أنا ومهنّا الانتظارَ باحتضارٍ بطيءٍ. كنّا نعلم أنّ حياتي المضطربة رهن إشارةٍ من السلطان، إشارةٍ هي كالحركة اللاوعية التي يسوّي بها تجعيدات جلابيته. ما عدتُ أستطيع التمييزَ في البلاط بين الأصدقاء والأعداء. حقد هؤلاء يساوي ضغينة أولئك. كان علينا ألاّ نخاطر بالمكوث أكثر في تلك المنطقة. لم نكن نثقُ بالقائد. حقّاً أنّه كان يعمل ما باستطاعته كي يجعل إقامتنا لطيفةً، لكننا كلّما التفتنا برؤوسنا نُفاجئُ أحداً يراقبنا. وعلى الرغم من أنَّ سلطة السلطان على عمالة وجدة الهائجة كانت أكثر عاديّة ممّا هي فعليّاً، إلا أنّ من الأفضل لنا أن نغادر بأسرع ما يمكن مناطق سيطرته كي نتحرّر من تقلّب رأيه، فأيّة كلمة معادية تُقال في اللحظة المناسبة يمكن أن تستغل في أية لحظة.

طلبتُ من القائد كوكبة حماية. تصادف رفضه مع وصول عصابة من قطّاع الطرق إلى محيط المنطقة وهم يطلقون النارَ على كلِّ شيءٍ

يتحرّكُ في الحقول أو على أسوار المدينة. وقع اثنان من رجاله قتيلين على بعد خطوات قليلة من المكان الذي عقدنا فيه الاجتماع.

سمعتُ مرتدّاً إسبانيّاً يقول أثناء الجنازة إنّه ما من أحدٍ غير قبيلة بني أبي حمدون تملك القوّة لمواجهة قطّاع الطرق. قرّرتُ أن أذهب للقاء زعيمهم، بوعناني، كي أتّفق معه على ثمن حمايته. لكنّني حين أوشكتُ على الخروج من المدينةِ أمر القائدُ بإغلاق الأبواب، وهدّدني محاطاً برجاله إن خطوتُ خطوة أخرى.

- من سيضمن لي بأنّكم لن تنضمّوا إلى المتمرّدين - صرخ.

بعد تجاوز لحظة الدهشة، تقصّيتُ منه الأمرَ بصبرٍ، عندها فقط عرفتُ أنَّ أربعمئة رجل مسلّحٍ يجوبون المنطقةَ بحثاً عنّي. كان القائدُ مقتنعاً بأنّ الأمر يتعلّقُ بآخرِ المخلصين لي من جيشي في الصويرة. كتب للسلطان يضعه في صورة الوضع.

كنتُ وحيداً يحميني المرتدّ الإسبانيُّ وعبدٌ من أربعين فلاّحاً ضارياً ينظرون إليّ كشيطان.

اعتمدتُ على أحدِ مسدّساتي المعلّقة إلى قربوس سرجيَ، لكنّني كنتُ حذراً تماماً من أن أخلط بشفتيَّ السكّر الذي له طعم الصداقة بمرارة التهديد أو جرأة القنوط.

- أيّها القائد، بدأنا جيّداً وأخاف أن ننتهي سيئاً - صحتُ بقوّة - افتحوا هذا الباب!

- بما أنّكم راحلون فلن أمنعكم - أجاب في الوقت الذي أمرهم فيه برفع المتراس الذي يحكم إغلاق دفتي الباب الثقيلتين.

ما إن اجتزتُ البابَ حتى عادت وأُغلقت دفّتاهُ خلفي. كان القائد قد تسلّقَ السورَ إلى أعلاه وكرشه الغليظ يتدلّى بين شُرَفتين.

- تركتُك تهربُ - حذّرني - لكنّ زوجتك وأقرباءك بقوا في قبضتي.

خببتُ باتجاه الجبال، بحثاً عن بوعنّاني. وجدته جالساً، متربّعاً فوق جلد خروف. عرضتُ عليه مبلغاً مرتفعاً كي يحميني حتى مناطق السيطرة التركيّة. قاسمته لثلاثة أيّام، بعد أن استعدتُ أهلي، طعامه وخيمته، لكنّني لم أسمع منه كلمة واحدة لصالح تطلّعاتي.

أيقظني في اليوم الرابع وأراني قرابة مئة محاربٍ مسلّحين،

ينتظرون أمام الخيمةِ وقد أُسرجت خيولهم على أهبة الاستعداد.

ـ لماذا ما تزالُ نائماً، يا سيدي؟ ـ قال وهو يقدّم لي قصعةً من الحليب الحامض ـ الليلة الفائتة تظاهرت بأنّك على عجلة كبيرةٍ من أمرك. من يستطيع أن يفهمك، يا صديقي؟

غادرنا إلى وجدة فوجدناها مغلقة بإحكام شديد. طالبت القائدَ من تحت السور أن يترك مُهنّا وأتباعي يغادرون. فُتحت الأبواب على مصاريعها وخرج ثلاثمئة عديّ برئاسة القائد دليمي، قائد أعلى في حرس السلطان.

عاد رجال بوعناني أدراجهم واختفوا كما لو بالسحر.

ـ هل عليَّ أن أعتبر نفسي أسيرك؟ ـ سألتُ دليمي.

ـ يجبُ ألا يصف نفسه بذلك من يرغب السلطانُ بحمايته ـ أجاب ـ إنّ ثورة وهران تجعل من النصيحة بمكان أن تبدّل خطّ رحلتك. سيقودك ضابطان إلى طنجة حيث تستطيع أن تبحر إلى الشرق دون خطر.

بقي القائد دليمي في وجدة لحمايتها من هجومٍ محتمل من قبل أنصاري. عرفتُ أنّ هؤلاء كانوا يخطّطون لتحريري وأنا في طريقي إلى طنجة. ولكي يحبط الكمين أجبرني على الخروج فجأةً. لم يسرّ لأحدٍ بالطريق التي كنّا سنسلكها حتى لحظة المغادرة. عند خروجنا من باب المدينة دلّ ضابطيه على الطريق التي تربط وجدة ببركنت عبر الصحراء.

في كلّ نزل من النُّزل التي وجدناها في الطريق كان الضابطان يجنّدان بدويّاً مسلّحاً لينضمّ إلى الحامية. بجانب جدول ترزوت قرّروا أن عددهم صار كافياً، وأمروا العديين أن يرجعوا لتعزيز قوّات القائد دليمي. هذا الانتقال كان السبب في أنّ أحداً لم يتذكّر التزوّد بالماء.

توغّلنا في مكانٍ كان محض هواء شفّاف. بدا وكأنّنا نمضي مباشرة نحو الشمس، فالأفق كرة هائلة من نار، وريحٌ لاهثة تحرّك الرمل كالرماد.

كنّا نسير بسرعة كبيرة، مدفوعين بخوف من أن يدركنا أنصاري. بعد منتصف النهار بقليل نفد الماء ولم تبق معنا قطرة

منه. صار جلدنا بلون فروة متعفِّنة، فاحتقنت عيوننا بالدم وانتشر راسبٌ مرٌّ فوق شفاهنا، لساننا وحلقنا. البغال راحت تخرُّ والرجال يلحّون عليها خائري القوى وهم يجبرونها على النهوض.

في الثانية ظهراً تدحرج واحدٌ منهم على الأرض. تملَّكه فتور كامل، وتابعت بعضُ دموعه الكبيرة سيلانها حتى بعد أن فقد وعيه.

حين سقط اللاحقون لم يتوقَّف أحدٌ. تابعنا طريقنا شبه مغمضي العيون، صامتين صمتا تاماً. لا نكاد نستطيع التنفّس. كان جوادي يرتعدُ تحتي. وحين أوشكتُ على الانهيار حاولتُ الاقترابَ من مُهنّا. جسدها جرَّ جسدي، لا أتذكَّرُ شيئاً آخر.

أوَّلُ ما رأيته حين استيقظتُ كان التجويف الفارغ والداكن لقربةٍ ثرمَاء مثل فمِ عجوز. كانوا قد فرغوا من سكب محتواه على وجهي. غصّة في حنجرتي منعتني من لفظ اسم مُهنّا. شربتُ إلى ما لا نهاية وأسناني مغروزة في حلوق ثلاثة أوعية جلد ماعزٍ متتالية. ما إن أنتهي من الإتيان على واحدٍ منها حتى أتركه يسقط مثل جسدٍ نافق عند قدميّ لأترنّح فوق الآخر. كان باستطاعتي أن أشرب البحرَ كلّه.

كانت مهنّا حيّة، لكنّها مثل تمثال لا تكادُ تتحرّكُ. العباءة المبللة ملتصقة بجسدها بمطواعية الجلد، أبعدتُ ثنايا الخمار فظهر الوجه قاطعاً، غير معبِّر مثل حجر محروق. وشيئاً فشيئاً راحت تستعيدُ وعيها، انشقَّت عيناها وارتعشت شفتاها مثل قلبٍ. وحين هممت بتقبيلها، أمسكت بي يدٌ معروقة، وحملتني على الالتفات برأسي.

ـ أنا سيدي العربي، سمعتهم يتحدَّثون عنك كثيراً، يا علي باي.

أنا أيضاً سمعتهم يتحدَّثون عنه، إنّه مؤسِّس أخوّة الدرقاويين؛ ووصلتني أخبارٌ عن خلافاته مع السلطان، أمِلتُ ذات مرَّةٍ بشدِّه إلى حزبي. لكنّ سيّدي العربي لم يجب قط على تلميحاتي، التي قمت بها من خلال آخرين. كان يتمتَّع بسلطةٍ مستقلّة حقيقيّة في المغرب. استغربت التعرُّف على بعض فقهاء السلطان بين مرافقيه.

أحسَّ بالمفاجأة عندي فأجبرني على الابتعاد عنهم عدَّة أمتار.

ـ ماذا يفعل هؤلاء معك؟ ـ سألتُ ـ هل أخضعوكَ أخيراً؟

- الرجل القويُّ يعرف كيف يميّز حين تلتقي مصالحه مع مصالح أكبر أعدائه ولا يسمح للعواطف التافهة بحرفه.

- وإلى أين تمضي؟

- أمضي إلى الشرق كي أقنع أنصاري بالخروج من تحت الوصاية التركيّة والخضوع لنير سلطان المغرب الأكثر هشاشة وتضعضعاً.

- كان مصادفة عثورك عليّ.

- هذا ما يجب أن تشكر عليه أنصارَك، هذه الحفنة من المجانين الذين ما يزالون يتبعونك ويبحثون عنك. وقد حرفنا مسارنا خشية أن نتقاطع معهم.

- لولا مساعدتك لكنتُ متُّ. كيف أستطيعُ أن أردّ الجميل إليك؟

- يكفيني أن تبقى حيّاً، يا علي باي. حاول فقهاء مولاي سليمان أن يقنعوني بتركك تموت عطشاً. لكنّني أعلم أنّك ما دمتَ حيّاً سيبقى السلطان يشعر بنفسه مُهدَّداً. وقلقه يعوِّضني زيادةً عن المعروف الذي عملته معك.

- ومع ذلك أشعر بالامتنان لك.

- لست بحاجة لأن تشكرني. فلن أقتل الثعلب الذي يُهدِّدُ خمَّ عدوّي أبداً.

- فكرتك عن الوجود الإنساني بدائيّة إلى حدٍّ ما.

- لكنَّها فعّالة. وتقوم على إثارة عواطف الآخرين للحفاظ على الاستقلال الذاتي.

- بهذه البساطة؟

- ما من قانون يستطيع أن يحرِّرنا مثل الكرم، اللامبالاة والازدراء. بالنسبة إليَّ وحده الحرّ لا يخافُ الموتَ. أنتَ جرَّبت حسن ضيافته. كيف كان إحساسك؟

- سأكذبُ عليك لو قلت لك إنّها سرَّتني.

- هذه المرَّة ابتعد عن طريقكَ. رجالك استعادوا همّتهم وقِربك امتلأت من جديدٍ بالماء. تابعْ طريقَكَ، يا علي باي.

بعد أربعةِ أيّامٍ عدنا لنمرَّ بمدينة تازة. سبق وقلتُ إنّها أجملُ ما

رأيتُه في المغرب والوحيدة التي لم يلتهمها الخرابُ. انفصلتُ عنها كمن يستيقظُ من حلمٍ. في جنانها التي تنسابُ فيها المياه النقيَّة والهواء الريّانُ والنظيفُ، في شوارعها البهيجة، أسواقِها المموّنة بكلِّ شيءٍ. تأمّلت الصورة المثيرة لما كنتُ أتمنّاه للمغرب كُلِّه. ألهذا الحدِّ السعادةُ بعيدة الاحتمال؟ اشتريت لمهنّا قطعة قماش جميلة للذكرى.

عبرنا بمزارع دُخْنٍ، فيها عشراتُ الفلاّحين لا يكفّون عن الصراخ ليفزعوا العصافير.

ـ أين سينتهي بنا الطيرانُ، يا علي باي؟ ـ قالت لي مُهنّا ـ لقد انحرفنا عن طريق طنجةَ.

اعترف الضابطان اللذان يقودان موكبنا بعد نقاشٍ طويلٍ أنَّ مُهنّا كانت على حقّ. اعترفوا بأنَّ تعليماتهم نصت على حملنا إلى العريش، حيثُ تنتظرنا فرقاطة تركيّة. اغتظتُ لأنّهما لم يعلماني بذلك من قبل، لكنّهما هزّا أكتافهما وأعطيا أوامرهما بالاستمرار.

في السابع عشر من آب وفي السابعة صباحاً كنّا نتأمّلُ المدينة في البعيد من فوق رابية مليئة بالصنوبر الأسود ذي الرائحة النفاذة. كانت التحصينات الإسبانيّة القديمة الدرداء تبدو مثل قبضةٍ من عظام مهجورة فوق مرتفع ملطّخٍ بالبيوت البيضاء، حيث تنزلقُ فوق أرضٍ ضاربةٍ للحمرةِ إلى جانبِ السيزال الرماديّ، حتى منعطفٍ تجري فيه مياهُ نهرٍ تلتقي مع البحر.

لم تكن الفرقاطةُ التركيّةُ قد وصلت بعد ولن تصل أبداً. اضطررنا أن ننتظر شهرين في العريش إلى أن رست أمام الشاطئ سفينة حربيّة جاءت من طرابلس. لم تستطع التوغّل في فرضةِ النهر لأنَّ حاجزاً من رملٍ جعلها منيعة على السفن التي يتجاوز وزنُها المئتي طنّ.

سمح القائدُ لي باستئجارها، الذي لم يكن غير سيدي محمّد الزلاّوي الذي أرسله السلطان توّاً إلى المدينة.

في الثالث عشر من تشرين الأوّل صعدوا بأمتعتي إلى السطح. ومضيتُ أودّعُ القائد، لكنّه قال لي بأنّه يريد أن يحضر مغادرتي بنفسه. وعد بالذهاب في الثالثة مساءً إلى ضفّة النهر، عند نقطة تشكّل فيها تحصينات حصن بروكِلِتِ وجزء من سور المدينة رأساً يتمُّ الوصول إليه عبر زقاق ضيقٍ.

لكنّه لم يأتِ إلى الموعد. كانت قد سيطرت على المكان فصيلةٌ من الجنود، ما إن وصلنا حتى طوّقونا. فصيلةٌ أخرى اتخذت مواقعها في الزقاق.

جرّدوا رجالي من السلاح، وانتزعوا مهنّا من بين ذراعيّ. لمحتُ محمّد الزلاّوي عند حافّة السور. طلبتُ منه توضيحاتٍ.

- إنّها أوامرُ السلطان - أعلن - ثلاثة أحداثٍ تشيرُ إلى مصيرك. الأوّل هو أنَّ الرجل الذي نظره علي النجوم يتعثّرُ عادة بأيّة حصاةٍ صغيرة. الثاني هو أنَّ لسانك مفصولٌ عن جسمك وتظنُّ أنّك تستطيع أن تسمح لنفسكَ بكلِّ شيء، حتى ولو لم تستطع قدماك اللحاق به وذراعاك لا تستطيعان إسعافه. الثالث هو أنّك لم تحقِّق شيئاً في المغرب، وبالتالي لن تحمل معك شيئاً من بلدنا.

احتاج الأمر لأربعة رجال لتثبيتي وإجباري علي الصعود إلى السفينة في الوقت الذي كنتُ أهبط فيه إلى النهر كان كلُّ شيءٍ يهرب. الحبُّ الذي يئنُّ حسرةً على الشاطئ، الطفل الذي كان سيأتي، الصداقة التي صارت غباراً، الغنى والقوّة، الرغبة بتحرير أُمّة من القمع والإهمال، الأراضي الأفريقيّة المجهولة التي كانت تنتظر وصولي وذلك البحر الداخلي الذي حدَّثني عنه بوهلال، ولا يظهر في الخرائط وعلى الأخصِّ الملمس الصوفي لشعر أسود يسبِّب لي غيابه ألماً فظيعاً.

اجتزنا حاجز الرمل، رفعوني شبه منهارٍ إلى سطح السفينة. رفعوا المرساة وقبضة المشاعر التي ترتعشُ على الرمل، تحت أسوار العريش المثلومة، راحت تتحجَّرُ في البعيد كما لو أنَّها لم توجد قط.

أحاطنا البحر كاملاً. وفجأةً سمعتُ في داخلي صوتَ علي باي، للمرَّة الأولى جهماً وحزيناً.

- كان كالحلم، يا رفيقي - قال - لكن روِّح عنك. ما أقلَّ الرجال الذين يتذكَّرون حلماً حقيقيّاً!

- لم يستطيعوا أن يفصلوكَ عنّي، يا صديقي - أجبته.

- في كلِّ مسافرٍ يوجدُ رجلان - أكّدَ - الذي كانه والذي يصيره مع تقدّمه في طريقه.

الفصل التاسع عشر

اختراق المرآة

كانت الريحُ تدفعنا نحو شواطئ إسبانيا. في السادس عشر من تشرين الأوّل لمحتُ جبلَ طارق. نور حانق ينعكسُ فوق خيش معسكر سان روكِ الأبيض. الأسطول الإنكليزي بأشرعته المنشورة، ينفذ مثل سربٍ من عصافير في مياه الميناء الهادئة وقد عتّمها ظلُّ الجرف الصخري الهائل. كانت إسبانيا وإنكلترا قد اشتبكتا في حربٍ جديدةٍ، لكنّ اضطراب الجيوش لم يكن يقارب الخدشَ المُقلِقَ في خليجِ الجزيرة الشموخ، الذي كان ينتشر أمامي مثل أفقٍ بكرٍ وأخّاذ. ومع ذلك لم أكن أريدُ العودةَ. تفكيرٌ وحيد يتملّكني بكاملي وأنا مضطجع على سطح السفينة: أن أصير أخيراً علي باي. أن أصير علي باي حقيقةً.

سمعت الريحُ رغباتي. بدّلت اتجاهها، اشتدَّت وأبعدت عنّي سفينة الماضي. ثلاثة أيّام انقضت لم تمنحنا فيها الراحة. انعطفنا حول رأس غاطة، وعند مستوى رأس بالس أعطى الرئيس عمر الأمر بالدوران لملاحقة سفينة سويسريّة بشراعين. تحوّلت الحياةُ من جديد إلى لعب يتطلّبُ منّي أفضَلَ ما عندي. عدتُ لأصير لا أحد. أمامي إمكانيةٌ واحدة فقط: المشهد المجهول الذي ينتظرنا، الحب الذي يُباغتُ، وظلّ يتفادى الماضي.

هربت السفينة ذات الساريتين حين حلّ الهدوء. جرفنا التيّار حتى مشارف فورمِنتِرا. عند منتصف يوم الرابع والعشرين ارتفعَ البحرُ مثل

جدارٍ وانهار فوق المركب. تحوّل إلى غابة أعمدةٍ من ماء تدور حول محورها وتتحطّم عند مرورنا. فقدت السفينة اتجاهها. وكانت تدور أيضاً، لكن ببطء هو في كلٍّ مرّة أشدّ لأنّ الماء غمر قاع السفينة وجسمها. أمر القبطان بإلقاء الحمولات التجاريّة التي تملأ السطحَ. كنسته الأمواجُ بسياطها مع قبضة الركّاب الذين أمسك بعضهم ببعضٍ، وهم يصلّون مذعورين.

لمعت السكاكين. طاقم المركب ألقى زورق النجاة الوحيد. قفز الرئيس عمر فوق الدفّة مثل نمرٍ. لم يكن صوته يتميَّز عن صخب الأمواج. وحين أرادوا أن يقطعوا الحبال انهارت فوقهم أعمدةُ الماء فجأةً مثل معبدٍ يخرُّ. صار البحر سهلاً مرتعشاً. لاحظتُ لأوّل مرّة أنّني حافٍ. لقد فقدت نعليَّ الصفراوين. عاد الطاقم إلى مواقعه بحركة أفعى حذرة. سُمِع قَسَمٌ. أرخى الرئيس عمر الحبلَ. عصبة من المسافرين كانت تصرخُ، تضحكُ وتصفِّقُ دون أن تتوقّف عن الدعاء. دامت العاصفة عشر دقائق. أحدٌ قال إنّها كانت مكتوبة في مكانٍ ما منذُ قرون.

بعد تجاوز رأس بولغاروني درنا حول جزيرة غاليتا لنلمح من جديد الشاطئ الأفريقي. وما إن قطعنا الرأس الأبيض حتى رأينا تحت النور الذهبي للمساء جزيرة لامبِدزا، لكن ما إن حلّ الليلُ حتى اضطرتنا عاصفة جديدة على البحث في الظلمة عن القنال التي تفصلُ كركينيا عن صربيا.

قضى الرئيس عمر ثلاثة أيام لم ينم فيها. كان يبدو مثل حيدٍ بحريٍّ، مغطى بالزبد مزروع في جسر المقدّمة. تُغمضُ عيناه لكنّ عضلاته ثابتة وهو يضغطُ على الدفّةِ.

عندما انقشعت العاصفةُ بسرعة نورسٍ نظرنا إلى أنفسنا في البحرِ كما في مرآة. رسونا في كومة من الرمل بلون الدم. كانت كركينيا صخرة باهتة منهكة. لم يكن فيها من النبات غير بعض النخيل مثل خيوطٍ مهدّبة. كانت خالية من الينابيع. موّننا سكّانها بالسمك وملأوا قربنا بماء المطر، الذي يحتفظُ بطعم السماء غير الحقيقي.

ما إن جفّت الأشرعةُ حتى ابتعدنا عن تلك المياه الدامية كأثرِ جريمة حرسه خفيران طوال الليل.

رصدْنا يوم التاسع من تشرين الثاني ساحل طرابلس. كان مشهدُ المدينة من البحر كهلالٍ معشَّقٍ في ظلٍّ أخضر. قببُ الحمَّاماتِ تبرزُ باشتهاء امرأة. تذكّرتُ مُهنّا، التي طالما عليَّ أن أعانقها عبثاً كمن يُعانَق الدخان الذي يصدره جمر الذكرى المتأجّج.

دخلنا الميناءَ في اليوم الحادي عشر، لكنّني لم أُمْنَح إذنا بالهبوط. رجلٌ، مُدثَّرٌ بعباءةٍ زرقاء، يكادُ يكون شبحاً، قال لي ببساطة أنّ أنتظر. ذُعِرتُ لأنّني خفتُ أن تضرَّ بي أحداثُ المغرب . افترضتُ أنَّ القائد الزلاوي بل ومولاي سليمان نفسه يمكن لأن يكون قد حذَّرَ باي طرابلس منّي.

بعدَ أربعة أيّام عادَ رجل العباءة الزرقاء ومعه جنديّان زنجيّان وأعلن لي بأنَّ الباي علي يوسف الكرمنلي سيستقبلني على الفور.

اجتزت شوارع طرابلس الضيقة وشديدة الانحدار، محمولاً في محفَّةٍ (هودجٍ) على ظهر جمل، وسيلة الانتقال المعتادةٍ في المدينة. منعني الغبارُ الذي تُثيره الحيوانات من رؤية البضائع التي تعرضها الدكاكين بوضوح، على الرغم من أنّني لمحتُ بعضَ الأملاح الصخرية والعقاقير الغريبة جدّاً.

اجتزتُ باب القلعة الكبير فقادني كبير الضبّاط، تتبعه سحابة من العبيدِ النصارى، إلى قاعةٍ مربَّعةٍ، قائمة على دعائم من المرمر ومبطَّنة بستائر صفراء. كان سيدي يوسف يتأمّلُ هديَّتي بعينين حيَويّتين وشبقتين،

سألني بعد احتساء كأس من الشاي:

- ما رأيك بشخص يحثّ كلباً كلِباً على الذهاب إلى بيت الجيران بدل أن يقضي عليه؟

تناول تفاحّة وتذوَّقها بشبقٍ قبل أن يتابع.

- إذا كنتَ خطراً إلى هذا الحدّ، كما يؤكّدُ مولاي سليمان في رسائله فلماذا تجرَّأ وأرسلك إلى أملاكي؟

- الماء الذي يُغرقُ والماء الذي يطفئ الظمأ واحدٌ - أجبته - فما يسبب المرارة لهذا يمكن أن يكون نبع السعادة لذاك.

- يُعجبني الرجالُ الفريدون والأذكياء والجريئون. حاربتُ منذُ كنتُ طفلاً والآن يضجرني السلمُ. احكِ لي قصَّتَكَ، فإن أعجبتني استطعت البقاء بيننا دون مشاكل.

بهذا الأسلوب استطاع أن يحيط نفسه ببلاط لامعٍ وخيالي. فأيُّ مغامر كان يعرف أنّه إذا استطاع الوصولَ إليه قد يصبح قبطاناً لسفنه، كما يحدس كلُّ شاعر بأنّه يستطيعُ أن يُحرِّكَ قلبه الوثّاب والشهواني.

أكسبتني قصّتي صداقته فضمَّني إلى حاشيته الحيويّة والممتعة، التي ينطوي صياحها وجرأتها على شيءٍ من العظمة بل وربّما البطولة. كثيراً ما سمعتُ الباشا يُعلِّقُ مقهقهاً لو كان رجال سلاحه في أيِّ مكانٍ آخر غير طرابلس لانتهوا إلى أن يُعلَّقوا إلى الأشجار، ولقطعت ألسنة رجال الكلمة عنده وأُلقيت للكلاب.

هو نفسه كان يشعر بأنّه مغتصِب وابنُ وحفيدُ مغتصِبين.

ـ أنا لا أحكمُ جالساً على عرش بل على سرج ـ كان يقول.

عملَ جدُّه سيدي أحمد الكرمنلي قائد فرسانٍ في خدمة الباب العالي، حين كان الأتراك يحكمونَ الجزائر. استغلَّ سفر الباشا إلى القسطنطينية للإطاحةِ به. نظَّم حفلاً دعا إليه فرسان الحامية التركيّة الثلاثمئة، وراح يقطع أعناقهم واحداً فواحداً عند دخولهم القلعة. صادر جميع أموالهم وأرسلها إلى السلطان أحمد الثالث، الذي لم يمانع في تعيينه باشا جديداً. لكنّه كان يعرفُ أنّه اشترى استقلال مملكته. اتخذ لقب باي ولم يرسل بعدها قرشاً واحداً إلى القسطنطينيّة. وسّع سلطانه حتى ضمَّ الجبل وبرقة.

كان حفيد سيدي أحمد سيدي يوسف مثله، ينتمي إلى سلالة المغامرين الذين عرفوا كيف يخرجون رابحين من ضعف الباب العالي. وبما أنّه لم يكن الابن البكر، فهو لم يكد يملك مهارة أخرى غير ركوب الخيل، كفاه ذلك كي يزاحمَ والده علياً بالذات وأخويه حسن وأحمدٍ والطاغية علي برغل، الذي كان قد استولى على طرابلس مستغلاً الخلافات بين أبناء قبيلة الكرمنلي، وكان يحكمُ شعبه بالبراعة ذاتها التي يمتطي بها خيوله. هذا الخيط من العزم والتواطؤ كان يشبه الحرّية إلى حدٍّ كبيرٍ أحياناً.

على الأقل كان طغيانه يخلو من المأساة. يحكمُ المدينة كلّها بروحه الخفيفة، الرشيقة والجموحة. وكان مجتمع طرابلس أكثر حرِّيّةً وانفتاحاً من مجتمع مراكش. ناسٌ من جميع البلدان يتعايشون دون

تعقيداتٍ ومعظم السكّان يتكلّمون عدداً من اللغات. ويستطيع المرتدّون أن يتبوّؤوا أعلى المناصب في الإدارة والبحريّة والجيش، واليهود هناك محترمون.

- لقد قدَّمَ اليهودُ إليَّ خدماتٍ جليلةً في الماضي - اعترفَ لي سيدي يوسف - لكنّني أفهم بشكلٍ خاصٍّ روحَ الدعابة الرقيقة عندهم.

تردَّدتُ في طرابلس على البلاط واجتماعات القصر المذهلة، حيث تستدعي علامات النوبة والموسيقى الملكيّة بانفعالٍ واحدٍ تلك الحاشية مختلفة المشارب، من رؤساء قراصنة وشعراء جوّالين سليطي اللسان إلى قطّاع طرق متمرّسين، إلى شيوخ قبائل بدويّة ودبلوماسيّين مجرَّبين، وتجّارٍ ميسورين ونساءٍ جميلاتٍ وذكيّات.

كثيراً ما استلقيتُ على مقاعد المرمر المغطاة بالطنافس الخضراء في المقاهي المظلمة، لأستمع إلى حكايات البحّارة والمرتدّين والجنود المحظوظين والباعة الجوّالين والمتسوّلين، الذين يخفون تحت أسمالهم حياةً مختلفة وأنتبه، بينما أشربُ القهوة القويّةَ وأُدخِّنُ النرجيلة التي يمسكُ بها عبدٌ، إلى أيديهم أكثر ممّا إلى كلماتهم. ما أحوجنا للأيدي الحرّة كي نتكلّمَ بحرّية! كان يسحرني تحويم أصابعهم ونقر السبّابة على راحة الكفّ المفتوحة، القبضة التي تنفتح مثل يدٍ تسلِّمُ كنزاً، خطوط الحظّ التي تمّحي وتختلفُ مع كلٍّ حركة.

تلك كانت طرابلس طفولتي في بِرا، أحسُّ بها على الطرف الآخر من المضيق. طرابلس الرجال الذين لا وطن ولا دين ولا ماض لهم، يحلم بها اليائسون والفطنون الذين لا يريدون أن يخضعوا لشؤم أصلهم.اجتزتُ مرآة الضفّة الأخرى فوجدتُ نفسي في طرابلس حيث كلُّ شيء ممكن، كذاك المساء الذي كان يجهّز فيه رئيسٌ اسمه سندباد طاقم سفينته ليخرج إلى القرصنة، فمثل أمامه يونانيٌّ بعينين خبيثتين وذكيّتين.

- القبطان سندباد؟

- وأنت من تكون؟

- اسمي أوليس.

- ما خبرتُك؟

ـ خبرتُ منذ سنواتٍ مأساة الطرق البحريّة، أصارعُ من أجل نفسي ومن أجلِ حياتي ولم أعد إلى بيتي قط.

الحرّيّة التي تمتّعتُ بها سمحت لي بمقابلة قنصل إسبانيا دون إثارة للشبهات أو الاستغراب.

ـ وأنت من تكون؟ ـ سألني.

ـ علي باي، العبّاسي.

ـ وماذا تريد؟

ـ أرغبُ بأن ترسل باسمي رسالةً إلى أمير السلام.

ـ وماذا عندك لتقوله لصاحب السمو؟

ـ أنَّ علي باي يرغب بمتابعة طريقه وهذا هو ثمن صمته.

كان ردُّه كيساً مليئاً بالشريفات الذهبيّة. لأوّل مرّة وجدت نفسي غير مقيّدٍ بشيء، وأستطيع أن أسمح لها بكلِّ شيء. أستطيعُ أن أسافر أنّى أشاء دون أيّة مهمّة غريبةٍ تبعدني عن تأمّل العالم وفهمه. فكّرتُ: لا يوجدُ في حوض البحر المتوسّط، أحدٌ يمكن أن يتمتّع بهذا الامتياز.

في اليوم الذي افتتحتُ فيه حرِّيّتي التقيتُ بعلي باي الحقيقي، وشعرتُ بأنّني تصرَّفتُ حتى تلك اللحظة كمهرّجٍ. لم أعد عميل أمّة أجنبيّة يتخفّى تحت قناعه. صرتُ محضَ رحّالةٍ.

الفصل العشرون

البحرُ ذاته

السفينةُ دائماً لغزٌ قبل إقلاعها. في السادسِ والعشرين من كانون الثاني من العام 1806 ، أي بعد عامين ونصف من خروجي من إسبانيا، أبحرتُ باتجاه الاسكندريّة في مركبٍ تركيٍّ ثقيل. ومع أنَّ ذلك المركب القديم، بإبحاره المنهك لم يشاركني دوافعي فقد شكرتهُ أخيراً أنّه كشف لي عن بحرٍ متوسّطٍ يسمحُ فيه ضعفُ الإمبراطوريّة التركيّة بشقاوة آلهة العالم القديم المتقلِّبة الأهواء. في لانهائيّة البحر تعرَّفتُ على رمز حرِّيّتي التي بدأتها توّاً. ميَّزتُها في قوَّةِ الريح، اضطراب الأمواجِ، بريقِ النجومِ في الأفقِ المنقشع الذي أثارت وحشته فيَّ إحساساً لا يوصف.

سيِّئة كانت السفينة وسيّئ القبطان الذي يقودها. كان يقضي نهارَه في الشراب متكئاً على جسر القيادة، هائماً بعينيه في بحر مختلفٍ عن البحر الذي نمخر فيه. وفي الليل يأمرُ بإنزال الأشرعةِ، يربطُ الدفّة وينزوي في غرفته دون أيّ رفيق آخر غير حفنة من القناني التي يحطّمُها تدافعُ المركب الذي لا قائد له بارتطامها بأرضه.

كان يسافرُ على ظهر ذلك المركب إلى جانب هذا القرصان العجوز ذي البنية العملاقة واللحيّة المحدّبة مثل سكّين، تاجران مغربيان وآخرون من طرابلس، وضابط من ضبّاط الباي سيدي

يوسف، وشيخ يتباهى بأنّه خنق بيديه سريّةً كاملة من الجنود الفرنسيّين خلال حملة مصر، ويكشفُ بافتخارٍ عن الندوب التي خلّفتها عضّاتُ أولئك التعساء على جلد أصابعه. في العنبر كان يتزاحم حشدٌ من رجالٍ ونساء بؤساء يقولون بأنَّهم حجّاجٌ في طريقهم إلى مكّة، ويخلون من أيّ ورعٍ غير الذي يفرضه البقاء على قيد الحياة كلّ يوم.

مع اقترابنا من خليجِ مودون راحت تتكشّفُ أراضي بَلوبّونيز، حيثُ رسمت الطبيعةُ الحوادثَ الجغرافيّةَ بخطوطٍ بسيطة لابدّ منها. فالجبالُ رسمت مشهداً من الفراغ عظيماً، يسمحُ لذاكرة ماضٍ بعيد وجوهري، شفافة ونيِّرة، بتقديرِ الهيكلِ المأساويِّ لآثار مسرح العالم الكبير.

علقت المرساةُ في جزيرة سابيينتا بقاع البحر بقوّة هائلة. لم نميِّز أيَّ بناءٍ في الأرضِ البركانيّة، التي يُراقب فيها الماعز والخرفان شقوقَ الصخورِ عساها تكتشفُ عشبةً ما.

أمامها كانت تظهرُ مدينةُ مودون، وجزيرة صغيرة لم يسحب الجيشُ الروسي منها بعدُ قطع مدفعيّته الأربعة والعشرين، التي استخدمها في القصف أثناء حروبه الأخيرة مع الأتراك.

وحين لاحقتنا سفينة قراصنة، ظهرت مثل سمكةٍ مجروحة وضارية من بين متاهة تلك الجزر، لجأنا إلى بورتا لونغا، ميناءِ مودون الجميل. اجتزتُ سورَ المدينة في وقتٍ كانت تُلاحقُ فيه شرذمةٌ من السكارى سكارى آخرين مثلهم، سرقوا وقتلوا أحدَ رفاقهم توّاً.

توغّلنا في الشوارع، ملتصقين بجدران البيوت. حذّرنا القبطان من أنَّ المدينة انقسمت منذُ عدَّة شهورٍ إلى فريقين شرسين، ويمكن لأيِّ واحدٍ أن يعتبرنا أعداء ويطلق النار علينا من إحدى النوافذ أو من باب إحدى الحانات. كان الحاكمُ التركيُّ محمّد آغا قد اعترف بعجزه عن حصر تلك الحرب الأهليّة، وتظاهر بالمرض وتركها تتفاعل بانتظار أن يقضي أحدُ الفريقين على الآخر، فيستطيع أن يفاوض على سلامٍ مؤقّتٍ وغير عادل.

نصحني القبطان بالبحث عن حماية شخص يُدعى مصطفى شص، يتزعّمُ الفريق الذي يوشك على النصر. استقبلني مسلَّحاً بمسدّسين

وخنجر مزيَّنٍ بالذهب والفضّة يبرز فوق الغمدِ المخمليّ. استضافني في دورٍ علويّ من المقهى الكبير الذي يملكه، إضافةً إلى الحمّامات وعدد من الحانات والمطاعم الشعبيّة في المدينة.

خطر لي تسمية تلك المعركة الوحشيّة بحرب الحانات، لأنّه لم يبدُ أنَّ هناك أيَّ هدف عسكريٍّ آخر لأيٍّ من الطرفين غير السيطرة على أكبر قسمٍ ممكن من الحانات وإجلاء منافسيهم عنها. وكانت هذه مثل جبلِ أوليمُبوس مليئة بالرجال المسلحين، المستعدّين كالآلهة لكلِّ شيءٍ تقريباً وقد أعمتهم قوَّتُهم مثلها.

كان الخمرُ، وقد غاب كلُّ ملمحٍ من ملامح الشرعيّة والعادات والقوانين المهملة والمحتقرة، الرفيقَ الوحيد المستعد لمساعدتهم حتى اللحظة الأخيرة، حين يطلقون العنان لسيل رغباتهم الطليق.

وحده مصطفى شص تخلّى عنه.

ـ سيّدي العزيز ـ اعترف لي بصراحةٍ تامّة ـ سأكسبُ هذه الحرب لأنَّني المواطن الوحيد في مودون الممتنع عن تناول المسكرات، ولا يمكن أن توجد طريقة أخرى: فأنا صاحبُ حانة، وسرعانَ ما سأصبح الوحيد الذي يستطيع ممارسة هذه المهنة في المدينة. عندما سأنتهي من السيطرة على جميع الحانات والمطاعم الشعبيّة، سأتمكنُ من إملاء القوانين التي تعدِّلُ سلوكَ الزبائن، وبالطبعِ سأجدُ نفسي قادراً على تحديد الأسعار من جانبٍ واحدٍ.

لم يبدِ قبطان سفينتنا أيّةَ عجلة للمغادرة، ولم يتزحزح عن طاولة المقهى الكبير، حيثُ كان يلاحقُ بنظرةِ السكران المحمومة إحدى بناتِ مصطفى شص التي لم تكمل اثني عشر عاماً تقريباً.

استبدلَ مصطفى شص كأسَه ذات ليلةٍ بمسدَّسه.

ـ أنا على استعدادٍ لأن أُقدِّمَ لكم آخر جرعة ـ أكَّدَ ـ لن تشربوا شيئاً آخرَ في مقهاي.

أقلعنا في اليومِ التالي. سفينة نقلٍ روسيّة كبيرة دخلت الميناء. جاء لوداعي الضبّاط الذين يرتدون الأسود بصرامة وتغمرهم لحاهم المفرطة في طولها حتى وسطهم، يرافقهم يونانيٌّ، حفيد أميرِ إيبسيلانتي العظيم، الذي يتكلّم عشرة أو اثنتي عشر لغة بشكلٍ طبيعي

استفدنا منه في الترجمة. سألني القبطانُ كيف يمكن تهدئة ثورة مدينة مودون، واستعادة النظام في كامل شبه جزيرة موريا.

قلتُ لهم إنّني كنتُ أعتبرُ نفسي في الماضي مصلحاً، لكنّني في تلك اللحظة لم أكن أكثر من مراقب مذهول. وهناك حيثُ تنحلُّ القوانين ومعها الحواشي التي تحدِّدُ السلوك يسرحُ جوهر الطبيعة الإنسانيّة طليقاً. ربّما كانت القدرة على تأمّلها في انتشارها العفوي من أكثر المشاهد نفعاً للفيلسوف. بدأتُ أشكُّ بإمكانيّة نبشِ العنف من عالم البشر دون الذهاب بالرقّة. ولم أعد واثقاً من إمكانيّة القضاء على الكراهية دون التخلي حكماً عن الحبّ.

نهض عندئذٍ كونستانتين إيبسيلانتي ورفعَ كأسه واقترح شربَ النخب.

ـ صحيح، يبدو الإنسانُ حصيلةَ تطوُّرٍ جيولوجي. ـ أكّدَ.

شرب الضبّاط الثمانيةُ كؤوسهم بجرعةٍ واحدة ومكثوا بلا حراكٍ وأيديهم في الهواء لحظةً بدت لي أبديّة.

ـ ماذا يفعلون؟ ـ سألتُ إيبسيلانتي.

ـ هُس! إنّهم يفكّرون ـ أجابني.

وبعد برهةٍ اهتزّت لحيةُ القبطان وسُمِعَت زفرة في غابتها.

ـ أنتم على حقّ. في الإنسان ما يمتدح كما ممّا يذمّ. إنّه حصيلةُ تطوّر جيولوجي آخر تجلّياته هيكلٌ من عظام مفكّكة. لكن هل انتبهتم إلى أنَّ الجماجمَ، مهما كان قدرها الأخير الذي حملها إلى هذه النهاية تبدو تبتسمُ دائماً؟

أقلعنا صبيحةَ الحادي والعشرين من شباط. بعد جزيرة كانديّا وجدنا رطوبة تنذر بعاصفة. أمر القبطان ليلاً كما هي عادته دائماً بطي الأشرعةَ وانزوى في غرفته. وما هي إلا برهة حتى خرج سكران منهنهاً ليغنّي بصوتٍ صارخٍ أغانٍ باخوسيّة، تطفئها هبّات الريح المتقطّعة.

أنت أيّها الحانيّ المتكلّف الوقار والصرامة

يا من تمنح السعادة والشقاء،

حين يجري النبيذ من بين أصابعك،

دون أيّة طاقة غير النبض الثابت،
تعرف العتبة التي تجتاز فيها
قطرةٌ حدودَ السماء
والخطوة التي تصيرُ
فيها بعد ذلك جمراً
يغذّي نارَ الجحيم.
يكفي أن تتخطّى هذه القطرةُ حافّة الكأس
ليتحوّل الفرح إلى عذاب.
فلماذا تشربُ هذه القطرة الزائدة
التي تنقِص الفرح.
أدرتَ خيرات الحياة
بلامبالاة ونفور وملمس بلّور القنينة،
الصافي والشفاف بقدْر ما هو مُصمت.
تقول إنّ النبيذ الأحمر انتهى
لمجرّد أنّني ثملٌ،
الألم الذي يسوطني الآن
وجد سبيله عبر المتعة.
وأنت ما تزال تريني القنينةَ الفارغة،
البلّورَ بلا لونٍ بين أصابعك،
يعمّقه النور وينيره
مثل كونٍ شفّاف.

وبما أنّنا كنّا نمضي كالعميان وسط البحر فقد طلب منّي الركّابُ نجدةَ مساعد القبطان والعمّال. استخدمتُ كلَّ علومي الفلكيّة لتحديد النقطةَ التي نحن فيها بالضبط، فاكتشفتُ أنّنا لم نكن بعيدين عن الإسكندريّة.

كانت الريح تعصف لكنّها مناسِبة. أمرتُ بنشر الأشرعة وتسوية اتجاه السفينة. لمحنا الإسكندريّة في الفجر لنجدَ أنفسنا بعدَ ساعتين

قرب الميناء، نكادُ نلمسُ الأبنيةَ برؤوس أصابعنا. حضَّر البحّارةُ المرساةَ واستعدَّ الركّابُ للهبوط وقد طاروا فرحاً. ومع ذلك كم هو مضطربٌ قدرُ الإنسان! فما إن أصبحنا في فتحة الميناء حتى هبَّ إعصارٌ مجنون وذهبَ بالريح التي كانت لصالحنا. استيقظ القبطان وأصرَّ على دخولِ الميناء ضدَّ إرادة الجميع. رجوناه البحثَ عن ملاذٍ آخر على الشاطئ القريب، الانسياق إلى أبوقير أو أيِّ مكانٍ آخر، فرفض ووجدنا أنفسنا في أعالي البحر وسطَ عاصفة مرعبة.

تمزَّقت الأشرعة تحت الأمواج الهائجة التي تجاوز ارتفاعها ارتفاع السواري. امّحت الفوارق بين السماء والماء وسيطر لونٌ عامّ ضاربٌ للحمرة على الجوّ. من العنابر راحت تصعد رائحة زعفران متعفّن. بحث البحّارة جرحى أو منهكين عن ملاذٍ وسط المركب، بينما راح الركّاب يسقطون في كلِّ مكان متكوِّرين في معاطِفِهم، متلوّين بدوافع الذعر.

لفَّ عتوُّ الأمواج السطح المقفرَ بضبابٍ كثيفٍ، وفي ظلمةِ الليالي تتكسّر جبالٌ من الماء خفيّة يفوق دويّها دويَّ الرعود.

اخترتُ اللامبالاةَ منغلقاً على نفسي في غرفة المؤخِّرة. تطقطقُ جدران السفينة فأتذكّر بحرَ طفولتي الهادئ والأزرق، الذي ما تزال ذاكرتي تستطيع الطفوَ بوداعة في مياهه، وهو ذات البحر الذي ينتفخ الآن من حولي، ضارياً ومفعماً بالتهديد والوعيد. ومع ذلك ما كنتُ لأستطيعَ الوصولَ قطّ إلى هناك دون قوّته. فهدوء المستنقع كان سيجبرني قطعاً على الاستمرار دائماً في ذات المكان. ما الذي أستطيعُ فعله غير الانتظار حتى تتحوّل تلك الأمواجُ المهتاجة إلى ذكرى أيضاً؟ ربّما لن أذكر حين تهدأ أنَّ الماء بلّل جلابيّتي.

بعد عدَّةِ أيّام من التيه وصلنا إلى جزيرة قبرص ورسونا في شرم ليماسول. خرج من أحشاء السفينةِ صفٌّ من الأشباح. أكثر من ثمانينَ شخصاً كانوا قد مكثوا بين طرفي السفينة دون طعام ودون شراب تقريباً، مختلطين ببرازهم، أربعةٌ منهم لم يستطيعوا بعدها حراكاً البتّة.

الفصل الحادي والعشرون

النسغ والراتنج

كان دِميتريو فرانكودي يخبِّئ تحت جلده الخشن كجلد الثور من التجارب أكثر ممّا تسمحُ به حياةُ الإنسان القصيرة، ويبدو أنّه يشكّلُ جزءاً من مشهدِ الجزيرة مثله مثل الزيتون والأرز منذ عهودٍ غابرة. وكانت له ميْزةُ تحويل كلَّ شيءٍ يلمسه إلى شيءٍ بسيطٍ وطبيعيٍّ، والحياةُ إلى جانبه تصبح سهلة بشكل مدهِش.

ما إن وضعتُ قدمي في شرمِ ليماسول حتى شدّني شارباه اللذان على شكلِ حربة وصوته الخالي من الخجل، والمزوَّدِ دائماً بالكلمات الضروريّة والدقيقة، المفعمة بالقوّة التي يمنحُها الصدقُ، فصار على الفورِ مُضيفي وأمين سرّي ووكيلي ودليلي وصديقي أيضاً. لم أندم قطّ على اختياري. تولّى شؤوني خلال الأشهر الثلاثة التي مكثتُها في الجزيرة بالفعاليّة والسهولة التي يسهرُ بهما على مصالح إنكلترا وروسيا ومملكة نابولي، البلاد التي كان قنصلها جميعاً في الوقت الذي يجمع ثروة معتبرة من خلال التجارة بالنبيذ، ويلعب دوراً سياسيّاً مهمّاً، مخفّفاً بفطنته ومرحِه الصراعَ بين الجاليتين اليونانيّة والتركيّة.

نزل في بيت فرانكودي أيضاً إنكليزيٌّ يُدعى روك، المتّجه دون عجلة من أمره إلى القاهرة ليطّلع على أشغال شركة الهند. يرتدي هذا الشابُ المُميَّزُثياباً على الطريقة الإسلاميّة. كما اتخذ لنفسه كثيراً من

عادات المسلمين الشرقيين. له قلب شاعرٍ ويستطيعُ أنْ يُعبِّرَ عن مشاعره الرقيقة بالتركيّة والفارسيّة، المتمكّن منهما جيّداً. السببُ في مكوثه الطويل هو وجود شابٌّ آخر زنجيّ، ذي جبلَّة من أكثر ما يمكن تصوّره رقّة، يُحتَضَرُ في بيتِ فرانكودي، اسمه لالا ويعملُ خصيّاً وواحداً من أربعة رؤساء في سراي السيِّد الكبير. وحين وصل إلى الجزيرة في طريقه إلى مكّة مثلي، هاجم بعضُ قطّاع الطرق خدمه، فجُرِحَ لالا العذب الذي هبَّ لنجدته جرحاً بليغاً.

لم يكن روك يبتعد عن رأس سرير صديقه لحظةً واحدة ويعامله كأميرٍ ويرتجل له قصائد حلوة:

آهِ، يا ليلَ الجلدِ ،

من قطع بسكينٍ رغباتك

لم يكن يدري أن الجرحَ يشفي آلامي

ويفتحُ في قلبي رغبةً أخرى أقوى.

فلماذا يزاحمني الفولاذُ الآن على ما منحته لي

من قبل بالدم والألم؟

حين عزمتُ على التجوال في الجزيرة برفقة فرانكودي وأحدِ أبنائه، ودَّعني روك بالدموع في عينيه.

ـ هذه الجزيرةُ تعودُ ملكيتُها لأفروديت ـ قال لي مجهِشاً ـ ولن تجدَ فيها غير الخرائبِ، يا سيدي علي باي. لكن هل الحب شيءٌ آخر غير الألم الذي يستمرّ حتى بعد اختفاء الشباب والجمال الذي هو السبب في إثارَة الرغبةَ؟

خرجنا من ليماسول يوم الثامن والعشرين من آذار بحثاً عن آثار أفروديت. عبرنا نهرَ أماتونت، الذي يعكسُ في مياهه سماءً تامَّةِ الزرقة. سلسلة من الجبال تقسم الجزيرةَ شطرين وفي قممها يذوب جسدُ الثلج الجاسئ والوضّاء. مياهٌ حديثة الانبثاق وشديدة البرودة تلعبُ رقراقةً بين السرو. لكنَّ مدينةَ أماتونت التي امتدَّت في الماضي حتى ضفَّة البحر ، لم تعد أكثر من كومة من الأنقاض لا شكلَ لها. كانت الأعمدةُ المحطّمةُ والتيجان المنهارة تتناثر على الأرضِ مثل عظامٍ

مكسَّرة، وقد غمر البحرُ ميناءها القديم، وهنا وهناك يقاوم كأسٌ منحوت أو ينتصب نحتٌ نافر لظهر ثورٍ مقطوع، صدعهما الصليب الذي يحمي من الذكرى الضارّة لسلالة الآلهة. وتُفيد آثارُ معبدِ أفروديت ملاذاً لبعضِ الرسومات المسيحيّة. ترى أين لاذت الإلهةُ؟ أراني فرانكودي بدايةَ بعض السراديب الأرضيّة الموجودة خارجَ أسوارِ المدينةِ. أصررتُ على الدخول عبر الفتحة الضيِّقة.

- لا يسكن هنا إلا الشياطينُ، يا سيدي علي باي - حذّرني الخدمُ ورسموا إشارةَ الصليبِ لأجلي.

آلافُ الخفّافيش، التي بهرها نور الشعلة خفقت بأجنحتها على وجهي وحكمت عليَّ بالعتمة، على الرغم من نور المشاعل، لكنَّ الجوَّ كان مشبعاً برطوبة عذبةٍ وسمعتُ صدى ضحكةٍ تبتعدُ فوقَ تيّارِ نهرٍ تحت أرضيّ.

بعدَ يومين كنّا نتأمّل التحصينات البندقيّة التي تلفُّ نيقوسيا بنجمٍ من الحجارة. كان النور يهتزُّ كما يهتزّ سربٌ من السمك الذهبيّ، منظومٌ في خُطّافٍ من الإبر القوطيّة لكاتدرائيّة آيا صوفيا، التي حوّلها الأتراكُ إلى مسجدٍ بعد إضافة مئذنتين ترتفعان مثل ساريتين في سفينة.

عرَّفني فرانكودي على شخصيّة بارزة، نيقولاي نيقوليديس، وهو ديموستينس حقيقي حديث.

- أفروديت؟ - زأر - تجاوزتْ بحبّها في حياتها الطويلة جشع التجّار الفينيقيين، وهدّأت غضب المحاربين الآشوريين واليونانيين والمصريين والفرس والرومان والبيزنطيين والفرنجيين الأفظاظ، واستطاعت أن تعتصرَ قليلاً من الرقّة منِ الجنود الرهبان الجافّين للهيكل والمشفى. انتظرت عودة البحارة الجَنويين والبندقيين. استقبلت الفلوكات العربيّة عند حافة الشاطئ وفخذاها غائصان في الزبد، وجهّزت غلايين السادة الأتراك. لم تشمئزّ قط من الحبّ، استطاعت أن تغوي سرغون، الإسكندر، سيثرون وأنطونيو والقديس بولص وهارون الرشيد وريتشارد قلب الأسد وسان لويس، الملك الصليبي الذي كان يحلمُ باحتلال القدس. لكنّ الجميع غادروا فراشها في اليوم التالي ليتابعوا أعمالهم. عادوا إلى تجارتهم، حروبهم، أوهامهم، لأنَّ الحبَّ

يتطلبُ جشعاً أكبر من الذي يملكه تاجر، وشجاعة أكبر من التي يستطيعها فارس، وإيماناً أكبر من الذي يمكن لراهبٍ تقديمه. لذلك أيُها المُسافر لن تجد غير قبضة من آثار، لأنّ غرامِيات أفروديت جميعها كانت سيّئة الطالع.

وبالفعل حين زرتُ الحاكمَ التركي وهو رجلٌ شديد الحيويّة والحماس دار حديثنا عن السياسة، مع أنه كان يقوم على خدمته ستة غلمان في الخامسة عشرة من أعمارهم، كالملائكة جمالاً يرتدون بذاتِ جنودٍ ضيّقة وعلى أكتافهم تلوح شالات كشميريّة في غاية الرفعة.

شكا من عمى بصيرة وبلاهة الجاليتين اللتين تقطنان الجزيرةَ. حكى لي أنَّ الأتراك ثاروا في العامِ السابق ضدّ اليونانيين، وأوقعوا بينهم عدداً من القتلى واستسلموا لكلِّ أنواع التمادي والاغتصاب. رفع اليونانيون شكواهم للسيد الأعظم فعيّنه لضبطِ النظام. يظنّ أنّه عمل بالعدل منذ أوّل يوم وصل فيه. لم يتوان عن معاقبة أبناء بلده المتورِّطين. لكنّ اليونّانيين فسّروا ما لم يكن غير تطبيق صارم للعدالة ضعفاً من الباب العالي.والآن انتفجوا ولا يتحدَّثون إلا عن أخْذ الثأر باليد.

- كيف يمكن حكم قطيعين من الجرذان يحاولان أن يتصرّفا كأسود؟ - ختم الحاكم.

استطعتُ التأكّد من ذلك الهيجان في قصر الأسقف. سحابة من الرهبان استولت عليَّ عند حافّة الدرج وحملتني إلى رواقِ الطابق الأوّل، حيث كان بانتظاري الأشيبِ المنهار في كرسيّ رهبانيّ. كان عجوزاً مريضاً، شبه مقعدٍ، مصاباً بكلّ أنواع العلل، ولا يشكو إلا من المضايقات التي أخضعه لها الأتراكُ قبل عام. ويتحمّل محسوداً بقيّةَ المآسي بقناعة الواثق بأنّها من مشيئة الله. كان يجتمع في ذلك الرجِل المتناقض السلطة الدينيّة والدنيويّة للأمّة اليونانيّة في الجزيرة. ذكّرتُه بأنّ الباب العالي هو الذي انتزع أسلافه من حياة الأديرة لإقامةِ التوازن مع الجالية التركيّة وتجنّب التمادي، فعمله إذن يلزمه بالاعتدال والتوازن.

تظاهر بأنّه لا يسمعني، فقد أضحَى الدينُ الخميرةَ الوحيدة لتلك الأمّة الخاضعة، مبعداً الممارسة الحقيقيّة للسياسة، ومحتقراً جهود

البشريّة الدقيقة لإتمام تعايشهم. من المرعب تسليم حكومة شعبٍ لرجلٍ لا يخاف أن يطلب معروفَ السماء لأبسط خواطره وآرائه.

طلبتُ من فرانكودي أن نُغادر بأسرع ما يمكن جوّ نيقوسيا الذي جعلته الكراهية خانقاً. وعندما تنزّهنا في الأحياء اليونانيّة مرتدياً ثياباً على الطريقة التركيّة وصل بي الأمر حدَّ الخوف على حياتي. انطلقنا يوم الثالث من نيسان إلى سيتيرا التي لم يتبقّ منها غير غابة من التوت تتمتّع بها ديدان الحرير. أشار فرانكودي إلى مشارف بعيدة باتجاه الشمال ترتفع فوقها أثارٌ تتآكلها سماء شديدة الزرقة. كانت تُعرف باسم قصر الملكة.

صعدنا بعضَ التلال الصلصالية، وتوقّفنا في دربٍ من الحمم في سانِ خوان كريسوستومو. كان السكانِ الوحيدون لهذا المكان الموحش ثلاثةَ رهبان يونانيين وامرأة عجوزاً وخادمة شابّة ومكتنزة.

أكّد لي الرهبان أنّهم تمكّنوا من طردِ كلِّ الأرواحِ الوثنية التي كانت تُلوّثُ المنطقةَ، وذلك بالصلوات ورشّ كلّ حجرٍ وكلّ ورقة وتيار ماء في الجدول المتجدّد، الذي يُغطيها بدثاره الرطب ويسهل هربها، بالماء المقدّس. وأضافوا أنّهم يخافون أن يكون قد لاذ الكثير من تلك الكائنات الشيطانية إلى مرتفعات قصر الملكة، العصيّ على الدخول.

وصلت على متنِ بغلةٍ حافّة ريفٍ صخريٍّ شامخٍ، تقوم فوقه الخرائبُ. ترجّلتُ وتسلّقتُ الصخرةَ مستنداً إلى يديَّ وممكّناً قدميَّ في فجوات الصخر، فوصلتُ بعد معاناةٍ شديدةٍ إلى القمّة التي تتأرجح فوقها غيوم عملاقة ورديّة تلامسُ الأرضَ. اكتشفتُ بابَ القصرِ الذي سدَّته نباتات تكادُ تكونُ بكراً. كان يلمعُ بين قواعد الأعمدةِ الحجريّة القرميدُ الأحمر الذي احتفظ بلونه الحيّ كأنّه خرج من مشواهُ توّاً. كانت عضائدُ الأبواب والنوافذِ الداخليّة من المرمر. وباستثناء السور الخارجي الذي يختلطُ بأحشاء الصخر الخام التي تحمله كانت بقيّةُ البناء على حالها. في الغرف الفارغة بدت لي متعة العيش تطفو مثل الغبار المذهَّبِ بالنور، وفي حديقة بعيدةٍ عن الأنظار نما الغارُ والريحانُ بجانب الجبِّ المليء بالماء. من أشاد ذلك القصرَ في هذا المكان صعب المطال؟ الموادُ الفاخرة المستخدمةُ لا بدَّ جيء بها من أماكن قصيّة ورُفِعت بنبض الإنسان فوق الجبل. جعلني ذوق ورشاقة

البناء أميل إلى الاعتقاد بأنّه من عملِ امرأة، وفكّرتُ بأن أفروديت انسحبت إلى ذلك القصرِ حين اختفتِ الحضارةُ التي كانت حضارتها، وبدأت تشعر بأنّها محاصرة في كلِّ مكان بقطيع الزهّاد الميقانيين الأفظاظ، الذين يجوبون المنطقةَ لتنصيرها، ويتعرّفون على إغواءات شعرها وتموّجِه في اهتزاز أغصان شجرة سنديان.

غادرنا في التاسعة صباحاً قصرَ الملكةِ إلى إيدايون، حيث مات أدونيس بحسب الأسطورة بين ذراعي الإلهة وقد اخترقه رمح أريس الذي ذهبت الغيرةُ بعقله. بتنا ليلتين في لارنكا، أقدم مدينةٍ في الجزيرة، أمام الشاطئ السوري وحين عدنا أدراجنا قطعنا الطريق إلى ليماسول لنتابع دون توقّفٍ حتى بافوس.

كلّما اقتربنا من المدينة أكثر كلّما كان ما ألمحه لا يتجاوز بعضَ الصخور الضاربة إلى الصفرة المقفرة وسط سهلٍ. لكن كم كانت مفاجآتي كبيرة حين اكتشفتُ أنّ كلَّ صخرة تحت تلك الهياكل المتواضعة نُحتت وشَكّلت بيتاً حقيقيّاً، وفي أحيان كثيرة قصراً فاخراً فيه فناءات فسيحة وأروقة ترتفع فوق أعمدةٍ، وأبوابٍ متتالية، تنفتح على غرفٍ مقبّبة لم أستطِع قط أن أجوبها كاملة ويبدو أنّها تستمرّ في أحشاء الأرض.

غير بعيدٍ عن المكان كانت تقوم كوكليا، حيث ارتفع معبد تُعبد فيه الإلهة تحت شكل مخروطي من الحجر الأسود. ذلك هو المكان المفضّل عند أفروديت يحميه سورٌ هائل لم يستطع وقف عمل الزمن التخريبي. الشمسُ ذاتها التي أضاءت لآلاف الحجّاج الذين طالما أتوا للتمتّع بمداعباتها تسطع فوقَ الخرائب. كانت أوراق الخرّوب والزيتون في حديقتها المقدّسة التي تهزّها نسمات البحر تحدثُ حفيف ثياب متحرِّكة، ويخفت في العشب المتمايل صوتُ بعض الخطوات.

علمنا عند عودتنا إلى ليماسول بأنّ الخصيّ لالا مات توّاً، فشدّ فرانكودي إلى صدره روك المحزون الذي نام بعد عددٍ من ليالي الغمِّ والأرق.

ـ عزيزي علي باي، رحلتنا القصيرة بلغت أيضاً نهايتها ـ قال لي فرانكودي بصوته المؤثر والرصين في آنٍ معاً.

ـ بلادكم جميلة جدّاً ـ أجبته.

ـ لكن هناك سوطان كثيراً ما يسوطانها: الأفاعي وجراد البحر. هل ترسلها الإلهة كي تبينٌ لنا كم يمكن لآثار السلوك البشري أن تكون ماحقة. أنصحكم بالمغادرة بأسرع ما تستطيعون.

ـ لماذا كلُ هذا الاستعجال ـ احتججتُ ـ الآن وقد اكتشفت روح الإلهة؟

ـ أنت تركيّ وأنا يونانيّ. وخلال وقتٍ قصير سوف يتواجه الأتراك واليونانيون وسنجدُ أنفسنا مجبرين على الانفصال. ـ أكّدَ.

ـ وهل فشلت أفروديت مرّة أخرى باحتجاز الرجال المتعطّشين للتناحر في فراشها؟

ـ غرامها حرٌّ كالنسغ، يا علي باي ولا يحبس كالراتنج أحداً.

ومع ذلكِ راحت تتدحرجُ على وجه روك العاشق البائس بعض الدموع وتتلألأ تحت ضوء القمر، ملتصقة بصدر فرانكودي الجهم مثل راتنج بقشرة صنوبر مئوي.

أبحرتُ في الثاني عشر من أيار إلى الإسكندريّة في مركب يوناني. التفّت علينا فرقاطة تركيّة في مدخل الميناء. لم يعثر القبطان على الراية فارتجلها بحّارٌ خلال لحظة واحدةً من خرق بألف لون.

ـ ما هذه الراية؟ ـ سأل الأتراك.

ـ راية الباي، سيدي علي العبّاسي ـ غامر دون أن يدري ماذا يقول غير ذلك.

ـ من أين هو قادم؟

ـ من الغرب.

ـ وإلى أين يمضي؟

ـ إلى مكّة.

ـ تابعوا رافقتكم السلامة.

هكذا وصلتُ إلى مصر، رافعاً أوّل علم لي: خرقة متعدّدة الألوان مثل قوس قزح.

الفصل الثاني والعشرون

محمّد علي

كلّ مدينةٍ ثوبٌ يحمي المجتمعات البشريّة العارية والهشّة مثل فردٍ وحيدٍ يولدُ أعزلَ تماماً وسط الطبيعة. كثيراً ما ضحكتُ عند سماعي الكلام عن لا إنسانيّة المدن، مستحضراً تلك الإسكندريّة التي ارتفعت مثل معجزة فوق شوكة البحر، تُحاصرها صحراء ليبيا القاسية.

على اللسان البرّي الذي قامت عليه وفي الشوارع العريضة والأسواق المليئة بالبضائع يتكلّم الناس لغات كثيرة ومختلفة. خمسة آلاف عربيّ، يوناني، قبطي، يهوديّ ، أوروبيّ وتركيّ يتابعون كلّ يومٍ مهمّة التعايش الصعبة.

في الأزمنة الغابرة وقبل تشكّل دلتا النيل كان المكان الذي تشغله الإسكندريّة اليوم مغموراً تحت البحر، لا يظهر منه غير جرف صخريٍّ راح يتراكم حوله الطمي الذي يجرفه النهرُ معه من أعالي مصر. إلى الشمال ارتفعت سلسلةٌ من التلالِ فوق البحر وإلى الجنوب حاصر تراب الطمي بحيرةَ مريوط.

مدينة ضخمةٌ ارتفعت فوق الوحل ووصل عددُ سكّانِها إلى المليون. صحيح أنّها كانت عند زيارتي لها في طيف ازدهارها القديم. مدينة الإسكندريّة، مدينة البطالمة، عشّ كليوباترا راحت مع مرورِ القرون تجثو مطمورة تحت الرمل، لكنّ ضريح غبارها يتشقّقُ أحياناً ويسمح بمشاهدةِ بعض آثارها الرائعة، مثل عمود بومبيوس الهام

وغير النافع، الذي لم تجد أمتاره الخمسة والعشرون من غرانيت أسوان الأحمر قبراً لها أو مسلتي كليوباترا، اللتين بقيت واحدة منهما منتصبة تمسكها السماء، بينما الأخرى ملقاة تغوص في الرمل مثل الدرجة الأولى التي تقودُ إلى بيت الموتى.

ثلثُ المدينة يقطنها الأحياءُ فقط، والثلث الثاني اختفى تحت غطاء الصحراء المخيف، والثلث الأخير اختبأ خلف أسوارها وصار متاهة من السراديب التي تشكّلُ مقبرة لا نهاية لها، يجتمعُ فيها على الحلم ذاته رفاتُ الفرعون الميت منذ آلاف السنين ورفات الفلاّح المسكين الذي مات البارحة.

كان مستودع الموت هذا يستخدمُ أيضاً ملاذاً للضواري الهاربة من الصحراء التي تحيطُ بنا، ويتصارع على البلد أربعةُ جيوشٍ على الأقلّ وأعداد لا تحصى من قطّاع الطرق. وتأكّدتُ مرّة أخرى من أنّ البابَ العالي لم يكن قادراً على فرض النظام المعقول على واحد من أكثر أقاليمه أهميّة، على الرغم من إرساله أحد أكثر أساطيله الحربيّة اصطفاءً بقيادة الأميرال الحاج محمّد.

شعرتُ ببعض الودّ تجاه هذا الرجل الذي ربّما كان يتحرَّكُ على رأس أسطوله بخفّةِ السمكة، لكنّه في البرّ ووسط الأنواء السياسيّة المصريّة المعقّدة يتحرَّكُ مثل غريق. أصاب المللُ الأسطول الراسي في عرض البحر، لا يستطيع أن يدخل أيّاً من مينائي المدينة، اللذين لا تسمح فتحاتهما الضيّقة أكثر من اللازم بين الأرصفة بمرور السفن الحربيّة الكبيرة. وكان قد مضى أسابيع على البواخر الضخمة والثقيلة بلا حراك كأنّها أهرامات في الأفق.

غشَت وجهَ الحاج محمّد عتاقةُ البرونز التي يحدثها الهواء البحري، فانزوى في القصر الذي يؤويه متردِّداً لا يعرف أبداً الطريق التي عليه أن يسلكها. بينما النظامُ الحكومي الذي أرسى دعائمه الباب العالي في العام 1517 يتفكّكُ في الحلاقيم التي لا ترحم لعصرٍ جديدٍ، بالسهولة ذاتها التي تذوب بها الحلوى التي يتناولها دون انقطاع من صينيّة مليئة بها دائماً بمتناول يده.

- هذا البلدُ قبر - قال لي - وعلى الرغم من اعتقادنا بأنّنا أحياء إلاّ أنّنا أموات.

لكنّه أخطأ لأنَّ جنرالاً فرنسيّاً شابّاً مسَّتهُ قبل ستّ سنواتٍ يد تلك الآلهة القديمة، الاعتباطيّة ، القادرة على تحويل الإنسان العادي إلى بطل، أقلع بأسطولٍ من ثلاثمئة سفينة ليحطّ في الإسكندرية، ولم يستطع أسطول الجنرال كما هو حال أسطول الحاج محمّد، الاحتماء بأيٍّ من الميناثين، لكنَّه أنزل ليلاً جيشاً فاستسلمت المدينة في اليوم التالي بذهول من يشرع من جديدٍ بكتابة فصلٍ جديدٍ من كتابٍ انقطع عنه منذ زمن طويل.

بعد ذلك الإنزال غير المتوقّع لم يبق شيء على حاله بالنسبة للجنرال الشاب، كما بالنسبة لمصر العجوز والنائمة. وعى الجنرال عظمته أمام الأهرامات التي تتأمّل غير مبالية كيف راح يهزمُ المماليكَ. لكنّه أيضاً تجرَّع حتى الثمالة كأس البؤس حين قضى الأسطولُ الإنكليزيُّ على أسطوله، وترك جيشه بائساً معزولاً في الصحراء ليهرب إلى فرنسا حيث ينتظره المجد الذي جانبه توّاً في الشرق.

هذا الجنرال المنتصر والهاربُ في آنٍ معاً هو نفسه الذي عُيِّنَ قبل وصولي بقليل إلى فرنسا عام 1801 وبعد عودته من مصر قنصلاً أوّلاً. علمتُ في الإسكندريّة أنّه أعلن نفسه إمبراطوراً تحت اسم نابليون الأوّل في ذلك العام 1806، وصار أقوى رجلٍ في العالم بعد انتصاره في لودي، أركولا، ريفولي، مارينج، أولم، أوسترليتز، يينا وفريدلاند.

بعدٍ فترة قصيرة من هروبه من مصر نزلت في أبي قير القوّات التي أرسلها البابُ العالي وغالبيّتها من المرتزقة الألبانيين. هؤلاء الفلاحون الشرسون المولودون في الجبال الوعرة التي تفصلُ الأدرياتيك عن الشرق، المتحدِّرون من البلاسغيين القدماء من أمثال أخيل والإسكندر نفسه. حملوا الناس على تسميتهم بالأرناؤوطيين أي البواسل. كان زعيمهم مقدونياً وُلِدَ في العام الذي وُلِدَ فيه بونابرت، الذي شاطره أيضاً أصلَه المتواضِعَ. وشرع الفتى بالتدرّب على الحياة العسكريّة والإداريّة التركيّة بفضل رعاية حاكم مدينه كافال، الذي قدّر فيه الذكاء الفطري غير المعهود، لكنَّ صداقة حاسمة مع أحد التجار المرسيليين حرَّرت محمّد علي من التحوّل إلى موظَّفٍ محلّي متواضِعٍ، حين كشف له عن أنوار الحضارة والتقدُّم.

هذا هو الرجل الذي هزم جيشَ نابليون، ويستعدُّ الآن للتخلُّصِ من

حلفائه واحداً بعدَ الآخر. كان إلفي باي يعسكرُ مع مماليكه على بعد فراسخَ قليلة من الإسكندريّة، وعثمان بايٍ يعزِّزُ قوّته في أعالي مصر، وموسى باشا يتصرَّفُ مثل ملك مستقلٍ صغير في القاهرة. وأمامهم جميعاً كان محمّد علي الواثقَ من ذكائه وحنكته لإقامة دولة حديثةٍ، تُعلنه حفنة الألبانيين المثيرين للشغب نائباً للسلطان على مصر.

أثار اقترابي من الأميرال الذي يمثِّلُ البابَ العالي العثماني حفيظةَ الإنكليز والفرنسيين وجواسيس العصابات المتصارعة فيما بينها، والذين لا يُحصى عددُهم. لاحظتُ أنَّ الجميع يتطلَّعون إلى التخلُّصِ منّي، وأنَّ أيَّ كلمةٍ بريئة أو حركة مهما كانت عفويّة وساذجة تُفسَّرُ كدليل لصالح هذا الفريق أو ذاك. وكنتُ أميل لتأمّلِ الطبيعةِ أكثر ممّا إلى المشاركة في دسائس البشر، ولم يكن في نيَّتي الالتزام بأحدٍ. لكنّني بمخالطتي للإسكندريين المتنوِّرين؛ ومشاركتي في نقاشاتهم التي تلي المحاضرات العامّة التي يلقيها الأئمّة في المساجد الرئيسيّة، راح يتملّكني حنين عذبٌ ومرٌّ في آن معاً.

كثير من الأسباب التي سمعتُها من شفاه الشيوخ والعلماء والتجّار والمتنوِّرين الآخرين المشاركين في الجدالات، حرَّكت في نفسي أجواء الاضطراب والأمل التي أثارتها أفكاري في المغرب.

مثلَ وقتذاك في بيتي كاتبٌ فرنسيٌّ توّاقٌ لمعرفتي. كان الوقتُ باكراً ولم يبدأ الخدمُ عملهم بعد. استقبلته في الحديقة كما يُستقبلُ الشيخ، ملفّعاً بضباب الصباحِ الأوّل. قال لي إنّه جاء من زيارة له للقدس والأماكن المسيحيّة المقدَّسة. بصراحة كنتُ معجباً به فقد قرأتُ بمتعة وذهول معظمَ أعماله.

ـ آه، يا عزيزي عطا الله، آه، يا عزيزي رينيه ـ هتفتُ وأنا أعانقه.

أحسستُ بدهشة فيكونت شاتوبريان أمام الحدث، غير المعهود بالنسبة إليه، وهو أن يعرف مسلمٌ كتاباته ويُقدِّرها. كانت برهة حَرَجٍ لطيفة. كثيراً ما يرتبط خيلاء رجلٍ عظيم بحجم فطنته.

تابعنا حوارنا بواسطة مترجم. كل شيء بدا كأنّه يحدثُ على هامش المدينة الغافية، ومع ذلك فقد انحرف حوارنا باتجاه الحالة الحرجة في مصر.

ـ هذا البلدُ مشبع بالموت. الماضي يُحنِّطُ الحاضرَ ولستُ واثقاً بأن يكون مستقبله مختلفاً. لا أجدُ باستطاعتي أن أرى في محمّد علي إلا مسخَ جنين لطاغية مستقبلي ـ أكّد.

استغربتُ وأنا أسمعُ من شفتيَّ دفاعاً حارّاً عن نائب السلطان.

ـ من الصعبِ العمل في السياسة بطريقة غير مرتهنة بالظروف، وبحرّيّةٍ داخلية مطلقة. أظنُّ أنّك تبخس جهودَ محمّد عليّ بتحويل هذا البلد القديم، أيّها الفيكونت. لا شكَّ أن جهوده مصبوبة في هذه اللحظات على تثبيت السلطة في بلدٍ مهدَّدٍ بالفوضى، لكن...

ـ ويعتمد من أجل هذا على الأرناؤوطيين الألبان الأفظاظ، الذين ليسوا أكثر من شرذمة من المجرمين ـ قاطعني.

ـ ما زال لا يستطيع الاستغناء عنهم ـ أجبتُ ـ لكنّني واثقٌ من أنّه لا يحترمُ كثيراً قواتٍ بهذا التهوّر والجموح. فهمتُ أنّه بدأ يحشدُ جيشاً من الفلاّحين أسلم زمام تدريبهم لمدرِّبين فرنسيين.

ـ من المُحال إنعاش جمهورٍ من الفلاّحين المعتادين على القمع الوحشي بنفخة من الحضارة. ـ أكّد بازدراء.

ـ إذا كان هناك من هو قادر على تحديث هذا البلد الذي نام لمئات السنين فهو محمّد علي. ـ ألححتُ بحماسة ـ سياسته الخارجيّة فطنة وذكيّة. استطاعَ الحفاظ على استقلال معتدل عن تركيّا، ويعرفُ كيف يستفيد من علاقاته الطيّبة مع الفرنسيين للإبقاء على مطامع الإنكليز على الحدّ.

ـ ربّما كان دبلوماسيّاً حذقاً، يا علي باي ـ اعترف، لكنَّ جبينه العريض تقطّب ـ قلْ لي ماذا يفيد الاستقلالُ الخارجي هذه الأمّة البائسة ما دامت السياسةُ الداخليّةُ استبداديّة؟

ـ سمعتُ أنصاره يقولون بأنّ مشاريعه تجديديّة ـ أجبتُ ـ فهو مستعدٌّ لإصلاح الإدارة، إحداث سجلٍّ عقاري وإيجاد نظام ضريبي عقلاني. يبدو أنّه يؤيّد توزيع الأراضي على الفلاّحين، وهو مستعد لإقامة نظام ريٍّ هائل من أجل ذلك، وتَبَنّي زراعات جديدة مثل قصب السكّر والقطن.

ـ أرى في كلماتك عاطفة أكثر من بصيرة، يا علي باي ـ اعترض ـ

أين تريد أن تجد هذا الكنز من الغايات الطيّبة؟ مختبئاً تحت جلد طاغية؟ أظنُّ أنّك تزرع رغباتك الخاصّة في رعدٍ وتصرُّ على تزيين حلاقيم ثعلب بكلماتك الجميلة.

للجاذبيّة أو النفور اللذين يدفعاننا سرّاً للعمل أسبابٌ لا نستطيع سبر كنهها كاملة. لقد هيمن هذا اللغز على حياتي كلّها، أخضعها للقدر وقادني إلى حالاتٍ غير منتظَرَة. ولم أتوصّل إلى التعُرفِ على اللغز الذي يلهم الحياة ويحوّلها إلى امتياز غير معهودٍ وغير متوقّع في هذا الجانب الغامض والمغلق على الفهم. لم أهتمّ بتحذيرات شاتوبريان. وقرّرت الانطلاق بحثاً عن محمّد علي لأنّني رأيتُ فيه ما كان من الممكن أن أكونه. لكنّ الإنسان لا يكشف عن نفسه بصراحة تامّة ولا حتّى أمامَ نفسه، فالاعتراف بأنَّ محمّد علي على وشك أن يُحقّقَ ما لم أستطع تحقيقه في المغرب كان يعذّبني، لأنّ مهارته تكشف بجلاء عن تعثّري، وحتمية انتصاره تجعل فشلي أقلّ احتمالاً. ومع ذلك أجدُني مستعدّاً للتنازل عن حرّيتي وتقديم نفسي إليه دون تحفّظ لأساعده في إتمام المهمّة التي لم أنجزها أنا.

بهذه الحالة النفسيّة أبحرتُ في مركبٍ بثلاث سواري نفخ الهواء أشرعته اللاتينيّة على الفور. فرضَ النيل الاتّجاهَ منذ أن وصلنا مصبّه، انزلقنا ببطءٍ بين القصب العملاق ومزارع الرز.

بدّلتُ في الرشيد مركبي بزورق بلا أشرعة ولا مجاديف يتحكّمُ به مردي يديره أربعة رجالٍ في القيدوم. من شرفة قمرتي لمحتُ قريةً غطّيت بيوتها بكرات من الطين المشوي يُعشّشُ فيها الحمام. سحابة من الحمام حلّت محلَّ السماء، وحلّقت فوق قطيعٍ من الجاموس توغّل في ماء النهر بعيون مغمضة.

نزلتُ يومَ العاشر من تشرين الثاني في القاهرة، وعلى الفور أعلمتُ المثلوطي بوصولي. لم أبغ أن يكون مروري مغفلاً. نقل هذا الشيخ المغربي، زعيم حجّاج بلده الخبر، كما رغبتُ، فوراً إلى الشريف أو رئيس الشيوخ سعيد عثمان المكرم، الذي وضع تحت تصرّفي عدداً كافياً من الجِمال لنقل أمتعتي. طفتُ بتأنٍّ شوارع الرمل المرصوص التي تتجوّلُ فيها دوريات الأرناؤوطيين المتعجرفين الذين كانت صدّاراتهم مزيّنة بقطعٍ معدنيّة، وأقماع فضّية ترنّ مثل الأجراس.

رافقني المثلوطي، الذي يرافقه عددٌ متزايدٌ من الوجهاء إلى بيته ذاته الذي أعدّه لمبيتي.

صبّ الخدمُ الماء وبدأت وضوئي. رجلٌ راح ينظر إليّ بإمعان. تأملتُ ملامحه المعكوسة في الحوض. وجهه، نظرتُه، أساريره ذكّرتني كلها بمولاي سليمان. انتبه إلى ارتباكي.

ـ لا تنشغل ـ قال لي، كاشفاً عن صفٍّ من الأسنان البيضاء والتامّة

ـ لستُ أكثر من متشرِّد.

ـ ظننتُ للحظة بأنّني أرى وجه صديقٍ قديم.

ـ صديق؟ ـ ابتسمَ بمرارة ـ لا تسِئ استخدامَ هذه الكلمة الجميلة بإلصاقها بقملة. أعرف أنّك عملت في خدمته. يبدو أنّ للقمل في المغرب خدمٌ.

كدتُ أحتجُّ بغضب حين كشف لي أنّه مولاي سلامة، أخو مولاي سليمان، لاجئ في القاهرة. وما إن أفرغ حقده على السلطان حتى انهار كرجلٍ مُنهك.

ـ ماذا تريدُ منّي؟ ـ سألته وأنا أتخذُ وضعيّة مريحة بجانبه على السجّادة.

ـ قليلاً من الماء النقيّ كي أرطّب ذكرى بلدي، قليلاً من السكّر كي أُحلّي غيابه وبعدها الحقيقة. ومن الحقيقةِ أريدُ إبريقاً كاملاً. أعرفُ قصّتك، وأعرف أنّك توقّفت حيثُ يمرّ المسافر عرضاً. لا تنكر عليَّ ما رأيت. فلتُعد لي عيناك العينين اللتين انتزعتهما منّي الصحراء.

أظنُّ أنّني استطعت إرواء ظمئه. لم أُخفِ عنه شيئاً. اعترفتُ له بآمالي بتحويل بلده ووضعتُه في صورة خططي الخائبة.

بعد ساعات أُعلم محمّد علي بكلٍّ تلك الحوادث. تلك كانت رغبتي. عمل مولاي سلامة بشيراً لمساعيَّ، فأرسل نائب السلطان في طلبي على الفور.

تفحّصْتُ بتأثرِ ذلك المحارب الصغير والحيويّ، بوجهه المجدور الذي تبرز فيه عينانِ حيويّتان وحادّتان مثل حدٍّ السكين. عثرتُ أخيراً بعد أن قطعتُ طريقاً طويلاً على الرجل الذي يوشك أن يحقّق أحلامي. هذا ما قلته له.

ـ ألا يبدو لك أنّك تعيشُ كابوساً؟ ـ سألني.

ـ أنتم على حقٍّ من جانبٍ واحد. ما كان باستطاعتي أن أصيره ولم أصره شيء ليس واقعاً، بل واقع مخلوط بالرغبة، ويغوص ويتلاشى جوهريّاً في عالمٍ حلم لن ألمسه بعد الآن، فهو بدءاً من الآن وبفضلِ آخر سيصبح حقيقةً.

ـ أجهل الأسباب التي تدفعك للاعتقاد بأنّك ستكون ذا فائدة في خدمتي، فأنا واثق من أنّ أحلامك سجنٌ لن تستطيع أبداً التخلُّصَ منه. لا تُسلِّمني مفاتيحَ هذا السجن، أو تجبرني على المشاركة فيه. أريد ليديَّ أن تكونا طليقتين كي تعملا حسب ما تتطلّبه الحاجة والظروف.

ـ إذن لا تقبلون عرضي؟

ـ على العكس. أطلب منك مغادرة مصر بأسرع ما يمكن. فالأحلام لا يمكن المشاركة بها إلا عندما تكون محضَ أحلام. فما أن تسير عربة الواقع التي لا ترحم حتى تختلط الأحلام التي لم تتحقَّق مع الوعي، فتصبح مثله مثيرةً للأعصاب. فهمتُ أنَّ هدفك الأوّل هو متابعة الطريق إلى مكّة. ستتابع طريقك على الفور. لستُ رجلاً حالماً، يا علي باي. أنا صاحب مصر.

الفصل الثالث والعشرون

عندما يحلم الجميع

لن تنطلق القافلة المتوجّهة إلى مكّة حتى نهاية رمضان. صمتُ رمضان مضاعفاً، لأنّني لم أكن ممتنعاً عن تناول غذاء الجسد خلال النهار وحسب، بل ومحروماً من غذاء الروح الذي هو صداقة البشرِ أيضاً. عانيتُ من الانتظار في عزلة مطلقة. كلُّ الذين احتفلوا بوصولي وأكّدوا لي ودّهم ووفاءهم صاروا يُعاملونني كموبوء. على النقيض من البؤس الذي يمحقُ الشعبَ كان كبار الوجهاء والمشايخُ والتجّار في القاهرة يشكّلون مظهراً متحرّراً وأرستقراطيّاً. لكنّهم على الرغم من الأبّهة والعادات المصقولة التي تحكم حياتهم، يخضعون مثل أيِّ فلاّح معوزٍ لدكتاتوريّة حديديّة لرجلٍ واحد. كفت إشارة واحدة من محمّد علي كيلا يقبل أحدٌ أيّ تعاملٍ معي.

انتهزتُ الفرصة لزيارة الأهرامات، الخرساء التي لم تتبدّل منذ أربعة آلاف سنة. حاولتُ أن أقلّدَ عنادها الحجري واستغلاقها كما لقبر أمام النظرات الغريبة. انغلقتُ على نفسي، لكنّني لم أجد حتى في هذه الرفقة الحتميّة واللطيفة عامّة عزاءَ الشريك. أيّ معنى لهذا الرحلة المعلّمة بالفشل؟ قليلاً أسمع الضحكات المجلجلة والسعادة الطافحة للأثرياء، الذين بينما تستمرّ فترة التوبة يعيشون هم العكس. ينامون النهار ويبشمون ويمرحون ليلاً. كانت تلك الفترة من الضنى، بالنسبة لحشود الحجّاج الورعين الذين بدؤوا يملؤون شوارعَ المدينة، مختلفة

تماماً؛ يعيشون أهمَّ رمضانٍ في حياتهم، فعليهم أن يصفّوا حسابهم مع الماضي، قبل أن يغادروا ويستعدّوا ليتحوّلوا إلى آخرين مختلفين. كنتُ أراقبهم بارتباك. حماسهم الفظّ والإنساني بشكلٍ مرعب، يتخطّى جمودَ العقائد الدينية بنعومة نظرة طفل ويوحي إليَّ ببعض المشاعر البدائيّة، الأوّليّة والجيّاشة، الشبيهة بطعم ثمرةٍ قُطِفت توّاً.

لم أستطع أن أعتبر نفسي واحداً منهم. ومجتمع القاهرة المثقّف والمنفتح يفصل بيني وبينه النفاقُ. وعن الحجّاج الجَهَلة والسذّج يفصلني الإيمان والخشونة. خلال كلّ هذه السنوات التي مررت بها على أنّني مسلم شعرتُ بنفسي دجّالاً.

غادرتُ القاهرة في نهاية رمضان يوم الخامس عشر من تشرين الثاني من العام 1806. لم يأت لأحد لوداعي. وكان موكبي يتألّف من أربعة عشر جَملاً وجوادين. في أنشاص على بعد نصف فرسخ إلى الشمال من المطريّة انتظرت عدّة أيّام كي تكتمل القافلة الكبيرة، فالقافلة تحاك ببطء شديد كالسجّادة. وحدَها النجوم أضاءت الرملَ في الليلة الأولى. لكن في الأيّام التاليّة تدفّق نهر من البشر من مختلف الأجناس وبلا انقطاع، فاشتعلت آلاف الصلاءات في الوادي المقفر، حيث راح لهبها الضارب إلى الحمرة يرتفع في أفق هو في كلّ مرّة أبعد. غالبيّة الناس كانت بسيطة، وصلت إلى هناك بعد حياة كاملة من التوفير والحرمان، لتأمين حاجيّات أسرهم أثناء غيابهم ومواجهة النفقات الباهظة لرحلة طويلة وخطرة، دفع الديون بل وتوزيع جزء من أموالهم صدقاتٍ للمحتاجين. خلال القسم الأوّل من سير الرحلة اختاروا رفيقاً أميناً، يثقون بشجاعته وورعه وفضيلته لمواجهة الخطر أو القنوط. بينما كنتُ أنا وحيداً تماماً.

عندئذٍ سمعتُ صوتاً يصيح في داخلي.

ـ تنازلتَ عن عالمك لتأتي للقائي، أنت حاجٌّ حقيقيّ، لن أتخلّى عنك الآن؟

رفعتُ يديَّ إلى السماء وأجبتُ علي باي خانقاً كلماتي في سرّي:

ـ حقيقةً كنتَ صديقَ سفرٍ وفيّاً. معاً ودّعنا الوطن والأسرةَ مرَّتين في إسبانيا وفي المغرب كي نسير طريقاً مضطرباً . فإذا كانت قدماي حتّى الآن قدميك وصحّتي صحّتك وحظّي حظّك فعليك النهوض بي الآن

بإيمانك، يا علي باي. فإيمانك يجب أن يكون إيماني. ولتكن زيارتنا لقبر نبيّك محمّد سعيدة للاثنين.

في اليوم الثامن عشر ظهراً سمعنا إشارة الانطلاق فتحرّكت الصحراء كلّها. هاجت في زواياها غير المرئيّة صفوفٌ طويلةٌ من الجِمال، والتحمت في نسيجٍ بطيء وجليل، وتجرجرت فوق الأرض الطريّة الخالية من الأشجار. وبما أنَّ القافلة كانت تمضي ببطء تقدّمتها إلى رابية وعددت خمسة آلاف جملٍ وثلاثمئة حصان.

لا يبلغ طولُ الطريق من القاهرة إلى السويس إلا أربعين ميلاً، لكنّه شاقّ للغاية، فخيوط الشمسِ تحوّلُ الرملَ إلى مسحوق بلّورٍ، ويمضي في معظمه بين خليجين ضيّقين، يشكّلهما البحرُ الأحمرُ، تتشكّلُ بينهما شبه جزيرة قاحلة. تمنحُ سيناء اسمها لهذه الصحراء المثلّثة، في رأس زاويتها تقومُ السويس. المدينة المحاصرةُ بالرمل ولا ماء فيها لا تستطيع أن تمنح النجدةَ للحجّاج، لكنّ سِكينات البندقيّة ودوروات إسبانيا وقروش تركيّا وسكودات ألمانيا السميكة تفعل المعجزات. فمن الجبال الشرقيّة البعيدة يأتون بقرب الماء النقيّ تماماً يُدفع ثمنه بالذهب الخالص. المسلمون الأربعمئة والمسيحيّون الثلاثون الذي يقطنونها تجّار ولصوص أسواق. ونظراً لموقعها الجغرافي فإنّها تعتبرُ مفتاحَ مصر. لكن على الرغم من حجم الأموال المعتبرة التي تتحرَّك داخلها، إلاّ أن بيوتها تتهدّم ولن تكون قريباً أكثر من كومة من الخرائب.

لم تمنع حركة السير التي لا تنقطع الميناءَ من أن يكون بائساً، فمع الجزر تنحسر المياه ويتحوّل المكان إلى غمرٍ بسيط، والأخبار لا تدخل إليه وتخرج إلا مع عودة المدّ. أبحرتُ في واحدٍ من تلك المراكب التي تمخرُ البحرَ الأحمرَ بأرضيتها المضغوطة بحيثُ تبدو من حجارة. كان ينقل حمولةً من فضّة مسكوكة في أكياسٍ مختومة. بدأ حبل ألياف النخيل غير المرن منذ اللحظة الأولى يُطقطِق. كان المركب ينزلق بين أرصفةٍ ضيّقة تبرز في الماء. أربعة أو خمسةُ رجالٍ يتفحّصون سطح البحر من القيدوم باستمرار، ويعلمون مديرَ الدفّة عن الصخور بأعلى صوتهم، فينقاد كالأعمى بتلك الأصوات المتوتّرة التي كثيراً ما كانت غير مفهومة.

مررنا، على الرغم من صعوبة الإبحار ، بكثيرٍ من المراكب. فالبحر الأحمر هو الطريق المعتادة لمنتجات الهند، فارس وجزيرة العرب، لكنّ البحر أكثر طمعاً ونهماً من البشر، فكثير من هذه الكنوز والبحّارة والتجّار يلقون حتوفهم في أعماقه.

اكتسبت المياه في اليوم العاشر سكوناً ولونَ حديد صدئ. شعرنا بها باردةً جدّاً ومرتعشة كأنّها أحسّت بالعاصفة، التي سرعان ما أفلتت من عقالها فارتطمت أرضيّةُ المركب بالصخور المعمَّمة بالأمواج. تمزّقت الأشرعةُ وعلقت مزقها بالسواري مثل ضمادات مذعورة وتقطّعت حبالُ المراسي إرباً.

نزل طاقمها عن السواري ولجأ إلى الجسر، ليصلّي حول القبطان تازي الذي كان يعوي بدعاء يقطعه الغثيان. صحتُ بهم ليعودوا إلى مواقعهم، لكنَّهم أجابوني بأنّهم لا يستطيعون عملاً غير طلب رحمة الله، فعرفتُ أنَّ المركب متروكٌ لغاربه، وعندها شققت طريقي إلى زورق النجاة ولم يتبعني غير رجالي. راح بقيّة الركاب يبكون ويصرخون مثل الأطفال لكنّهم بقوا بلا حراك فاقدي الإرادة، مصعوقين.

وما إن قطعتُ الحبلَ الذي يربطنا بالمركب حتى ابتعد عنه الزورق الذي صادرته الأمواج. كلّ ذلك حدث في ثانية. لاذ رجالي في قاع الزورق متأسفين للحاقهم بي، واضطررت لأنّ أفرِّغ عدّة ضربات من قبضتي كي ينزحوا الماء ويمسكوا بالمجاديف. جعلتهم يربطونني إلى الدفّة، وحاولت أن أهتدي في الظلمة وأنا أشعرُ بسياط البحر والمطر والبرد فوق ظهري العاري. وحين كان التقيّؤ يسمح لي كنت أغنّي لأوقّع للتجديف، بينما الزورق يصطدمُ أحياناً بصخرة غير مرئيّة فتنخلع قلوبنا حين سماع صوت الاصطدام وتنشلُّ المجاديف، ولا تعود لتحرّكَ رعشة العضلات اليائسة غير تلك الأغنية الساخطة المرتفعة فوق ذلك الرعب؛ فتنحني ظهور الرجال بإيقاع واحدٍ كما في الصلاة.

عند انبلاج الصبح هدأت العاصفةُ، وفوق بحرٍ غير مبالٍ صحّحت الاتجاه نحو شواطئ جزيرة العرب، ونزلنا بعد ثلاث ساعات منهكين في جزيرة صغيرة بلون وشكل اللوزة لا ماء فيها ولا نبات. لاحظتُ أنَّ أولئك الرجال يستعدّون للموت جوعاً وعطشاً بعزم من يستسلمُ للحب

الشقيّ. كانت أجسادهم الشابة تلمعُ زاهيةً بين المزق التي صارت إليها ثيابهم، لكن الإذعان الشبيه بالقناع في وجوههم كان مرعباً وهو مطلق.

بعد ساعات عبر زورقٌ نظراتهِم المؤثّرة مقترباً من الجزيرة، وسمعوا دون مفاجأة بحّاراً يعلن لنا بصوتِ زيز بحريّ أنّ مركبنا نجا أيضاً. عندئذٍ فقط أزاحوا عنهم الشؤمَ الذي أرخى عضلاتهم، وتراقصت في أساريرهم لبرهة قصيرةٍ علامة فرحٍ، ونظر إليّ الجميع فقرأت في عيونهم التأنيب.

ـ اللهُ أكبر! ـ دمدم الأكثر شيخوخة ـ لماذا تحدّي إرادة الله؟ باتباعك عشتُ أمرَّ لحظات حياتي. ونظراً لرفضي الخطر والشقاء شعرتُ بجانبك في هذه الجزيرة الصغيرة بغياب الله.

أخذنا المركبُ، وأكّد لي استحضار تلك الكلمات خلال العبور أنّني لم أكن واحداً منهم. تابعنا طريقنا دون حوادث حتى الربض على حدود الحرم، أرض الإسلام المقدَّسة. ارتطمت مقدّمة المركب بالرمل ليسهلَ علي الحجّاج أوّل طقوس التطهّر مثل جملٍ ينخّ ليسمح لراكبه بالنزول. تخلّصنا قبل أن نطأ الأرض المقدّسةَ من ثيابنا، وتوضّأنا عراة تماماً بالماء والرمل، ورتّلنا كلمات دعاء التلبية، حلقنا عاناتنا وشعر آباطنا وقصصنا أظافرنا وسوّينا شواربنا. ثم ازدرينا ملابسنا السابقة، ولففنا خصورنا بقطع من قماش أبيض اللون غير مخيط يهبط من ظهورنا، ويسقط بوداعة من الكتف الأيمن. عندئذٍ استطعنا أن نطأ الأرض التي كلُّ حبّة غبار فيها مباركة ومشبعة بالفضيلة والبركة.

وصلنا إلى خليج جدَّة يومَ الثالث عشر من شهر ذي القعدة دون تأخّر ونحن في هذا اللباس. جفّفت رياح الصحراء العربيّة جلودنا على الفور، ومزّقت الورقة التي أردتُ أن أسجّل فيها انطباعاتي الأولى. ومع توغّلنا في الشوارع اصطدمنا بأعدادٍ هائلة من الكلاب السائبة. عرفنا فيما بعد أنّها مثل البشر مجتمعة في قبائل وكلُّ قبيلة تريد السيطرة على منطقة. ومع ذلك كان سلوكها أقلّ إخافة من أهلِ جدَّة الجشعين، الذين يحاولون دائما خداع وغشّ الحجّاج. كانت كلفة الطعام والاستضافة عالية جدّاً، ومن الصعب الحصول على مطيّة صالحة لعبور ذلك البلد المقفر.

حصلتُ على بعض الجِمال بسعر الخيل، وانضممتُ إلى قافلة كانت في طريقها إلى مكّة. وبما أنّني كنتُ واهناً جدّاً بفعل الغرق فقد ارتجل رجالي شيئاً من عيدانٍ غطيت بالقماش تحمي فراشاً وضع على ظهر الجمل. كنتُ أسمع من خلف القماش المشبع بالنور صياح الأدلاء العرب الذين يتنازعون على أقلّ الأشياء أهميّة. لم يكن هناك من يعطي أمراً بالانطلاق. أخيراً وفي حدود الساعة الخامسة والنصف مساءً هدأت الأصواتُ، وتوغّلت القافلة في الصحراء مثل ريح عليلة.

وبما أنَّ المنظر خال من الأشجار التي يضع المسافر نظره عليها، فإنّ شيئاً لم يكن ثابتاً من حولنا. والبصرُ يضيع في تتالٍ لا ينقطع من الأفق المشبع بالنور، وهو من اللاوقع تماماً مثل الجبال البعيدة ذات الجانب الأحمر، التي ترتفع إلى الغرب وتختفي بجانب شمس الغروب. لم نصادف إلاّ بعض محلاّت البدو ببيوتهم المصنوعة من سعف النخلِ، والمعدّة لإيواء القوافل، تنفتح في داخلها صدوع مظلمة نستخرج منها بدلاء الجلد ماء مالحاً مختلطاً بالرمل. كانت الجمال تتغذّى على قبضات من الدخن المقطّع بعناية يقدّمها أصحابها لها على حصير بما يشبه مفرش المائدة. وكانت صفوفُ الجمالِ الناخّة وهي تجترُّ العشب الشائك والخشن تختصرُ بالنسبةِ إليّ صرامة إقليم لا يكاد يملك موارد للحياة، حتى الحيوانات تجدُ فيه نفسها مجبرةً على اتخاذ مواقف صوفيّة.

أيقظتني يوم الخميس الثالث عشر من كانون الثاني الموافق للرابع عشر من ذي القعدة من العام 1221 هجريّة صرخة فرحٍ، وحين أزحتُ ستارة الهودج، لمحت في منتصف الليل، برحمة من العلي القدير، المدينةَ التي تتّجه إليها عيون ملايين البشر في العالم. مكّة، المحفوظة بين الجبال دون أسوارٍ تشكّل هلالاً داكناً مثل الفحم حول بيت الله، الذي ينحلّ طيفه الأسود في تاجٍ من القناديل.

هبطنا باتجاه الوادي مثل سيلٍ من البشر. بعد خمسة عشر شهراً من خروجي من المغرب، وثلاث سنواتٍ ونصف من خروجي من إسبانيا، جئتُ مريضاً ومنهكاً على ظهر جملٍ أكثر تأثّراً منّي الأمتارَ الأخيرة التي تقود إلى قلب الإيمان، الأكثر بساطة والأكثر عمقاً الذي رأيته في حياتي. توضّأتُ قبل دخولي المعبد وضوءاً عامّاً. الدين دائما

وعدٌ. حاولت أن أستجمع ما تبقى عندي من قوّة لأستطيع مراقبة ما يمكن أن يوجد من حقيقيٍّ في تلك الطقوس الغريبة. طفتُ بمساعدة خادمين الشارع الرئيسيَّ، ودخلتُ المقامِ من باب السلام بعد أن خلعتُ نعليَّ وعبرتُ الفناء الهائل الذي تتوسَّطُه الكعبة. كانت كلماتُ الدليل تنبض فيّ، مثل الريح بين الثنايا الكثيفة السوداء التي تغطّيها سبيكة مرتعشة أمام المجهول.

ـ انظروا، انظروا بيتَ الله الحرام.

كنتُ على الطرف الآخر من النظرة التي يُحاولُ ملايين البشرِ أن يتأمّلوا كلَّ يوم من خلالها ما هو خفيٌّ. كيف لن أحاولَ نبشَ ما هو موجودٌ في هذا الثوبِ من الظلّ الذي يرتعش، ينتشر، ينكمشُ ويتمطّى دون أن يبدو أنّه يغطّي شيئاً آخر غير الارتعاش.

شعرتُ حين قبّلتُ الحجرَ الأسودَ بأنَّ شفتيَّ ترتاحان على ظلٍّ يرافقُ كلَّ إنسانٍ، وينطوي تحت الظلِّ المتخيّل عن نسختنا على شحنةٍ من الفراغ والموت تشكّلُ متاعنا الحقيقيّ.

ـ يا رب، يوم لا ظلَّ إلا ظلّك ـ يقول المُطوِّفُ.

القبول بهذه الحقائق الأخيرة يشكّل هيكلَ كلِّ دين. انقدتُ بين أيدي أتباعي سبع مرّات حول الكعبة، كمن يترصّدُ بلا راحة الستار الذي يغشى أحشاء الليل الذي ينتظرنا. ولم أستطع أن أتلقّى غير البريق المصفّى، النقيّ والدقيق للظلمة.

انتزعوني من هناك ممسوساً بخدرِ حدسِ ما ليس موجوداً وحملوني إلى مقام إبراهيم وهو بناء صغير يقوم على ستة أعمدة يحميه سياجٌ حديدي. يبجّلُ هناك مذبحٌ ـ المقام ـ الذي يبدو أنّه كانت تجمع فيه أضاحي الدم في أزمنة أخرى، ويحتفظ حتى الآن بأثر البطريرك. صلينا صلاةً جديدة بعد تلك الوطأة التي تغوصُ في الحجر وتذوب في الهواء.

على بعد عشر خطواتٍ فقط يقع بئر زمزم الرخاميّ الذي ينضح ماءً على الأرض، شربتُ منه، منهكاً كما كنتُ، بالعزم الذي نكتشف فيه الهبات البسيطة والرائعة التي تسمح لنا بالحياة. اعتقدتُ أنّني عدتُ من عالمٍ آخر.

غادرنا بعد تقبيل الحجر الأسود من جديد المعبدَ من باب الكفا منتبهين كيلا نخرج بالقدم اليسرى. على بعدِ خمسين متراً وفوق الشوارع المرتفعة للمدينة يوجدُ فناء من ثلاثة أروقة فوق أعمدة . من تلّ هذا المكان المقدّس والعالي كانت تشاهدُ الكعبة حيث تتحوّل النظرة من جديدٍ إلى صلاة. اجتمعنا مرةً أخرى ورحنا نجري في موكبٍ، نصرخ بصوت يصمُّ: لا إلهَ إلاّ الله. صعدنا جبل المروة وكرَّرنا العمليةَ سبع مرّاتٍ بين التلّين، داخلني نعاس عميقٌ أخرجني من ذاتي تماماً، فتلاشيتُ بين أذرع خدمي بينما الحلاّق يحلق لي طقسيّاً آخر خصلة من شعري وسطَ الشارع.

ارتحتُ طوال اليوم وعيناي عالقتان بجدران إقامتي البيضاء. منذ وصولي إلى مكّة وأنا أشعر بنفسي غارقاً في عالمٍ هندسيٍّ غريبٍ، لم أتمكّن بين خطوطه الأوليّة من معرفة ما إذا كنتُ في المطلق أم في الفراغ. ولم أعد إلى المعبد إلاّ لصلاة الجماعة ذلك أنّ اليومَ كان جمعة.

حضرتُ في اليوم التالي احتفالاً جليلاً يقام ثلاثَ مرّاتٍ في السنة، فتحَ شريفُ مكّةَ بابَ الكعبةِ، فتدافع حشدٌ جارف للولوج إلى داخلها، استطاع الحرس المؤلّف من الخصيان الزنوج كبحهم بشقّ النفس. ومن جديد سيطرت عليّ الحميّةُ. كنتُ أتأمّلُ ذلك المدّ المتوهّج من اللحم البشري، بينما الخصيان يضربونهم بهراواتهم دون رحمة حين انتبهتُ إلى يدٍ تضغطُ على كتفي. شقَّ لي خصيٌّ عملاقٌ الطريقَ بين الحشد بالضرب بقضيب الثور، وقادني إلى حيثُ ابن الشريف. قبّلتُ مفتاحاً فضّياً في يده، فتح به أبوه بيتَ الله توّاً، لكنّه لم يسمح لي بالدخول إليه. أجبرني الخصيُّ نفسه على مغادرة المعبدِ وقادني إلى قصرٍ.

كان الشريفُ غالب يدخّنُ نرجيلةً في غرفة مجاوِرة. خرطوم من الجلد يخترقُ الجدارَ عبر ثقبٍ ينتهي إلى شفتيه.

ـ ليس خطيراً أن يُخفي المرءُ نقطةَ ضعفٍ صغيرة عنده ـ قال مبعداً فم النرجيلة وكاشفاً عن أسنانٍ مسودّة ـ هاأنتَ ترى. لا أستطيعُ التخلّي عن التبغِ. اعتدتُ عليه. وأنت؟ هل استطعتَ أن تتخلّى عن تلك العادات والأفكارَ التي اكتسبتها بين الكفّار؟ فهمتُ أنّك عشتَ بينهم منذ طفولتك.

أجبرني على تكرار قصّتي، واستفسر منّي عن اللغات التي أتكلّمها والدراسات التي قمتُ بها.

- في نور عينيك شيءٌ يقلقُني، يا علي باي - كشف - نتأمّلُ نحن المسلمين العالمَ عبر الغروب بينما حدقاتُنا تستعدُّ لاستقبال الليل. لكنّني ألاحظُ في عينيك حدّة من يتلهَّفُ للوصول إلى الفجر وتكبُّر من يحتقرُ الظلمة.

- نورُ الإسلام هو نور الشرق - أكّدتُ - هل من الإثم التوقُ إلى حضوره؟

نظرَ إليّ بارتيابٍ، لكنّه بدَّل نبرة كلماته، صارت لطيفةً لكنّها خالية من العاطفة ملفوظة من رؤوس شفتيه.

- بالتأكيد عليَّ أن أعاملك كما يُعامَل الرجل الرفيع، نظراً لعلومك وتقواك التي برهنت عنها وكذلك لنسبك.

صفَّقَ صفقتين فمثلَ أمامنا شاب فاتن الجمال نظرَ إليَّ بعينين عذبتين وساحرتين.

- أنا أصبحتُ عجوزاً لا أستطيع أن أشبعَ جوعاً وأُطفئ ظمأً، لكنَّ نجيباً سيتكفَّلُ بالأمر.

قال لي الفتى بأدبٍ ساحرٍ إنّه قد حضّرَ وليمةً على شرفي سيحضرها كبارُ شيوخ المدينة. علمتُ عبر أحد خدمي بعد انسحابي إلى حجراتي أنّه واحدٌ من مسمّمِي مكّة. كان فتى وديعاً ورقياً مُكلَّفاً بمراقبة الشخصيات المهمّة في الحجّ، يستخدمُه الشريف غالب للتخلُّص من أولئك الذين يثيرون ريبته أو يكرههم لسببٍ من الأسباب، يُقدِّمُ نجيبُ إليهم كأساً من ماءِ زمزم بالطريقة التي لا تُخطئ، لأنَّ أحداً لا يستطيعُ أن يرفضَ الماء العجيب.

ذهبتُ إلى الوليمة مجهّزاً بثلاث جرعاتٍ من كبريتات الزنك، ومُقيِّئ أكثر فعاليّة من قرص العسل المُقيِّئ. لا أعلم ما إذا حاول تسميمي، لكنّني ما إن انتهت الوليمةُ حتى أفرغتُ كلَّ ما تناولته.

في المساء ذاته عبرتُ بالشريف الذي بوغت لرؤيتي واستدعاني على الفور. عانقني وقال لي إنّه واثقٌ بأنّني قادرٌ على تجاوز أقسى

التجارب التي يُخضعنا اللهُ إليها. وبالتالي دعاني للمشاركة في احتفال تطهير الكعبة.

فعل ذلك بعد خمسة أيّام من فتح بيت الله، وشكّل سقّاؤو بئرِ زمزم سلسلةً تخترق الناس وتنقل قِرب الماء المُقدّس إلى باب الكعبة، حيث يسكبها الخصيانُ الزنوجُ على الأرض الرخاميّة. تسقط هذه المياه الوسخة مع أنّها مُعطَّرة بماء الورد عبر أقنية صغيرة فوق المؤمنين، فيتلقّفونها ويشربون كلّ ما يستطيعون منها ويضعون الباقي على رؤوسهم. قلّدتُهم فرفعتني دوّامة من الأذرع فوق الرؤوس الحليقة ووضعتني داخلَ الكعبة. كان غالبُ نفسه يكنسُ الأرض بمكنسة صغيرةٍ من سعف النخيل، فقدّموا لي واحدة مثلها ورحتُ أكنسُ بإيمان ملتهب، لأنَّ الأرضَ صارت نظيفة تماماً، وعندئذٍ أعلنني الشريف خادِماً لبيتِ الله.

عند الخروج من المعبد وبينما أحاولُ حماية نفسي من حصار باعة التذكارات والأشياء الرخيصة، سمعتُ صخباً متنامياً ومتقطّعاً بانتظام يصعد بالاتجاه المعاكس لي. جمهور متراصّ من الرجال يصعدُ الشارع الرئيسي، لا يكادُ يغطّيهم إلا قطعة قماش عقدت إلى خصورهم، ومنشفة متدلّية على أكتافهم اليسرى، لكنّهم مُسلّحون ببنادِق الفتيل والخناجر المعقوفة. راح الجميع يجرون وكأنّ السماء سقطت. ترصّدتُ في رواقٍ فرأيتُ موجة من خمسة أو ستة آلاف رجلٍ في تشكيلاتٍ مغلقة بلا راياتٍ ولا طبولٍ. سمعتُ صراخ فرحهم حين الدخول إلى المعبد من باب السلام. من جبل الصفا إلى حيث ذهبتُ على الفور، رأيتهم يصرخون بجنون حول الكعبة، التي ماجت ستائرها مثل أجنحةٍ متراخية لطائر جريح. رؤوس بنادقهم حطّمت الثريات التي تحيطُ ببيتِ الله، ولعق نور الشمسِ بنهم الظلامَ الكثيف للنسيج الأسود.

وبما أنَّ خدم المعبد هربوا فقد تدلّوا من بئر زمزم مشكّلين برجاً بشريّاً. دلاء الماء الطريِّ راحت تمطر فوق ذلك الجيش من الأجساد العارية، فاكتسبت جلودها المبلّلة لوناً موحّداً لنحاسٍ صقل توّاً. وبما أنّهم لم يكونوا يملكون شيئاً حين غادروا الحظارَ، فقد تركوا كتقدمة

بعض حبّات البارود وخردق الرصاص وصمت الصحراء العميق في المعبد الفارغ.

هكذا احتلَّ الجيشُ الوهّابيُّ مدينةَ مكّةَ دون أن يطلقَ طلقةً واحدة. يلهمهم بذلك محمّد عبد الوهّاب الذي يُقالُ إنّه كان يتلو القرآن عن ظهر قلب وهو في العاشرة من عمره، ودرس في شبابه علم الفقة بجدٍّ في دمشق والبصرة وبغدادَ. وعند عودته إلي بلده في شبه الجزيرة العربيّة حيثُ تقضي صرامة الصحراء على كلِّ أساسٍ ماديٍّ لحياة البشر، وتضفي عليهم إحساساً بالتجاوز كعزاءٍ وحيد، ازدرى عبدُ الوهّاب كلَّ الذي تعلّمه لسطحيّته، وقرَّرَ العودةَ إلى قرآن طفولته والسنّة الأولى كمصدرٍ وحيدٍ للمعرفة. فصرخ عندئذ ضدّ البذخ الذي يعيبُ عري المساجد الأصيل، وضدّ العادات التي تجعلِ حياة الميسورين محتملة، وأقل احتمالاً منها حياة البؤساء. منعَ كلَّ تجديد وتبجيل الأضرحة الوثنيّة وزيارة القبور، واستخدام السبحة والزينة ومآذن المساجدِ، وكذلك تدخين التبغِ وتناولَ القهوةِ وسماع أو عزف الموسيقى وحلاقة الذقن.

كان تصلّبه يتعارضُ مع كلِّ الأذواق الشهوانيّة للكثير من المسلمين الذين تذوّقوا تحت السيطرة التركيّة الرخوة ملذّاتٍ من الصعبِ إبعادِ طعمها، ما لم يكن بطعم الصحراء. وهكذا فإنّ عبد الوهّاب تعرّض لاحتقار من لم يكونوا يمنحون الجمالَ وجهاً وحيداً، ويحبّون المباينة بين النتائج القصوى للروح وبين متطلّبات الجسد المعتدلة.

لكن في الدرعيّة، أماكن نفوذ آل سعود، حرّكت مواعظه قلبَ الأمير محمّد، الذي منح أفكارَه قطعيّةَ السيفْ، وتحدَّد الهدفُ بتحرير الإسلامِ من السيطرة التركيّة، والعودة به من جديد إلى الجوهر والنقاء.

لم ينقطع طوال ذلك اليوم تدفّقُ فرق المحاربين الجدد الذين يأخذون أماكنهم أمام قصر الشريف بعد تأدية الحجّ، حيثُ لجأ غالِب مع حفنة من الجنود العرب والأتراك والمغاربة. تدخّلَ الشيوخُ وبدؤوا مباحثاتٍ طويلةً ومستعجلة.

من جهتي تابعتُ الحجَّ، الذي كانت شعيرته التالية جبل عرفات، جبل النور، الذي تلقّى على قمّته النبيُّ محمّد القسم الأوّل من القرآن من

يد رئيس الملائكة جبرائيل. كان الوهّابيّون قد استولوا على محيط الجبل، ومنعوا الحجّاجَ من الصعود عبر الدرج المنحوت في الصخر الحيّ للصلاة في القمّة. عزموا وكما قلتُ على تنقية العبادة من كلّ بدعةٍ وكفر. وكانوا يرون أنّ الصعودَ عادة باطلة. ربّما لأنّ على الحواسّ ألاّ تتجاوز الحجابَ الأخيرَ الذي يلفُّ وجه القداسة الخفيّ في ذلك المكان، حيث تستوي قشرةُ سطح الأرضِ وتكتسب بهاء السماء المقلق نفسه. لم يتردَّدوا بتخريب القبّة التي تتوِّجُ القمّة كما يُخرِّبُ عشُّ نسر.

هكذا وفي وادٍ عميق أمام صخرةٍ غرانيتيّة بارتفاع مئة وخمسين قدماً، معزولة بشكلٍ عجيب عن الجبال الجليلة التي تحيط بها، يرتفع سرّها الذي لا يُطالُ نحو السماء يلفّه نورٌ حارق، توقّفت قوافل المغاربة والبربر واليمنيين والسودانيين والحبشيين وسوريّي البصرة وعرب أعالي وأسفل مصر وأتراك آسيا الصغرى والهنود والجاويين، ذلك الفسيفساء الذي لا يحصى من الناس من كلّ القوميّات والألوان، القادمين من أقاصي الأرض عبر آلاف المخاطر والتعب لعبادة الإله نفسه جماعةً.

انحنت عند صلاة العصر آلافُ الظهور انحناءة واحدة، لم أكن واحداً منهم، هكذا وضّحتُ الأمر لعلي باي حقيقة ودون تكبّر. بقيتُ منتصباً لكنّني متأثّرٌ في أعمق أعماقي لصورة إله الطبيعة المدهشة دون وساطةٍ من أيّة شعيرة أمام الله.

عندما بدأت الشمس غيابها بدا كأنّ الجيش الوهّابي طلع من أحشاء الأرض. خمس وأربعون ألف جسدٍ عارٍ بلون الرمل المحمّص ذاته قفزوا فوق جمالهم أو هجنهم، يتقدّمهم مئتا فارس يرفعون الأعلامُ، شرعوا في الطريق إلى المزدلفة. وبما أنّ الجميعَ عراة لم أستطع تمييز السلطان سعود. افترضته شيخاً جليلاً، أبيض اللحية يمتطي جواداً ويتقدّمه علم أخضر طرِّزت عليه بحروف كبيرة بيضاء عبارة: *لا إلَه إلاّ الله*.

فجأة وإذا بسحابة من غبار غطّت الصدعَ الذي شقّته الرماحُ والبنادقُ والسيوف في سماء صحراء أفقيّة، تكاد تهبط لتلامس وجهَ الأرض. ثمانون ألف رجلٍ، ألفا امرأةٍ وألف طفل مع ستين أو سبعين

ألف جملٍ وحمارٍ وجوادٍ، تتقدّمُ على عماها بين الغبار إلى منى حيث نهاية مناسك الحج برمي الجمرات.

كنّا نمضي مسلّحين مثل الوهّابيين، فكلٌّ واحدٍ منّا يحمل سبع حصواتٍ نرميها على ما يسمّى بيت إبليس. لا شكّ أن مكر إبليس هو الذي دفعه لبناء بيته في مكان ضيقٍ جدّاً تحميه فجاج صخرة، مما جعل معظم الحصوات لا تصل إلى هدفها.

اكتشفتُ عند عودتي إلى المخيّم أنَّ شياطين أخرى أقلّ فطنة سرقوا مكتبي وكتبي والأوراق التي أحملها معي. شعرتُ بالحزن والخيبة. لن تفيد ملاحظاتي حول أرض الإسلام المقدَّسة اللصَّ كثيراً. انتبهت وقد انتهيت من الحجِّ الجماعيّ إلى أنّني أتابع حجّي الفرديّ، فأنا ما زلتُ وفيّاً لإله الطبيعة. فهو إله أقل تعصّباً من أيّ من الآلهة الأخرى التي تصوّرها البشرُ في لحظات الوجد الصوفيّ. إنّه إلهٌ لا يدير وجهه إلى أسرار الوجود، بل يدعم الجهود للوصول إلى تفسيرٍ عقلاني للظواهر التي تنسج لغزَ الحياة. سرّني أنني سأقدّم للمجتمع العلمي الدولي رؤيا مفصّلة عن جزءٍ مجهولٍ من العالم. لم يقدّم أحدٌ من قبل الإحداثيات الجغرافيّة التي ستسمح لي بوضع خريطة شبه الجزيرة العربيّة، لا أحد قبلي وصف تضاريسها، مسح مدنها الرئيسيّة وبينَّ خواصّ الأماكن المقدّسة وعادات سكّانها والشعائر التي تنتظر الحاجَّ. لحسن الحظِّ أن اللصّ احتقر الأوراق وتركها قريباً من المكان، فاستطعت جمعها غير مخدوشة تقريباً، دون أن أفقد إلاّ ميقاتاً وبعض المجوهرات وخاتماً كبيراً وبعض الألواح اللوغاريتميّة التي من المحتمل أنّه خلط بينها وبين القرآن.

عدّتُ إلى مكّةَ لأكمل أبحاثي فوجدت المدينة متغيّرة. لقد بسَّط الوهّابيون العبادة، وحرّروا الأبنية من أيٍّ أثر يحرف الانتباه عن إلههم غير المرئي، الذي يرتعش مثل صورة بلا جسد في نسيج الكعبة الأسود.

بقيتُ في المدينة منذ العشرين من شباط وحتى الثاني من آذار، وخرجتُ من باب الوداع، وهو ما يعتبر بشير خير، بعد الطواف ثلاث

مرّات أخرى حول بيت الله، وصلاة الوداع في أركان الكعبة الأربعة وبئر زمزم، في حجارة إسماعيل وفي مقام إبراهيم.

قبل ذلك بقليلٍ عبرَ الجيش الوهّابي العرمرم بقيادة سعود ذلك البابَ، بعد أن سيطر على كلٍّ أراضي الحرم ومناطق الحجاز وعسير والإحساء، متطلّعاً إلى نشر النار المطهّرة في كلٍّ أنحاء شبه الجزيرة العربيّة. قلب سعود كان ينطوي على تطلّعات أكثر طموحاً. سيفتح، بعد التمكّن من توحيد جميع القبائل البدويّة تحت زعامته، حدودَ الصحراء ليطرد الأتراك من الشرق الأوسط كما يطرد الكلابَ الجرباء.

الفصل الرابع والعشرون

القناع الذهبي

كنتُ راضياً عن تلك التجربة الغريبة التي عشتها واحترمت التقاليد التي أقامها البشرُ، وبالتالي قدَّمت إليّ معرفةً سرِّيّةً وواسعة عن العالم. فالحجُّ بالنسبة إلى رجلٍ مثلي تربّى على أنوار القرن قد أزاح جلدَ جزء من البشريّة، ليكشف لي عن الهيكلَ الذي تقوم عليه حياته، التي ليست غير الإيمان. هكذا قدّرتها حين تأمّلتُ الحماس المشترك بين آلاف البشر البسطاء. في الصحراء العربيّة وأمام عرفات تعرَّفتُ في إلهمهم على شاعرٍ نقيٍّ، غمر المشهد العاري للطبيعة الأصليّة بالنور الذهبيّ، ومنح صمتها البلاغة ولطّف المعاناة بمنحها بهاءً متوّجاً بالعظمة، وشكّل طينةَ الغرائز من تأثيرات النبالة والبطولة الخلاّقة. لكنَّ الوهّابيين علّموني أيضاً كم تصبح قُوّةُ الإيمان الأوليّة خطيرة حين لا تسمح للفهم بمواكبتها.

استطعتُ في جدّة أن أتبينّ حجم انتصار سعود وحدوده أيضاً. لم يبقَ جنديٌّ تركيٌّ واحدٌ كما حذفوا اسم سلطان القسطنطينية من الصلوات. الاندفاعُ حين يخلو من الأعداء الذين يقيس بهم نفسه سرعان ما يفقدُ جاذبيّته ويتحوّل إلى تشدّد. اعتبر الوهّابيون الأذان غير كافٍ للدعوة إلى الصلاة، فراحوا ينتشرون منذ الفجر في الشوارع متوعِّدين المارّة بضرورة الذهاب إلى المسجد، مجبرين الحرفيين والتجار على إغلاق محلاّتهم وحوانيتهم. جوٌّ من الرعب والإذعان حنّط المدينة

المحاصرةَ بأولئك المحاربين البغيضين مثل خشرمٍ من الدبابير.

ركبتُ ما إن استطعتُ مركباً وابتعدتُ عن ذلك الجوّ الخانق. ما من شيءٍ مثل الرائحة أو الطعم يُعيد للحاضر ذكرى أزمنةٍ أخرى. كان عنبر المركب يخزِّنُ شحنة من القهوة المهرَّبة والفوّاحة بشكلٍ استثنائي. حملتُ نفسي على تحضيرِ فنجانٍ ثقيلٍ تحتَ سماءٍ وديعةٍ. وبما أنَّ الوهابيين يعتبرون تناولَ القهوة معصيةً فقد وجدتُ نفسي محروماً لشهورٍ من صحبتها الحارّة على الملمس، المُسكرة للشمّ، المُوحية للذوق، المُلمحة للسمع والغامضة على النظر. مع القهوة عدتُ لأتذوّق الشكَّ والظلمةَ المغذّية والموقظة بالنسبة للرجل الحرّ.

جرت رحلتنا على الرغم من الخطورة بشكلٍ سعيد. أبحرنا خلال تسعة أيام على مقربة كبيرة من الشاطئ في بحرٍ عبقٍ وأرصفة بيضاء. وكما حدث على امتداد رحلتي لم تستطع المتعةُ أن تنفصل عن قطرات الرعب المختلطة بها. وذات صباح حدثت سلسلة من الهزّات المفاجئة تحت الماء. اصطبغ الزبدُ بالدم والبحر بالصخب. حضرتُ معركة وحشيّة بين فريقين من السمك في أرض معركة قطرها مئة وعشرون قدماً؛ تندفعُ مثل السهام. كان بودّي لو أدفع أيّ ثمن مقابل معرفة ما يستنفر هذين الجيشين ويدفعهما لمثل هذا الصراع الدامي. فكّرتُ بسعود. بالموت الذي يوشك أن يزرعه في كلّ الشرق الأوسط.

ومع ذلك ما إن نزلنا في ينبع حتى أمرتهم بالبحث لي عن جملٍ لزيارة قبر النبيّ في المدينة، الزيارة التقليديّة التي ألغاها الوهّابيون بحزم حين اعتبروها باطلة. كنتُ أعرف ما أعرِّضُ نفسي إليه مخترقاً وصاياهم، لكن لم يكن باستطاعتي ازدراء فرصة تفحّص المدينة الثانية المقدّسة في شبه جزيرة العرب، وتحديد الموقع الجغرافي الدقيق للأراضي التي تحيطُ بها، ومن يختار التوق للمعرفة دليلاً له يعرف أنّه اختار أشجع الأدلاّء.

تبعني في رحلة المجازفة بعضُ الحجّاج الأتراك والمغاربة الجسورين وثلاثة من الخدم، كان عليَّ أن أُسعّر جرأتهم بالذهب.

بعد عبور بادية من الرمل الناعم الذي بدا كأنّه سيتبخّر، يتعرّج الطريق في جبالٍ ذات أشجار صغيرة وشائكة وحادّة كسكّين.

قممٌ عجيبة من الغرانيت كانت تترصَّد مسيرتنا البطيئة والشاقّة.

استطعنا الوصول إلى الهضبة التي تحيطُ بالمدينة بعد أن تخرَبت ملابسنا وتشقّقت جلودنا من الخدوش.

اقتربت دوريّة وهابيّةٌ منّا وقطعت علينا الطريق ونحن ملفعين بذلك النور الأوّلي، الذي يبدِّلُ كلَّ شيءٍ في كلِّ لحظة فوق أرض حجارتها مشعّة.

- يا كلاب! كيف يستطيع كلبٌ تركيٌّ تحدّي أوامرنا؟ - باغتني من يبدو رئيسهم.

وضّحتُ له بأنّني لستُ تركيّاً، وإنّما مغربيّ وأكّد خدمي على كلماتي.

- ستحتاج إلى أسبابٍ أخرى كثيرة حتى تحافظ على رأسك فوق كتفيك - هدَّدَ - هاتِ كلَّ ما معك من أموال!

سلّمتُهم الدوروات الإسبانية الأربعة التي في جيبي، لكّنهم أجبروني على خلع البرنس والساعة. وبما أنّ اقتسام تلك الغنيمة كان معقداً فسرعان ما نسوني، وأحسست أنّهم ينظرون بعضهم إلى بعضٍ بريبة. أمروا الجمّالَ بقيادتنا إلى أحد المحلاّت القريبة بجانب بئرٍ جافّ، حيثُ علينا أن ننتظرَ أوامرهم. بعدها اختفوا خلف رابية زرقاء وسمعنا صياحهم وهم يتقاسمون الغنيمة.

الشجار الطويل جدّاً سمح لي بالتخلّص من كلِّ ما يمكن أن يورِّطني. طمرتُ في الرمل مجموعاتي الرائعة من الحشرات والنباتات والمعادن والمستحاثّات، وكذلك القهوة والتبغَ اللذين نحملهما معنا، واضطررت أن أبلع بعضَ الرسائلِ والملاحظات التي لا أحد غير الله يعرف كيف كان سيفسِّرها أولئك المحاربون الشرسون.

شمسٌ حمراء أطلّت من فوقِ الجبال التي يغشوها السديم، الخفيف. شقّ فارسان طريقهما خبباً بين السديم. عرّفا بنفسيهما، دون أن ينزلا عن مطيّتيهما وقد قطعهما البهاء المرجاني الخفيف، على أنّهما رسولا الأمير، وطالبانا بخمسمئة فرنك عن كلّ واحدٍ مقابل حرّيتنا.

انقلب رفاقي فوق حصيرة الصحراء الخشنة، وراحوا يتلوّون مثل نباتات في الريح، مؤكّدين بأنّهم لا يملكون هذا المبلغ وطالبين الرحمة.

القسوة المتكبّرة التي نظر إليهم بها الجنديّان الوهّابيان كانت مدهشة. راح أحدباهما المعلّقان على خصريهما يهتزّان فوق عباءتيهما القطنيّتين البيضاوين ويتذبذبان مع تنفّسهما. جرّداهما فجأة، همزا جواديهما وأجبرانا على اللحاق بهما مرتبكين بين السهوب والكثبان الخفيفة الغافية في صمتِ الموت.عاد نور المساء ليصير بنفسجيّاً فاتحاً. كنّا كما لو أنّنا نتيه في أعماق البحر.

سرعان ما حلَّ الليلُ وتلاشى الأفق الضارب للبنفسجي، لكنّ الوهّابِيَّيْن بَدَيا وكأنّهما يريان في الظلمة تتبعهما جمالنا على غير هدى، هادجة وصارّة أسرجتها.

كان لوقع سنابكِ جوادٍ وحيدٍ وسريع وقع الطلقات في البعيد. اقترب فارسٌ ثالث بدت أسنانه الناصعة كأنّها مزوّدة بنور خاصٍّ بها في الظلمة. كان يبتسمُ متوقّفاً على إحدى ضفّتي النهر الجاف الذي نستخدمه طريقاً. أبلغنا أنَّ الأمير سعود أشفقَ لحالنا واختصر ثمن حرّيتنا إلى مئتي فرنك. كان الليل يكمُّ الأصوات القلقة التي يطلقها رفاقي. شكاواهم التي لا وجه لها، المسلوبة من تعبير الأيدي والوجه لم تكن لتختلف عن عواء أيِّ حيوان.

استمرَّ الجدال حتى وصلت الفرقة الثانية من الجنود ومعها أمر حَمْلِنا إلى حضرة الأمير، الذي قرَّرَ أن يحلّ كلّ قضيّة على انفراد، تابعنا في الليل مبلّلين بالندى ومرتعدين من الخوف والبرد.

لمحنا عند الفجر قبب معسكرٍ محدّبة الرؤوس. كانت الخيامُ من أقمشة متنوّعة وثمينة تنتفخ بالريح مثل زغبٍ على صدور سربٍ من الطيور الغريبة. فكّرتُ في البداية أنّ الأمر يتعلّقُ بمعسكر الأمير، لكن سرعان ما علمت أنّه تابع لقافلة خدمِ حرم المدينة، الذين طردهم سعود خارج شبه جزيرة العرب.

سمحوا لنا بأن نملأ قربنا من مياه أحد الينابيع القريبة المرّة، وأبعدونا من هناك بفظاظة.درنا ببطءٍ حول نخيل الحمراء وتوقّفنا بعد نصف ساعةٍ عند منعطفٍ محاطٍ بالصخور المرتفعة. قسمونا في ذلك المضيق المحمي من الريح إلى مجموعتين. المغاربة وهم أكثر اطمئناناً في واحدة، وفي أخرى الأتراك بشواربهم المترهّلة مثل الصوفان والمهتزّة فوق أساريرهم الخشنة، الدائخة والشاحبة. كان

الوهّابيون المتكئون إلى الصخور يوجّهون إليهم نظراتٍ مشحونة بالكراهية. سمعت طلقةً فانزلق تركيٌّ حاول الهرب إلى دريئة الصخر من فوق منحدرٍ شديدٍ، وانتهى غائصاً في الرمل أمام أقدامنا. كانت الرصاصة قد شطرت عموده الفقري نصفين، فنظر إلينا بضيق من يعلم بأن احتضاره سيكونُ طويلاً ومؤلماً.

بعثر الوهّابيون أمتعتنا واستولوا على بعض الملابس وكيس بسكويت. أزعجهم أنين الجريح فأشفق أحدهم عليه فجلس على ركبتيه وجزَّ عنقه. تدفّق الدم غزيراً لبرهةٍ طويلة وأضاء مثل نارِ الجثّةَ التي أمعنا جميعاً النظرَ فيها. يبدو أنّ المحاربين فهموا أمام تلك القطعة من اللحم الجاسئ أنّ إخضاعنا تحتَ الشمس للمصير ذاته لن يفيدهم شيئاً. لقد أنقذ ذلك الرجل المجزوز الرأس حياتنا. تباحثوا وعرضوا علينا عرضاً أخيراً: عشرون فرنكاً مقابل كلِّ رأس. استطعنا أن نجمع مبلغاً غير كافٍ لكنّهم قبلوا به.

كان تحريرنا مباغتاً وغير متوقّعٍ مثل تبدّل الريح. انطلقنا بسرعة وأدركنا قافلةَ خدم حرم المدينة بعدَ ساعتين، كانت على وشك أن تغادر الوادي. روى لي القاضي الذي يقودهم أنّ الوهّابيين أغلقوا المسجدَ الكبير وختموا أقفاله بعد أن فرّغوه وخرّبوا كل الزينات. أُفرغت المدينةُ من سكّانها وربّما ابتلعتها رمالُ الصحراء في النهاية.

ـ كيف يمكن أن يكون الإيمان قاسياً إلى هذا الحدّ؟ ـ سألتُ القاضي الذي كان مثقّفاً وعقلانيّاً.

ـ لقد تجوّلتَ، يا علي باي، حسب ما قالوا لي، في نصف العالم. لابُدَّ أنّك انتبهت أنّ الإلهام الإلهي في مناطق أخرى كبر من جيلٍ إلى جيل وطوّر وحفظَ بالفنون. الأمرُ ليس كذلك في الصحراء. فعراء هذا المنظر يمنح الفراغَ حضوراً ملموساً، وينتهي بتحويل تأمّل الألوهيّة التي تختلطُ بالعدم إلى عاطفة وحيدة. موقفُ الوهّابيين، عودتهم إلى بعضِ التقاليد البدائيّة، وتخلّيهم عن الطريق الطويلة التي قطعتها البشريّة إلى المعرفة لا يبرّرهما إلا المعاناة والعزلةُ وبساطة حياتهم. لم تملك عقولهم فرصة قط للتمرّن على الفنون أو العلوم، والتقشّف في الذكاء يدفعهم للحفاظ على إيمانٍ خالٍ من البصيرة ولا يقدّم لهم نوراً بل ظلمة. برأيي هذا هو المصيرُ المشؤوم لكلِّ العقائد الأصوليّة التي

تربك إسلامنا تكراراً. وهم للبحث عن البذرة التي جعلتِ الحضارة تُثمرُ يهوون بالشجرة الوارفة التي صارت إليها. من المحالِ تذكّر هذه البذرة في مكانٍ آخر غير وحشة الصحراء الفسيحة، حيث لم تكد الحضارة تترك أثراً والطبيعةُ تتجلّى بكامل خشونتها.

وعلى الفور حضرتُ مباراة بين التأثر والسخرية.

- سعود - اشتكى أحد العلماء المطرودين من المدينة بمرارة - يحلم بأن يأتي يومٌ يغطّي كفنٌ واحد ووحيد من رمل العالم كلّه.

- بالتأكيد - أكّد القاضي التركي، باحثاً عن ابتسامة ساخرة - لا يملأ عينيه إلا فراغ الصحراء، وأيّ شيءٍ يُعكِّرُ شفافيّة الصحراء بالنسبة إليه إهانة.

- باستثناء الذهب - حدَّد بغضب خازن المسجد المغلَق - . لقد استولى على كنوز الحرم التي لا تحصى وراكمها الحجّاجُ من هداياهم خلال قرون.

- ربّما لأنّ نور الدين الذي يعمي يزيل الحدودَ بينِ الواقع المادي والواقع الماورائي - علّق القاضي بخبث - ليس مستغرباً أن تتجسّد عند سعود خصائص نور الصحراء الروحيّة في الذهب.

أسرّتني روح المداعبةِ الرقيقة التي تنسجم تماماً مع نباهته. طلبتُ منه أن يحدّثني طويلاً عن الأمير. لم أكن حتى متأكّداً من عدم الخلط بينه وبين العجوز العاري، ذي اللحية البيضاء والمحدّبة الذي كان يمضي مختلطاً بجيشه حين تعرّفتُ إليه.

- لم تنخدِع، يا سيدي علي باي. فهذا العجوز سعود، لم أستطع رؤيته إلاّ مرّةً واحدة على الرغم من أنّ القدر حوّلنا إلى عدوّين ضاريين. من المؤكّد أنّه لا يملك وقتاً يضيّعه مع قاضٍ سيحني رقبته للجلاّد حين يعود للقسطنطينية. يُقال إنّ الثروة تبعثُ على القلق.

تصوَّرتُ الأميرَ مالكاً لبلادٍ جدباء غير محدودة، يغرز يديه في جبال الذهب والفضّة المتوّجة بالياقوت والزمرّد، لا يستطيع استخدامها في شيءٍ، بذهول الشحّاذ يتأمّلُ الصحراء الشاسعة. فعلاً إنّه لمن سخرية القدر أن يصبح الرجلُ الذي عزم بنفسه أن يحوّل العالم إلى صحراء أغنى رجال الأرض.

في ينبع كانت تنتظرني الفوضى إلى جانب المركب الذي حملني من جدّة. كان المدُّ قد غمر الأقسام المنخفضة من المدينة المحاطة بأسوارٍ من الحجارة الكلسيّة البيضاء، ويتزاحم في المرفأ المحمي بدائرة ثانية من التحصينات المبهرة حشودٌ من الحجّاج المذعورين، وبقايا القوّات التركية والموظّفين والتجّار المطرودين من المدن المقدّسة. كان الميناء مكتظّاً بالمراكب من كلِّ الأحجام والبحرُ يفوح برائحة قهوةٍ خضراء.

لم يرفع الأسطولُ أشرعته قبل الخامس عشر من نيسان، وبعد مباحثات مأساويّة للعثور على مكانٍ لتلك الحشود المذعورة بين أكياس القهوة المهرَّبة التي تملأ العنابر. أحصيت اثنين عشرين مركباً، لكن على امتداد العبور راح أسطولنا ينقص ويزيد حسب ظروف الإبحار.

منذُ البداية اتخذ البحر مزاجاً سيئاً وحنقاً، حوّل أيامي السابقة كلّها إلى عذاب. في اليوم الرابع كانت تترصّدنا شرائح صخريّة حادّة مثل الإبر مشوّهة في قلب الموجة المقعّرة. دوّت الصدمة مثل طلقة مدفع وحيدة في غير أوانها، فانغرز المركب في الحيد وانشطرت قاعدته، وانفتح فيها ثلم يرشح زبداً ويدخل منه ماء داكن فوّار قد تنقّى من انعكاس زرقة السماء.

أنزلنا الزورقَ. اقتربت بقيّة الأسطول، لكنّهم رفضوا أخذنا حتى طلب قبطاننا النجدةَ، وفهموا أنّه لم يكن بالمستطاع تقليص الماء بالمضخّات. عندئذٍ فقط وإنقاذاً لشرفهم واحتراماً لمركزه شرعوا بنقل الحمولة إضافةً إلى السواري والأشرعة إلى سفنٍ أخرى. وما إن خفّت حمولةُ المركب حتى عاد وطفا بطراوة متخلّصاً من الصخرة التي كانت تحتجزه، قطروا الهيكل المفكّك إلى شرم جزيرةٍ صغيرةٍ قريبة. ثلاثمئة بحّار زنجيّ عراةً تماماً ضفروا سلسلةً مضاعفة، جهدوا طوال الليل في رفع هيكل السفينة من الماء إلى البرّ بواسطة حبالٍ غليظةٍ سرعان ما اصطبغت بالدم.

جهد النجّارون ثلاثة أيّامٍ تحت شمس حارقة في تضميد ندبِ السفينة شبه المطمورة، مثل مجموعة من العظام المكسَّرة بين الرمل والحجارة وبقايا الأصداف والقشريّات والمُريجات التي تشكّل أرض

الجزيرة، وفي مساء يوم الثاني والعشرين سدَّ الجلافطةُ حزوزَ الهيكل الذي رُمِّمَ فاكتسب شكلَ التابوت. وفي الليل أعادته إلى البحرِ العضلاتُ الزنجيّةُ ذاتها التي سحبته إلى البر.

جزيرةُ أمِّ الملك أقفرت أكثر من أيِّ وقت مضى حين غادر الأسطول يتبعه عن قرب أسطولٌ صغيرٌ لبدوٍ مترقّبين. أثار حضوره اضطراباً كبيراً في الأيام التالية، وتسبّب بعددٍ من الحوادث بين سفننا ذاتها. صدمت سفينة شريف مكّة يسارَ مركبنا بشكلٍ خفيف بعد مناورة زائفة. دارت حول نفسها وانتهت بلطم مقدّمة مركبنا.

حوادث كثيرة غير معهودة مثل هذه كانت تؤخِّرُ باستمرار مسيرتنا. وقد خلّصتنا عاصفة من كمين سفن القراصنة، لكنّها أجبرتنا على التوقّف في أرخبيل حمارا لرتق الأشرعة وتمتين السواري. آلافُ الحجّاج نزلوا ليصلّوا أمام قبر شيخ يدعى مرغوب. وقد بقي صامداً لأنّه الركن الوحيد من شبه جزيرة العرب الذي لم يصله الوهّابيون بعد. وقد كفى هذا ليفلتِ القدّيسُ المجهولُ حميّته غير المعهودة، التي لا شكّ باغتته في قبره المُهدَّد وغير الآمن.

شعرنا بأنفسنا هاربين ونحن نمخر بصلواتنا وجهودنا في بحرٍ معادٍ، غير مبالٍ، يبدو مصرّاً على احتجازنا ومنعنا من الهرب. كان التهديد الوهّابي يلحق بنا إلى حيث نصلُ؛ وسكّان الساحل يرفضون استقبالنا، وحين ننتصر على ريبتهم يعرّضوننا بعيونٍ أجحظَها الرعبُ لسبحة مماثلة من الشكاوى من سلوك أولئك المقاتلين، الذين يجتمعُ فيهم توق لا يرتوي للقداسة وجشع قاطعِ طريق.

دام إبحارنا قرابة الثلاثين يوماً حتى وصلنا إلى ميناءِ قاضي يحيى، على مقربة كبيرة من مدينة الطور وكان الوقتُ ليلاً والقمرُ متلألئاً. على أرصفته ارتفع غبارٌ فضّيٌّ. حشدٌ من الجمّالين اقترب يعرض خدماته لينقلَ إلى السويس برّاً كل من يرغب.

اخترتُ حيواناً شموخاً يبلغ ارتفاعه أكثر من مترين، مجهّزاً بطقم جليلٍ من جلدٍ مشغولٍ وقنزعة من ريش النعام ترتفع فوق قبّة جبينه. تركتُ في السفينة معظم أتباعي مع الأمتعة. لم أحمل معي غير الطبّاخ وعبدٍ. ودّعتُ بارتياحٍ ذلك البحر الذي تصرَّف معنا مثل قدرٍ مشؤوم وأوقعنا في حالات غيرِ منتظرة.

التحقنا بقافلة من أربعين جملاً وسبعين رجلاً وثلاث نساء. رفضتُ هذه المرّة الفسطاط الذي اعتدت السفرَ فيه مثل حملٍ، محميّ من لهب الصحراء بنسيجٍ أبيض ولحفٍ من جلد الماعز، شكّلت كوخاً مطبّقاً على وسائد هيكل السرج. كان البردُ كثيفاً والهواء نقيّاً. تركتُ العنان للدابّةُ مرخيّاً كي تسيرَ على هواها. هناك متعٌ لا يَخْبَرُها إلا من يركب الجمل؛ إذ عليه قبل الانطلاق أن يُفرِّغ عقله وقلبَهُ تماماً، فالصحراء لا تقبلُ بانشغالاتٍ أخرى لا تُسبّبُها هي طوال الرحلة. وسرعان ما يتحوّل إلى عاشقٍ للمسافة والوحدة.

مشهد رائع أن يكون للمرء أفقُه، وأفقي كان جليّاً تماماً، فمنذُ أن وضعتُ قدمي في بلدٍ إسلاميٍّ عايشتُ قلقَ أنّني مكشوف، هذا القلق الذي كان مغروزاً في عقلي مثل سكّين في لحمي. دام هذا العذابُ أكثر من خمس سنوات. لكنّني أحتفظ الآن في محفظة من الجلد معلّقة إلى عنقي بالفرمان الذي يثبت أنّني أديت فريضةَ الحجّ إلى مكّةَ. من سيجرؤ على إنكار أنّني مسلمٌ جيّد؟ منذ بعض الوقت لم أسمع صوت علي باي لأنّنا لم نعد أنا وهو مختلفين.

تذوّقتُ طعم وحدتنا المغايرة بل والمتناقضة أحياناً في بلح الطور الصغير والشهيّ، الذي يصنعُ منه سكّانه خبزاً حلواً ويستخرجون خلاً مُرّاً. توغّلتُ في السويس في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثالث والعشرين من أيّار من العام 1807 وأنا أتمتّع بهدوء أُنكر عليّ حتى تلك اللحظة.

الفصل الخامس والعشرون

لحمُ لحمي

ما إنْ أناخَ الجملُ لأنزل في السويس حتى انهالت عليَّ الأخبار عن الحالة في مصر. تمكَّن محمّد علي من التخلّص من جميع أعدائه الداخليين خالطاً السمَّ بالسيف، وقد ثبّته البابُ العالي توّاً نائباً له لثقته بقدرته على وقف المدِّ الوهّابيِّ الذي يهدِّدُ ثلثَ إمبراطوريّته. لكنّ إنكلترا لم تكن مستعدّة للسماح بانتصار يهدِّدُ تأثيرها في البلد. كان البريطانيّون قد راهنوا بلا تردّدٍ طيلة الحروب الداخليّة على حزبِ محمّد علي. والآن قرَّروا بعد مقتل الرأس المملوكيّ الصغير إلفي باي وانحلال جيشه حمايةَ مصالحهم مباشرة ودون وسطاء.

نزل الجنرال فريزر متبعاً خطى نابليون في مرابط واحتلَّ الإسكندريّة، ليتّجه بعدها إلى الرشيد التي سار إليها محمّد علي على الفور بهدفِ وقف تقدّمِه. لذلك كانت ثكنات الجيش في السويس والقاهرة قليلة والسلطات لا تستطيع تأمين أمن الطرق. أشلاء الجيوش المهزومة شكّلت قوّة فظيعة قضت بالاشتراك مع بعض القبائل البدويّة على قوافل بكاملها.

لحسن الحظ أنّ القوّات التركيّة التي طردها الوهّابيون من شبه الجزيرة العربيّة كانت معنا. تمكّنا من جمع ثمانمئة رجل مسلّحٍ ومع ذلك تقدّمنا بحذرٍ نظراً لحالة الفوضى في البلاد.

على مسافة من القصبة المهجورة قلعة الخروب يضيق الطريقُ ليشكل شِعباً هوجمت فيه القافلة التي تقدّمتنا. تقدّمتُ على رأس قرابة المئة تركيٍّ، بينما انتشر جسمُ القوّات على الجوانب، وتأخر البقيّةُ بقيادة ضابط تركيٍّ لتأمين المؤخّرة.

لمحنا عند منتصف الشعبِ علماً غريباً. رايةٌ حمراء قشّيّة تشبه العلم الإسباني ترفرف فوق الصخور.

استنفر رجالي وأطلقوا النار دون أن ينتظروا الأوامر، وحين انقشع دخان الشحنة المفرّغة، لمحنا بين تجويفات الصخور طيفاً يهرب يستلهم اسم الله والنبيّ.

- إلى السلاح! يا الله! - كان يصرخُ.

لكنّه كان وحيداً. صعدتُ المنحدر مجرَّدَ السيف. كان الأتراكُ على وشكِ أن يجهزوا عليه، لكنّ العرب الذين يتبعوننا ركعوا وطلبوا الرحمة. فقد تعرفوا فيه على شيخٍ يعيشُ بين تلك الصخورِ المقفرة. ومع أنّه جُرِحَ لم يسمح لنا بالاقتراب منه لنجدته.

تركنا له ماءً وطعاماً ودواءً على مسافة مقبولة وتابعنا رحلتنا، ومع ذلك تَبِعنا نازفاً ولاعناً. خلال اليومين التاليين مزّق صراخه صمتَ الصحراء فلم يستطع أحدٌ في القافلة النوم ليلاً. في اليوم الثالث لم نسمع صياحه.

اتَّهمَنا العربُ بالقسوة واثقين من أنَّ لعناته سوف تجلبُ لنا الشرَّ حين نصل القاهرة. بالنسبةِ إليَّ كان ترحيب المدينة بي لطيفاً. فقد عاد كلُّ الذين ابتعدوا عنّي في الأيام التي سبقت رحيلي إلى مكَّةَ ليفتحوا لي أذرعهم. وأصرَّ المثلوطي شيخ المغاربة على نزولي في بيته، وهرع مولاي سلامة لزيارتي، وقدّم لي سيد عمر وليمةً فاخرة.

عزوت ذلك التبدّل إلى غياب محمّد علي الذي كان يحارب الغزاة الإنكليز قربَ الرشيد. لكن سرعان ما تبيّنتُ أنّهم جميعاً يتصرّفون معي تملّقاً لا صداقةً. فالجراح القديمة التي سبّبوها ليَّ في أزمنة أخرى لم تندمل بعد، والدواء الأفضل ليس بالتأكيد الإفراط بالتملّق الذي يصدر

دائماً عن النفاق. لم يعزم أحدٌ أن يوضِّح لي أسبابَ التحوّل. فأحيانا كانت تذهب كلمات من يبدو أنّه على وشك أن يقدّم لي توضيحاً لتضيع في صخب الشوارع، أو ضجيج المقاهي أو ببساطة لتتبخّر في صمت الرضى عند من يقدّر أنّنا حدسنا فكره.

كلُّ ذلك أثار فضولي فخفت أن يكونوا نصبوا لي شراكاً. لكنّني لم أتوصّل إلى معرفة السبب. تصرّف حلاّقٍ غير معتادٍ استنفرني، فهذا الرجل كان يأتي عادةً إلي بيتي ليحلق لي. ولم أكن أولي ثرثرته المفرطة انتباهاً حتى انتبهت إلى أنّه يستفسر بالتفصيل عن مسيرة الحرب قبل أن يسن الموسى. لم يكن في ذلك أية غرابة، فقد عرفت أنَّ المصريين مستنفرون تماماً بعد نزول الإنكليز في الإسكندريّة والهجوم على الرشيد. لكن ما لفت انتباهي هو تبيني أنّ الشدّة التي يسنُّ بها الموسى تتعلّق بسير المعركة. فإذا كانت الأخبار الأخيرة لصالح الإنكليز يحلق لي بعناية وعلى أتمّ وجه، لكن إذا كانت الحرب لصالح محمّد علي حلق لي بخشونة وبعكس الشعر.

لاحظتُ هذا التذبذب في الودّ الذي يظهره لي مجتمع القاهرة، الذي كان موازياً لاحتمالات الحرب. فالتدخلُ الأجنبي يثير المشاعر الوطنيّةَ والغضبُ يلهب معظم النفوس، لكن ما من أحدٍ خاطر بالتعبير عن مشاعره الحقيقيّة في حضوري. وعلى الرغم من أنَّ مدينة القاهرة كانت مكتظّةً بالأسرى الإنكليز فنهاية المعركة لم تكن أكيدة بعد. كانت مصائب محمّد علي تثير خضوعاً مشكوكاً بأمره ومظاهر إخلاص كبيرة عند من يحيطون بي، بينما تسلمني هزائم فريزر للوحدة والازدراء لأيّام.

البوح غير المنتظر من جنديّ فرنسيٍّ قديم سمح لي بالكشف عن السرّ. فهذا الرجل ابن الحذّاء الغاسكوني وصل إلى مصر كنافخ بوق في قوات نابليون، ودخل في صفوف جيوش محمّد علي بعد أن وقع في الأسر . كان في تلك الفترة معيّناً في قلعة القاهرة. أكّد لي أنّ الضباط الإنكليز الأسرى كشفوا له عن رغبتهم بالاتصال بي، وبما أنَّ اللقاء كان محالاً فهو على استعدادٍ ليهيئ لتبادل رسائل إذا عرفتُ كيف أكافئه على خدماته.

دهشتُ لسماع اقتراحه.

- ولماذا سأكون لجانبهم؟ - سألته بجفافٍ.

- ماذا؟ - صاح مرتبكاً - ليس من الضروري أن تتظاهر أمامي. معروف أنك تتبنّى هويّة مزيّفة.

- شقيّ! زِنْ كلامك!

- لستُ من يقول هذا، يا سيدي. فمحمّد علي جهر به للجهات الأربعة - أكّد الغاسكوني.

- ما هذا الافتراء؟

- أنا نفسي سمعته يقول إنّك أردت الدخول في خدمته لتحضّر للغزو البريطاني.

- صحيحٌ، عرضتُ دعمي لتهدئة البلد، كما فعل معظم العلماء والشيوخ - صرختُ - فما الغريب في ذلك؟

- ومع ذلك لم يقبلك محمّد علي بجانبه.

- إلامَ تلمح؟ تبدو مقتنعاً بأنّني أخفي شخصيّة مزعومة - صرختُ وأنا أهزُّ بيدي المحفظة الجلديّة التي أضعُ فيها الفرمان الذي يثبتُ ليس فقط أنّني حاجٌّ بل وأيضاً خادم لبيت الله في مكّة - تراك تشككَ بإسلامي؟

- حاشى لله، يا سيدي! - سارع المارقُ للإجابة مرتبكاً - لكن حتى الأطفال يعرفون أنّك عميلٌ في خدمة الإنكليز!

وجدتُ تأكيداً لتخمينات الفرنسي في عيون كلّ من مررتُ بهم في الأيّام التالية. لا أحد في القاهرة كان يشكّ بكوني مسلماً حقيقيّاً، لكنَّ الجميع يعتبرونني خائناً. من هنا حدث أن طارَ المسمارُ الذي اعتقدت أنّني ثبّتُ به روحاً جديدةً لجسدي في بلاد الإسلام. عاد القلقُ ليظهر من جديد.

ما إن عُرِفَ خبرُ أنَّ محمّد علي هزم فريزر في حماص، وأنَّ الضابط الإنكليزي بدأ مباحثات استسلامه، حتى ظهرت كراهية العملاء وتظاهرتُ بوجوب المغادرة الفوريّة. في تلك الليلة حلمت بأنَّ الموتَ يسلمني سيفاً.

تعرضُ الصحراءُ أحياناً مخاوفَ الإنسان عارية. مظهر سيناء موحش. عبثاً يبحثُ الإنسان عن عزاء في الجوِّ المتوهِّج، الذي ينهار

مثل نارٍ فوق القشرة المستنفَدَة للسهوب المتكلّسة وهي مُجرّدة من دغدغة الواحات، ومحرومة من رفقة القطعان اللطيفة وتجوبها القوافل بصمت مذهل. ينسى الإنسان أنّه غادر قارّةً ليتوغّلَ في أخرى. ينسى أشياء كثيرة في هذا المكان الذي يبدو خارجَ العالم، حيث ألغت الطبيعةُ رطوبةَ قطرة الماء أو حنوَّ شُجيرة مرتعش!

ينتهي لظى أشعّة الشمس باستهلاك الرشدِ. حتى الليل ليس قادراً على تخفيف هذا الحريق الماحق، الذي يتابعُ، بعد القضاء على آخر قشّةٍ في الواقع، حرقَ خيالنا وعندئذٍ تكفي أنّة، صدى صوتٍ، وقعُ خطوةٍ لإثارة أكثر التأثيرات غرابة.

عانيتُ من اختطاف جنون، شربتُ قربة مليئةً ولم أشعر بأنَّ الماء ينفذ إلى حنجرتي، كان يطفح عن شفتيَّ وينسكب فوق صدري. ظننتُ الوعاءَ فارغاً بينما أستحضر العطشَ الرهيبَ الذي عانيتُ منه في صحراء المغرب. أحدٌ حاول أن ينتزعَ منّي القربةَ كيلا أستمرَّ في سفح ذلك الكنز الأغلى من أيِّ كنزٍ آخر نظراً للحاجة إليه. مددتُ يدي إلى سيفي وواجهتُ القافلة كاملة. كنتُ واثقاً من أنَّ الماءَ نافد وحمّلتُهم المسؤوليّة. ركعوا أرضاً وهدّؤوا غيظي فأنسونيهِ كما يُنْسي سكونُ البحر المباغت العاصفةَ التي سبقته. شعرتُ بأنَّني أخرج من هاوية. وحين أعدتُ السيفَ إلى غمده غرزته في لحمي دون أيّ مبرّر.

في غزّةَ اضطُرِرتُ للنقاهة من جرحٍ مُضاعَف؛ فمن جهة اخترقَ السيفُ فخذي ومن أخرى مزَّقتُ ثقتي بنفسي. كم هو شاقّ عليَّ تذكّرُ السكينة أمام خطر أنا مصدره الوحيد ويدفعني للشكّ بحواسّي! فأنا من أدخلَ الموتَ إلى جسدي ومن عليه أن يخرجه منه.

لم يكن باستطاعتي المكوث طويلاً في تلك المدينة الحدوديّة والأولى على ضفّة الصحراء الآسيويّة، التي يتجمَّعُ فيها كما في كلّ الشرق الأدنى ناسٌ من شعوب متباينة جدّاً، دون أن يختلطوا أبداً. عليَّ أن أشرع بالرحيل ما إن تسمح لي صحّتي بذلك، لأنّني في أراضي الإمبراطوريّة العثمانيّة. كم سيتأخّرُ إتهامُ محمّد علي الخطير جدّاً لي بالوصول إلى القسطنطينيّة؟ فأنا الذي اضطررت لتقمّص شخصيات

كثيرة ومتباينة ظننتُ أنّني كسبتُ على الأقل امتياز أن أُحاكم على ما فعلته فعلاً. لم أكن أرغب بأن يُقطع رأسي ويسحق في مهراس ويُعرَضَ جثماني في الساحات العامّة، وعليه كتابة معلّقة على الصدر بخنجر تشي بأنّني عميلٌ بريطاني. فهذا نشاط لم أقم به قط.

وذات يوم ارتفع صوتُ علي باي الداخليّ، الذي لم أسمعه منذ زمنٍ طويل فوق لغطِ الألسن المختلفة في شوارع غزّة.

ـ هل كان السيف الذي طعنتني به موجَّهاً ضدّي؟

ـ ولماذا تقولُ هذه الحماقة؟

ـ عليك من الآن أن تنتزعني من صدرك لتعودَ إلى أهلك وإلى من كنتَهُ.

ـ اسكت! الصحراءُ أيضاً ذهبت بعقلك.

خرجتُ من غزّة دون أن يندمل الجرح. بدا من غير المعهود ألاّ أُسافر في قافلة. كان الموكب المرافق لي مؤلّفاً من ثلاثة خدم وثلاثة جِمال وبغلين وجوادي وجنديّ تركيّ للحراسة. بعد التيه في أرباض المدينة ساعةً ونصف تأملتُ منظراً لم تعتده عيناي. غوطة فسيحةٌ مزروعة تكشَّفت أمامي مثل خيال. أنا المعتادُ على قحل الصحراء بدا لي أنّني أدرك كيف تنمو السوق الخضراء بملمس الحرير وتألّق الزمرد، متجذّرة في الغبار الذهبي والريّان الذي تنضح به أحشاءُ الأرض المعدنية.

في كلِّ مكان يُحسّ بيد الإنسان. في السواقي المرسومة ينساب الماءُ بدقّة تكادُ تكون رياضيّة. القرى في كلِّ مرّة أقرب بعضها إلى بعض وتُبدّل مشهد الهضاب وتزاحم السماءَ على المكان، السطوح مغطّاة بالقشّ، البيوت الكبيرة تخثّرُ السهل والطريق يضجُ برواح وغدو ناسٍ منهمكين بالعمل. ومن النادر أن توجّه النظر إلى زاوية من الطبيعة لا تحمل على كاهلها الماضي، وتتطاول بأملها باتجاه المستقبل. لم يكن الحضور الأبدي للصحراء موجوداً حيث لا يُلحظ مرور الزمن إلا من آثار الحتّ أو التآكل.

بدا لي أنّني في أوروبّة. لكن أيّ حقد مرٍّ سيجرؤ على تعكير ذلك

الفرح السهل؟ سأعترفُ، هكذا مررتُ بتجربته. عند العودة إلى تلك البلاد، التي كلُّ جُزَيءٍ في مشهدها له مالك، تنكمشُ الروح وتفترُ. أين أمدّ بصري؟ إلى أين أقودُ خطواتي دون أن أتعثّر في كلٍّ لحظة بسياجٍ أو حاجز يحذِّرني: قِفْ! لا تقطع الحدًّ! ينهدُّ عزمي، ترتخي عضلاتيَ والتوتّر الذي يتوِّج أعصابي يختفي. أرخي العنان وأترك الجوادَ يحملني بتكاسل وأبدو أنّني لستُ نفسي. فعلي باي العربي، الطافح بالنار والحيويّة، ألقى بنفسه إلى صحراء أفريقيّة وشبه جزيرة العرب كما يلقي البحّار الجريء بنفسه بين أمواج بحرٍ هائج وكلّ أوتاره مشدودة وروحه مستنفرة لمواجهة أي خطب. أعرف قليلاً عن الكروب التي تهدُّ الرجالَ، ولا أشكّ بأنّ أولئك الذين يعيشون في ظلٍّ حكوماتٍ جيِّدة التنظيم، تضمنُ لكلٍّ فردٍ ملكيّته، محظوظون أو بالأحرى أجدني مقتنعاً أيضاً أنّ كلّ ما يُحقّقُ بأمانٍ يضيع في الطاقة.

سمعتُ صوتَ علي باي الداخلي:

ـ ما أسرع ما تنفصل عنّي، يا صديقي!

الفصل السادس والعشرون

الفتحةُ في الحجاب

ينحدرُ هذا المنظر العدني لفلسطين، التي لا تكادُ توجدُ، من الهضابِ المرتعشة. إنّها مؤامرة خفيفة كي يملأها المسافرُ بالصور والأحداثِ والمعاني التي توحي له بها معتقداته. كلّ ديانة من الديانات التي تحدّد هنا أرضَها المقدّسة تتشاجر على أشجارها وكهوفها وجبالها وأنهارها المقدّسة، المحميّة أحياناً بمعبد والمهدَّدة به أحيانا أخرى. فأتباعُ موسى وعيسى ومحمّد يستمرون في حرب شرعية مستمرّة. ومع ذلك فجميعهم يتوسّلون ذات السماء الزرقاء التي تظلّهم بالتساوي.

حين ينظرُ الإنسان إلى الأعلى لا يجد اختلافات مأساويّة كثيرة. هذه الأرض لا ماء فيها غير الماء الذي يهطل من السماء. هذا هو سبب الجوع المعتاد الذي يذكره التاريخ وأيضا سبب أيام الوفرة السعيدة. ما من بلد آخر يثق بالسماء كفلسطين. عند مروري بها وجدتُ أنهارها ومسيلاتها جافّة كقلوب الشيوخ المسلمين والحاخامات اليهود والرهبان الأرثوذكسيين، الكاثوليكيين، الأقباط، الأرمنيين، السوريين والحبشيين، الذين لا يتردّدون في اللجوء إلى الرشوة، النار أو السيف لزيادة امتيازاتهم في أماكن العبادة.

ثلاثة أيّام وأنا أخبُّ فوق وكر نمل. ملايين الحشرات تدور في كلّ الاتجاهات، تجرّ قشّاً وبقايا في الطريق الذي يقودني إلى حيفا. يبدو

كأنّها تريدُ أن تبني معلفاً في مكان ما. بهذا الشكلِ استحضرتُ، دون أن أنتبه تقريباً بفضل النمل وليس البشر، القصّة المؤثّرة التي تعلّمتها في طفولتي عن الطفل الهارب من الموت في هذه المضائق ذاتها، ولم يجد ملجأ له في الأماكن التي يقدّسونه فيها اليوم.

كما هرب هو آنذاك أهربُ أنا اليوم. للخوف فعل السمِّ حين الاحتكاك بأي حدثٍ مباغت. بعد أن توقّفتُ في حيفا ورام الله، أريماتيا القديمة، جعلني برنسٌ أزرق أمرّ بلحظة حرجة. اجتاز الطريقَ أمامنا عجوزان. سمعتهما يصرخان في اللحظة التي رحت أترجل فيها عن الجواد:

- هل أنت مسيحيّ؟

أوشكتُ على فقدان برودة دمي. انتبهت إلى أنّ معظم المآثر تنتهي أحياناً بأكثر الطرق ابتذالاً. كيف يمكن أن يتعرّفا عليّ وهما لم يريا وجهي أو يسمعا منّي كلمةً واحدة؟ هل حانت لحظة افتضاح أمري بعد أن جرّبتُ نفسي أمام آلاف البشر في هذا العدد الكبير من البلدان؟ أخيراً هل غضبت منّي الحقيقةُ التي طالما انتهكتها وتطالب بضحيّة؟

أحاطت بي مجموعة من الرجال المسلَّحين. أخرجت فرمان مكّةَ. عندئذ فقط عرفت أن العجوزين كانا يجمعان ضرائب، يجب أن يدفعها كلُّ المسيحيين المتوجّهين إلى القدس. وافترضوا أنّني مسيحيّ لأنّني أرتدي برنساً أزرق وهو اللون الذي يميّز لباس مسيحيي البلد.

في الثالث والعشرين من تموز من العام 1807 قادني دربٌ مترب ووعرٌ إلى حافّة جبل قاحل مصدوع بصخور بيضاء، ولا تقطعه إلا بعض شجرات الزيتون المعمّرة والفضّيّة. خطّ سورٍ يكبح زرقة السماء الخالصة والخالية من الطيور. لم يكن يتسرَّب من جدرانه أيُّ همس. ويبدو أنّه لا يحتوي إلاّ على صمتٍ ملأنا خوفاً. بدت القدس مدينة منهكة بعد أن غيّرت وجه العالم. كان مسيل السدرون جافّاً والمستنقعات فارغة. للأرض تركيب الرماد وفي حظار فسيح تتصارع الآلهة المختلفة بحنق على آثارها.

فضّلت أن ألقى الله في الأرض الفسيحة خارج المدينة التي تحتفظ بقبره. لكن نتانة رهيبة كانت تفوح من الخلافات بين مختلف المعتقدات في بيت لحم والناصرة. كان اليونان الأرثوذكس يعملون على استغلال

فقر وانعدام الحماية عن الرهبان اللاتينيين نتيجة لأحداث أوروبّة. لتقليص امتيازاتهم في حراسة الأماكن المقدَّسة. أكثر من نصف هؤلاء الرهبان كانوا من مواليد إسبانيا وفي حالةٍ من انعدام الحماية. ففرنسا تخلّت قبل سنواتٍ عن دفع مساهماتها، كما لم تعد تصلُ الإرساليّات الإسبانيّة. لم يكن باستطاعتهم مواجهة الضرائب التي تخضعهم إليها السلطات التركيّةُ، وتهدِّدهم بتجريدهم من حقوقهم.

قرَّرتُ دون أن أكشف لهم عن شخصيّتي التعرّف على حالتهم كي أتحوّل إذا سنحت لي الفرصة، ذات يوم إلى مُحام عنهم. عند تعاملي معهم اكتشفت أنّهم ناسٌ طيّبون، كما أتصوّر أن يكون الأرثوذكسيون، وإن كانوا مصابين مثلهم بقصر النظر فيما يتعلّق بالإيمان. لا تكشف لنا الكراهيةُ أبداً عن الإنسان تماماً. وكذلك الحبُّ وإن قبلته بمرارة. الأشخاص أنفسهم الذين كانوا قادرين على الكراهية حتى الحنق كانوا قادرين على الحبِّ حتى التضحية. مشكلة وجود الشرّ مثيرة بالنسبة لأيّة ديانة، لا يمكن لهذه الصراعات المضحكة بين المعتقدات عند الفيلسوف الذي لا يريد غير خير الإنسانيّة إلا أن تثير الفضيحة وتبعث على الشكِّ المُقلق.

غادرتُ ميدان المعركة هذا، وتوغّلت في الأرضي السوريّةٍ ميتاً أكثر ممّا أنا حيٌّ، لأنَّ علي باي يُحتَضرُ وباديّا لم يعد إلا ظلاً ينشد ماضياً بعيداً. من كان يهمز جوادي في تلك الفجاج الضيّقة، التي تشقُّ حاجزاً جبليّاً كثيفاً منتصباً بين المتوسِّط والصحراء؟ ليس غير تلك الحاجة العمياء للعمل التي تسندُ الإنسان حين يفقد وعيه بذاته.

كان الجوُّ مشحوناً بغيومٍ كثيفة لا تكادُ تسمح بمرور خيط شمس. درتُ حول البحر الميّت وعبرتُ نهر الأردن عبر جسر تقوم على حراسة طرفيه قوّتان متقابلتان. واحدة تابعة لباشا عكّا والأخرى لباشا دمشق. خفتُ حين وصولي أن تكونَ اتهاماتُ محمّد علي قد سبقتني. لكنّني تبيَّنتُ أنّه ما من واحدٍ من الموقِعَين مستنفر لوصول جاسوس في خدمة إنكلترا. كانت الأرضُ الوعرة والحالة السياسيّة المحتدمة والفوضى التي تعمّ الإمبراطوريّة العثمانيّة تعمل لصالح عتامة خدمتني؛ يحميها الاستقلال الذي يدير بها الحكّامُ الأقاليم.

لم يكن لي وكما علّمني حادثُ سيناء عدوٌّ غير نفسي. من بين

مختلف الجبال التي تخترق هذا البلد، عتبة القارات الثلاث، اخترتُ طريق القوافل التي تمضي بين الحجارة البركانيّة وتحيط بالصحراء.

كانت المدن التي تعثّرتُ بها عبر طريقي في غاية الجمال، لكنّني ما عدت الرحّالة، ذلك الخليط البليد من رجلين مصرّين على اختراق كلّ الحدود. لم أعد أسافر، بل أهربُ. في دمشق احتفظت بشيء من بريق أقمشة الهند وفارس، إلى جانب الحرير الذي كان يملأ مختلف المخازن التي تشكّلُ شوارعها. ذهب أوفير، لؤلؤ خبيلات وماس غولغوندا، عنبر جزر المالديف وصمغ سيلان، شالات كشمير ومسك التيبت، مرّ كوشين وبخور حضرموت، مرّ وفضّة وعاج أفريقية تتدفّق إلى بوّابة ذلك الشرق. لكنَّ الطبيعة البشريّة مذهلة وسكّانها الذين يعيشون بثراء من المعامل والتجارة كانوا ينتظرون وصول الوهّابيين بتلهّف، الذين سيأتي موقفهم من الرفاهيّة والصناعة والتجارة معه ودون شك بخراب مدينتهم.

في ضاحية الميدان حيثُ تتداخل مخازن الحبوب مع أضرحة المماليك انضممتُ إلى قافلةٍ متوجِّهة إلى حلب. اضطررت بعد أن اجتزنا حمص وحماه أن أواجه في تلك الليالي الرطبة من شهر أيلول والسيف في يدي مجموعة من البدو، الذين أرادوا تحت ستار الليل أن يأخذوا البغلَ الذي يحمل أوراقي. معروف أنَّ إحدى تلك الأوراق تؤكِّدُ أنَّ علي باي من مواليد حلب. تظاهرتُ في اليوم التالي حين وصلتُ المدينةَ بالمرض، وأغلقتُ على نفسي الغرفة طيلةَ الخمسة عشر يوماً التي قضيتُها فيها. الكلمات التي نلفظها أو نكتبها في أزمنة أخرى سكين تلاحقنا في ظهورنا للأبد. لم أجروْ على الظهور في تلك المتاهة من الطرقات التي شكّلت في العصور الوسطى نقطةَ انطلاق القوافل التي تتاجر مع الهند، ويتصارع عليها اليوم الانكشاريون والأشراف. لاأحتفظُ منها إلا بطعم فستقها الحلبيّ، وكآبة التحقّق من أنَّ علي باي لم يولد في أيِّ مكانٍ آخر غير قلبي.

غادرتُ حلب يتبعني عبدٌ وبعضُ مُكريي البغال وخمسة رجال مسلّحين بالبنادق للحراسة. في محيطها وجدتُ بقعة منخفضة بقطر مئة قدم وارتفاع أربعين. يرى المسلمون أنّها كانت في أزمنةٍ أخرى مدينة مغمورة، والمسيحيون يرون فيها مسرحاً كانت تتصارع فيه

الحيوانات الضارية. وهناك من يقدِّرُ أنّها استخدمت سجناً أو ديماساً أو ربّما تخفي حوضاً هائلاً. أنى وُجِدَ البخيلُ حتى في وسط الخرائب فإنّه يكنز والغنيّ يبذّر والكسول ينامُ والمرِحُ يسخرُ.

ـ كيف تريدُ أن يعرفني أبناء مدينتي بعد كلّ هذه السنوات؟ ـ مزح صوتُ علي باي الداخلي ـ إذا كانوا غير قادرين على تحديد هويّة بناء بضخامة البناء الذي يعايشونه منذ قرون؟

وصلنا إلى أنطاكية متتبعين مجرى العاصي. نصحني حاكمها بكر، الذي يعيش في حصنٍ مهجور بقدر ما هو منيع، بمتابعة رحلتي بحراً لأنَّ أتباع الثائر كوكوك علي سيطروا على الطرقات البرِّيّة. ركبتُ السفينة في سمنداجي لعبور خليج الإسكندرون مقابل جزيرة قبرص، وبعد يومين رسونا في كرمانيا أمام شاطئ يتشاجر ويتزاحم فيه حشدٌ صاخبٌ من الحمّالين الفتيان على حمل أمتعتنا ونقلها إلى طرسو. عندما اقتربنا من هذه المدينة بدت لي غريبةً، خياليّة، عرفت بعد ذلك أنّها مبنيّة على تلّ اصطناعيّ. قليل ما أستطيع قوله عنها فقد بقيت تمطر مطراً غزيراً طوال الليل.

السفر عبر تركيّا مريح فعلاً. فالطرق الرئيسيّة مجهّزة ببيوت للتبديل، بدلنا فيها أحياناً جيادنا مرَّتين في اليوم. ومن المعتاد معالجة أمر السفر مع تتري ليهتمَّ بالخيول والمبيت والطعام. يُدفع له مقابل ذلك عادةً مبلغ محدَّد يُتَّفق عليه مسبقاً.

ومع توغّلنا في جبال طوروس راحت الجبال تتعرّى تدريجيّاً من نباتاتها إلى أن صارت مرتفعات جرداء مغطّاة بالثلوج.

من إزميل قادني سهل عارٍ من الأشجار إلى قونية في قلب الأناضول. الطرق بالنسبة للرجل الهارب نارٌ. التتري الذي اتفقت معه على الرحلة أصابني بالقنوط. لا أستطيع انتزاعه من الفراش في الفجر، وخلال النهار نتقدّمُ ببطءٍ شديد. كان رجلاً ضخماً بحجم ومظهر الجاموس وبرودة الثور المثيرة للأعصاب. يُحاول أن يتوقّف بأيّة ذريعة. أدركنا بالقرب من إزنيك، نيثسا القديمة، أحدُ ضبّاط محمّد علي. لحسن الحظ لم يعرفني. مرَّرني كرسولٍ لشريف مكّة. شرح لي أنّه يحمل للحكومة التركيّة تأكيداً بالانسحاب الكامل للجيوش الإنكليزيّة، وأخباراً صغيرة أخرى مثل خيانة أحد المسلمين الذي تحوَّلَ إلى عميل

بريطانيّ ما يزال ضمن حدود الإمبراطوريّة. قررتُ متابعة رحلتي حتى القسطنطينية برفقته. ما من رفقة أخرى ستجعلني أكثر أماناً من رفقة الرجل الذي يحرس حكمي بالموت دون أن يعرف.

أستطيعُ التأكيد بأن صداقة حقيقيّة قامت بيننا خلال الأيام التي سرنا فيها معاً. قليلاً ما تحتفظ المشاعرُ الحقيقيّة للبشر بعلاقة مع الأدوار التي يجدون أنفسهم مجبرين على القيام بها. معاً تذكّرنا البلاد التي أحببتُها، ووددتُ أن أخصّصَ بل وأضحّي من أجلها بحياتي.

عانقته عند الوصول إلى سكوتاري، الضفّة الآسيويّة من القسطنطينية، برهةً طويلةً. فيه ودّعت الشرق الذي كنتُ سأفقده. اختفيتُ بعدها وأرسلتُ إخطاراً للسفير الإسباني أمام الباب العالي أعلمه بأنَّ الرحّالة قد وصل.

دون خوسِه مارتينثْ هِرباس، الذي سيصبحُ فيما بعد ماركيز ألمنارة، كان واحداً من قليلين مطلعين على شخصيّتي. صادفته في باريس في بداية رحلتي، حيث كان يعمل قنصلاً لإسبانيا. أستطيع أن أتصوَّر دهشته حين سيراني أظهر بعد سنواتٍ كثيرة في المدينة التي صار فيها أوّل سفير لإسبانيا أمام الباب العالي.

أرسل إليَّ ترجمانه وموكباً من الخدم ومركباً كي أعبر البوسفور، ذراع البحر الذي يفصل آسيا عن أوروبّة ويربط مرمرة بالبحر الأسود. ما من مدينة في العالم تقدم انتقالاً أكثر جلالة من القسطنطينيّة، التي تجتمع فيها وتتباعد ثلاث مدنٍ مختلفة، فما من مدينة مثلها تؤكّد الإحساس بانعدام الحدود.

خلّفنا وراءنا سكوتاري، المسرح الذي يبعثر بيوته الريفيّة الصفراء والحمراء فوق هضاب خضراء تغلب عليها أشجار السرو. تنتصب أمامها على الضفّة الأوروبيّة استنبول فوق أنقاض بيزنطة. درنا حول سور البحر الطويل الذي يخفي ويحمي قصر توبكابي. هناك ينقسم البحر فيخترق المدينة شقّ منحنٍ مثل نهر أو شارع مائي. توغّلنا في قرن الذهب باتجاه بِرا حيث تتواجد البعثات الأجنبيّة ومساكن التجّار الأوروبيين. كانت القناة وقتذاك تؤوي الأسطولَ التركيَّ ومراكبنا الصغيرة تتحاشى البواخر الحربيّة الثقيلة والداكنة. من غابة من المآذن المنتصبة على كلا الضفّتين تحت سماء قرمزيّة

نادوا للصلاة. اجتمع على سطوح البواخر البحّارة وكبَّروا لله. فوق مئة هضبة وألف قبّة دوّت هذه الكلمةُ الحارّة والملتهبة.

كان ألمنارة ينتظرني منحوتاً في نور المساء الخردليّ، الذي يغمرُ بعض الغرف التي فُرشت لأجلي على الطريقة التركيّة في السفارة. أمر الجميعَ بالخروج وحدَّق في عينيَّ طويلاً.

- لا، يا باديّا، لا أتمكّن من التعرّف عليك - قال دون تأكيد.

- إلى هذا الحدّ تغيَّرتُ؟

- منذ كم من الزمن لم تنظر إلى وجهك في المرآة؟

- منذ زمن طويل، أيّها السفير. أعترف لك أنّها تُخيفني. المرايا قادرة أحياناً على أن تُظهر ما لا تقدر عينُ الإنسان على اكتشافه.

- ما الذي تخاف أن تلقاه، يا باديّا؟

- قله لي، أرجوك. أنت أوّل شخصٍ يتمعّن فيَّ بعد انتهاء رحلتي ويعرفُ لغز ماضيَّ.

- حسنٌ، سأحاولُ. لكن لا تبتعد عن الأضواء. المرَّة الأخيرة التي رأيتُك فيها كنتَ رجلاً شاباً يضجُّ بالحياة، تدفعه رغبته لأن يكون مفيداً لوطنه وللعلوم. الشرقُ يعيدُ إليَّ ناسكاً شاحباً أشعر عنده ببعض الضغينة أو على الأقل اللامبالاة المستفزّة أمام أوهامه القديمة. فأيٌّ من هذين الاثنين هو باديّا الحقيقي؟

- لا أحد. شعرتُ ذات يوم أنّ أحداً يناديني من قارّة أخرى، ثقافةٍ أخرى وديانة أخرى. قضيتُ ستَّ سنواتٍ من عمري في ملاحقة هذا الرجل.

- هل الأمر يتعلّق بقناع، يا باديّا، بعباءة فارغة؟

- الأقنعة دائماً لغز، أيُّها السفير. خاصّة حين تكتسب حياة، فهي تفكِّرُ، تتكلَّمُ، تضحكُ، وتجلسُ معنا.

- هل أنت متأكِّد؟

- لم أستطع قط تصوَّر ذلك حين تبنّيتُ شخصيّة علي باي. ظننتُ وقتها أنَّ باديّا سينقلُ إليه الحياة. وهو ما لست واثقاً منه الآن. أفكِّرُ أحياناً أنّه هو المُتلاعبُ وأنا الدمية. نحن معاً منذ أكثر من ستِّ سنواتٍ

ولسنا دائماً متَّفقَيْن. لقد تحوَّلَ علي باي مع الزمنِ إلى شيءٍ أكثر من شخصيّة وهميّة. إنَّهُ كائن يُفكِّرُ، يتأثَّرُ، يناقِشُ ويتمرَّدُ.

- وماذا حلَّ ببادِيّا خلال كلِّ هذا الزمن؟ هل صارت أحلامه حقيقة؟

- حقيقة؟ معظمنا نحن البشر يجهلُ معنى هذه الكلمة. تعلّمتُ أنَّ الأحلامَ دائماً تولِّدُ أحلاماً. حين ألتفتُ بعينيَّ إلى الماضي وأفكِّر في كلِّ هذه السنوات التي سافرتُ فيها مثل ورقة في مهبِّ الريح، أسألُ نفسي أحياناً من أكون. بالتأكيد أنا باديّا بقدر ما أنا علي باي. تحوّلتُ في لحظاتٍ كثيرةٍ إلى علي باي حقيقةً. الحاضرُ والماضي والمستقبل يسكنان خارج الاثنين. الحياةُ بالنسبةِ إلينا جوهرٌ في حرّيّة تتجسَّد بالتناوب في هذا أو ذاك. باديّا أم علي باي؟ ما همَّ. فخلف كِلا الإسمين يوجدُ وجهٌ واحد فقط، يُصرُّ على فتح عينيه على مصراعيهما ليتأمَّلَ العالم دون أحكامٍ مسبقة مثل ظاهرة عجيبة غير متوقَّعَة.

- عليكَ الآن أن تتحرَّرَ منه.

- هذا ما أظنّه.

- منذُ ساعاتٍ جاء ضابطٌ من ضبّاط محمّد علي باشا بخبر هزيمة الإنكليز في مصر. الأتراك مبتهجون، لكنَّ غضبهم من الإنكليز ما زال على حاله. حاولوا منذُ أشهرٍ قصفَ القسطنطينيّة بالمدفعيّة. الضابط كشف أيضاً أن مسلماً خائناً لصالح هذه القوّة الأجنبيّة هربَ من القاهرة باتجاه تركيّا. سرعان ما ستنظّمُ حفلةُ صيده.

- هل تستطيع مساعدتي على الهرب؟

- بالتأكيد. فمكانتي أمام حكومة الباب العالي رائعة. لم يمض وقت على منحهم لي وشاحاً كبيراً من أوشحة الهلال العثماني لتعاوني في الدفاع عن عاصمة تركيّا ضدَّ الأسطول الإنكليزي. فحين حاصر الأميرالِ ديسكوورث مدخلَ بحرِ مرمرة أقنعتُ السلطان بالمقاومة. كان مستعدّاً للتنازل لأنَّ البواخر البريطانيّة ربضت على بُعدِ أقلّ من مئة مترٍ من قصره ذاته، ومدافعهم هدّدت بتحويل المدينة كاملة إلى رماد. نظّمنا أنا وسفير فرنسا سيباستياني الدفاع. استطعنا أن نقلب الوضع خلال أيّام قليلة، بينما السلطان يلهي بمماطلاته الأميرالَ. وذات صباحٍ اكتشف ديسكوورث أنَّ أسطوله تحت رحمةِ مدفعيّتنا فاضطرَّ

للانسحاب. هذه الواقعة عزَّزت تأثيري في البلاط. سيكون صعباً جدّاً، لكنّني سأحاول إخراجك من تركيّا.

ـ أنا على استعداد للتخلّص من ثيابي والعودة لأصبح باديّا مرّة أخرى.

ـ لا، ليس سهلاً، يا صديقي.

ـ لا أفهمكَ، هم يبحثون عن مسلم.

ـ صحيح. لكن هناك مسلمون كثيرون. كيف سنبرِّرُ ظهورَ مسيحيّ في القسطنطينية. لن يمرّ وجودك فيها دون لفت الانتباه. لا بدَّ أن يقدِّم لك علي باي خدمةً أخيرة. فلعلّه يستطيع أن ينتزع مسلماً مجهولاً من الإمبراطوريّة العثمانيّة. لكنه لن يستطيع فعل ذلك مع باديّا أبداً. ما زال على علي باي أن ينقذ حياتك، يا صديقي.

الفصل السابع والعشرون

من إيمانٍ إلى آخر

تكلّمنا أنا والسفير طوال الليل. انهزتُ في الصباح منهكاً تماماً في زورقٍ صغير بمجدافين قادني بحذرٍ إلى استنبول. رأى السفير أنّني إذا ما بقيتُ مقيماً في سفارة مسيحيّة سأثير الشكوك فوراً. طلبَ منّي أن أتصرَّف كمسلمٍ عاديٍّ، وأتخلّى عن الأبّهة والعظمة التي أحاطت بي طوال رحلتي كي أحتمي في ظلمة كتومة. خلال ذلك سيفكِّر بالطريقة التي يخرجني بها من تركيّا. استضافني في خانٍ مُريح بصحبة ترجمانٍ تركيٍّ وعبدٍ وانكشاريّ.

كان الترجمانُ واحداً من أولئك الرجال الذين يبدو أنّهم يعثرون دائماً على الثقب في مصاعب الحياة ليعبر دون أيّة صعوبة ظاهرة. قال لي إنّه وُلِدَ مسيحيّاً في ألبانيا، لكن وبما أنّه لا يستطيع أن يسمح لنفسه بهذا الترف في القسطنطينيّة فقد أسلم. بدأ في شبابه بدراسة الطب، الذي كان يعتبره علماً غير مفيد إذ ليس عنده خبر عن حالة واحدة من الشفاء التام. طاف في ألف بلدٍ يقدِّمُ خدماته مرَّة كجنديٍّ وأخرى كطبيب، وبذلك يعتبر أنّه سدّد حساباته مع النوع البشري بشكلٍ عادل. ماذا كان يفعلُ في تركيّا؟ برأيهِ القدرُ يتعبُ من تعب بعض البشر فيقرِّرُ نسيانهم. وصل إلى القسطنطينيّة مُصادفةً ومنذ ذلك الوقت لم يملك فرصة ولا سبباً للذهاب من هناك. كان يؤكِّدُ أن العناية الإلهية

تتراخى في نفض الغبار عن حالته، وتتركه ينام في المقاهي ويكسبُ عيشه بشكلٍ غامض من خدمة البعثات الأوروبيّة. لم يكن يعتقد أنّها ستتذكّره.

- لذلك وُجِدَت الأشباحُ، يا سيدي - اعترفَ لي - إنّهم أشخاص مثلي ينهكون الخالق العالي. يصيرون يوماً بسبب الشيخوخة غير ماديّين وغير مرئيّين، هواء لكنّهم لا يموتون أبداً.

وبما أنّني لم أكن أعرف كلمةً تركيّةً واحدة ولا هو يعرف كلمةً عربية فقد تفاهمنا بلاتينيّة ركيكة، مطعَّمة بعبارات إيطالية. كنّا نقضي الوقتَ في مقاهيه المُحبَّبة نتأمّل الظلال التركيّةَ (خيال الظل)، المشهد الوحيد الذي تمكّن من التملّص من المبدأ الإسلامي الصارم الذي يمنع تمثيل الكائن البشري.

- ألا ترى، يا سيدي، أن الظلال أكثر قلقاً وحيويّة من الأجساد؟- كان يُعلِّقُ - الظلال أيضاً مثل الأشباح لا تشيخُ أبداً.

ومع أنّني تجنّبتُ التعاملَ مع الناس من خلال محاولتي عدم لفت الانتباه والاهتمام بتلك المشاهد الساخرة التي يقوم بها بطل واحد وحيدٌ، فظٌّ وغير ظريف، فقد ملكتُ فرصةً لتقدير الرأي العام التركي. كانوا يقدِّمون صورةً مرعبة عن حالة الفوضى في الإمبراطوريّة. لاشكّ أنّها كانت تنطبق على الواقع. قبل وصولي بأشهر كان الانكشاريون قد بدّلوا السلطان سليم الثالث، ذا الروح المتنوِّرة الذي حاول أن يحدِّثَ الإدارةَ والجيش ووضعوا على العرش فتى حلواً ، هو ابن عمٍّ له، لم يضع قبلها قدماً خارج السراي. كان على هذا الطفل المسكين ، مصطفى الرابع مواجهة متطلّبات قوّاته الانقلابيّة ذاتها، والباشوات المحلّيين الذي ثاروا في كلِّ أنحاء الإمبراطوريّة، واحتلال روسيا لإمارات الدانوب.

طالت حالتي الحرجة أكثرَ من اللازم. مضى على إقامتي في استنبول أكثر من شهر مرهوناً بتحرّكات السفير. كانت الحربُ مع الروس على الحدود التركيّة الأوروبيّة عائقاً إضافيّاً أمام رحيلي.

- أو ربّما ميّزة - أكّدَ السفير.

نظرتُ إليه دون أن أفهم.

ـ وسط هذه المشاغل الكثيرة سيبدؤون بنسيانك.

ـ ما الذي فعلته حتى الآن؟ ـ عاتبته.

ـ لا شيء ـ أجابني بهدوء ـ الانتظار والثقة بأن علي باي سينفّذ دوره بتعقّل. حقّاً لقد قام به برضى تام. نجا باديًا المضطرب بجلده بفضل دم علي باي البارد. كنتُ أعرفُ أنّ عميلاً بريطانيّاً مفترضاً في حرب صارت بعيدة سيفقد الأهميّة عند الباب العالي مع مرور الزمن.

ـ ومع ذلك قدّم مكافأة للقبض عليَّ.

ـ عندها فقط قرّرتُ العمل. فحين وضعوا سعراً لرأسك دلّوني إلى ما يجب أن أنتبه إليه. ضاعفت المبلغ فوراً لمن يسهّل هربكَ. والآن سيصبح اعتقالك بالنسبة للموظّف المهتم بحالتك أقل جاذبيّة من حرّيّتك.

ـ هل يعني أنَّ لحظة الرحيل قد حانت؟

ـ كلُّ شيءٍ مُتّفَق عليه. غداً بالذات ستخرجُ من استنبول برفقة أحد التتر.

عبرتُ تراقيا مثل البرق. لم أكد أتوقّف إلا بعض الساعات للراحة في صمت القرى اليونانية. كانت أدريانابوليس التي أقام فيها الجيشُ التركيّ مقرَّ قيادته صحراء مقفرة. في السبعين فرسخاً التي كانت تفصلني عن الجبهة مررتُ بفصائل عديدة تائهة، لا عمل لها غير رصد النساء البلغاريّات الضخمات بعيونهم. بعد المرور بستارا زاغورا دخلتُ في البلقان عبر كزانلاك برفقة عاصفة ثلجيّة. خضتُ في نهر جنتارا وتوغّلتُ بعد أحد عشر يوماً من السفر عند منتصف الليل في مدينة روس المحصَّنة، أدار لي الانكشاريون ظهورهم ومكثوا بلا حراكٍ حين أشار إليّ الباشا مصطفى بيرقدار بزورقٍ في الظلمة. بعد خمس وثلاثين دقيقة نزلتُ على الضفَّة الأخرى من الدانوب. كانت جيرجيو آخر موقع للجيش التركيّ. أعلن ضابطٌ بعد أن قرأ اسمي في الفرمان بشكل قاطع:

ـ أعرفُ هذا الرجل. ليس من الضروريّ تفتيش أمتعته.

قادني بعضُ الجنود بوجوههم التي لأمواتٍ خلال ستّ ساعاتٍ على بعد أمتارٍ قليلة من المراكز الأماميّة الروسيّة. سمعتُ خلف

الاستحكامات المحصّنة صرخات مدوّية بلغةٍ مجهولة. اقتربت على رؤوس أصابعي إلى حافّة التحصينات ذاتها. شققتُ طريقي بين غابة من اللحى الطافية، حتى وصلتُ ضابطاً قدّم نفسه بطريقة لذيذة لحملي إلى القائد العام.

عدتُ بفضل رسالة مارتينث هِرباس لأكوّن فكرة عن الكرم الروسي الذي جرَّبته في موريا. بقيت يومين لا عمل لي غير الأكل والشرب. ومن حين لآخر يتجهّمُ الجنرال الذي خلع سترته العسكريّة وحذاءه ويطالبني بالفرنسيّة بتوضيحاتٍ عن حالة القوات التركيّة. وحين كان يلحّ ضبّاطه يوقفهم بإيماءة آمرة.

ـ لا تتدخّلوا في حديثنا! ـ يصرخُ بهم ـ أريدُ أن أعرف كم قنينة فودكا يستطيع أن يشرب رجلٌ كافر.

أخيراً اقتنع وأمر بتحضير الجياد.

ـ أتفهّم ذهابك من تركيّا، يا أبانا قال حين ودّعني ـ فرجلٌ مثلك يحتاج كي يتماسك لمشروب أقوى من القهوة.

قطعتُ قسماً من الطريق برفقة فتى ساحر. قال لي إنّه مسافرٌ إلى بوخارست ليتزوّج من ابنة تاجر ثريّ. لم يرَ الخطيبة من قبل. فالخطوبة رتّبها والداه. وصلنا إلى عاصمة فالاكيا ليلاً، وقبلتُ اقتراحه باستضافتي في مضافة حضّرها من قبل. استيقظتُ في الخامسة صباحاً على أنينه. شعر بنفسه مريضاً فجأةً ومات بعد قليل بين ذراعيّ.

تصوّرتُ فكرة شيطانيّة إذ كنتُ ما أزال بعيداً جدّاً عن بلدي، ولعبور أوروبّة إلى ڤيينا لا بدّ من اختيار الطريق الذي يمرُّ في هنغاريا بالدوران حول تخوم صربيا، حيث الحروب الدينيّة تُعرِّضني لمخاطرة كبيرة. كانت الحكمة تنصحني بالتنازل عن علي باي. لكن أيّة شخصيّة أتخذ؟ ما من ورقة واحدة من أوراقي تشهد بأنّني باديًا. خطر لي الاستيلاء على وثائق الشاب وثيابه.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة لأوّل مرّة. كان السفير مارتينث هِرباس على حق. لقد شختُ بشكلٍ مرعب ولم أتجاوز الأربعين من عمري. بدوت شبحاً أكثر من عجوز. لم أستطع تذكّر الحركات التي كانت لي في أزمنة أخرى بدقّة. إذا قارنت الوجه الذي أحتفظُ به في

ذاكرتي بالذي يراقبني مسكوباً في الزئبق لن أعرف نفسي. لم يبق من كلِّ تلك السنوات سوى آثار توتّر نهم، آثار الجهد والهزائم وبعض النجاحات التي يجهلها الجميع. وكذلك كومة من الأوراق التي قد تتحوّل ذات يومٍ إلى كتاب. صحيح أيضاً أنّني أكنزُ بعض المعارف الرائعة عن العالم والبشر لا قيمة لها ما لم أشارك بها الآخرين.

ناديتُ صاحبة الفندق وسلّمتها كيساً سخياً كي تأخذ على عاتقها جنازة علي باي، المرتاح للأبد في جسد ذلك الفتى الجهول.

حين هممتُ بالخروج من الفندق جاء خادم يسألُ عن سِزارْ لوفينِسكو. كان هذا هو اسم البائس الذي اغتصبتُ هويّتَه. أشارت صاحبة الفندق إليَّ في الحال. كان رجلاً ضخماً أمسك بي بين مخالبه. تأخّرتُ حتى فهمت ما يجري: في مكان من بوخارست كانت خطيبتي تنتظرني قلقةً. اضطررتُ إلى اللحاق به في شوارع مسقوفة بألواح خشبيّة حتى بيت حموي المستقبلي. تظاهرت طوال ذلك اليوم المرعب باختفاء صوتي كيلا يكتشفوا جهلي بلغتهم. ابتسمتُ إلى ما لا نهاية بينما خطيبتي تنظر إلي بفضولٍ أكثر مما بذهول، وحموي يربت على ظهري وذراعيّ ربتاً ضارياً. أيضاً حضر إقطاعيّ روسي قبّلني وهنّأني بمبالغة. الحادثُ أجبرني على المغادرة الفوريّة، فالعرس كان سيقام في اليوم التالي.

في فالاكيا نصّب الروسُ أنفسهم حماةً للمسيحيين في مواجهة الباب العالي، وسلّموا السلطةَ للأمير اليوناني إيبسيلانتي الذي حكم بمساعدة كايكانيين ومجلس من إقطاعيين جبابرة. عندما طفتُ بالبلد تأكّدت من أنَّ السلطات المحليّة تعرف كيف تخرج رابحة من العداء بين الإمبراطوريّتين الكبيرتين لتوسيع هوامش استقلالها. كانت الحالة في الإمارة مستقرّة وهادئة بعقلانيّة.

في هنغاريا دمّر التحالفُ ضدَّ فرنسا البلدَ بوحشيّة. الريف مهجور ورأس المال جبان.

لم تكن الحياة الإنسانية في الجارة صربيا هي السائدة، فالروس لا يثقون بالأمير كاراجيورجيفتش مثلما لا يثق هو بحماته، وكانت العصابات الصربية والكرواتيّة والعثمانيّة تتنازع على المنطقة مثل الذئاب الضارية. في ذلك الشتاء القارس كان الرجال في فجاج البلقان

ينقضّ بعضهم على بعض انقضاض الصخور. جبتُ طرقاً كثيرةً ووجدتُ في بعضها هوساً بالدم.

استطعت الهربَ من معبد الموتِ ذاك، ووصلتُ لسعادتي إلى ڤيينا يوم الرابع عشر من كانون الثاني من العام الجديد 1808 . استقبلني سفير إسبانيا بتفهّم ونعومة. بعد ساعتين من ظهوري أخبره مبعوث بحضوري خبراً مقلقاً. الجيوش الفرنسيّة دخلت توّاً إلى بلدنا.

ـ كحلفاء ـ دقّق المبعوث ـ إنّها نتائج معاهدة فونتاينبلو. لقد اتفقت إسبانيا وفرنسا على تقاسم البرتغال.

ـ كحلفاء ـ أظهرتُ ذهولي.

ـ ينتابني إحساس بأنَّ من يحكم في مدريد نعامةٌ ـ علّق السفير مبتسماً بمرارة. وأضاف بأنّها لن تكون المفاجأة الأولى التي تنتظرني. وشرح لي كمن يأخذ طفلاً من يده أنَّ نابليون قد أعاد صياغة جغرافيّة أوروبّة في غيابي ـ تقول أنتَ، يا باديّا أنك خططت خرائطَ مناطقَ مجهولة. والآن عليك أن تصحّح خرائط العالم الذي تركته حين بدأت رحلتك. النمسا مثلاً لم تعد الإمبراطوريّة العظمى التي كانتها. فرانثيسكو الأول، الذي انهزم في أوسترليخ فقد مواقعه في ألمانيا وإيطاليا. وحين احتلّ الفرنسيّون ڤيينا قبل ثلاث سنوات تنازل عن عرش الإمبراطوريّة المقدّسة مذعناً لقبول منصب إمبراطور النمسا، المناسبُ أكثر لمن كان يحكم فقط مخلّفات السيطرة القديمة بعد بتر ثلاثة ملايين نسمة.

دخل أمينُ السرِّ إلى المكتب وهمس شيئاً في أذنه.

ـ الآن يستدعيني الإمبراطور نفسه على وجه السرعة. يجب أن يكون قد تلقّى الأخبار ذاتها التي تلقّيتُها. عليك أن تعذرني، يا باديّا. سأهتمُّ بنفسي بطلبك الحصول على جواز سفر. سيُحلّ الأمرُ خلال أسبوع. ارتح خلال هذه الفترة وجدِّد، إن ملكت فرصة، معارفَك الجغرافيّة بهذه الأوروبّة التي تستقبلك مضطربة. ففي ڤيينا لا يتحدّثون عن شيءٍ آخر.

كذلك الأمرُ في ميونيخ. حيثُ توقّفتُ في أوائل آذار معانياً من مرضٍ صفراوي. قبل سنتين تحوّلت المدينةُ إلى عاصمة جديدة لمملكة بافاريا يحكمها ماكسيميليانو خوسِه الأوّل. كانت تُشكّلُ جزءاً من

كونفدراليّة الراين التي ضمّت عدداً من دول جنوب ووسط ألمانيا، التي أراد نابليون من خلالها موازاة التأثير البروسي وإقامة حاجزٍ أمام الروس والنمساويين.

وجدتُ نفسي مضطرّاً لملازمة الفراش عدّة أسابيع. استغليت أيام الركون الإجباري كي ألخّصَ للوزير الإسباني في بعثة بافاريا نتائج رحلتي، التي تكرَّم بإرسالها إلى غودوي.

السيد صاحب المعالي:

هكذا وصل الرحّالة دونِ دومينغو باديّا لِبليخ محطّماً، وسلّمني كميّة كبيرة من الوثائق، المخطّطات والشرائح واليوميّات التي تشكّل كامل عمله.

لقد قُسّمت الحملة إلى خمسة مراحل رئيسيّة من أجل الوضوح والفهم الأكبر.

القسم الأوّل ويضمُّ كلَّ الإجراءات السابقة على خروجه من مدريد، وبعض مذكرات التحضير وسفره إلى فرنسا ولندن.

القسم الثاني ويشمل الفترة منذ دخول الرحّالة إلى أفريقيا وحتى خروجه من المغرب. ويثبت من الوثائق المكانة الرفيعة التي تمتّع بها في ذلك البلد، والمشاريع الجسورة التي شرع بها والنتائج الخطيرة التي تعرَّض لها. كما يوضّح فيها الأسباب التي جعلته يعدّل خطّته الأوّلية التي كان هدفها التعرف على تُمبكتو. ويضم أخباراً وأوراقاً ذات أهميّة كبيرة، تنصح الساسة ومصلحة البلد بكتمانها والحفاظ عليها في السرّ والظلمة.

الفترة الثالثة تبدأ يوم غادرَ الرحّالةُ العريش وتصل حتى إبحاره نحو مكّة. تقدّم لنا أخباراً عن طرابلس وعن ميدون في موريا وقبرص، والرسومات التي رسمها في هذه الجزيرة في غاية الغرابة، وتأخذ بالحسبان نصباً قديمةً لم يكن يوجد عنها إلا إشارات أدبيّة مستخرجة من الكتب الكلاسيكيّة. كما يتحدّثُ في هذا القسم عن وجودِ بحرٍ داخليّ في أفريقيا، ويرفق معه أمراً ملكيّاً أصليّاً من مولاي سليمان يمنحه ملكية سميلاليا، وتقويم ملاحي لهذه المنطقة من البحر الأبيض المتوسّط، ورسالة من بطريرك قبرص إلى الرحّالة يرسل معها نسخة رائعة من الكتاب المقدّس باللغة اليونانيّة.

الجزء الرابع ويضمّ أسفاره في البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربيّة. وهي مؤلّفة من مجلّدين من الوصف وأطلس من ستّ وثلاثين لوحة عن نُصبٍ وأحداث لم يعرفها رحّالة على الإطلاق. الرئيسيّة تتعلّق بمخطّطات لمكّة والكعبة أو بيت الله.

القسم الخامس والأخير ويتألّف من أعماله التي قام بها منذ رحيله عن القاهرة وحتى القسطنطينيّة مروراً بالقدس ودمشق وكلَ آسيا الصغرى. ويضم بين الأشياء الكثيرة الجديدة مخطّط الحرم أو معبد المسلمين المُقدّس فوق هيكل سليمان في القدس، وهو ما لم يره مسيحيّ على الإطلاق.

أمام هذه البحوث الخصبة والمتنوّعة التي قام بها رجل في ظروف حرجة، أسمح لنفسي أن أطلب من معاليكم الاعتراف الشرعي بالذي جعلته خدماته جديراً به، وكذلك المخصّصات الضروريّة لنشر أعماله.

تأخّرت في المعافاة. لكنّ الجواب لم يصل. وبدل ذلك حكى لي الوزير خيمبِرنات، وهو جالس بجانب سريري في غرفة معتمة وموحشة، عن سقوط حاميَّ. فقد تلقّى الأخبار توّاً عن آخر الأحداث الواقعة في إسبانيا. كان غودوي مسجوناً في إسطبل بانتظار محاكمته من قبل مجلس قشتالة. التهمة الموجّهة إليه هي الخيانة العظمى، لأنّ الحشود التي هاجمت قصره في مدريد عثرت على بعض الأوراق المريبة مكتوبة بالحروف العربيّة. الدهماء المتلهفة لإلصاق كلّ أنواع المصائب بالمدلّل، ظنّت أنّها عثرت بذلك على ما يثبت أنّ غودوي يريدُ أن يبيع إسبانيا لملك المغرب، مقابل منحه السيادة على مقاطعة في الجانب الآخر من المضيق.

ـ وحده الجهل المُضاف إلى الشر يستطيع تدبير مثل هذه التهمة. الأمر يتعلّق بالمراسلات السرّية التي أرسلتها لأمير السلام من المغرب ـ وضّحتُ لخيمبِرنات ـ هل تعلم ماذا حلَّ بالكولونيل أموروس؟

ـ أيضاً خرَّبوا بيته وعثروا فيه على رزمة أكبر من تلك مع أوراق من نوع الكتابة ذاتها ـ أجابني.

ـ بدافع السرّية كان أموروس يخبئ في بيته القسم الأعظم من

الرسائل التي أرسلتها. وحدهما غودوي والكولونيل وأنا كنّا على معرفة بمجريات العمليّة، ونعرف الرمز الذي يسمح بفكّ الرسائل.

ـ ثلاثة مستشارين من قشتالة يعرفون العربيّة ـ كشف لي خيمبرنات ـ. ربّما تعرفهم. هم دون فرانثيسكو دوران ، دون إغناثيو بيليليا ودون فِليبٌ غانغا أرغولِيِّس .

ـ وهل يساعدهم خبير لفكّ رموز الرسائل؟

ـ لا أعلم.

ـ كم سيتأخّرون حتى يلطخوني باتهاماتهم؟

ـ أنتَ أيضاً متورِّط، يا باديّا.

ـ كيفَ سأستطيع أن أُثبت المعنى الحقيقي لهذه الرسائل إذا كانت لا تُصدَّق شهادةُ غودوي وأموروس؟ ما النتائج الفظيعة التي ستحدث إذا ما نشروا الدوافع الحقيقيّة لرحلتي إلى المغرب؟

لن أستطيع أبداً أن أشكر ذلك الرجل على رفقته حقّ الشكر، حين كنّا نتحرّى معاً وبصمتٍ سماءَ ميونيخ الضاربة للسواد من النافذة البائسة للغرفة الحقيرة ذات السطح الجملوني. لم يكن غودوي بالنسبة إليه أكثر من طاغية يستحقّ أسوأ نهاية. ملأته فجيعته بالرضى والأمل، لكنّه كبح سعادته في حضوري. كان يعرف أنَّ سقوط أمير السلام بالنسبة إليَّ يقضي بجرّة قلمٍ على منافع وتشريفات رحلتي، ويهدِّد باستبدالها بالخزي والسجن. شعرتُ بفضل براعته الرائعة بأنّ نظراتنا الملتقية ترى الأشياء ذاتها في سماء ميونيخ الباهتة: يقين أن الثروة متقلِّبة وتستطيع في يومٍ واحدٍ أن تنتزع من دكتاتور كلَّ قوّته، ومن رحّالةٍ يعود منهكاً راحتَه وتعويض مشاقّه.

الفصل الثامن والعشرون

العودة

تختلط طريقُ العودة على المسافر الذي يعودُ بالدرب الأول الذي شهد رحيله. تعود خطواته لتصبح متردِّدة وغير أكيدة مثل الخطوات الأولى للمولد الجديد. وصلتُ إلى باريس يوم أحد القيامة، السابع عشر من نيسان من العام 1808 . استقبلني أصدقاء المعهد القدامى الذين حضروا مذهولين معرضاً خاصّاً عن رحلتي. شكرني دلامبرِ علناً على الملاحظات القياسيّة للمسافات القمريّة في علاقتها بالكواكب الأخرى، التي أرسلتها إليه وإلى أعضاء مكتب قياس المعلومات حول درجة عرض مرور الشمس والنجوم فوق دائرة خط الزوال. صفّق لي جميع حضورِ قاعة الأجانب التي قدّمتُ فيها محاضرتي وقوفاً. بقيتُ بعدها وحدي وضجيج التصفيق تلاشى في الاضطراب المهتاج للشوارع الكبيرة.

كان نابليون قد انطلق قبل يومين إلى بايونا. ابتعد عنّي الرجلُ الذي صار هدفي الرئيسي. نصحني دلامبر بتقديم ثمرة مشروعي للإمبراطور.

ـ مَنْ غير نابليون يستطيع أن يُخلِّصك من المصير الغامض الذي ينتظرك في إسبانيا، يا باديّا؟ ـ أصرَّ ذلك العالم الطيِّبُ ـ مَن غيره، وهو الذي حاول في وقتٍ آخر تحطيم باب الشرق، يستطيع فهمَ أبعاد رحلتك ويضمن نشر نتائجها؟

في باريس كان كل الناس مسكونين بالتوقّع أمام أحداث بلدي. الملك كارلوس والأمير فِرناندو توجّها أيضاً إلي بايونا. لا أحد كان يعرف مخطّطات الإمبراطور. لكنّ باريس دائماً تقدِّمُ هدنةً لمأساة الحياة البشريّة. والهزائم والانتصارات لا تحقّقُ أبداً أكثر مما يحقّقه افتتاح آخر مسرحيّةٍ هزليّة. هذه المدينة المحظوظة الشاهِدَة على مصير الإنسان لا تتخلّى أبداً عن فرحها.

استقبلني في سفارةِ إسبانيا الأمير ماسِّرانو بحذر، ملفوفاً برداءٍ منزليّ حريريّ عليه رسوم طيور. أحسستُ بأنّ ما كان يزعجه مسألة تافهة. ربّما لأنّني أيقظته باكراً أكثر من اللازم، أو ذكّره حضوري بواجباته المزعجة كممثّلٍ لأمّة تقامر بمصيرها.

عاملته باحتقار. كان مشهوراً بأنّه بشوش محبّ للحياة ومتع المائدة وراقصات الأوبرا، دون أيّة مزايا ظاهرة غير بعض العادات ونبل متميّز وإن كان تالفاً قليلاً. دائماً بدت لي بلاهةُ القويّ أكثر إغاظة من بلاهة البائس.

- لا يستنفرني، يا باديّا أنّك مبعد. توضيحاتك عن أصل هذه الأوراق مقنعة دون شك. ليحمل الشيطان الوزير كاباليرو إذا كان قد طبخَ هذه المكيدة ليضيع غودوي! - قال لي في الوقتِ الذي راحت تظلم فيه عيناه الزرقاوان - ما يرعبني هو أنّك تطلبُ مالاً في هذه اللحظات الصعبة. الوضع المقلقل في بلدنا يُحدث أصداء غير مرغوب بها في الوسط الدبلوماسي. فدار هوغر و ثيا التي يقع على عاتقها تمويل البعثات في الخارج أوقفت مدفوعاتها. تفهَّم حالتي. لأوّل مرّة يحدث أنّني أضجر في هذه المدينة الرائعة.

كانتِ أموالي على وشك النفاد. ما العمل؟ والحدود صارت قريبة جدّاً كي أُدير لها ظهري دون مرارة. هل أعود في تلك الظروف وعينا ماريّا لويسا المنسيّتان تتأجّجان في داخلي من جديد مثل جمرتين داكنتين لا تنطفئان؟

خلال زياراتي اليوميّة لهؤلاء وأولئك عرفت أن صديقاً قديماً من فاس هو الحاج إدريس الرامي موجود في باريس بصفة سفير فوق العادة لسلطان المغرب، في لحظة حرجة من العلاقات بين البلدين. تأخّرتُ في اتخاذ القرار بالذهاب إلى إقامته القريبة من لاس

توليبيرياس. بقيتُ أياماً وأنا أتنزّه بظلّي في طرقات الحديقة، معكّراً بظلّي القلِق ظلالَ الأشجار المتأمّلة. أخيراً أجبرتُ نفسي ذات يوم على الإعلان عن نفسي باسمي الحقيقي.

ـ ما الذي يمكن أن يبغيه مني هذا السيد باديّا؟ ـ سمعته يقول للخادم في القاعة المجاورة ـ لا أعرفه إطلاقاً. قل له إنّني لا أستطيع استقباله.

اندفعتُ إلى الغرفة وسقطتُ على ركبتيَّ أمامه.

ـ ذاك الذي أحببته ذات يوم يطلبُ منك بتواضع أن تضعَ نهاية لعددٍ من سنوات القلق ـ توسّلتُ إليه ـ طمأنينتي بين يديك. بحبِّ الله، ماذا حلّ بمهنّا؟

ـ علي باي؟ ـ صرخَ وسحب سيفه من غمده فلمع حدّه الرقيق مثل ظفر ـ فعلاً لقد أحببتُ ذات يومٍ ثعلباً أسنانه ما تزال تمزّق قلبي.

ـ أرجوك، لا تدع الشكّ يستمر بالتهامي. هل مهنّا حيّة؟ كائنة ما كانت الحقيقة ستساعدني على تحمّل مصيري البائس.

لمحتُ عينيه الحديديّتين وقد أطلّت منهما قطرات ندى.

ـ انهض! ـ أمر ـ لا أريدُ أن أقتلك كما أقتل كلباً. لكن قبل ذلك أجب على هذا السؤال. لو أنّك انتصرت في المغرب، هل كنت ستمنحنا الحرّيّةَ أم أنّك كنت ستأتي بنا بخسّة إلى بلدك؟

ـ أنت تعرفُ الجواب، يا صديقي. خاطرت بحياتي من أجل تثبيت دستورٍ في تلك المملكة. فشلت لأنَّ اللهَ أراد ذلك. ألهذا أستحقُّ احتقارك؟ أحلامُك كانت أحلامي، وبلدُك بلدي. لا العرق ولا الدين ولا الأفكار فرّقتنا. يومها خفق قلبانا معاً زمناً طويلاً، يا صديقي.

سقط السيف على الأرض كأنّ خيوطاً خفيّة أمسكت به فوق رأسي وانقطعت. أغمضَ عينيه.

ـ ما إن أنهي كلامي حتى تغادر هذه الغرفة ولا تعود أبداً. مهنّا بخير ـ قال بصعوبة ـ مولاي أبوسليم أخذها إلى بيته. هناك ولدت ابنها عثمان. يقولون إنّ الاثنين يحتفظان بذكراك. لا تقل شيئاً! اذهب.

عند خروجي من هناك كانت أشجار لاس توليبيرياس تهتزّ مثل شعر امرأة. لماذا لا أعود إلى المغرب؟ وماذا لو استطعت إقناع

نابليون برعاية رحلة جديدة؟ علاقاته مع السلطان مولاي سليمان لم تكن وديّة. ليس عبثاً أن مملكة المغرب أعلنت عليه الحربَ بعد أشهرٍ قليلة وتحالفت مع إنكلترا. كانت الغاية من سفارة الحاج إدريس الرامي منع ما حدث فيما بعد. خطر لي ألفُ مشروع غريب أقترحه على الإمبراطور. التوسّط مع السلطان؟ الاستيلاء على الضفّة الأخرى من المضيق لإعاقة تحركّات الأسطول البريطاني؟ ما همَّ، فأنا رجل سعيد منذ أن عرفت بأنّ مهنّا حيّة، وأيضاً رجل يائس. السعادة كريمة واليأسُ خائن. بهذا المزيج الذي كان يختمر في جسدٍ لم يتعافَ من المرض كلياً بعدُ، وتحرقه عينا ماريّا لويسا مثل جمرتين شرعتُ في الطريق إلى بايونا.

ما رأيته هناك ملأني بالذهول. كان غودوي حيّاً لكنه مثل ظلٍّ مذعور، موضوع في بيتٍ صغير على طريق بياريتز. كاد لا يسمح لي بالكلام. أراني دمل سكاكين الشعب وحوافر الخيل وهو ما يزال يشعر بنفسه تحت رحمة الدهماء. عانقني باكياً وطلب مني عفواً عن الأغلاط والأخطاء التي ارتكبها في الماضي.

- أريد من الجميع أن يغفروا لي. وأنت أيضاً، يا باديّا. لن تؤذيني، أليس كذلك؟

أخيراً أحالني متلعثماً إلى الملك.

- إنّه رجلٌ طيِّب. سيساعدك.

فاجأت زيارتي كارلوس الرابع كثيراً. استقبلني بكلمات خالية من التنميق.

- ما الذي تريده منّي؟ ألا تدري أنَّ إسبانيا انتقلت إلى السيطرة الفرنسية؟ واضح أنّك كنتَ غائباً، يا باديّا. اهرع لمقابلة الإمبراطور وقل له من طرفنا إنَّ شخصك وملفّك وكلّ ما يتعلق به تحت تصرّف جلالته الإمبراطوريّة حصراً، وإنّنا نرغب أن تحاول خيراً لخدمته.

هكذا فعلتُ. منحني نابليون مقابلته. وما إن علم الأمير فرناندو بأنّني سأُستقبل في قصر مرّاك حتى أرسل في طلبي.

- سأعمل ما تشيرون عليَّ به جلالتكم - أكّدتُ - أعترف بأنّكم الوريث الشرعيّ للعرش.

- ماذا تقولُ، أيّها الأحمق - دمدم - لا يخطر لك أن تذهب بهذه الحكاية إلى نابليون. ما ستفعله هو أنّك ستنقل إليه وقوفي الثابت إلى جانبه وإعجابي بانتصاراته. أريدك أن تطلب أذنه لتعامله كأبٍ في التبنّي. هل فهمت؟ هيّا! كرّرْ ما قلته لك!

الملك وأمير أستورياس وجميع الأمراء تنازلوا لنابليون. السلالة الإسبانيّة العريقة ذابت مثل السمن أمام الإمبراطور الذي سرعان ما كرّم بالتاج أخاه خوسِه.

الرجل الذي كان يقود مصير أوروبّة استقبلني بفضول في قلعة مرّاك. سرّ كثيراً حين كرَّرتُ عليه نصيحة الأمير فرناندو.

- لم أمنحك المقابلة، يا سيِّد، كي تحكي لي هذه التفاهات.

وعندئذٍ قمت بعرضٍ موسَّع لرحلتي. أصغى إليَّ باهتمامٍ وعند الانتهاء نظر بثبات في عينيَّ.

- كلّ ذلك فعلته بمفردك تماماً؟

- بلى، يا صاحب الجلالة.

- ألم تسمعهم يتكلّمون أثناء وجودك عن الشيخ إبراهيم الكلابريسي؟ - سألني بلهفة.

- إطلاقاً.

- لم أعد أسمع أخبار السيد لاسكاريس، وهذا هو اسمه الحقيقي. شيء غريب. أنت وأنا تصوّرنا فكرة واحدة. أرسلتُ منذ ثلاث سنوات ضابطاً بيامونتسياً شجاعاً إلى حلب. كلّفته أن يتّخذ شخصيّة رجلٍ مسلمٍ كي يسبر الطريقَ البرّي الذي يربط سورية بالهند.

- هذا برهانٌ آخر على ذكاء جلالتكم الإمبراطوريّة.

- لست بحاجة لتأليهي، يا سيّد، لأنّك أدهشتني. ليس هذا هو التشابه الوحيد المشترك بيننا. أنت حاولت منح المغرب دستوراً. وأنا أقترح إقامة دستور في إسبانيا. ما رأيك؟

- في المغرب فشلتُ. أعتقد أن الدساتير يجب أن تمنحها الشعوبُ لذاتها.

- لذلك فشلت، يا سيّد باديّا. لأنَّ اسمك الحقيقيّ هو باديّا أليس كذلك؟

- في إسبانيا وفي فرنسا نعم.

ابتسم الإمبراطور.

- تعرفُ أنَّني لا أستطيع أنْ أخصِّص لك الوقت الذي يستحقّه موضوعك. إنّه معقّد وأنا مشغولٌ بشكلٍ هائل. لكن بارون بوسِت، حاجبي سسيدرس الحالة وسيرى ما الذي يمكن فعله. لا أخفيك أنَّني ما إن أحلّ مسائل أوروبّة حتى أتجّه، كما أنوي، للاهتمام بالمسألة الشرقيّة. أحدٌ يجب أن يستقصي ماذا حلَّ بالسيِّد لاسكاريس، ويتمّم مهمّته إذا لم يستطع هو إتمامها.

ذهب كونت بوندي للبحث عن بوسِت. تأخر برهة كبيرةً في العثور عليه يتمشّى بهدوء قريباً من الميناء، وخلال ذلك انتظرته في القاعة التي غادرها الإمبراطور منذ دقائق وتركني غارقاً في الحيرة. رحتُ أفكِّر أنَّ الزمن الذي كان من حظّي العيش فيه، ربّما نتيجة للثورة الفرنسيّة في الغرب وانهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة في الشرق، كان مناسباً لظهور نوع من الرجال الفطنين الذين لا يثقون إلاّ بذكائهم وجهدهم. في القرن الماضي حضَّرَ المهدُ المستقبلَ. قدر الأسرة الملكيّة الإسبانيّة الأعمى، التي تتباكى في بايونا مثلٌ على الكيفيّة التي تبدّلت بها الأشياء. نابليون في أوروبّةٍ ومحمَّد علي في الشرق صعدا من أصلٍ متواضِعٍ، وهما مدينان بكلّ شيءٍ إلى كفاءاتهما. كثيرون نحن الرجال الذين كنّا نبدِّل وجهَ العالم دون ثروة كبيرة لكن بالشجاعة ذاتها. لم أنتبه قط، كما في مثل ذلك اليوم في قاعة قلعة مرّاك، للمسافة القليلة التي تفصلُ المغامِرَ عن البطل. إنّه النجاح لا أكثر.

أذهلت حكاية مغامراتي بوسِتْ. سجّل ملاحظاتٍ كثيرة وقرّر طلبَ ملفّي الكامل من مدريد. كان الموظّفون الفرنسيون قد أصبحوا يتصرَّفون في بلدي كسادة حقيقيّين. كُلِّف الكولونيل أموروس بنقل الملفِّ إلى بايونا بعد أن أُعفي من كامل مسؤوليّاته واستعاد أدواره.

ردّات فعل اللحم البشري الخاضع للعلاج ذاته مختلفة. بقي أموروس متماسكاً، مع أنّه تعرّض للعقوبات ذاتها التي تعرَّض إليها غودوي. انصهرنا في عناق وطلبتُ منه قبل الكلام عن أيّ شيءٍ آخر

أخباراً عن حالة أسرتي التي أجهل كلَّ شيءٍ عنها. فقد كُلِّف في غيابي بالسهر على راحتها طوال السنوات التي التزمت فيها بعدم الكتابة إليها كيلا أضرّ بمشروعي.

ربّما برَّر تحقيقُ أيّة مهمّة بعض الأنانيّة المشروعة عند من يقوم بها، فقد لا يستطيع القيام بها بطريقة أخرى. لكن مشروعيّتها لا تجعل تأثيراتها أقل إيلاماً. أردتُ أن أقطع الأواصر التي تربطني بأسرتي بدافع الأمن، ولولا ذلك مااستطعت إبعاد زوجتي وأولادي عن عقلي، ولفشلت رحلتي. أعرف الآن وبفضل رواية أموروس أنَّ من الصعب جدّاً على المسافر العائد أن يبعد عن روح ماريّا لويسا الإحساس الداخلي بالفراغ والهجران.

ـ حاولتُ أن أفعل كلَّ ما كان في يدي للتخفيف من معاناتها ـ دقَّق ـ من الناحية الماديّة طبعاً.

أقسم الملك خوسِه يوم السابع من تموز على الدستور، وغادر في اليوم التالي إلى إسبانيا. كنت واحداً من معيّته. قرَّر الإمبراطور، بفضل اهتمام بوسِّت بمشاريعي، نشر رواية رحلتي بالفرنسيّة. أرسل لي كونت شامبيني وزير الداخليّة رسالةً يناشِدني فيها الإقامة في باريس، وحمل المخطوط معي للوصول إلى الوضع النهائي له، ومراجعة الترجمة وطباعة الكتاب. أجبته أنّه لا بدَّ لي قبل ذلك من زيارة أسرتي في مدريد.

انضممت مثل كلبٍ شاردٍ إلى ذلك الموكب المنعش، ذلك أنَّ كلَّ مناصبِ الملكيّة الجديدةَ قد وُزِّعَت. لا أحد انتبه إلى رجلٍ هزيل، باهت العينين، ملفوف بثياب رسمية زرقاء دون طماقات ولا مطرّزات ولاأوسمة، ويسير في الصفوف الأخيرة.

كانت الحالة النفسيّة لأولئك الناس بهيجة. لم يضعوا أوّل دستور عرفه البلد وحسب، بل ظنّوا أيضاً أنّهم منعوا حرباً أهليّةً كان من الممكنِ أن تخرج إسبانيا بأسوأ حصّة منها. ما عدا ذلك لم يتبدّل شيءٌ تقريباً، فمعظم الوزراء والموظّفين الكبار الذين عيّنهم الأمير فرناندو بعد سقوط غودوي ثُبِّتوا في مناصبهم.

ربما كنتُ الوحيد الذي انتبه في الطريق إلى عدم رضى الشعب فالسنوات التي قضيتُها خارج بلدي أجبرتني على ملاحظة الأحداث

بعيداً عن اللامبالاة، لكن عن مسافة مراقب أجنبيّ. لا يبدو أنّ أحداً أولى أهميّة زائدة للتمردّات التي كانت تنفجر في كلّ مكان. ثارت سرقسطة، قرطاجنة، مرسية، أستورياس، غرناطة وبطليموس. الجيش الفرنسي ينظّف الطريق أمامنا من الأعداء، وسلطات المناطق التي نمرُّ فيها يعبِّرون عن رضاهم عن الحالة الجديدة للأمّة.

فتح دخول الموكب إلى مدريد عيوننا جميعاً. كان من البرودة بقدر ما جهّزوا له من أبهة عظيمة، فقد امتنع الأهالي عن المشاركة فيها.

أنا أيضاً لم أُشارك فيها. ما إن عبرتُ باب المدينة حتى اتجهتُ إلى بيتي حيث وجدتُ امرأةً مختلفة. كم عانت بسبب غيابي؟ لكن وفي وسط الصعاب تكشَّفت عندها فضائل ما كان ليخطر لها بطريقة أخرى أن تعتقد بوجودها فيها. فقد صُقِل ذكاؤها وإرادتها، وتخلّت عن الوداعة والإذعان اللذين حكمت عليها بهما تربيتُها. لا يكاد يتبقى أيّ أثرٍ من تلك الشابة الصموتة والمنكمشة التي كانتها في زمن آخر. صارت لها أفكارها الخاصّة بها والقوّة للدفاع عنها. لقد تغيَّرت ماريّا لويسا! لم أكد أعرف تلك المرأة المستقلّة التي عليَّ أن أتعايش معها من جديد.

الفصل التاسع والعشرون

مبرِّرات متفرنس

بدأت تدور في تلك الأيام في مدريد شائعة عن هزيمة مريعة للقوات الفرنسية في بايلن. حدث ذلك بعد قليل من تنصيب الملك خوسِه رسمياً. كانوا يتحدَّثون عن ألفي قتيل وسبعة عشر ألف أسير من جيشي دوبّون وفيدل، وخسارة أربعين قطعة مدفعيّة وألف ومئة هارب سويسري. يبدو الأمر غير معقول. ومع ذلك أخلى الفرنسيّون المستشفيات العسكريّة، ولم يتأخر تأكُّدُ خبر الاستسلام. ترك حجم الفاجعة الهائل الطريقَ أمام الجنرال كاستانيوس مفتوحاً إلى العاصمة.

في صبيحة الحادي والثلاثين قرَّر الملكُ خوسِه بشكلٍ مفاجئ مغادرةَ البلاط الذي وصله توّاً. من بين عدّة مئات من المستخدمين الذين يعملون في الإسطبلات الملكيّة حوذيٌّ واحد فقط كان في مكانه. وكما خيّبه معظم الموظّفين وضبّاط الجيش، كذلك السائسون وعمّال الإسطبل اختبؤوا. عددٌ قليل وفيٌّ شاطره مصيره ورافق القوّات الفرنسيّةَ إلى الجانب الآخر من نهر إيبرو.

عندئذ تشكَّلَ حزبان متطاحنان. ربّما لولا فرصة بايلِن لانتهى معظم الإسبان النبهاء إلى التمتّع بملكيّة أكثر عقلانيّة من سابقتها ومن لاحقتها. لكنّ ذلك النصر الأوّل في كلِّ أوروبّة على جيش نابليون المنيع

حتى تلك اللحظة، أضرم مشاعر الناس الوطنيّة وجعلهم يتصوّرون أملاً بنصر نهائي.

لم أشعر بواجب الاختيار. فقد كنت بعيداً جدّاً عن الحياة العامّة وفي حالةٍ من التضامن في وطني أكبر من تلك التي خبرتُها في بلادٍ بعيدة. حين أشعر في كلّ ساعة من الليل بماريّا لويسا بجانبي أستيقظ مذعوراً، فألاحظُ على وجهها علامة دهشة أمام اقتحام رجلٍ غريب لبيتها. علمتُ أنّها منذُ زمن ما عادت تحسب مرور الأيّام البطيء ولا تثق بعودتي.

صادفت عودتي مرحلة جديدة من المصاعب والحرمان. فمنذ سقوط غودوي ألغت الحكومة التعيينات التي كانت تتلقّاها أسرتي. وأنا لا عمل لي ولا راتب. لم يبق من كلّ مجدي في الشرق غير عددٍ من الصناديق المليئة بالأوراق وبعض الملابس والأشياء. كانت ماريّا لويسا تصغي إلى حكاية مآثري بشكٍّ من أُهين توّاً أمام الحانوتي، ويعرف أنّ العذاب سيتكرّرُ غداً. لم أكن بالنسبة إليها أكثر من حالم بائس. بؤس الحاضر جعلها منيعة على ذكرياتي وغير مبالية بها.

لم أكن أرى ابني بِدرو تقريباً بسبب دراسته. وحدها الصغيرة أسُنثيون تصغي إليَّ بدهشة وتغطّي وجهي بالقبل عند الانتهاء. كانت تلك الطفلةُ فرحتي الوحيدة، وخلال زمن طويل جمهور المستمعين غير المعهود، المليء بالعذوبة والثقة برجلٍ لا يستطيع أحدٌ تصديقه في تلك الظروف المريرة ويمكن أن يكون آخر.

استخدمت آخر ما تبقى معي من نقودٍ في طباعة نشرة محاولاً أن أحيي الاهتمام برحلتي. لم يولها أحدٌ اهتماماً. الأوغاد سيطروا على الشارع. والقوّات البلنسيّة التي احتلّت العاصمة تناصر ثابتة الجنان أعمالَ التعسّف. أعمدة الدخان ترتفع في كلّ مكان، بينما مجلس قشتالة والمجلس المشكّل حديثاً يتصارعان على سلطة ضاعت من أيديهما. رأيتُ وأنا أسير دون هدف معينّ في الشوارع التي غزتها الحشود المضطربة كيف راحوا يجرّون جثّتي شخصين قتلا بوحشيّة. سمعتهم يقولون إنّ الأمر يتعلّق بمملوكيين. لكنّني تعرّفت في وجهِ واحدٍ منهما على دون لويس بيغوري، الرجل المحترَم، وقد شُوِّهَ بوحشيّة بالحبل الذي يجرّونه به. كان الحشدُ يصرخُ بأنّ للجثّتين ذيلاً. اتخذتُ الطريق

المعاكِسَ للرعاع. عجزٌ قاسٍ، عجز رجل مسالم يعرفُ أنَّهُ لا يستطيع معارضَة الحقد الأعمى، وعليه أن يرضى بمنع أن تلوِّثَ ردَّةُ فعلٍ مماثلة قلبه وإن كان بالاتجاه المعاكس!

ارتفع في داخلي صوت مدفوع بالسخرية.

ـ أهذا هو العالم المتحضِّرُ الذي طالما حدَّثتني عنه؟

ـ يا علي باي! يا صديقي القديم! ـ هتفتُ ـ أينَ كنتَ؟ ظننتك هجرتني في هذه الأزمنة السيِّئة.

ـ ماذا عن تلك المبادئ التي لقَّنتني بقاعدتها الذهبية دليلاً للعقل؟
ـ أصرَّ ـ لا أعرفُك، يا باديًا. كيف تستطيع أن تتأمّل دون رحمة كلَّ هذه الأعمال الوحشيّة؟

أغمضتُ عينيَّ. عرفت أنّ معركةً حقيقيَّةً حامية الوطيس تدور في داخلي. اعتقدتُ أنّني أعرفُ جيِّداً الشروط الأخلاقيّة والفكريّة المطلوبة في بلدي، كي لا أكوِّن أيّة صورة وهميّة عن نهاية التمرُّد الشعبي فيه. بعضهم كان يكسو بالوطنية ما ليس إلاّ بربريّة. يدّعون أنَّ الغضب الفالت من عقاله ما إن يطرد الجيش الغازي حتى يقود إلى مجتمعٍ أكثر عدلاً وحرِّيَّةً. بينما يغمضون عيونهم عن تأثيرات عدم التسامح المتزايدة، وعن أكثر المظالم سواداً في حضن الشعب. الرهبان هم من كان يؤجِّج العواطف الخسيسة دون أيّة غاية أخرى غير استئصال الأفكار الجديدة، ومنع التغيير الذي يتطلّبه المستقبل، بل والتضحية بالإصلاحات الخجولة التي بُدِئَ بها في الملكيّات السابقة.

عزمت على معارضة التمادي بكل حزم، والتفتُّ بعينيَّ إلى القوَّة الوحيدة التي تستطيع برأيي لجمها بفعاليّة. فكَّرتُ أنَّ نهاية الرعبِ والتعصّب واستعادة تعايش عقلاني، ستمنع كثيراً مرارة فرض ملكيّة جديدة بالقوّة. فخوسِه سيخضع على الأقل لسلطة دستور وأعلن عن إرادته في وضع نهاية للتفتيش، ولنير النظم الدينيّة وغياب الحرّية الفكريّة، التي كانت السبب الحقيقيّ لمصائب البلد. وبخلاص البلد من هذه العوائق يمكن لحياته أن تتجدَّدَ، ولأصل السلالة المفتعل أن ينتهي مغموراً في النسيان. وجَّهتُ يوم الثاني والعشرين من تشرين الأوّل رسالةً إلى الملك الذي لجأ إلى ميراندا دِ إيبرو طالباً مقابلته.

كلُّ شيءٍ تبدَّل بعدَ أسبوع بشكلٍ ملحوظ. توغل نابليون في

إسبانيا على رأسِ جيشٍ عرمرم، ومضى من نصرٍ إلى نصر حتى أبواب مدريد. الأبطال الغاضبون الذين أقاموا الحواجز تعاقد المجلسُ معهم أنفسهم ككنّاسين لإزالتها.

وشرع خوسِه من جديد بسلطته يعذّبه عدم الثقة، وتقيّد بنصيحة عددٍ محدود من المخلصين الذين لم يكن لي بينهم شفيع. بدأت توضعُ ببطء شديد أسس دولة حديثة، ركيزتُها دستور بايونا. عودة السفير مارتينِث هِرْباس من تركيّا، والذي منح لقب ماركيز ألمنارة، فتحت لي أبواب المجموعة الحاكمة المختارة التي انضمَّ إليها شيئاً فشيئاً كثيرٌ من الناس المؤهّلين والشرفاء. جمعنا جهدنا، نحن الذين كان لنا بشكلٍ عامٍّ خبرة بالحكم إضافة إلى ماضٍ ليبرالي ثابت ـ باستثناء خبِليانس وكينتانا وفلوريدا بلانكا ـ حول ملكٍ تربّى على مبادئ الموسوعة والثورة الفرنسيّة، ولا يبدي أي ميل باتجاه فرض الطغيان على البلد، ولهذا السبب بشكلٍ أساسيّ أيقظ عداوة المتعصّبين. أما الأكثر شباباً والمستجدّون فقد اختاروا بسذاجة طريق الثورة، دون أيّ أساس غير الأتباع الذين يكرهون الحرّيّة، ولا ينتظرون إلا اللحظة المناسبة لإعادة نظام الحكم المطلق.

في ذلك الوقت عُينّ ألمنارة وزيراً للداخلية، واستدعاني للقيام بمهام إدارة شيقوبية. تقلّدت مهام منصبي في أواسط أيلول من العام 1809 بعد تسعة أشهرٍ من العطالة والفقر المدقع. فقد مررنا أنا وأسرتي بجوع حقيقيٍّ في مدريد، حيث ترفع الحرب التي لا تتوقّفُ أسعارَ المواد الضروريّة بشكل لا يُحتمل.

لم يكن الوضع في شيقوبية أفضل من العاصمة ومن الصعب جدّاً معالجته، فبساتين وادي إرِسما وكذلك حقول أرباض المدينة أرهقتها جميعاً لصوصيّة رجال العصابات والجيش الفرنسي. وكان عليَّ منذ اللحظة الأولى كبح جماح المطالب الزائدة للحاكم الفرنسي بارون تيلّلي، والوقوف في وجه أساليبه المتهوّرة حين يتعلّق الأمر بتموين جيش البرتغال المعزّز المتمركز في المقاطعة.

لم أكن أُحسَدُ على وضعي، لكنْ قليلين هم الذين فهموا أنّ ذلك التحدّي العنيد لمطالب ضابطٍ متكبّر من ضباط الإمبراطوريّة ينطوي على وطنيّةٍ حقيقيّة. أعترف أنّني لم أكن قط سياسيّاً ماهراً. واخترت

دائماً القيام بما أعتبره يحسّن من ظروف الناس ويخفّف من معاناتهم حتى وإن مسَّ مصالح الأقوياء. أحسستُ منذ البداية بعداوة السكّان الذين يحرِّضهم رهبان الأديرة الملغيّة. كانت تدور شائعة ختاني وإسلامي وقسوتي، والجميع يناديني باحتقارٍ من خلف ظهري بالمدير العربي.

في مرحلة معيّنة من الحياة يجب ألاّ يترك المرء عدم تفهّم البشر ينتصر عليه، وينظر إلى هذا الظرف باللطف ذاته الذي نتسامح به مع الأضرار التي يخلّفها مرور الزمن. أصررت على القيام ببعض الإصلاحات. فتحتُ باب المجلس للتجّار والملاّكين الذين تحمّلوا دائماً بالإكراه حكومة أرستقراطيّة خالصة . كما حاولت الانتصار على الجوع ناشراً زراعة البطاطا. قدّمت جوائز لأحسن الزراعات وأوسعها، وأمرت العدالة والبلديّات بعمل دراسة بالمساحات المزروعة والتمييز بين البذور المستخدمة، وذلك بهدف وضع تقرير دقيق لتنظيم الزراعة وتحسين مردودها.

ما من أحد غيّر رأيه بي باستثناء مجموعة صغيرة من المتعاونين المتحمّسين، مثل خازني دون خايم أماث والكاهن القانوني سان إلْدِفونسو وأمين سرّي باكايو، وبالتّالي لم يساعدوني في جهودي. وبما أنَّني اضطررت لفرش بيتي واشتريت من أجل ذلك بعض أثاث الأديرة الملغيّة، فقد كانت فرصة للشيقوبيين كي يزيّنوا خيالهم بزخارف غريبة. حصلتُ على سجّادة، ولوحة أوّلية للراعية القديسة، وأخرى لسان خوسِه ومرآة ومهراس حجري. اتهموني بأنّني زيّنتُ بيتي بكلِّ أنواع الأشياء المقدّسة وأستخدمها بأكثر الطرق فساداً. جرت شائعات تتهمني بأنني أشرب بالكؤوس المقدّسة حتى أسقط منهاراً وأفقد الوعيَ، وأستسلم لحفلات الجنس الجماعي دون حدود على سرير مغطىً بطيلسان أساقفة فاخر مبارك ومزركش بالحرير والذهب. اتهموني بألف شذوذ وشذوذ بعضها في غاية البذاءة مثل تحويل بردي دير التثليث لصناعة خرطوش البنادق.

عشتُ وسط أكثر الأجواء التي يمكن لرجلٍ عقلانيٍّ أن يخشاها، وفي وضع يخرج المرءَ عن صوابه، يبدِّلُ فيه الناسُ تقدير الواقع بالظلم. كيف يمكن معارضة هذا العمى؟ عند ذلك قدّرت الطبيعة

الاستثنائيّة لماريّا لويسا اللائذة فقط برباطة جأشها تُخرس كلَّ لمز أثناء عبورها الساحة الكبرى. لم أكن سعيداً بجانبها لكنّني عند تأمّل هدوئها واستقامتها يسهل عليَّ تصوّر السعادة. كنّا بحاجة للزمن كي نعتادَ على العيش المشترك من جديد. لم نعد رجلاً وامرأة مرتبطين قدرياً، بل شخصين حرَّين لا يمكن لغير معجزة حبٍّ حقيقيّ أن تعود وتجمعهما.

في كانون الثاني من العام 1810 وسَّعَ الجيش الفرنسي احتلاله فشمل كامل الجنوب. وحدها قادش قاومت. بدا النصرُ النهائيّ في متناول اليد. على الرغم من الخطأ الفادح الذي ارتكبه نابليون حين طالب بضمّ المقاطعات الشماليّة إلى فرنسا، استطاعت حكومةُ الملك خوسِه أن تعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي في قسمٍ كبيرٍ من البلاد وقامت بإصلاحاتٍ مهمّةٍ للنهوض بدولة عصرية. منْ بين الإجراءات الكثيرة شروعها بتجديد جوهري في الإدارة، وتنظيمها الأمّةَ في ولاياتٍ وجمعها بين منصبي المفوّض والمدير.

طلبوا منّي في نيسان من ذلك العام أن أشغل منصب ولاية قرطبة. رافقنا ابني بِدرو في قسم من الرحلة ثمَّ تابع طريقه إلى إشبيلية حيث دخل كطالب كلّية في مدرسة المدفعيّة. بعد وصولي بفترة قصيرة رَفَّع البارون غودينوت الجنرالَ دِسوليي إلى حاكم عسكري للمنطقة. ما أغربها من حربٍ تلك؟ عرفت أنا الذي أمثّل حكومة الملك خوسِه، ومنذ اللحظة الأولى في ذلك الجنرال الطاغية والمعذّب عدوّي الأكبر.

كان السكّان مقتنعين بأنَّ الحرب قد حسمت لصالح فريقنا، وبالتالي صاروا مستعدين لقبول ميّزات إدارة محترمة وجريئة. لكنَّ اعتباطيّة دِيو غراتياس غودينوت أجبرتهم على تحمّل كلٍّ أنواع الأعباء اليومية المذلة. حاولتُ أن أضمن سيطرة السلطة المدنيّة. سرعان ما امتدّت مواجهتنا إلى المدينة. وبدعم منهم وهو ثمرة عرفان بدأت بمشروع طموح من الإصلاحات مستلهم من تجربة أزمنة بغيدة، يوم بدَّل عمل جمعيّة أصدقاء البلد واقعَ مدينة بِرا البائسة والحميمة.

أطلقت مشروع الإبحار في مياه الوادي الكبير بين قرطبة وإشبيلية، وأدخلت زراعة القطن والبطاطا والشمندر إلى الغوطة، ودفعت باتجاه إحداث حدائق الزراعة. كلّفت البارون كربينسكي

والمهندس خواكين ريليو بوضع أوّل مخطَّط لقرطبة، أعدتُ تنظيم الإنارة والنظافة والريّ وأشدتُ مقبرة الصحّة. أعدتُ فتح المسرح الهزلي، أعددت لإدخال الجبر والحساب والهندسة في الخطّة الدراسية لمدرسة أسُنثيون الملكيّة، شجّعت على تأسيس أكاديميّة العلوم والآداب والفنون الجميلة في قرطبة، التي وضعتُ على رأسها الكردينال أرخونا، وهو دون شكّ من أبرز الباحثين في المدينة.

فهم غودينوت أنّه لن يستطيع ليَّ ذراعي أبداً، فاتهمني بإهدار الأموال العامّة بل وتشجيع التهريب لصالحي. تعرضتُ لتحقيق سرّي، برئاسة كونت دِ مونتارئو، الذي لم يستطع إثبات أيّ شيءٍ غير استخدامي أموال الضرائب في كلِّ تلك الإنجازات المفيدة للمدينة، وليس لصالح القوّات الفرنسية حصراً.

لكنني سبق وقلت إنّني لم أكن سياسيّاً حذراً قط. فحين اعتقدتُ بضرورة تخفيض ريعِ الأراضي المستأجرة لم ترتجف يدي ساعة توقيع القرار. رفع ملاّكُ الأراضي صراخهم حتى السماء، فوجد دِيو غراتياس غودينوت أخيراً حلفاءه في هؤلاء الناس الذين لا يرحمون عندما يتعلّق الأمر بامتيازاتهم، وفي طموح أمين سرّي ألتون، واستطاعوا فيما بينهم أن يعزلوني من خلال مجلس خوسِه الأوّل الخاص.

هل أفضل لنا أن نتنازل عن جزء من قناعاتنا بهدف الحفاظ على القوّة لكافية لتحويل كل ما هو ممكن إلى واقع؟ السياسي المتمرّس بالسياسة سيقول نعم. لكنّه ربّما لا يأخذ بالحسبان أن التنازلات المتتالية عمّا يقدِّر أنّه صحيح ستنتهي بتحويله إلى أداةٍ لما يعتبره ضارّاً.

الفصل الثلاثون

أيّام جهمة

عدتُ لأنطوي على نفسي في بيتي في مدريد، ورحتُ أرتِّب أوراقي مقتنعاً بأنّني قمت بواجبي. تخضرُّ الأوراقُ كلما نظرنا إليها. الكلمات القديمة التي بدا أنّ الزمن بعثرها مثل أوراقٍ ساقطة لم تُكنَس كلّيّاً من الذاكرة قط. الغروب ذاته الذي أسلمته لنا السماء ذات مرّة يتلاشى فوق قبَّةِ زاوية متواضعة لمحناها في قرية من المغرب، ومهنّا ما تزال غافية بعد ليلة مضنية من الحبِّ. تنطلقُ القافلة وعلى كاهلها وحشة الصحراء وتتحطّم السفينة على الرصيف. يستمرّ كلُّ شيءٍ بالحدوث. يبقى العالم على هامش الزمنِ في وعي الإنسان. تتحوّل الحياةُ إلى تتالي لحظات لا تتكرَّرُ. أعود لأشعر بملمس الحرير الذي داعبته منذ سنواتٍ طويلة في بازار أحد السوريين في لندن، ووهج نار وجه محمّد علي التي لا تشبه أيّة نار أخرى.

لكنّهم لم يتأخروا في دعوتي إلى مهمّة مماثلة لتلك التي كانت كافية لتفقدني منصبي السابق. ومن جديد كان عليَّ أن أُعزِّزَ من رفعة شأن السلطة الملكية على أحد جنرالات الإمبراطوريّة، وإنّ كان هذه المرَّة بدعمٍ من المجلس الملكي. التحقتُ في العام 1812 بمهمّة يترأسها دون بلاسُ دِ أرانثا مكوّنة من قائدين آخرين - ثِربِرا صغير النفس وبونْثِ دِ لئون الرعديد - هدفها التوصّل إلى إخضاع مدينة بلنسية للملك خوسِهْ قبل أن تسقط في أيدي جيش أراغون الذي يقوده سوشِت.

وضع الضبّاطُ الفرنسيون كلَّ أنواع العراقيل أمامنا لمنعنا من متابعة طريقنا. أبقوا علينا بعيدين عن مسرح الأحداث. كنّا نمضي من موقع إلى موقع ومن معسكرٍ إلى آخر ومن ثكنةٍ إلى أخرى ببطءٍ يقطعُ النفس، لنجد دائماً أنَّ سوشِت خرجَ توّاً.

كثيراً ما كنّا نجهلُ أين نحنُ. نُحاط بسورٍ من الصمت ونادراً ماكنّا نسمعُ صوتَ جلاجل بعيدة، إطلاقَ نار متقطّع لرجال عصابات يرحلون، حركة فصيلٍ يبتعد وناقوس يقرع للصلاة.

علمنا في كونْكا بسقوطِ بلنسية. تغيّرت طبيعةُ مهمّتنا، صار علينا أن نتمكّن من جعل محتلّها ينقلها للسلطة الملكية. لكنّنا دائماً كنّا نشعر بمقبض باب يوصدُ حين نعزم على الرحيل.

لم نستطع دخولَ المدينةِ المُحتلّة حديثاً حتى اليوم الثالث عشر من شباط. كانت القراراتُ قد اتُخِذَتْ. علمنا وسط حيرتنا بأنّ سوشِتْ عيّن وكيلاً فرنسيّاً هو بارون د فرِفِيل ليشغل مكان القائد. شكّل تعيينه ضربةً قاسية لحكومة مدريد. هل يعني هذا أنَّ نابليون خوَّل جنرالاته بإدارة الأقاليم التي تحت قيادتهم مباشرةً؟ في هذه الحال ستكون أيّام الملك خوسِه معدودة، فسلطته صارت تقتصر على عاصمةِ مملكةٍ ملغاةٍ عمليّاً.

طلبنا مقابلةَ سوشِتْ. استقبلنا في غياهِبِ مكتبٍ مظلم مثل سجنٍ تحت الأرض. لم نتمكّن من رؤيةِ وجهه. كيف سنستطيعُ إقناع شبحٍ باردٍ وصامت؟ لحسن الحظّ أن سوشِتْ لم يكن غودينوت، الذي كانت طبيعتُه تتطلّب منه التباهي المستمر بقوّته. أخيراً سمعنا تنهيدةً. فماريشال الإمبراطوريّة اللامع فهم أنّه لا يستطيعُ أن يوجِّه ضربةً قاضيّة إلى الملكيّة، ومع أنّه لم يتخلّ كلّيّاً عن استقلاليّة قراراته فقد حوَّلَ المنطقةَ الشرقيّةَ إلى حصنٍ للحكومة الملكيّة.

كانت تنتظرني عند عودتي مصيبةٌ مزعجة. اضطررت أن أعودَ لأحيي ذكريات وجودي المرّة في شيقوبية. وجوه، وأشباحٌ وكلماتٌ مفكّكة عادت لتهاجم ذاكرتي. لم ينسوني في ذلك الركن من المقاطعة.

أوْلى الجنرال أرّيباس، وزيرُ الداخلية أذناً صاغيةً لمطالب القساوسة الشيقوبيين الحانقين وأمرَ بإيقافي. تدخّلَ ألمْنارة على

الفور واستطاع تحويل السجن إلى إقامة جبريّة. ولم يكن هناك حاجة لأن يكون المرءُ شديدَ الفطنة كي ينتبه إلى أنَّ الاتهامات ليس لها أيّ أساسٍ غير ضغينة مأذوني الأديرة. لكن كثيراً ما تكون العواطف الشريرة من القوّة بحيث لا تتطلّب عرضاً للحجج كي تُسْمَعَ. بعيداً عن اعتبار الكراهية خِسَّةً كان قائد الشرطة يقدِّرُ فيها الخميرةَ التي تجعل طعم الحياة الحقيقي يختمر.

انعقدت المحاكمة في بيتي. وكنتُ أعيشُ في شارع ألكلا رقم 13 بجانب مكتب التاريخ الطبيعي. لم يكن بيت نهّاب فاخر، والصعودُ إليه يتمّ عبر بابٍ ينفتحُ على فناءٍ صاخبٍ، تقفُ فيه عرباتٌ صغيرة وكبيرة، وفتية حمّالون يعرضون خدماتهم بأعلى أصواتهم.

تشكّلت المحكمة في اليوم العشرين من نيسان فغزا الكهنة الأجلاّء بيتي. انقضّ هؤلاء الرهبان المحدودون مثل سربٍ من العقاعق وفتّشوا حتى آخر زاوية فيه. لم يعثروا على شيء.

ما إن بدأ العرض الشفوي حتى اكتشفت أنّهم ليسوا خطباء جيِّدين. كان من المحال عليهم أن يضفوا صفة الواقع على حزمة من التلميحات الغامضة. لا تنطوي الأفكار المتسلِّطة على العقل عادة على بلاغة، ولم أجد صعوبة في دحضهم. جعلتهم يرون أنّ إلغاء الأديرة كان أمراً نافذاً حين وصولي إلى شيقوبية، وبالتالي لم يكن أمامي أيّة فرصة للتدخُّلِ بالأمر. الأثاثُ الذي فرشتُ به بيتي حصلتُ عليه بالمزاد العلني وقيمته لم تتجاوز الخمسين دوبلون. أمّا بالنسبة إلى الصناديق التي رافقتني حين غادرتُ المدينة فقد برهنتُ لهم أنّها في معظمها تحتوي على الأوراق الأصليّة لرحلتي. اعتدتُ على وجودها في متناول يدي، فغايتي هي وضع الصيغة النهائيّة لتحريرها.

أُعفيتُ من كلِّ مهامّي وسُمّيتُ محصِّلاً ومستثمراً لأموال جيشٍ يتخبّط متراجعاً. لم تكن المحاكمة التي تخلّصتُ منها توّاً أكثر من البداية لملاحقة حقيقيّة. جميعنا نحنُ الذين تعاونّا مع الملك خوسِه بعد هزيمة أرابيلِس عرفنا أنّنا سننتهي إلى جداء تكفيرٍ عن آثامنا وآثام أخرى لم نرتكبها، عن فشل وخيباتٍ دائمة يجدون لها متهمين يمكن أنْ تُعزى إليهم. كنّا ننتظرُ بين لحظةٍ وأخرى وصولَ جيش ويلنغتون الإنكليزي الإسباني إلى سفوح جبال الرامة. استعاد أهالي مدريد

وقاحتهم وراح الثأرُ يتجرَّأ على التخطّر في الشوارع بعنجهيّة السيّدة العظيمة.

اجتمع في الرابعة من صباح العاشر من آب حشدٌ مذعور قربَ جسر طليطلة ليبدأ النزوح. وزراء، مستشارو دولة، قضاةٌ، موظَّفونَ جاؤوا مع عائلاتهم في عربات وعلى مطايا طريفة استطاعوا تأمينها. لم تستطع أصوات الأمر، نفخ الأبواق، الموسيقى العسكريّة وقرقعة العربات أن تغطّي ذلك الأزيز الحادّ الذي تعبّرُ الحشودُ من خلاله عن هولها. نهبتنا القوّات التي عليها أن تحمينا ما إن اجتزنا نهر المنثنارِسْ. قافلة لا نهاية لها عبرت هضاب لامانتشا تطعنها شمس لا ترحم خلال أربعين يوماً فظيعاً. القليل الذي كان باستطاعة تلك البلاد المحروقة تقديمه إلينا أُنكر علينا. فالآبار مسمومة ولا أحد يجيب في القرى المهجورة على طَرَقات الجنود الحازمة. في الزرائب حلّ صياحُ الديكة محلّ قوقأة الدجاجات تحت أكعاب الجِزم العصبيّة للضباط الذين لا يعرفون ماذا يفعلون. جثثُ الأضعف راحت تتزاحم على جوانب الطريق، والملك خوسِه يحمي رأسه بقلنسوة من ورق أبيض أضفت عليه مظهر المجنون، ويتأمّلُ بحجّة انتظار أحد الأجنحة، خراب مملكته من فوق إحدى الروابي.

لكنَّ ذلك النزوح باتجاه بلنسية لم يكن إلا تمريناً على ما كان ينتظرنا. بقيتُ في مدينة توريا ستة أشهر في بيت صديقي فرانثيسكو دِ ثِريس. قضينا نحنُ اللاجئين ذلك الوقت دون أيّ شيءٍ نفعله غير وظائفنا وواجباتنا، نحاولُ أن ننفض عن كاهلنا الحيرة التي أحدثتها هزيمتنا. كنّا بحاجةٍ لتفسيرٍ فنعلقُ في نقاشاتٍ لا تنتهي حول الأخطاء المرتكبة. كان القسيس مارتِشِنا يهذرُ في مكتبة سالبادور فاولي ضدّ كلِّ شيء وضدَّ الجميع، والشاعر الرقيق مِلِنْدِثْ بالدِس يشيخُ بخطى حثيثة، وموراتين يروي لنا الوجهَ الآخر للأخبار المزيّفة، التي يجدُ نفسَه مُضطرَّاً لكتابتها لصحيفة الجنرال مازوتشيلّي القائد العسكري العام للمنطقة. كنّا نعيشُ حياة ما عادت حياتنا ولا نكادُ نجدُ فيها انعكاساً لنا.

في لحظات انفعالنا أو خمود همّتنا كان الكون بكامله يضمحل أو يتضخّم. إنّه حبّة غبار أو جبل لا يمكن الدخول إليه بحسب حالتنا

النفسيّة. ربّما لهذا السبب كانت مدريد التي التقيتُها بعد عودتي من أكثر المدن المرتبطة بذاكرتي حزناً. الحروب لا تنتهي أبداً بموت مفاجئ بل باحتضار. وحسب هذا القانون الوحشي استعادت الجيوش الفرنسيَة خلال أشهر المدينةَ، واضطررنا إلى العودة لنكرّرَ بشكلٍ مؤثر الحركات ذاتها التي كانت لنا حين ابتسم لنا النصرُ. لكنّنا في الحقيقة كنّا ننتظر إشارة الرحيل النهائي.

كان ينتابنا إحساس بأنّ الزمن لا ينتمي إلينا، وكلّ ساعة تمرُ هي هديّة بلهاء لأعدائنا. أخيراً خرجنا يوم السابع والعشرين من أيّار في ثلاثمئة عربة ومئات الجياد نحو كُولِيار، لنجتمع مع فرقة التنانين التابعة للجنرال ترِيهارد. لم يكن هناك من ينتظرنا، بدا أنّ خطورة الوضع لم تهمّ الجنرال هوغو الذي يقودُ القافلة. أعلن أنّنا سنرتاح يوماً كاملاً في تلك القرية الصغيرة شيقوبية، ما من أحدٍ منّا استطاع النوم فأشباح الليل تزايدت دون توقّفٍ وصارت من الهول بحيثُ أدّت إلى الانتحارات الأولى. ومع ذلك فبوق الأوامر نفخ معزوفة الاستنفار العام مع خيوط الفجر الأولى فانطلقنا بسرعة. عزونا القرار المغاير للجنرال إلى الليلة الرهيبة التي حوّلت الظلمةَ إلى ميدان معركةٍ للرعب فينا. لكن ما إن عبرنا الجسر الذي يصل تودِلا حتى شظّت الطلقات ألواحَ الخشبِ التي تربط بين أقواسه المتآكلة. فهمنا عندئذ أنّ استراتيجيّة هوغو أنقذتنا. فأوامره المزيّفة التي نقلها سكّانُ القرية إلى العدّو سمحت لنا بكسب الوقت الرائع.

التحقنا على مقربة من بلد الوليد بالملك خوسِه وبقينا مجتمعين حتى برغش. كان جيشُ ويلنغتون الإنكليزي - الإسباني الذي عبر نهري بيسوِرْغا والدوِيرو في أثرنا. وصلنا يوم التاسع عشر من حزيران إلى بيتوريا وسط طقسٍ عاصف. هناك تجمّعت قوافلُ جميع الأقاليم. كانت شوارعُ المدينة مكتظّة بالعربات من كلّ الأنواع ومن المحال التقدّم خطوة فيها. مطر كثيف وشديد مثل الرصاص يغوص بعجلاتها في الوحل. انتشرَ الجيشُ، الذي غادر العربات الأثقل دون نظام ولا انسجام، على الهضاب القريبة.

بدأ ويلنغتون الهجومَ يوم الحادي والعشرين من حزيران. رجال المدفعيّة الفرنسيون وبينهم ابني بِدرو يقصفون الوادي، بينما نتفحّص

نحن اللاجئين بنظراتنا المتضايقة أعمدةَ الدخان التي سرعان ما تختفي فوق الحقول الطينيّة.

في السادسة مساء انكسر حزام النار الذي أحاط بالهضاب من وسطه. راحت المدافع تخرس الواحد بعد الآخر. سيلٌ من الجنود المذعورين غزا المدينة. هُرِعنا إلى العربات. جميعاً نحاول أن ننطلق في وقتٍ واحد. لكنّ العجلات كانت تذوب في الوحل وجوانب العربات يصطدم بعضها ببعضٍ وبالجدران الحجريّة في الشوارع الضيقة والمكتظة، حيثُ أغلق سكّانها أبوابهم ونوافذهم إغلاقاً محكماً.

جاءت اللحظة التي بحث فيها كلّ واحدٍ عن خلاصه الشخصي، وهذا ما تطلّب فكَّ الجياد والابتعاد عن الطريق الطويلة والمتابعة عبر الحقول. تيقّنتُ من نظرة ماريّا لويسا أنّنا نرحل للأبد. في اللحظة الحاسمة التي توغّلنا فيها بالغابة وصلت القوّات المعادية إلى تخومها. أوقفها الطقس الرديء.

تابعنا سيرنا حتى أعمانا الضباب تماماً. هناك وفي قلب الظلام ترجّلنا وقضينا الليل. في صباح اليوم التالي استيقظنا إلى جانب أغمارٍ ذات لون أخضر عكر، تأتي إليها الأبقار وتهبطُ اليحامير والوعولُ والخنازير من الجبال القريبة لتشرب، وحين تمطّينا نطّت عدّة ضفادع إلى الماء.

تلك كانت آخر ذكرى لي في إسبانيا. عبرنا الحدودَ من شِعب هِندايا. هل سأستطيع الحصولَ على شيءٍ من الهدوء في فرنسا؟

لم يكن هذا محتَمَلاً. فخطّ بيداسوَا كان مهدَّداً مثل جميع خطوط الجبهة مع فرنسا. أبلغني أحدُ الضبّاط بأنّ ابني بِدرو وقع أسيراً في بيتوريا وأُبعِدَ إلى إنكلترا. رحنا نحن الذين استطعنا الهربَ وسمِّينا متفرنسين نجتمع في لاجيرون. كنّا اثنتي عشرة ألف أسرة دون أيّة موارد. أسوأ ما في الأمر هو قناعتنا بأنّنا حتى ولو استطعنا إنقاذ حياتنا سيكون قدرنا العار. هبطنا مثل سحابةٍ سوداء على مدن وقرى المنطقة التي تنتج نبيذاً كريماً وقويّاً، جعلنا أحياناً ننسى شقاءنا.

ما إن سمحت لي السلطات حتى استقرّيت في باريس. لم ينكر عليَّ أصدقاء المعهد القدماء مساعدتهم. قدّمتُ محاضرة في صالونهم في تشرين الثاني. كان أثرها فوريّاً. أبلغني الكونت مونتاليفت وزير

الداخلية باكتتاب الدولة على مئتين وخمسين نسخة، وهذا يعني تغطية نفقات طباعة العمل. كانت تلك مساعدة متواضعة لكنّني شكرته عليها بتأثّرٍ، فنابليون عاد توّاً من روسيا مهزوماً، والظروف الصعبة التي تمرُّ بها الإمبراطوريّة لم تعد سرّاً. سعيدٌ البلدُ الذي يحتفظ في أصعب لحظاته بفسحة للعلوم.

آنيّاً كنّا بحالة جيِّدة باستثناء بِدرو. لدينا مأوى في الرقم 25 من شارع غراند ـ أغوستين. التزمت بأن يكون العملُ جاهزاً خلال وقتٍ قصير. كنتُ أسند يديَّ باسترخاء إلى الطاولة. أستنشقُ الهواءَ بعمق وأحسّ به يدخل إلى رئتيَّ وأزفر ببطءٍ وكمال. لا همّ لي إلا الكتاب. أنتقل إلى البلاد البعيدة التي زرتها يوماً ما ناسياً شواغلي. لكنَّ وجهي يبدو عند الكتابة وكأنّه ينشطر. كأنَّ خطّاً ينزل من منبت الشعر ويعبر الجبين متابعاً على امتداد الأنف وحتى الذقن. كان وجهي مشطوراً نصفين، كلُّ شيءٍ مختلف في هذا الوجه عن ذاك، لون الشعر أسود في هذا وكستنائي في ذاك. كذلك الحاجبان والعينان والأنف. كان في وجهي وجهان وشخصان مختلفان بالعقل. من منهما كان المتنوِّرُ، الخائن، المغرور، الشرّير، العذب، العاشق، الكاذب المتعصِّبُ أو الشجاع؟ من منهما كان يكتبُ ذلك الكتاب؟ باديّا أم علي باي؟

لم أستطع وقتذاك معرفة ذلك. لم يكن الخطرُ قد انقضى وعليَّ أن أتملَّصَ منه من جديد. فالإمبراطوريّة تُحْتَضَرُ وقوّات التحالف تُهدِّدُ باريسَ.

الفصل الحادي والثلاثون

ثلاثة عجائز وأسُنثيون

لواء مشاةٍ كان يحرسُ الطريق من بونت نيف وحتى نوتردام، تُراقبه عن قرب قوّاتٌ روسيّة ونمساويّة وبروسيّة. وجنودُ نابليون المحنّكون ينزلون حوافَّ قبّعاتهم الملساء حتى عيونهم، كيلا يروا الملك لويس الثامن عشر الذي يهبطُ شبه مُقعدٍ من عربةٍ سوداء، مستنداً إلى ضابطين ومجرجراً دون ضجيج ساقيه الملفوفين بطماقين من القطيفة الحمراء في فناء اللوفر. تصدر عن خارج القصر رائحة بولٍ خانقة. كان نابليون قد تنازل عن العرش قبل أيّام، ولم يحتفظ من إمبراطوريّته إلاّ بجزيرة ألبا التي لا تكادُ تتجاوز مساحتها مساحة قرية.

كان يختلط بالحشود في الشوارع أناسٌ من أزمنة أخرى يبدون مثل جواهر غريبة فقدت لونها. نفضوا الغبار عن شعورهم المستعارة وبزّاتهم الموحّدة التي نامت سنواتٍ طويلةً في أعماق الصناديق، وكذلك عن الآداب واللغة والمشاعر المحنّطة في قلوبهم منذ ما قبل الثورة.

عرفتُ بينهم غومِثْ لابرادور، سفير البلاط الإسباني الجديد. نظرَ إليّ باحتقار كما لو كانت يدايَ ملطّختين بدم أبناء بلدي. شكّلَ حضورُه بالنسبة إلينا نحن اللاجئين تهديداً فنحن أُناس متورِّطون مع النظام الذي انهار توّاً، محتقرون في بلدنا ودون حماية في مدينة احتلّها من يعتبروننا أعداءً لهم.

ما إن عاد الأمير فرناندو إلى إسبانيا حتى قام كما هو متوقَّع بانقلاب عسكريّ حقيقي وألغى دستور قادش، لكنَّ الأملَ مثل أرقٍ يسيطرُ على أجسادنا ويدفعنا دون بصيرة فوق بلاطٍ خادع. اعتقدنا بسذاجةٍ أنّه سيحترمُ اتفاقات معاهدة فالنثاي، التي التزم فيها بإعادة جميع الإسبان المرتبطين بخوسِه الأوّل إلى مناصبهم وامتيازاتهم وكذلك أموالهم المنهوبة. دفعنا موقفه المخزي أثناء الحرب إلى التفكير بأنّه سيقبل الالتزام، مثل أثانْدا وأُوفاريل وأموروس وسانتندِر وهِرْباس، وأنا أيضاً كتبتُ عريضة فرّغت فيها شحناتي. وختمتها يوم الخامس من نيسان في فندق البرتغال إلى حيث انسحبتُ وحيداً كي أريحَ ضميري.

وثقنا بأنَّ الملك الجديد سيسمحُ لنا بالعودة إلى بلدنا يوم القدّيس فرناندو. وكان اليوم المختار للتوقيع على ضياعنا. فالذي خان شعبه في بايونا لم يبغِ وجودَ شهودٍ على عاره. لذلك لم يجرّدنا من أملاكنا ومناصبنا ويحكم علينا بالنفيِ وحسب، بل وسّع الطردَ ليشمل النساء اللواتي لحقن بأزواجهن.

لم يكن تصرّفنا مشيناً لكنّه كان بالفعل تافهاً. ترى ألم نتعلّم من تجارب الماضي؟ بالفعل لا يمكن للثقة أن تجد مبرّراً لها في جهل طبيعةِ ذلك الطاغية البائس. وكان خطؤنا في البرهنة عن أنّنا تصرّفنا بوحيٍ من مصالح نبيلة. لا أحد يذهب إلى السوقِ بورقةٍ ماليّة من فئة المليون فرنك بل يذهب وجيبه مليء بنقود النيكل. دوافع الدولة والغيريون المتحرّكون كانوا يحذّرون فرناندو من أنّنا لن نخضع له أبداً بشكلٍ كليٍّ. لم يبغِ رجالاً من هذا النوع بجانبه. عبقريّته الوحيدة كانت في استخلاص الفائدة من الأعمال غير الأخلاقيّة.

سبَّبت لي رؤيةُ اسمي بين المطرودين نهائياً من بلدي بعضَ المرارة، التي خفَّفتها معرفتي بأنَّ حكومة لويس الثامن عشر بقيت على التزامها بطبع رحلاتي، ووضعت تحت تصرُّفي خمسة عشر ألفَ فرنك. رضي القدر بإخفاء نتائج جهودي حتى ذلك الوقت.أسعدتني فكرة الحصول على بعض الاعتراف بي من خلال كتابي. لكّنني رفضت توريطَ اسمي، أوّلاً لأنّني رغبتُ بالإبقاء على اسمي غير معروف، إذ ربّما عدتُ

ذات مرّة، ثانياً لأنَّ الكثير من صفحاته كتبها علي باي. أنا لست كاتباً، لكنّني أشكُّ بأنَ معظم الكتب لا تنتمي إلى مؤلِّفيها بل إلى شخصيّاتٍ أخرى، يعودُ الفضلُ إليها في امتلاكنا لحرّية أن نكون آخرين مختلفين عمّا نحن، وتقدّم إلينا إمكانيّة معرفتنا لأنفسنا بشكلٍ أفضل. علي باي هو الذي وقّع الكتاب.

كنتُ قد عدتُ منذ عدَّة سنوات لكنّني ما زلتُ أواجهُ حفيظةَ ماريّا لويسا. كانت تستحضر بنظرتها الضائعة ذاكَ الذي كنته ولن أعود لأكونه بالنسبة إليها أبداً. كان باديّا القديم ما يزالُ على حاله في ذاكرتها، لكنّه لا ينطبق على ذاك الذي أهرمه الخطر والهزائم، ويقترب كلّ ليلة مرتجفاً من فراشها فيُرْفَضُ.

ومع ذلك فقد جمعنا المنفى حول الفاجعة. عدنا لنلتقي ذاهلَين قليلاً الواحدُ بين ذراعَي الآخر في الفراش؛ تنظر إليَّ كما لو أنّني اخترقتُ جداراً في الوقت الذي لم تكن تنتظرني فيه. أنا أيضاً كنتُ أُدهش كيف لا يذوب بين يديَّ ذلك اللحم الحار والمرتعش الذي بقي حتى تلك اللحظة جليداً.

من ذلك الحبّ ولد طفلٌ مشلولٌ. المواهب التي لم تمنحها الطبيعةُ لجسده وهبتها لروحه. فطبيعته الرقيقة وفرحه شيء عجيب في جسدٍ مريض، لم يتمكّن المرضُ من نفي الأسارير الناعمة ولا حرّيّة المشاعر عنه. صار خوسِه الصغير شغلنا الأكبر. بِدرو حرَّرَ من سجنه في إنكلترا، ويخدمُ كملازم في مستودع المدفعيّة بعدَ أن قُلِّد وسامَ زهرة الزنبق. أمّا أسُنثيون فقد بلغت العشرين من عمرها وتملك جمال المرأة الباهر وبراءة الطفلة.

أخيراً وبعد مَرارات كثيرة شكّلنا أسرةً سعيدةً وميسورة، وكتابي تلقّفته الأوساط الثقافيّة في أوروبّة بشكلٍ هائل. تحرَّرنا من القلق الاقتصادي، فقد استطعنا أن نجمع رأسمالٍ قدره خمسة عشر ألف دورو، وعلى الرغم من أنَّ علي باي هو الذي وقّع الكتابَ فقد عمل انتشاره عملَ واشٍ. راحوا يطلبونني إلى ألف مكان ومكان. دور نشرٍ مختلفة في لندن ولايبزغ وفيينا وميونيخ وأمبِرس تتدافع للحصول على حقوق الترجمة إلى لغاتها. سافرتُ إلى إنكلترا لمراجعة الطبعتين

الإنكليزيّتين اللتين كانتا تُحضّران واحدة من قطع الصغير وأخرى من القطع الوسط. عند العودة وجدتُ مفاجأة كبيرة. أسُنثيون تطلبُ موافقتي على الزواج من رجلٍ يكبرها بخمسين عاماً.

لم أعرف ماذا أقول. فقد كنتُ ما أزالُ أرى فيها الطفلةَ التي ترتمي في أحضاني بخفّة ملاك. تنظرُ إليَّ وتبتسم. وجهها يشعُّ نوراً.

ـ أعتقد أنّه ليس عندك مانع، فكلود صديقك وإليك يعودُ الفضل في تعارفنا.

وبالفعل فقد كان الفيلسوف كلود إيزوارد، الملقّب بـ دِسليسل دُ ساليز أحد أفضل أصدقائي في باريس، منذ أن اقترب منّي حين انتهائي من محاضرة ألقيتها في معهد فرنسا عن ذلك البحر الداخلي في أفريقيا، الذي جمعتُ عنه معلوماتٍ كثيرةً على امتداد رحلتي. عانقني في ذلك المساء والدموع في عينيه.

ـ ما انتهيتَ من توضيحه، يا سيِّد باديّا قطعيّ بالنسبة إليَّ. فقد أكّدتُ دائماً بأن الأصداف والمستحاثّات البحريّة تشكّل راسِب القشرة الأرضيّة. وهذا ما يبرهن على أنّ الأرضَ كانت في الأصلِ مغطّاة بالبحار. لقد عثر على السلج وعروق اللؤلؤ في قمم جبال القارّات الخمس وفي مناطق نائية عن السواحل. وهذا البحر الداخلي الذي حدَّثتنا عنه قد يكون من بقايا الغلاف الأول لكوكبنا، العالم البدائي والأصلي تماماً كما كان منذُ آلاف السنين.

ـ أستطيعُ أن أريكَ بقايا بحريّة عثرتُ عليها في جبال الأطلس وفي الصحراء السوريّة. ـ وافقتُ.

ـ حول هذا الموضوع دار نقاش متأجّج بيني وبين معلّمي فولتير. كانت تلك المرّة الوحيدة، التي تأكّدتُ فيها من أنَّه يمكن لهذا العملاق أن يخطئَ أيضاً. لكن ماذا يهمّ أن توجدَ شامة تافهة وسط بهاء مجده الذي يليق بجوبّيتر؟ دائماً انتابني شكّ بأنّ هذا الرجل العظيم يرفض أفكاريِ حول الأصل المائي للكوكب، خشية أن يستفيد منها الإكليروس ليؤكّد الوجودَ التاريخي للطوفان.

منذُ ذلك الوقت صار يتردَّدُ على بيتنا ويدعونا تكراراً إلى بيته. كان يعيشُ في قصرٍ، فندق لورغِس في الـ 95 رو دُ سِفيرس. تحيط به

مكتبة هائلة فيها ستّة وثلاثون ألف مجلّد تشغل أربع عشرة قاعة فسيحة.

- هل فكَّرتِ جيِّداً بالأمر، يا أسُنثيون؟ - همستُ أخيراً محاولاً مداراة ارتباكي -. ألا ترين أن العمرَ عائق كبير. عمره أربعة وسبعون عاماً.

- ارتباطُنا سيكون روحيّاً، يا أبي. كلود يهتمُّ بي، بتعليمي وبخصائصي الفكريّة قبل الجسديّة. لا أريدُ أن يحدث لي ما حدثَ لأمّي.

- ماذا تقولين؟

- لا تأخذه مأخذَ السوء. أنت عملت في حياتك ما حلا لك. بحظٍّ كبيرٍ أو صغير قمت بتنفيذ ما خطّطت له. بينما أميَ لم تملك أفقاً آخرَ غير الأمومة. الصدر الذي منح الحياة كان لها قبراً.

- أنتِ مُخطئة - أجبتها - فبينما كنتُ أحاول أن أُفسِّر الحياةَ كانت هي تمنحها. وفي الوقت الذي حاولت حلَّ لغزَ الطبيعة كان هذا اللغزُ يتشكّلُ في جسدها.

- من المؤكّد أنّني لن أنجبَ أولاداً من كلود وسأتفرَّغ لأكثر ما أرغب به. أظنّني بفضل التعليم الذي منحه لي قادرة على الشروع بحياةٍ حرّة. أريدُ التفرُّغَ التامَّ للأدب. أنا سعيدةٌ جدّاً يا أبي.

قبلتُ بذلك الزواج الغريب. أيُّ حقٍّ لي لأعاكِسَ قرارها بالتردّد وخمود الهمّة اللذين تسرِّبهما التجربة إلى الحياة؟

قام العرس في أبرشيّة الحي الحادي عشرة وحضره كشهود من جهتنا الكولونيل أموروس والمؤرِّخ خوان أنطونيو ليورِنتِ.

لم تمرّ بعض تحرّكات الكولونيل دون أن ألاحظها. فقد أظهر من الفرحِ والسرور ما جعله يبدو أنّه هو الذي سيتزوّج. استغربتُ ذلك كثيراً وقلّبت هذا الموقف أسابيع عدّة. عزوته أخيراً إلى التأثّر السياسي. فأموروس كان يشارك وقتذاك في صحيفة ناين جوان البونابرتيّة، وبالتأكيد كان مطّلعاً على المؤامرة الكبيرة التي تُحاك. علمتُ بالخبر في شتوتغارت حيث ذهبت لمراجعة الطبعة الألمانيّة لكتابي الذي كان جوهان فريدريك كوتا على وشك طبعه. في اليوم الأوّل من آذار من العام 1815 نزل بونابرت في غولفجوان المكان

المقفر على الشاطئ الفرنسي بين كانّس وانتيبس. هرب لويس الثامن عشر تحت جنح الليل، وجمع الإمبراطور خلال أيامٍ قليلة جدّاً جيشاً هائلاً سار على رأسه باتجاه البلاد المنخفضة.

اتصل أموروس بي على الفور بتكليفٍ من الملك خوسِه الأوّل، الذي نظّم مركزاً للتجسّسِ في إقليم فود في سويسرا حيث يقيم. ودون التفكير بالأمر مرّتين تخلّيتُ عن سعادتي الحاليّة كما أتخلّى عن قطعة أثاث تالفة. اتجهتُ بأسرع ما استطعت إلى بافييرا لأجري اتصالات بالملك ماكسيميليانو خوسِه الذي عرفتُ بلاطه جيِّداً منذ إقامتي في ميونيخ. من هو الذي لم يجرِّب الملَلَ الذي تخضعنا له السعادة، ولم يشعر بالحاجة لأن يدرك كيف يعودُ الدمُ ليجري متدفِّقاً في العروق مدفوعاً بالعملِ؟ عادت إليّ تلك الطاقة المتأجِّجة التي أبعدتني دائماً عن المتع المحتشمة والسلميّة.

بعد مئة يومٍ فقط تحوّل ذلك الهيجان إلى حنين. لقد هُزمَ نابليون للأبد في واترلو.

فكّرت في البداية أنه لم يبق لي ما أفعله في باريس المحكومة من جديد ببقايا ملكيّة محنّطة ومنهارة منذ ربع قرن مضى. تصوّرت أنّ الانتقامات ستكون رهيبة. الرسائل التي أرسلتها من ألمانيا إلى الملك خوسِه عبر أموروس ضبطها عملاءُ غومِثْ لابرادور وأرسلوها إلى فرناندو السابع. وكان الطاغيةُ يملك سلاحاً فتّاكا ليفلت عليّ سلطات عودة الملكيّة الثانية.

لم تزعجني الشرطة بعكس ما توقّعت . أنا من طلب خدمتهم. لاحظتُ عند عودتي من ألمانيا أنّ أسُنثيون تفقدُ هدوءها وصحّتَها. كانت تنطفئ، خامدة النشاط وفجأة تستسلمِ لحيويّة متأجّجة، كما لو أنّها تنهارُ في خور مشؤوم وحزن. في كلِّ يوم هي أنحلُ وعيناها تغوصان في محجريهما تخنقهما زرقة حولهما، تثارُ لأيِّ شيء. عزوت تقلبات مزاجها في البداية للصعوبات التي تنطوي عليها حياة شابّة إلى جانب رجلٍ عجوزٍ ومتوحّش، مثل بِسليسل، محكوم بالتأكيد بالنزوات والهوس.

كانت ترفض الاعتراف أمامنا بأنّ شيئاً يسير بشكلٍ سيِّئ في حياتها الزوجيّة. ولم نلحّ أنا وماريّا لويسا على هذا الجانب لملاحظتنا

بأنّ أيّة إشارة بهذا الاتجاه تسبب لها الكرب. لكنّ التنهدات التي كانت تفلت من بين شفتيها وشَت بها.

دام عذابها عدَّةَ أشهرٍ. باغتُّها ذات صباحٍ باكيةً وهي تقرأ رسالة. مسكينة! مفعمة بالحياة بقدر ما هي شقيّة! احتضنتها بين ذراعيَّ فعادت الطفلة التي كانتها دائماً تصغي إليَّ برقّةٍ وتغطّي وجهي بالقبلات.

- تعرفين يا بُنيّتي أنّني لم أُعارِض زواجك - قلتُ لها - تستطيعين أن تعتمدي عليّ تماماً في هذه اللحظات. لا أريدُ أن أحشر نفسي في حياتك. لكن إذا رغبت تستطيعين أن تُنفِّسي عنك دون أيّ حذر. ما الذي يمكن أن يكون قد فعله معك دِسليسل حتى أنّك تعانين إلى هذا الحدّ؟

- ليس كلود هو الذي يقتلني - ردّت وسلّمتني الرسالةَ التي كانت تمسك بها بين أصابعها.

- أموروس؟ - صحتُ.

عثرتُ على التأكيد في عينيها المذعورتين. عندئذٍ بدأت أفسِّرُ بعض مواقف الكولونيل الصادمة. هذا المزيج من العنف والعذوبة الذي كان ينظر به إليها، إصراره على تزويجها من عجوز - لأنّه هو من أقنعها! - الحذر الذي يظهره في اللقاء بها على انفراد، ذلك الأرق الذي كان يمنعه من قضاء أكثر من يومين دون رؤيتها.

ذلك الرجل الذي كان أثناء غيابي في أوروبّة، الوصيّ على أولادي عشق أسُنثيون بجنون. دبَّر ذلك الزواج راسماً إيّاه في خيال الطفلة بألوان الحرّية الحيّة، كي يبعدها عنّي ويتمتّعٍ بها على هواه. بالمصادفة عثر في رفوف مكتبة رخيصة على مجلّد مخطوط كانت تعود ملكيّته إلى مكتبة دوقٍ أفلس، ويجمع فيها مقطوعات مسرحيّة سرّيّة وبذيئة كتبها للأرستقراطي دِسليسل بتكليفٍ منه، وانغلق طوال الليل على القراءة متصوِّراً جسد أسُنثيون مستسلماً لأقصى حالات اللهو، بحدوده الموصوفة في تلك الصفحات، ومجبراً على إرضاء غلمة الفيلسوف العجوز.

منذ ذلك الوقت ذهبت الغيرة بعقله. جمع كتابات أسُنثيون التي

يحتفظ بها، صفحات الروايات الشابّة المبتدئة ولم تُنهِها التي عهدت له بها لتعرف رأيَهُ وهدَّدها بتسليمها لـ دِسليسل، يمرِّرها إليه على أنّها رسائل هيامٍ موجَّهة إليه، إذا لم توافق على إرضاء رغباته.

وعدتها بوضع نهاية لهذا العذاب. تبيَّنتُ أنَّ أموروس يتجسَّسُ عليها، يقطع الشارع من أعلاه إلى أسفله دون توقّف. باغته وعيناه ثابتتان على النافذة تحت ضوء القمر. انقضضت عليه واشتبكنا في عراك شارعي مثل تلميذي مدرسة.

عندما رأتني أسُنثيون منكوش الشعر ممزّق الثياب نظرت إليَّ مذعورة.

ـ هل دافعك هو الدفاع عن شرف ابنتك فقط، يا أبي؟

أجبتُها خجلاً بالنفي. فتلك الحالة المثيرة للسخرية كشفت عن شيءٍ لم أجروْ على الاعتراف به قط. كنتُ أشعر تجاه تلك الطفلة بعاطفة تتخطّى حدود الأبوّة.

ـ كنتُ أعرفُ هذا ـ قالت لي بثقة ـ لذلك رغبتُ دائماً بأن تكون لي أسرتي الخاصّة.

تواجهنا أسابيع كاملة أنا وأموروس بشكلٍ مُحزن من أجل ذلك الحبِّ المحال. ما الذي لن نفعله لأجلها؟ تجرْجرْنا على الأرض، اقتلعنا خصلات من شعرنا، أقلقنا الجيران بسبابنا وتحدّياتنا في كلٍّ ساعة. لاتُفيدُ قوى العقل في معارضة العواطف إذا لم تتسلّح بتهديد الخيّاطين، والتجريد الذي يمكن أن يجرف حياتنا وحياة أحبّتنا. كنتُ أعرف أنّه آجلاً أو عاجلاً سأسبّب دمار أسرتي. فكّرتُ في ماريّا لويسا، في بِدرو وخوسِه وأسُنثيون. أيضاً في أسُنثيون، لا في المرأة التي أشتهيها بل بالطفلة التي وثقت دائماً بي. كنتُ في السابعة والأربعين من عمري، لكنّني أشعر بنفسي عجوزاً أمام أسُنثيون. انتبهت إلى أنّه من المحال عليَّ إبعاد العاطفة التي تضيء لي حياتي من جديد. لم يبقَ أمامي غير حل واحدٍ، أن أبتعد عنها للأبد.

لكن كان عليَّ أن أخلِّصها أوّلاً من أموروس. أبلغتُ عنه الشرطة فأبعدوه عن باريس لفترة من الزمن بفضل شهادة زوجته القانطة.

ـ لا يوجد إلا وكيلان لتنظيم الكرة الأرضيّة، يا حموي العزيز ـ

قال لي دِسليسل حين عرف بالخبر: الماء أو النار، النار، كما برهنت التحليلات الكيميائيّة، شكّلت الصخور الحيّةَ للجبالِ الأولى وللخليط الذي يشكل قاعدتها. ما تبقى من عمل المحيط الذي غطّى الأرض كاملة في مراحل زمنية لا يمكن حسابها. في هذه المسألة أموروس هو النار وأنت الماء الذي أطفأها.

أخطاء العلاّمة تختلفُ عن غيرها في أنّها أخطاء عسيرة. مرض دِسلِيسل ومات بعد وقت قصير وابتسامة شكرٍ على شفتيه، دون أن يشكّ بشيء. فقد وثق دائماً بأنّني دافعتُ بشرفٍ عن بيته من مضايقات أموروس. قليلة كانت معرفة مؤلّف *فلسفة الطبيعة* أو *رسالة الأخلاق للجنس البشري بالبشر*. ترك وصيّة أن ينقش على شاهدته عبارة: «الله، الإنسان، الطبيعة. فسّرَ كلَّ شيء» كان يؤمن بذلك فعلاً. هذا أفضل. الحقائق القاسية، الهوّات، المنعرجات المشؤومة التي يخفيها الكائن البشريّ إذا ما اكتشفت يمكن أن تقودَ إلى القنوط الأشخاصَ القليلين الذين يتمكّنون من إدراك العمر المتقدّم دون أن يفسدوا أو يزدروا الحياة.

بقيت ابنتي وحيدة في ذلك البيت الهائل من فندق لورغِس. كان جميلاً تأمّلها حين يتسلّق ألَقُ نار المدخنةِ جسدَها الممشوق حتى بلّور عنكبوت السقف. كنتُ أُحبُّها، لكن لم أعد أُحبّها لي بل لها. اكتشفت أنّ زوجها لم يكد يترك لها غير الستة والثلاثين ألف مُجلّد في المكتبة. هجرتُ مصالحي الخاصّة لعام كامل. أغلقتُ على نفسي القصر إلى أن أنهيتُ فهرستها بهدف عرضها للبيع.

هناك نظرات مغمورة، يحاصرها الغموض، يكاد لونُها يضيع في عمق العينين. هكذا كانت تنظرُ إليّ. كما لو أنّ مشاعرها وأفكارها لم تتشرّبها ملامحُها بعد وتنزلق على عماها داخل الجسد. ألقاها أحياناً حالمةً، عزلاء بنعومة فوق قطيفة الديوان الحمراء. تظهرُ أحيانا شديدة العنف في باب المكتبة مثل مصباح يُنارُ بغتةً، أو أراها تهيم في الممرّات الطويلة وقد تحوّلت إلى ارتعاشات هواء، دون جسد، لا شيء غير الفراغ.

في اليوم الذي أنهيتُ الفهرسة تأمّلتُ ظلّها الذي يظهر ويختفي قلقاً في فسحة الضوء الذي يُسقطه بابُ القاعة المجاورة، وأستطيع أن

أتنبّأ في ظلّها بقلبٍ يغضّنه لغزٌ لا أفهمه، وتوتّر جسدها الذي انتهى إلى أن أصبح علامةً موسيقيّةً مكرَّرة بإفراط على البيانو.

لا يمكن للمشاعر أن تُعرَّف بدقّة أبداً، بل بجوٍّ يُذيبنا من داخلنا. كانت الموسيقى تضيع في غرف المكتبة الأربع عشرة مثل قشعريرة. فجأة انطفأت ودوى إغلاق البيانو جافّاً وغامضاً.

غادرتْ القاعةَ. عيناها نافذتان شفّافتان، خفيّتان تنفتحان على وجار لغزٍ مظلم.

- مؤسف التخلّص من كلّ هذه الكتب أليس كذلك؟ - علّقتْ بصوتٍ باردٍ، لكنَّ دمعةً خرّبت عليها لامبالاتها المزيّفة.

- بثمنها ستستطيعين أن تحصلي على حرّيّتك التي طالما تلهّفت إليها وتتفرّغي لما ترغبين - أجبتُ.

- هل ستذهب الآن بعد أن انتهيتَ؟ ماذا سأفعلُ وحيدةً في هذا القصر؟

- بوجود كلّ هذه الرفوف الفارغة لن ينقصك المكان الذي تضعين فيه الكتبَ التي ستكتبينَ - حاولتُ ممازحتها دون أن أتمكّن - أنا واثق من أنّك ستصبحين مؤلّفة عظيمة أو على الأقل ستنفّذين بأمانة هوايتك.

- أما عدتَ تُحبّني كما في السابق؟ - حشرجت.

- لا - كذبتُ.

قرأتْ في عينيَّ المغمضتين قراري بالرحيل بعيداً، بعيداً جدّاً.

الفصل الثاني والثلاثون

نسيجٌ أم جلد؟

في يوم ما، أيّاً كان هذا اليوم، من عام 1816 جاء بدويٌّ سمل الثياب إلى اسميرنا. وما إن نزل من الباخرة حتى توجّه إلى بيت القنصل الفرنسيّ. يتقدّم في الشوارع ببطء تلفّه شمس ظهيرة تقدِّم للمتسوِّلين والمشرَّدين ألقها الفاخر. وحين وصل إلى الحديقة أبعد القلنسوة عن عينيه وشمَّ رائحة وردةٍ من الفيّوم. شعر عندئذٍ أنّه في الجنّة. دفع البابَ دون أن يطرق بالمطرقة، وتوغّل في البيت كما لو كان بيته. شعر القنصل بالإهانة من ذلك الاقتحام الذي قطع عليه غداءه مع أحد زملائه الدانماركيين، وكاد يأمرُ الخدم بأن يفلتوا عليه الكلاب. لكنّه توقّف لأنّه لاحظ في عينيه الداكنتين شررَ كبرياء وابتسامةَ سعادة مطلقة، متشبّثة بفمه الأدرد مثل أخطبوط.

ـ أنا مونسنيور لاسكاريس ـ قال المتسوِّلُ ـ. تهتُ أحد عشر عاماً في الصحراء السوريّة بتكليفٍ من الإمبراطور. والآن أعود لأقدِّم كشفاً بمهمّتي. انتصرتُ. وها هو البرهان. وقعّتُ بصفتي ممثلاً للإمبراطوريّة معاهدة مع الوهّابيين تضمن لفرنسا طريقاً برِّيّاً إلى الهند.

وقبلَ أن ينشر ورقة المعاهدة المجعّدة وضَّحَ له القنصل أنّ الإمبراطور لم يعد يحكم فرنسا. وبيقين من يقدِّم له رؤيا روى له كارثة

إسبانيا وروسيا، غرقُ الإمبراطوريّة وإخفاق الفرصة الأخيرة التي ضاعت في واترلو.

- هل يعني هذا أن هذه السنوات الإحدى عشرة لم تفد في شيءٍ؟ - رست الفجيعةُ في عيني الشحّاذ بعد أن أبحر يتقاذفه التيّار في نهر ذاكرته مثل زورق بطيء وداكن. فتل الطلحيّة بين أصابعه وتركها تسقط مثل خرقة واختفى دون وداع. تجرجر طوال المساء في أزقّةِ طينِ المدينة المنخفضة، عرضة لسخريات الحشود الوحشيّة. عثروا عليه في اليوم التالي في مخزن حبوب وسكّين محدّبة مغروزة في قلبه.

- إنّه الشيخ إبراهيم الكلابريسي! - صحتُ بعد عام حين روى لي رئيس الوزراء ريشليو هذه القصّة ذات أيِّ يومٍ من عام 1817 .

- هل كنتَ تعرف الحادث، يا باديّا؟ - سألني رئيس الوزراء مندهشاً وهو يغلق ملفّ أوراق الشؤون الخارجيّة.

- البداية فقط - أجبتُ - سمعتُها من فم نابليون. كنتُ أعرف أنّه أرسل إلى حدود سوريّة الفارسَ لاسكاريس لينازع الإنكليز السيطرةَ على الهند. لكنّني كنتُ أجهل نهايته الحزينة.

- أعرفُ أنّكَ بونابرتيّ - ضربت كلماتُ الدوق شفتيه الرقيقتين والباهتتين مثل سوط - أنا أكره بونابرت.

- لا أجهل هذا، يا صاحب السعادة.

- لكنّني أعترف بأنّ الخطّة التي وضعها الكورسيكي للشرق كانت جيّدة لفرنسا. مؤسف ما حدث لـ لاسكاريس أو الشيخ إبراهيم، كما تفضّلُ أن تسمّيه. لا نكادُ نملك مستعمرات. تجارتنا مع ما وراء البحار محدودة. لا نستطيع أن نتخلّى عن العالم كلّه للإنكليز.

- ما الذي تريد أن تقترحه عليَّ؟ - قاطعته.

- هوّن عليك قليلاً، يا سيّد. عليَّ أوّلاً أن أقدّم التشريفات لشهرتي بالريبة. نصحني بشخصك كونت موليه، وزير البحريّة، الذي كان بدوره بوناپارتيّاً. بالنسبة لبعضهم أنت ألمع رحّالة في القرن. وبالنسبة لبعضهم الآخر أنت شقيّ. - انتصب فوق الطاولة ونظر إليَّ كمحكوم بالموت - ومع ذلك ماذا باستطاعتي أن أفعل غير هذا؟ إذا وثقتُ بموليه

إلى حدّ إدخاله في وزارتي فعليّ أيضاً أن أثق بك. هل أنت مستعدّ للاستمرار من حيث انتهى السيد لاسكاريس؟

ـ بلى، يا صاحب السعادة.

ـ لماذا؟

ـ لا أريدُ أن أعيش على الذكريات فقط.

استقبلني بعد أيّام قليلة لويس الثامن عشر، كان يرتدي الطماقين الحمراوين ذاتهما اللذيْن رأيته بهما يومَ عودته إلى باريس بعد خمس وعشرين سنة من المنفى. شكرت في أعماقي الملك على ذلك التفصيل الفجّ خاصّة وأنّه كان رجلاً طيِّباً وبسيطاً. وبفضل مرحه هضمتُ بسهولةٍ أكبر وقارَ تلك اللحظة. من جديد وجدتني في خدمة أفكارٍ حمقاء، تمَّ تصوّرها في مجلس باريس الموشك على التلاشي في المجهول.

ـ أعرف الأهميّة التي منحها لك بونابرت ومراميه بالنسبة إلى البعثة التي كانت على عاتق لاسكاريس، اكتشاف الطريق البرّي إلى الهند. تعليمات بونابرت مذهلة، لكنّها صعبة التنفيذ. سابقاتها تثبت لي أنّه إذا كان هناك من يستطيع أن يقوم بها فهو أنت. لا أبدِّل المشروع، بل التوقيع فقط. ستنفذها باسم ملك فرنسا. خلال أيّام سيعطيك وزيري التعليمات المناسبة. أرجو منك الصمت المطبق.

عند خروجي من المقابلة التقيتُ بشاتوبريان في قاعة الانتظار. نظر إليَّ الكاتبُ مفكِّراً وحين عرفني برقت في عينيه شرارة تلهف.

ـ علي باي! كم من الزمن! ماذا تفعل هنا مجرَّداً من كلِّ ملابسك الشرقيّة الرائعة؟

ـ لا أستطيع أن أكشف لك عن ذلك، أيها الفيكونت.

ـ إذن أعرف الأمر. ليس هناك أكثر طيشاً من التعقّل. ستكون عميلنا في الشرق. هل أنا مخطئ؟ ـ وبما أنّني لم أجبه تابع ـ أنا سعيدٌ، يا صديقي العزيز لأجل فرنسا ولأجلك.

ـ يسرّني أنّك لست منزعجاً من حادث القاهرة. قرأتُ تعليقك على الحالة في رحلة من باريس إلى القدس. عذراً لخداعي لك ـ اعتذرتُ.

ـ لم تخدعني في القاهرة يا باديًا. بل هنا والآن حيث يريدُ علي

باي أن يغشّني متموّها بهذه الملابس التي لبرجوازيّ ميسور! أنت تنتمي إلى نوعٍ من الرجال لم يعد لهم من مكان في أوروبّة هذه، المسالمة والمضجرة إلى حدٍّ الرعب. حسناً تفعل برحيلك، فكلُّ ما يتجاوز النبرة الدهمائيّة يعتبرُ الآن جنوناً.

كان الكاتب الفذُّ على حقٍّ، لكنّني أخّرت رحيلي في الأشهر اللاحقة. السببُ هو أنّني لم أعرف كيف أقوله لماريّا لويسا. أبقيتُ على التحضيرات خلال ذلك سرّية. وحدهم الوزيران موليه وديسكاز والمدير العام للمستعمرات بزرتال كانوا مطلعين على خطواتي، نظراً لأنّهم كانوا يتناولون العشاء معي دوريّاً، ويشاركونني الأحلام الباردة التي كوّنتها. بالنسبة لرجلٍ معتادٍ على الثقة بالإرادة البشريّة والتقدّم العلمي يصبح الشكّ صحناً تافهاً أكثر من اللازم. ما من أحدٍ من أفراد أسرتي عنده أدنى معرفة بقراري. وحدها أسُنثيون كانت تنظرُ إليَّ أحياناً كأنّها قريباً لن تراني أبداً.

قضيتُ معهم عيد ميلاد 1817 متمتّعاً بفرحهم وناسياً مرارتي. وفي يوم الملوك (بابا نويل) 6 كانون الثاني من 1818 ، انسلّ رجل جافّ ومحدّب مثل ظلٍّ من بيته، وغاص مجهشاً داخل عربة عبرت به شوارع باريس المقفرة والغافية.

بعد أربعة أيّام بتُّ بجوار جنيف وأنا أشعر برطوبة بحيرتها شعورَ الغريق بها. في الثامن عشر حين وصلتُ إلى ميلان في المساء ذاته، حبستُ نفسي في مسرح صغير يقدّمون فيه مسرحيّة من كوميديا الفن. عند العودة إلى الفندق، كتبتُ رسالةً إلى ماريّا لويسا مرتاحاً لفكرة أنَّ الحياة لعبٌ، ونحنُ البشر حفنةٌ من الممثّلين نادراً ما نختارُ الشخصيّة.

«ما هو السبب الذي دفعني للعودة إلى الشرق الآن وقد بدت حيوات تيهنا مستقرّة في سكينة أسرة التمّ شملها أخيراً؟

« السياسة؟ أظنُّ أنّها عاملتني بوحشيّة كافية كي أخافها. المجد؟ ثبت أنّه متقلّبٌ بحيث تصعب الثقة بتلميحاته. الثراء؟ أستطيع أن أوكّد لك بأن السبب في قرار بهذه المباغتة هو الرغبة بتأمين مستقبلك ومستقبل ابننا الصغير المريض. هذا صحيح. لن ينقصكم شيء خلال غيابي، وإذا ما متّ سيكون لكم تقاعد مضمون مدى الحياة.

«لكن توجد وسائل أخرى للوصول إلى الراحة الاقتصادية للأسرة دون الحاجة لهجركم. أليس كذلك! لا تلومي نفسك لأنّك لم تتمكّني من منعي. فأنت قدّمت لي دائما الثروة الوحيدة التي جمعتها خلال هذه السنوات. أنتِ هيّأت لي بغَيْريّتك وصمتك، حرِّيّتي.

«أحببتُك، لكنّني عشقتُ فيك المعاناة أكثر من المتعة. ربّما هذه هي مأساةُ وعظمة حياتنا المرّة المشتركة. كما أحببتُ أعمالك التي فاقت أعمالي: ابنينا وأسُنثيون، التي أرغبُ بسعادتها أكثر من أيِّ شيءٍ في العالم.

«الحب هو الذي يجبرني على الرحيل. ربما لن تستطيعي فهمه بجلاء. لكنّك حين تقرئين هذه الرسالة مرّات كثيرة وأنا واثق من انّك ستفعلين، ستتنوَّرين شيئاً فشيئاً. ستكتشفين شيئاً محزناً لكنّه في آنٍ معاً ناعمٌ وحتميّ. ولو أنّ الأرض انشقّت تحت قدميك لما شعرت بمثل الدهشة التي ستشعرين بها بقراءة هذه الرسالة.»

هناك شيء حارق في العلاقة الحميمة مع الموت. وسط الجراح التي تحدثها الحياةُ والماضي الذي صار مزقاً جمرته هي النور. بعد أن غادرتُ البندقيّة وتربييست دخلتُ في تلك المنطقة من أوروبّة التي تضغطها الجبال، حيث يشعر المسافر الشقيُّ بأن البشر لا يكادون يختلفون عن صخور الفجاج التي يعبرها. لقد أفادتني المخاطر التي تعرَّضت لها في البلقان في أنها لفتت انتباهي إلى أنّني ما زلت أرغب بالحياة.

اتخذتُ الحيطة. أوّل شيء فعلته هو اتخاذ اسم جديد للدخول إلى تركيّا. لم يكن من الحكمة تحريك الغبار الذي يغطّي علي باي. لكنّني واعٍ أنّ جسدي وحده بثقله الذي لدرعٍ يحمل تردّد شخصيَّتي الجديدة، التي بلا عريكة ولا حتى أفكار.

علي أبو عثمان هذا هو اسم الرجل الفارغ الذي استقبله ماركيز دِ رفيير، سفيرُ فرنسا أمام الباب العالي.

ـ كن شديد الحذر ـ نبَّهني ـ فباشا دمشق يتلقّى تعييناتٍ كبيرةً من إنكلترا كي يمنع أيَّ غريبٍ من التنقل على الطرق البرّيّة التي تقودُ إلى الهند.

عبرتُ البوسفور وبعد شهر كنتُ في حلب. قافلةُ حجٍّ حملتني معها

إلى طرابلس. توقّفت هناك لأنَّ قافلة دمشق الكبرى التي سأنضمّ إليها لن تبدأ بالاجتماع إلا قبل نهاية رمضان بقليل. قرَّرتُ الانتظارَ معهم. نزلتُ في بيت ريغنولد، القنصل الفرنسي، الذي تعرّفت إليه منذ أيام قبرص عام 1806 .

ـ علي باي!

ـ لا، من فضلك، يا سيّد ريغنولد، نادِني علي أبوعثمان.

لكن لم يكن لهذا الرجل وجود. أوّل من انتبه إلى ذلك كان التجّار المغاربة المقيمون في طرابلس.

ـ عادَ علي باي!

وانتشر الخبرُ في سوريّة، تسلَّقَ جبال لبنان حتى وصل مكاناً عصيّاً، قريباً من صيدا، صيدون القديمة، في منطقة الدروز. كانت تعيشُ هناك سيِّدة إنكليزيّة، ابنة كونت ستارهوب الثالث التي كرّست نفسها لعبادة الحرّيّة. ليدي هِسْتِر، التي أدارت في شبابها بيتَ عمّها وليم بّيث، حين كان رئيساً لوزراء بريطانيا. كانت أول سيدة في إمبراطوريّة تغادر بعد موت عمِّها للأبد. ضاعت بشكلٍ غامض في حدود الشرق. نزلتْ في اللاذقيّة. تعلَّمت العربيّةَ. أحاط بها الناسُ من مختلف الديانات، عرب ودروز وموارنيون ويهود. طافت شبه جزيرة العرب وبلاد ما بين النهرين. البدو الذين أثارهم جمالها وشجاعتها التزموا جميعاً باحترامها. عثرت على مكان جميلٍ لم تحتَج لمغادرته كي تتابع رحلتها. منذُ سنوات طويلة تعيش بين خرائب ديرٍ قديم بجانب البحر، تحميها أسوار جبال لبنان دون إي اتصالٍ بأوروبّة.

كتبت لي رسالة.

«أريدُ أن أتعرَّف على الرجلِ الذي يحبُّ حريّةَ الطبيعة ويحتقر مثلي قيودَ شخصيّة مفروضة. ستحلِّقُ عيناكَ فوق وادٍ جليل. أعيشُ في أعلى جبلٍ يتوسَّطُ الوادي نفسه. بيتي في القمّة. تعال.»

ماذا أفعل؟ هل أجمع قواي وأقبلُ دعوة ليدي هِستِر؟ ذهبتُ إلى الموعد لثقتي بأنّها شبيهي الوحيدُ في العالم. تقتُ للقاء تلك المرأة التي جسَّدت أحلامي. كانت محطّ إعجاب العرب، الدروز، الموارِنيين، وتحكم بينهم فارضة عاداتٍ وتقاليد وقوانين غير مكتوبة، ومخفِّفة من

ظروف الحياة القاسية جداً، والمواجهات الضارية بين قبائل سوريّة وفلسطين. الشيء الوحيد الذي أزعجني فيها هو صيت العرّافة.

من الجبال التي سكنتها يُلمَحُ هيكلُ الحجارة التي عرّتها المياه والريحُ من التراب والنباتات. أدهشتني تلك الأرض النقيّةُ والجوهريّة. جدارٌ أبيض يحيط بحديقةٍ زرعتها بيديها وسط ذلك العالم العقيم.

فتح لي بابَ الدير خادمٌ مارونيّ وقادني في شارع محاطٍ بالعرائش حتى البناء المكعّب، الأبيض والعاري، المحاط بكميّة كبيرة من الورد. دعتني لعبور باب بمستوى أوّل كثيف الظلمة، لأقف تحت نور سمتيّ يأتي من أعلى ويكشف عن جسد امرأة ملفوف بعباءة بيضاء.

ـ رأيتُك تولدُ، يا علي باي ـ قالت لي ما إن دخلتُ الجوّ الذي بنته بنفسها على صورتها وشبهها.

دون أنِ تكره النور لم تتخلّ عن الولوج في الظلال في تلك البلاد حيث لا تدركُ الحياةُ وضوحَ العقل.

كانت مستلقية على أفعى من الوسائد، وقد رسمت أمامها على الأرض الترابيّة خريطة للسماء تنتهكها إشارات غريبة.

ـ أعرفُ أنّك لا تؤمنٍ بعلم الفلك الضائع في أوروبّة والباقي في الشرق حيث نشأ ـ فوق خطّ الخمار رأيتُ عينيها الزرقاوين الجميلتين ـ لكنّني تأمّلتُ في النجوم طفولتك في برشلونة وفي بلدةٍ صغيرة من جنوب إسبانيا. رأيتُكَ تحلمُ بالطيران وتشعر بقدميك على الأرض الغارقة في البؤس بشكل مؤلم. في باريس ولندن تردَّدتَ على علماء الغرب، وفي المغرب تعلّمت المعرفة الحقيقية الكامنة في منح كلّ شيء للآخرين. ارتديت اللباس الموحّد في الرابعة عشرة من عمرك وقفطاناً جعلك أكثر حرّيّة في الأربعين. رأيتُك تكادُ تموتُ من العطش في صحراء وتغرق عدّة مرّات. كنت فقيراً وغنيّاً، رجلَ عمل ودراسة، سعيداً وشقيّاً. دائماً انفتح طريقٌ تحت قدمي المشّاء وبقي اللغز الذي هو أفق نصبَ عينيه. هل تظن أنّني أخدعك؟

ـ لستِ الوحيدة التي تعرفُ هذه التفاصيل من حياتي. يمكن أن يكون هناك من قصّها عليك ـ اعترضتُ.

ـ وماذا لو قلتُ لك إنّك عدّت يوماً من العالم الآخر. لقد استطعت أن تعيش ست سنواتٍ بالرغم من كلِّ أنواع المخاطر. عندما عدتَ إلى بلدك التقيت بـ...

ـ ما زلت تحكين حكاية قديمة، يا ليدي هِسْتِرْ ـ قاطعتُها ـ جوهريّاً هي ذاتها التي أنشدَ نموذجها الكوني شاعرٌ يوناني منذ قرونٍ كثيرة.

ـ مع بعض الاختلاف، يا علي باي. بالنسبة لأوليس حين وصل إلى بيته اضطرَّ لمواجهة أولئك الذين كانوا يتطلّعون إلى المرأة التي أحبّها ـ تابعت بقسوة تقارب اللحمَ الآدميَّ من مرمر التمثال ـ دائما سألتُ نفسي، وماذا حدث بعد ذلك؟ ماذا حدث أخيراً حين التقى الحبيبان؟ في حالتك بقيت المرأة تنتظر عودتك حتى بعد رجوعك. دائماً شعرت بالغياب بجانبها. وحدها ابنتُك مثل كلب أوليس الوفيّ، اعترفت بك. بعدها عانيت من الهزيمة والمنفى. بعيداً عن بلدك كتبت بعضَ رحلاتك التي عرَّفت أوروبّة على أجزاء من العالم كانت تجهلها. أبدعتَ دون أن تكون كاتباً شخصيّة لها حياتها الخاصّة. نمتَ على الأرض في قصر محاط بستة وثلاثين ألف كتاب. كسبت بعض الحرّية لكنك كسبت إضافة إليها مرارة أنّك لم تستطع مشاركة أحدٍ بها أو تقديمها إلى من كنتَ تُحبّ. لم تستطع قط نسيان تلك الطفلة التي عرفت كيف تُحبّك حين أدار لك الجميع ظهورهم. والآن هل ما زلت تعتقد أنّ علمي خدعة؟

ـ ماذا تستطيعين أن تقولي لي أكثر؟ ـ ضايقتُها.

ـ هل تريد أن أكشف لك عن مصيرك؟

ـ حياتي لأجله ـ أكّدتُ بصوتٍ متضايق.

ـ لا تعلم إلى أيِّ حد! رأيتُ أنّك تحت تأثير نجمين رهيبين.

ـ ما الذي ينتظرني؟

ـ حبٌّ ينتظرك.

ـ تراه حبٌّ سعيد؟

ـ سعيدٌ وشقيّ ـ همهمتْ ـ كلانا وُلِد في اليوم ذاته. كلانا هجر العالم الذي كان لنا. كلانا خَبِر حرارة الحرّيّة ذاتها. جرت حياتانا

بتوازٍ دون أن تتقاطعا قط. لكنّنا نحن الاثنين ساكنا جنّة غريبةٍ ويجب أن نلتقي ذات مرَّة.

أزحتُ الخمار عن وجهها.

ـ لو أنّني التقيتُك من قبل.

ـ ماذا كنتَ ستفعلُ، يا علي باي؟

ـ ربّما ضحّيتُ بحياتي كي أُسعِدكِ. لم أستطع إسعادَ أحدٍ قط. ـ لعنتُ.

ـ محزن أنك انتبهت إلى هذا متأخِّراً إلى هذا الحد، لأنَّ خطراً كبيراً يترصّدُكَ وستموت مسموماً قريباً.

الفصل الثالث والثلاثون

علي باي ما يزالُ حيّاً

كم هي مختلفة هذه الرحلة عن كلِّ الرحلات التي قمتُ بها! أنا الذي أنار لي الفجر لسنواتٍ مشهداً جديداً كلَّ يومٍ وازدريتُ بعد الغروب أيَّ منزل غير الطريق، أعاود السفر دون أن تستطيع ساقاي حملي، دون أن تتمكّن عيناي من التحليق بجناحيهما الجسورين باتجاه الأفق. أتابع رحلتي مقبوراً في فراش محفّة محمولة من جنفاص كتّان مرتعش موصول بين قائمتين خشبيّتين، يحمي فراشاً من جلد الماعز مثبّتاً على ظهر جملٍ متموّج.

لماذا لم يكن الدكتور شابوسو في دمشق بعد أن بقي أربعين عاماً لم يغادر فيها المدينة؟ شعرتُ بأنّني أموت في تلك المدينة المليئة بالحياة والحركة. كانت القافلة الكبرى المتوجِّهة إلى مكّة تتشكّل. انضممتُ إليها على الرغم من التقيُّؤ والاختلاجات والوهن. كنتُ واثقاً من أنّ هواء الصحراء سيقوّيني والريح ستبعدُ الموتَ عنّي. نظرتُ إلى نفسي في المرآة قبل الرحيل. شخصان مختلفان يتنازعان على انعكاس وحيد. هل من الممكن وجود كائن بهذا الشكل؟ ما الشجاعةُ، الخوفُ، العناد، الموتُ في جسدٍ تتقاسمه روحان؟

لم يعد هذا الجسد يستطيع إعالتهما. تراها القهوة الثقيلة التي لم أستطع رفضها في الوليمة التي قدّمها لنا الباشا؟ تراها خيانةُ أحد

خدمي؟ واحدٌ منهم سطا على كيس فيه ثلاثة آلاف ومئتا قرش وهرب إلى الصحراء.

لم أتمكّن من الحصول على الترياق في الوقت المناسب. حين عاد الطبيب كان قد فات الأوان واضطرَّ لملازمة الفراش عدَّة أيّام لسقوطه عن الحصانِ. لم يستطع حتى أن يُعدَّ العلاجَ بنفسه فعهد بتركيب ظروف الراوند المحمّص لراهب إسبانيٍّ يخيف مظهره أشرس المهرِّبين. هل أراد الراهب أن يُخلِّص العالم من عارٍ مرتّد؟ الإنكليز، المسلمون، المسيحيّون، جميعهم يملكون الحقّ للتخلّص من علي باي. جاسوس، محتال، مارق؟ ترى هل بالزحار فقط؟

هذا هو حجّي الثاني لمكّة، لكنّني أعرف أنّني لن أصلها، فتيهي انتهى. العالم المحيط بي من خلف ستائر المحفّة لم يعد ملموساً. عبر سدى النسيج المبهر لا ينفذ غير السطوع السديمي المتألّق لنور آب. يرافق جسدي الخامدَ مثل نابض اهتزازُ الجمل، لكن سمعي ما يزال يدرك جلبة ناس القافلة. أصوات محتدمة تتناكدُ بلغاتٍ متعدِّدة وفظاظة مختلطة بطموح واحد. تتنازع فوقي وفوق الموت الذي يترصَّدني. رفاقي في الرحلة ليسوا رفاقي في المصيبة. لستُ أكثر من غنيمة بالنسبة لهم. يُحاصرني جشعهم ويضغط عليَّ مثلَ كفنٍ.

ينادونني علي باي، حاذفين اسمي الأخير، علي أبو عثمان الذي اخترته عبثاً كي تندمل في هذه الرحلة جراح مسافر حيّة، دخل مدينةَ مكّة المقدَّسةَ وكشف لعيون الكفرة ما استطاعت عيناه الوقحتان رؤيته. لكنّ لحظة تصفية الحسابات لم تحن بعد. ما زلتُ صيداً ثميناً إلى حدٍّ ما، ذلك أنَّ ألف خبرٍ خرافيّ يدور حول النطاق السميك المثبّت على جلدي تحت العباءة يحفظ ما تبقّى من ثروتي.

في الطريق ونحن ما نزال قريبين من دمشق، عانيتُ نوبة جديدة أكثر شدَّة من سابقاتها. اضطررنا للتوقّف في مزيريب بالقرب من الجولان، هناك أدركنا الكونت البولوني رزيوسكي، مرسلاً من قبل ملكة وورتنبِرغ لشراء خيول.

لم يستطع إقناعي بمرافقته. عدتُ لأبقى وحيداً. وإن لم يكن كلّيّاً. أسبوعان وعيون الحجّاج تترصّدُ الطيات المرتعشة للستارة الداخليّة

لخيميتي التي تُخفي تنفسي المَدينَ لصدقة هواء آب الملتهب. وبما أنّني لم أمت فقد مَثُلَ قائد القافلة أمامي.

- لا نستطيع أن نضيّع يوماً واحداً في مزيريب. فالنفقات كبيرة وعلينا أن نصل إلى مكّة في الوقت المناسب الذي يتطلّبه الحجّ. هل بقي لك قوّة لترافقنا؟

- لا تتركوني!

- لن نتخلّى عنك أبداً، يا سيدي علي باي.

ويسمّونني علي باي كمن يشيرُ إلى كنزٍ، ويؤكّد كلّ واحدٍ منهم أنّني أنتمي إلى أمّته، المغاربة، الأتراك، المصريّون، السوريّون يطالبون بي على أنّني لهم. طامعون بكيسي أكثر ممّا هم سالون انتقامهم. طمعهم يبقي على علي بايٍ بعيداً عن أيِّ شكٍّ ويمنحه ثقة لم يطمح بها قط، ذلك أنَّ القوانين تؤكّدُ على أنّه حين يموتُ حاجٌّ توزّع ممتلكاته على حجّاج بلده بالتساوي، وباشا دمشق الغائب لا يستطيع أن يسهر على أمواله. هكذا يتطلّعُ الجميعُ، وأنا على حافّة الموت، لأن يُعْتَرَفَ بهم كأبناء بلد لي، وتطالبُ كلُّ البلاد المجتمعة في هذه القافلة بمواطنيّةُ علي باي. اسمه الوهمي الذي خُربش بكلِّ سرعة فتح ثغرة في شجرات أنساب متضاربة الألوان ومتناقضة.

لكنّني لن أسمح لهم بخداعي. صحيحٌ أنّني تلهّفت ذات مرّة لأن يُخلط بيني وبين علي باي. وكانت رغباته رغباتي، حماسه حماسي، ضعفه ضعفي وهذيانه هذياني، أعرف أنّني منذ زمن طويل بلا إسم. هذا هو السببُ الذي يجعلهم لا يستطيعون تجريدي من شيء. بعضهم، وهم قليلون، تفهّم الأمر بهذا الشكل وصار يناديني بالمسافر فقط. لم تَحتكر حياتي سوى بعض المشاهد، وحدي من تأمّلها كنت مرتفعاً إلى عالمٍ أُنكر عليَّ بسبب ولادتي، واستطعت أن أتفحّصه من مرصد شخصيّة مُختلقَة. بالمقابل اضطررت أن أستبعد قناعاتي وأسرتي وبلدي واسمي. ربّما لأنّني اضطررتُ أيضاً للتخلُّص من ذاتي، من دومينغو فرانثيسكو جوردي باديّا لِبليخ.

منذ يومين انطلقت القافلة من مزيريب إلى الزرقا، تعبةً من انتظار

موتي. حملوني معهم. كلُّ خطوة من خطواتي كرجلٍ تائه حتى الوقت الحاضر تبعدني عن ذاك الذي كنته في زمن آخر، وتقرِّبني من الذي رغبت بأن أكونه. لكنَّ المرض والإنهاك يجبرانني على الاحتماء وراء تحصينِ أبعد نقطة في الذاكرة وأكثرها شباباً أيضاً وأقلها خوفاً، في هذه الساعة الحرجة، من الموت الذي شقَّ طريقَه في جسدي وراح يقضي ببطء لكن بعزم على ذاك الذي صرته، ويحذِّر من أنّه لن يتوقّف حتى يقضي على جميع وكلّ واحدٍ ممن غامرت وصرته ذات يوم.

حشدٌ أنهكته أيّام السفر الطويلة يحيط بمحفّتي منذ مغادرتنا مزيريب، لا ينفكّ عنّي الحصار ليلاً ولا نهاراً، يتوقّفون حين يتوقّفُ جملي، ويتابعون حين يتابع الحيوان مسيرته. لا أحد مستعدّ للتخلّي قيدَ أنملة عن مكتسباته. اجتمعوا في أمم وكلُّ مجموعة تصارع للحصول على مكانٍ في الصفوف الأولى، حيثُ تكفي خطوة واحدة للانقضاض على الغنيمة حين تصل اللحظة المناسبة. ترتفع من حين لآخر صيحاتهم الوحشيّة على هذا الطرف وذاك من المحفّة، مُسعّرين اضطرام الاشتباك. لكن حين يعود الهدوء تتوازن خطوات حشودهم المكتظّة مع مشية الجمل الموقَّعَة، وصمت هذه المنطقة الجهمة والجبليّة التي نجتازها يتداخل مع وقع التنفس المتجمّع والمنهك وينفصل عنه.

إنّها لحظات الهدنة التي يستغلُّها خدمي أو ربّما الريح، ليفتحوا ستائر محفّتي ويقدِّروا حالتي. *المسافرُ ما يزال حيّا*. أُميِّزُ صوت ابراهيم المعذَّب، الذي أنهكه جشع الحجّاج على الجانب الآخر من القماش حيث تسقطُ آخرُ أنوار الغروب الملتهبة، وتمتصُّها الظلمة شيئاً فشيئاً. يشقُّ الخبرُ طريقَه بين زحام الناس المُساء معاملتها بين دفعٍ وشتائم. *علي باي ما يزالُ حيًّا! بائس! كلب بن كلب! الشيطانُ ما يزالُ حيًّا!* لكنَّ الجمل يهزُّ جسدي ويتابع طريقَه بعنادٍ، وأحسُّ به يُنحّيني عن هذه الأصوات الضارية التي لا وجه لها، والكامنة خلف وجه نسيج الكتّان الأملس الذي يُخفيني وترتاح عليه أجفان الليل المُغمَضَة.

كثيراً ما سمعتُ الشعراء العرب يقارنون القدر بتشرّد الجمل

الأعمى. لكن ربّما تكهّن هذا الحيوانُ الذي أحسُّ باهتزازاته بكلِّ جسدي بأنَّ المسافرَ ما عاد يشكِّل جزءاً من القافلة، فقد دعاهُ الموتُ ليرافقه وينحرف به عن الطريق العام.

ليس علي باي هو الذي يموت لأنَّ علي باي لا يمكن أن يموت. علي باي مجرَّدُ اسم، شخصيّة خياليّة امتطيتها كما أمتطي وأستعجل رحلتي على ظهر هذا الجمل المثابر وغير المرئي في ظلمة هذا الليل المنهكة.

لا شكّ أنَ علي باي الشبحي هو الذي دفعني للتوغُّل في مجاهل أفريقيا، وملاحقة مدينة بنو التي بحسب قول الكثيرين ليس لها وجود، لكن ومقابل عدم تصفية ذلك الوهم أبداً كان علي باي الذرائعي والخبير من فتح لي أبواب المغرب وطرابلس الغرب ومصر وفلسطين وسوريّة وتركيّا المحكمة الإغلاق، ومزّق أكثر الحجب حفظاً للغز مدينة مكّة المقدّسة من النظرات المدنسة.

مع علي باي كان يأتيني كلَّ يوم انطباع جديد، دون أن تستسلم حواسّي للرتابة قط، لأنَّ علي باي أجبَرني على اختبار الغرابة المقلقة لمعرفة جزءٍ مني منعكسٍ في مرآة أكثر العادات والتقاليد والاستخدامات والسلوك تنوّعاً، والغريبة ظاهريّاً.

اختلطت عيناه بعينيَّ وراقبت بأنوار المذاهب العلميّة الأوروبيّة هذا الكم من الملاحظات الفلكيّة، الجغرافيّة والعرقيّة والنباتيّة والحيوانيّة التي يلويها الطريق أمام المسافر المثقّف، لكنّها لم تثنِه عن متابعة السفر تيهاً في الأقاليم البعيدة حيث يتلاشى نور العقل، ولا يوجد غير مسارات حدسنا الغامضة من ينجد خطواتنا.

لقد أمدَّني علي باي بالشجاعة لمواجهة الصدمة الباهرة لثقافة أخرى مختلفة، وبرهن لي أنَّ قوّته شبيهةٌ بالقوّة التي يتطلّبها خطرُ الطرقات، وتقابل الرياح في الطرقات البحريّة وقسوة الصحراء.

كان علي باي مجرّد اسم، لكنّ ألقه يعمي الجبابرة الذين يصبحون بحضوره أقلّ إذلالاً، ويضيءُ للبؤساء الذين يتنبّئون فيه حزمَ من ليس عنده ما يفقده. مقابل منحه جسدي منحني وفاؤه طلعة أميرٍ بعد أيامٍ

قاسية من المسير، دون أيّ مأوى غير العراء تحت سياط المطر، الريح أو العواصف الرمليّة، وأمدّني بجرأة المحرومين في بيوت المُترَفين وقصور الملوك.

هو الذي علّمني التعرّف على تنوّعات نبتةِ الحب الألف التي تهتزُّ مثل عشبة على حافّة كلِّ الحقائق، وتُسري فيَّ القشعريرة من أخمص قدميّ وحتى رأسي، مثل ساق مطواع، لكنّه لم يجنّبني الاستيقاظَ المرَّ من حلمه الذي لا جذور له، ومن متعة السقوط المفاجئة في سكرته المتجدِّدة حين أشعر من جديد بملمسه.

لكن علي باي كشف لي قبل كلِّ شيءٍ آخر أنَّ باستطاعة المرء العيش خارج سجنه. كان مجرّد اسم، وربّما قناع، لكنِ ما إن وضعته على وجهي حتى ميَّزتُ في ملامحي، كما في تكلّف الوقار عند شخصيات كوميديا الفن التي تردَّدتُ عليها في ميلان، ملامحَ الحرّيّة المستغلقة.

ليس علي باي هو الذي يموت، فعلي باي غادر بعد أن هجر حزمة من عظام جسد عجوز، يكادُ يكون هيكلاً يترنّح فوق سنام جمل تائهٍ في الليل.

ينهمكُ عقلي في الظلمة بجمع ذكريات الماضي لملء فراغ الحياة الذي يخلّفه لي. هذا هو ما نسميّه بالاحتضار. يمثُل الماضي مثل قطنٍ يغطّي جرحاً ينزف فينا، ويتشبّع بموتٍ يتدفّق عصيّاً على الإيقاف. إلى فراغ عيني علي باي تعودُ عينا دومينغو باديّا الوديعتان. أتأمّل بحرَ طفولتي. ما عدتُ ذلك العجوز المسجّى الذي توشكُ روحُه المتخثِّرة على التلاشي، بل ذلك الطفل الذي تتيه عيناه في زرقة البحر المتوسّط الذي شكّل الأفق اللامتناهي لسنواته الأولى.

دائماً فكّرت أنّني سأموتُ في البحر بلا اسم، فعلي باي يجب ألاّ يكون له قبر. لكنّني عرفتُ الآن أنَّ علي باي ومنذ البداية كان يتأمّلُ العالم بدءاً من عيني باديّا، ذاك الذي كان منذ زمن طويل. كان علي باي حلمَ ذلك الطفل، دومينغو باديّا، حين انفتحت عليه الحياةُ مثل نافذةٍ، وعيناه الجاحظتان والذاهلتان تمضيان خلف أثر السفن التي تبحر من

ميناء برشلونة. كان علي باي هذه الروح التي تتلهف للرحيل دون أن تدري إلى أين.

الآن وقد انحصرت كلُّ تلك المشاهد في هذا الفراغ المحدود لهذه المحفّة الذي تغزوه ظلمات الليل، أعتقد أنَّ من حقّي القول بأنَّ الرجال الذين يملكون إسماً يتخلّون عن أشياء كثيرة بالمقابل. يعيشون معشّقين في أماكن ولادتهم ولا يتابعون أبداً الطرقَ حتى ولو كذّبت أعمالهم ذلك. الإسم جدار يرتفع حول الكائن البشريِّ، مكان عصيّ بعيد عن الطرق التي تمضي فيها الحياة، ومن يحمله يبقى دائما في المكان ذاته حتى ولو ابتعدت أقدامه وتلف حذاؤه. لكنّني أنبّهكم على الأخص إلى أنه ما من إسم، أيّ إسم كان، بمنجى من اللصوص، من أيِّ شخص جريء، عازم على السيطرة عليه والتمتع به والمعاناة معه وتحمّله كما يتحمّل القدر.

الفهرس





وأنت تقرأ هذه الرواية الإسبانية الغريبة، والمدهشة، يختلط عليك الأمر فتسأل: أهي إسبانية أم عربية؟ تستعيد الذاكرة من خلال أحداثها مغامرات الرحّالة. رحلات ابن بطوطة أو ابن ماجد أو السندباد. كما تذكّرك برحلة أوليس اليوناني في الأوديسة. علي باي هو هؤلاء جميعاً. مغامر في صحارى وبحار العرب ومدنهم في أواخر القرن الثامن عشر. قرن التنوير والعلم والكشوفات المعرفية والإنسانية.

في نهاية الرواية يكشف الروائي «رامون مايراتا» شخصية علي باي العبّاسي، الملتبسَة على النحو التالي:

«لقد أمدّني بالشجاعة لمواجهة الصدمة الباهرة لثقافة أخرى مختلفة، وبرهن لي أن قوته شبيهة بالقوة التي يتطلبها خطر الطرقات، وتقابل الرياح في الطرقات البحرية وقسوة الصحراء. كان علي باي مجرد اسمٍ، لكن ألَقَهُ يعمي الجبابرة الذين يصبحون بحضُوره أقلّ إذلالاً، ويضيء للبؤساء الذين يتنبئون فيه حزمَ من ليس عنده ما يفقده. مقابل منحه جسدي منحني وفاؤه طلعة أمير بعد أيام قاسية من المسير، دون مأوى غير العراء، تحت سياط المطر، الريح أو العواصف الرملية، وأمدّني بجرأة المحرومين في بيوت المُترفين وقصور الملوك».

في النهاية هي رواية عن صدمة الغرب بالشرق، عبر احتكاك وتماسّ لحضارتين متباينتين، لكنهما خلّاقتان في مجرى التاريخ والمعرفة الإنسانية.

الناشر